مكتبة الدراسات الأدبيّة

١٥

سامى الكيالى

الأدب العربيّ المعاصر في سورية

دار المعارف بمصر

الأدب العربيّ المعاصِر

في سُوريَة

١٨٥٠ – ١٩٥٠

مكتبة الدراسات الأدبية

١٥

الأدب العربيّ المعاصِر
في سُورية

١٨٥٠ — ١٩٥٠

تأليف

سامي الكيالي

الطبعة الثانية

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

تقــديم

هذا كتاب أقل ما يمكن أن أقول فيه إنه رائع كل الروعة ، ممتع أحسن الإمتاع . شعرت بهذا منذ بدأت قراءته إلى أن فرغت منها . وما أرى أننى أبلغ من إجادة تقديمى له ما بلغه الأستاذ الجليل الكريم شفيق جبرى .

فقد قدمه ووصفه أصدق وصف ولم يدع لى شيئاً يمكن أن أقوله إلا أن أهدى إلى الصديق العزيز سامى الكيالى أصدق التحية وأعمق التهنئة بهذا العمل المتقن كل الإتقان ، وأن أهدى إليه أجمل الشكر من نفسى ومن قراء العربية جميعاً . فقد أهدى إلينا كلنا كتاباً نافعاً كل النفع ممتعاً كل الإمتاع عن الأدب السورى المعاصر .

وقبل وصول هذا الكتاب إلىّ وصل إلىّ كتاب آخر من صديق عراقى عن الأدب المعاصر فى العراق .

فهذه إذن طائفة جديدة من الكتب بدأها الصديقان الكريمان عن الأدب المعاصر فى قطرين شقيقين كريمين علينا أثيرين عندنا . وهما سوريا موطن الدولة الأموية والعراق موطن الدولة العباسية . وكم أتمنى أن تتصل هذه السلسلة فيفرغ بعض الأدباء للآداب المعاصرة فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى التى لم تنشأ عن أدبها المعاصر كتب ككتاب الأستاذ سامى الكيالى .

وكم أتمنى أن يعنى الأستاذ عبد الله كنون بالأدب المغربى المعاصر ، كما عنى بالأدب المغربى كله فى كتابه القيم : النبوغ المغربى فى الأدب العربى .

ومهما يكن من شىء فإنى أجدد التحية والتهنئة والشكر من أعماق نفسى إلى الصديق الكريم سامى الكيالى على هذا الكتاب القيم الذى قرأته مرة ، وما أشك فى أننى سأعيد قراءته مرات أخر .

طه حسين

مقدمة

بقلم

شاعر الشام وأديبها الكبير

الأستاذ شفيق جبرى

لم أقرأ فى الأدب العربى المعاصر فى سورية تراجم جامدة ، وإنما رأيت من وراء هذه التراجم تاريخاً ناطقاً كأن القارئ يعاشر رجاله ويخالط كتّابه وشعراءه وأصحاب الفكر فيه ، كأن هذا التاريخ قد انتفض من مكمنه ورمى إلينا برجال يعيشون بين ظهرانينا نجالسهم ويجالسوننا فيفصحون عن شعورهم ويعربون عن أفكارهم . ولا نستطيع أن نعرف فضل كتاب الأدب العربى المعاصر فى سورية إلا إذا عرفنا العصر الذى نشأ فيه هذا الأدب ؛ فقد كان هذا العصر نتيجة عصر ظلمات فى الفكر واستبداد فى الحكم وسوء تصرف فى الأمور ، وقد وصف صاحب الكتاب هذا كله حتى انتهى إلى تصوير الرجال الذين نبّهوا الأفكار وبعثوا الهمم ونشّطوا العزائم فخلقوا ما نسميه النهضة فى البلاد ، كانت حياتهم مقدمة لهذه النتيجة التى وصلنا إليها ونعمنا بلذّتها وهى نتيجة الحرية والاستقلال ، فلولا تنبيه رجالنا الأوائل ولولا تجرّدهم لتصوير ما كانت تعانيه البلاد من الظلم والاستبداد وتفرّغهم للإرشاد إلى حقوق الوطن فى الحرية والاستقلال لاستمرّت ظلمات العصر الماضى وتطاولت أحقاب ظلمه واستبداده وسوء تصرفه . . .

لم يصوّر الأستاذ سامى الكيالى عصراً وحده ولم يدوّن عوامل وحدها وإنما صوّر رجالاً خلقوا تاريخاً ، وأدباً أنشأ أمّة ، وفكراً غرس حرية . وقد لزمه فى مثل هذه الحال أن يناسب بين الرجال الذين خلقوا هذا التاريخ وبين أسلوبه الذى يصف به هؤلاء الرجال ، ومن نعم الله أن الانسجام تام فى تصوير الرجال وفى الأسلوب الذى يصوّرهم صاحب الكتاب به ، وهذا موطن البراعة فى الكتاب

فأنت ترى فى كل فصل من فصول الأدب العربى المعاصر فى سورية حياةً فى تصوير الكتّاب والشعراء وأهل الفكر . إنك لا تدخل فى هذا الكتاب على متحف فيه تصاوير ميتة ورسوم بائخة وآثار دارسة وإنما تدخل فيه على متحف تكاد تنطق تصاويره وتشرق رسومه وتتحرك آثاره .

إذا كنت أستصعب شيئاً فى الأدب فإنى لا أستصعب مثل كتابة التّراجم سواء أكانت التّراجم خاصّة أم كانت أدبية ، فإن فنّ التّراجم يستلزم مهارة لا يملكها كل واحد من الكتّاب ، إن صاحب التّراجم يلزمه أن يبعث رجاله بعثاً بحيث نكاد نراهم بأعيننا ونسمعهم بآذاننا فضلاً عما يحتاج إليه من نزاهة فى الحكم وحسن نية فى النقل ، فإن أكثر التّراجم لا تخلو من نزعات ظالمة وأهواء مجحفة وأفهام معوجّة ، فإن أصحابها يعطون الناس أكثر مما يستحقون أو أقل مما يستحقون ، وبعضهم يطلقون على الناس صفات لا نصيب لهم من أكثرها ، وينزلونهم منازل ليست بمنازلهم ، وقد شهدنا هذا الأمر فى الماضى ولا نزال نشهده فى الحاضر بحيث يكاد الشك يخامر قلوبنا فى صحة ما نقرؤه من التاريخ أو من التّراجم.

لقد أعطى الأستاذ سامى الكيالى أكثر رجاله ما يستحقون فلم يبخسهم أشياءهم ، وإذا كان لا بدّ من ضرب الأمثال فإنى أضرب مثلاً واحداً ، لقد خلق الأستاذ العلامة محمد كرد على نهضة ونبّه أمة ومهما يقل فيه القائلون فلا ينبغى لنا أن ننسى فضله فى هذا المعنى . والأستاذ سامى الكيالى لم ينس هذا الفضل ، فقد وفّى كرد على حقه وأنزله منزلته فى حين تنكّر له بعد موته من كان له أثر بليغ فى شهرتهم ، فقد أحياهم فضنُّوا عليه بكل شىء حتى بيوم خاص يحصون فيه مآثره ويشيدون فيه بفضله على البلاد .

من هذه الناحية أرى لكتاب الأستاذ سامى الكيالى أثراً عادلاً فقد أنصف من أنكرنا فضلهم من رجالات بلادنا ونوّه بذكر من كدنا نمسح ذكرهم من أذهاننا ، فهنيئاً له هذا الوفاء فى ذكر فضل الناس وهذا التجرد فى الحكم عليهم وهذه الحياة فى تصوير تاريخهم .

شفيق جبرى

الحركة الأدبية فى سورية

١

حين نحاول تأريخ الحركة الأدبية فى سورية ، خلال القرن المنصرم ، منذ عام ١٨٥٠ حتى عام ١٩٥٠ لابدّ من الرجوع إلى العوامل والظروف والأحداث التى رافقت حياة الفكر خلال هذه الفترة . . . وهى فترة طويلة مرّت بمراحل متعددة .. من الغيبوبة .. إلى فجر الإصلاح .. إلى بدء اليقظة .. إلى التفتح والانطلاق . . .

فقد كان الفكر ، فى بداية القرن التاسع عشر ، يغطّ فى سبات عميق . . . كان ينوء تحت كلكل كابوس ثقيل من جهالات عصور الانحطاط . . . وكان يئنّ من وطأة تلك الأنظمة الرجعية التى كانت تفرضها الدولة العثمانية على البلاد العربية ثم من تخلّف الشرق عن ركب الحضارة الأوربية . .

ومردّ ذلك أن الدولة العثمانية ذاتها كانت تتخبط فى الدياجير المظلمة . . تسودها أنظمة أوتوقراطية عتيقة تقوم على البطش والظلم والحكم الفردى المطلق . . . وكانت الأقطار العربية الواقعة تحت نفوذها وسيطرتها — ومنها بلاد الشام — تتخبط فى نفس هذه الدياجير .

فالوالى الذى يحكم ديكتاتور مطلق . . ينفى ويقتل ويصادر الأموال وفقاً لمشيئته ، وإشباعاً لمطامعه ، ونزولاً عند رغبة سيده — سلطان البرّين وخاقان البحرين — فإذا خرج على إرادته وتلكأ فى تنفيذ رغباته وأهوائه أمر بعزله . . وقد يأمر بقطع رأسه . فتاريخ الحكم فى تلك الفترات المظلمة ، يعطينا أكثر من مثل واحد على هذا اللون من الحكم الأسود .

ففى سنة ١٨٠٧ كان يتولى إيالة الشام وال اسمه يوسف (باشا) ، وكانت مهمته أن يعمل على تخليص الحجاز من سيطرة الوهابيين .. وحاول أن يحقق رغبة مولاه . . فلم يوفق فأخفق وفشل . . وشعر أن أيام حكمه جدّ قصيرة . .

فانصرف إلى تصريف شئون الولاية وفق أهوائه .. وكان همه أن يكتنز الأموال لنفسه . . وشعر السلطان محمود أن متبوعه قد أخفق فى مهمته . . إذ أخذ الشعب يجأر بالشكوى . . فما كان منه إلا أن أصدر ثلاثة فرمانات يقضى الأول منها بعزله ، والثانى بإعدامه وإرسال رأسه المقطوع إلى مقر السلطنة . . والثالث بمصادرة أمواله وأملاكه . .

ووُكل هذا الأمر إلى والى صيدا الذى اعتزم أن ينفذ إرادة مولاه فى زميله .. ولكنه لم يستطع . . لأن الوالى المغضوب عليه كان قد علم بما دبّر له ففر إلى مصر على قارب بحرى من اللاذقية إلى دمياط حيث نزل ضيفاً على محمد على باشا والى مصر الذى لم يمتنع ، مع أنه من متبوعى السلطان ، من أن يحتضنه ويغدق عليه الأموال فيعيش فى كنفه معززاً مكرماً !

هذا مثل من لون الحكم فى تلك الفترة المظلمة التى عاشتها سورية ، كما عاشتها سائر البلاد العربية . .

* * *

وظلّت البلاد تقاسى عنت هذه « الروح الفردية » التى شملت كافة مرافق الحياة . . إلى أن ثار المفكرون على هذه الأوضاع وطالبوا بالإصلاحات . . فكان بصيص للحياة الدستورية بإعلان المشروطية الأولى سنة ١٨٧٦ . . وارتقب الناس أن يروْا تغيراً فى نهج الحكم وأن تشعّ بوادر الإصلاح . . ولكن شيئاً من هذا لم يتغير .. أى ظل الحكم المطلق الذى يرتكز على العنف والاستبداد والجهالات هو السائد إلى أن أعلنت المشروطية الثانية — ويراد بها النظام الدستورى — سنة ١٩٠٨ . .

* * *

وبدهى ، وقد مرّت بلاد الشام بهذه الحياة القلقة المظلمة المضطربة ، أن تخضع الحياة الفكرية إلى هذه الألوان القاتمة من سياسة الدولة . . أو من نظامها الأوتوقراطى العتيق الذى تتمثّل فيه كل مظاهر عهد الانحطاط .

٢

هذا ، وإذا كانت المدرسة هى التى تهيئ المواطنين لأن يعبّوا من رحيق العلم . . وكانت سورية ، فى تلك الفترة ، بعيدة عن المؤسسات العلمية ... قدّرنا أى وضع كان عليه الفكر فى سورية . .

فلم تعرف بلاد الشام فى تلك الفترة ، حياة علمية كما نعرفها فى عصرنا هذا . . فلا مدارس . . ولا معاهد ، ولا جامعات . . ولا مؤسسات علمية . . ولا شيء سوى المدارس الدينية التى كانت تعنى عناية واسعة بالدراسة التى تتصل بجوهر الدين مباشرة – بالفقه والتفسير واللغة وعلوم البيان . . ثم . . الكتاتيب . والدراسة فيها لا تتعدّى مبادئ القراءة والكتابة وأوليات الحساب . .

وظلّت الحالة هكذا ، إلى أن تولى مدحت باشا بطل الدستور ولاية سورية فكان أول من أنشأ فيها المدارس المدنية . .

يقول محمد كرد على : إنه افتتح فى دمشق سنة ١٢٩٥ ﻫ ثمانى مدارس ابتدائية للذكور والإناث ، ودار صنائع ، وأسس مثل ذلك فى أعمال الولاية الواسعة [١] .

وكانت البعوث الأجنبية قد افتتحت بعض المدارس الخاصة التى اجتذبت إلى رحابها أبناء الأسر المسيحية ، وكانت تعنى بتدريس اللغة الفرنسية والإيطالية إلى عنايتها باللغة العربية . . فى حين كان التعليم فى المدارس الأميرية يلقن باللغة التركية [٢] . .

« ومن هنا وجدت اللغة العربية موئلاً لها فى المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، فانتشر تعليم الأدب العربى بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين » [٣] .

---

(١) « خطط الشام » ج ٤ ص ٨٢ .

(٢) ساطع الحصرى فى كتابه « البلاد العربية والدولة العثمانية » ص ٨٣ .

(٣) « . . عندما كان مدحت باشا والياً على الشام برز فى دمشق رجل نابغة فى علمه وتفكيره=

أى أن الحياة العلمية بمدلولها المتعارف عليه . . كانت محدودة النطاق . . وكان الفكر فى شبه غيبوبة . . قد صفدته التقاليد الآسنة . . ومن أتيح له أن ينهل رشفات من المدارس الدينية . . وكان ذا ميل للدرس والبحث ومعاناة الأدب بمفهومه القديم . . رأيناه يعالج نظم الشعر . . ويرصّع الرسائل الديوانية . . إلى محاولات عقيمة لكتابة مقامة ، إلاّ من وعى صدره قبسات من الأدب الحى — أدب العرب أو أدب الغرب .

٣

وحين نقرأ الأدب الذى تركه أدباء العصر المنصرم نقرأ ألواناً من أدب ضعيف ، مهلهل ، يتسم بالمحاكاة والتقليد . . لا يخرج فى مضمونه عن المدح والرثاء والتهانى والغزل المذكر . . . ولا شىء غير هذه الألوان . . وهو فى صياغته ذو ارتباط وثيق بأدب عصر الانحطاط — الأدب الذى تقوم مادته على السجع والجناس وما إلى ذلك من تلك التزاويق اللفظية التى يمجّها ذوقنا الأدبى . .

يضاف إلى كل ذلك عامل مهم كان له أثره غير المنكور فى جمود اللغة العربية وعدم تطورها ، وقد أشرنا إليه إشارة عابرة . .

فحين تأسست المدارس المدنية فى سورية كان التدريس فيها باللغة التركية . . حتى اللغة العربية كان يدرسها أساتذة أتراك ليست لهم السليقة العربية . . .

= ونشاطه و إخلاصه وهو الشيخ طاهر الجزائرى . لقد كان الشيخ ضليعاً بالعلوم العربية والدينية ، ومجيداً للتركية ، وعارفاً للفارسية ، ومطلعاً على مجمل العلوم العصرية ، وكان له صلة صداقة برئيس ديوان الولاية التركى واسمه بهاء بك ، فى أحاديث الشيخ معه أقنعه بضرورة افتتاح مدارس حكومية تدرّس العلوم بالعربية ، وتعنى بتدريس آداب هذه اللغة ، واحتجّ لرأيه هذا بأن مدارس الإرساليات الأجنبية من بروتستانتية وكاثوليكية كلها تدرّس العربية وآدابها ، خلافاً لمدارس الحكومة العثمانية . فإذا طالت هذه الحال نشأ فى المدارس الأجنبية نشء له تفكير خاصّ ومذاهب سياسية لا تسرّ الدولة . ولذلك يجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التى يتبعها الأجانب .

وكان بهاء بك فاضلا واسع التفكير ، سرعان ما اقتنع بصحة هذا الرأى ، وأقنع الوالى مدحت باشا باتخاذ الأسباب الآيلة إلى تحقيقه . وكان مدحت باشا هو صاحب الدستور الأول الملقب بأبى الأحرار العثمانيين ، وكان مشهوراً بحبه للحرية و بمساعيه لإصلاح شئون الدولة ».

« محاضرات عن القومية العربية » للأمير مصطفى الشهابى ص ٤٩ .

فنشأ الجيل القديم وأكثره يحذق اللغة التركية أكثر من معرفته لغة آبائه وأجداده ، ووجد الكثيرون من أبناء العرب ممن ينظم الشعر التركى ، ويؤلف الكتب باللغة التركية ، وينمق رسائل ديوانية لا تقل بقيمتها البيانية عما يكتبه أدباء الترك أنفسهم . .

وهكذا قد فرض العثمانيون — خلال حكمهم الطويل — فرضوا تعليم لغتهم فرضاً على أبناء العرب ، وكان من جراء ذلك أن ازداد سقم اللغة العربية ، وبدا عليها الهزال ، وتعطلت حياة الفكر .. وظل الأدب فى انكماشه وغفوته السادرة ، يعيش فى نطاق ضيق على ألسنة بعض الشعراء والكتاب والمفكرين وهم من القلة بمكان .

٤

على أن النسمات التى هبت من أوربا . . ومن مصر التى سبقت سائر الأقطار العربية فى التخلص من السيطرة العثمانية — أثارت فى نفس غير واحد من رجالات الفكر نزعة الروح القومية . .

فكان ثمة تجاوب بين أدباء الأقطار العربية ومفكريها . . وكان التجاوب يدور فى حدود الإصلاح الذى يتناول دفة الحكم ، وتعميم التعليم لمحاربة الأمية ، ونشر المعرفة فى جميع البلدان العربية .

ورأينا النزعة التحريرية — وهى ذات بواعث قومية تثير طائفة من الأدباء فى بلاد الشام — أريد سورية ولبنان وفلسطين — تثيرهم لأن يرفعوا أصواتهم . . فكانت صيحات محمد عبده الإصلاحية ، وهى ذات طابع إسلامى ، تتلاقى مع صيحات عبد الرحمن الكواكبى الثائر العربى الحر .. إلى صيحات الشدياق واليازجى وأديب إسحق وحسون والدلال ومن إليهم من الكتاب والشعراء والمفكرين ..

وكان نهج الجميع ، ولكل أديب وجهة نظره ، أن يوقظوا الروح النائمة لتهب وتستيقظ . . ثم لتكوين شعب واع يعيد سيرة أجداده ، ويسير سير الغرب فى نهضته وتفوقه وبلوغه مرتبته ومنازله . .

ولكن كيف ؟

كانت الروح الاستبدادية ما تزال المسيطرة . . وكان الأدباء يخشون من

البوح بما فى نفوسهم .. وكانوا يحاولون الفرار إلى جو بعيد عن السيطرة ليستطيعوا أن يعبروا عن آرائهم بحرية .. فمنهم من سافر إلى مصر .. ومنهم من قصد باريس ولندن .. ومنهم من هاجر إلى أمريكا .. فكانت أصواتهم تتعالى هناك .. أى كانت الصيحات تأتى من بعيد .. إلى أن أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ فانطلقت الألسنة تعبّر عن مكنونات الصدور . . وصدرت الصحف ؛ وأخذ الكتّاب يكتبون مقالات فى الحرية وفى ذم الاستبداد . . وأخذ الشعراء ينظمون القصائد فى مدح الدستور . . وكلهم يرقبون أن يبزغ فجر جديد تشرق شمسه على البلاد العربية ليتاح لها أن تتحرر ، وأن تسير فى ركب الحضارة .

٥

كان الأدب فى تلك الفترة التى سبقت الحرب العالمية الكبرى يسير متئد الخطى . . وكان الكتّاب يعبّرون عن أحاسيسهم القومية بأساليب لم تصقلها الديباجة العربية ، وكان الشعراء أيضاً يحاولون نفس هذه المحاولات . . وكان الحكم العثمانى ما يزال . . أى كانت اللغة التركية هى التى ترسم خطوط الثقافة العامة . . فكان النشء السورى يتلقى دروسه بلغة جنكيزخان . . وكان القارئ العربى يوسّع نطاق ثقافته من الكتب التركية . . ويغذّى نهمه السياسى من الصحافة التركية . . وكان الطلاب يتجهون إلى إستانبول لإتمام دراساتهم فى جامعاتها . . وقليلون هم الذين يتجهون إلى جامعات الغرب . .

وظل الأمر كذلك إلى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) حيث جلا الأتراك عن البلاد العربية ، وأسست فى سورية حكومة عربية برياسة الملك فيصل ابن الحسين . .

وكان على الحكومة أن تعنى أول ما تعنى « بتعريب » كل شىء فى الدولة ولاسيما بعد أن أعلنت أن « اللغة العربية » هى اللغة الرسمية للبلاد . . فكانت محاولات جدّ صعبة ، ولا سيما عند طبقة الموظفين الذين عاشوا شطراً من حياتهم يصرّفون شئون الدولة ومصالح الناس فى الإدارة وفى القضاء باللغة التركية . .

وانبرى كبار الأدباء ورجال الفكر ممن أشرب قلبهم حب العربية — وهم

قلة — إلى مزاولة مهمة تعريب الكتب المدرسية المقررة بعد أن أضحت لغة التعليم فى جميع المدارس هى اللغة العربية . .

ولعب اثنان دورهما الخطير فى هذه الناحية — ساطع الحصرى وكان وزيراً للمعارف فى حكومة فيصل — فبذل مجهوداً كبيراً مع رجال التربية والتعليم لوضع برامج تربوية سليمة وتزويد الطلاب بأوفر كمية من الكتب باللغة العربية . .

ومحمد كرد على الذى عمل على تأسيس « المجمع العلمى العربى »[1] فكان أعظم دعامة لنشر اللغة العربية فى تلك الفترة حيث قام كالحارس الأمين لتقويم الألسنة وتصحيح أغلاط الكتّاب وإمداد الدواوين بالاصطلاحات ..

بذل هذان الرجلان — كل واحد فى نطاق عمله — مجهوداً كبيراً مهد للغة العربية أن تسير سيرها الطبيعى فى جو عربى حر تستعيد به مكانتها الأولى .

٦

كان تأسيس « المجمع العلمى العربى » ظاهرة حية فى تاريخ الفكر العربى فى سورية .

وكان اسم محمد كرد على كصحفى ومؤلف وباحث قد تعدّت شهرته بلاد الشام إلى جميع الأقطار العربية وإلى دوائر المستشرقين فى الغرب ، فأخذ على عاتقه أن يجعل من هذا المجمع بيئة علمية مهمتها صون اللغة العربية و« نشر آدابها وإحياء مخطوطاتها وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون

---

(١) كان المجمع العلمى العربى يعرف لأول مرة بالشعبة الأولى للترجمة والتأليف التى أسست على أثر تأليف الحكومة العربية فى أواخر خريف سنة ١٩١٨ ، ثم جعلت هذه الشعبة « ديوان المعارف » وعين الأستاذ محمد كرد على رئيساً لها فى ١٢ شباط ١٩١٩ موكولا إليها النظر فى أمور المعارف والتأليف وتأسيس « دار الآثار » والعناية بالمكتبات ولا سيما « دار الكتب الظاهرية » . . . ثم انقلب هذا الديوان بأعضائه الثمانية ورئيسه إلى « مجمع علمى » فى ٨ حزيران سنة ١٩١٩ ، وأخذ على نفسه النظر فى إصلاح اللغة ، ووضع ألفاظ للمستحدثات العصرية ، وتنقيح الكتب ، وإحياء المهم مما خلف الأسلاف ، والتنشيط على التأليف والتعريب .

(مجلة المجمع = المجلد ٢ الجزء ١٢ ص ٣٥٤)

عن اللغات الأوربية وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة الموضوعات على نمط جديد »[١] .

وتألف المجمع من ثمانية أعضاء بينهم الأساتذة سعيد الكرمى ، وأنيس سلوم ، وعبد القادر المغربى ، وعيسى إسكندر المعلوف ، والشيخ طاهر الجزائرى ، وقد انتخبوا بالإجماع الأستاذ كرد على لرياسة المجمع ، وظل رئيساً له حتى آخر يوم من أيام حياته . .

ولم يمض على تأسيس المجمع سنة حتى كان قد انتخب أعضاءه المراسلين من الشرق ، ومن الغرب ، وجلهم من فضلاء الباحثين وأكابر المستشرقين ، فكانوا يوافون مجلة المجمع ببحوثهم ودراساتهم ، وكلها ترمى إلى بعث تراثنا القديم وتطوير اللغة ، ونشر الذخائر الثمينة من مخطوطاتنا ، مما له ، ولا يزال ، أكبر الأثر فى نهضتنا الأدبية . .

وكان للمحاضرات التى يلقيها الأعضاء فى قاعة المجمع أثرها غير المنكور فى تلقيح عقول الناشئة وتزويدها بثمار المعرفة ، وتحبيب لغة الأجداد إليها . ولاسيما بعد أن أصبحت المدرسة تلعب دورها فى تنشئة الطلاب على حب العربية ؛ وعلى التزود من معينها ، وصقل نفوسهم على ممارسة الكتابة والخطابة . .

* * *

لقد كانت العجمة فى تلك الفترة طاغية على لسان الكثيرين ، ولاسيما فى دواوين الحكومة ، وكان لابد من الرجوع إلى « المجمع العلمى العربى » ليمدّهم بالاصطلاحات العربية الصحيحة — بكلمات وأساليب إدارية عربية جديدة تخلف تلك الأخرى القديمة الأعجمية فى مادتها وأسلوبها . . وحقق المجمع رغبتهم ، ونظر فى كلمات وتعابير كثيرة وردت إليه من دوائر المعارف والأوقاف والشرطة والمجلس البلدى والصحة والمصرف الزراعى فأبقى بعضها على حاله لصحته وعروبته ، وبدّل بعضها كل التبديل ، وعدّل الآخر تعديلا قليلا أوكثيراً[٢] .

وهكذا ، قد كان للمجمع العلمى العربى فى أول تكوّنه ، وهو ثمرة

---

(١) « مجلة المجمع » العدد ١ ص ٦ .

(٢) « مجلة المجمع » — السنة ١ عدد ٢ ص ٤٢ .

الحكومة العربية ، أثره الكبير فى بعث النشاط الفكرى ، وفى تقويم اعوجاج الألسنة ، وتصحيح لغة الكتّاب ، إلى إشاعة العربية فى مختلف الأوساط والحفاظ على قدسيتها من كل طارئ دخيل[1] .

٧

ثمة ظاهرة لا تقل أهمية عن تأسيس المجمع العلمى ، أريد بها « الجامعة السورية » . . فقد بدأت عملها بداية متواضعة ينقصها الكثير من المعدّات التى يفتقر إليها تكوين الجامعات .

فى الخامس عشر من شهر حزيران سنة ١٩٢٣ أسست « الجامعة السورية » مؤلفة من « المجمع العربى » ومن مدرستى الطب والحقوق لتكوين جامعة عربية للشام بالمعنى الجامعى الذى يفهمه العلماء . .

وبدأت عملها . . وبدأت تتعثّر فى سيرها . . وكان التدريس فى الكليتين باللغة العربية . . وكان لا بد للأساتذة ، وثقافة أكثرهم تركية لتخرجهم فى جامعة إستانبول — كان لا بد لهم من اللجوء إلى تعريب محاضراتهم ، ولقوا الكثير من العناء[2] ، ولاسيما أساتذة كلية الطب حين كانوا يلجأون إلى تعريب المصطلحات العلمية . . ورأوا فى المصطلحات القديمة التى استعملها أطباء العرب — من

---

(١) أشار الأستاذ محمد كرد على فى كتابه « خطط الشام » إلى هذه الظاهرة بقوله :

وبعد ذلك يرجى ألا يضيق كثيراً نطاق اللغة العربية فى هذه الديار ، على ما يبذله المجمع العلمى العربى منذ سنة ١٣٣٧ هـ من العناية بنشرها وتهذيب ألفاظ الكتاب وتراكيبهم ، وإرشاد المؤلفين والمترجمين فيما يعوزهم والأخذ بأيديهم ، وتحبيب المطالعة إلى الجمهور ، وتعليمه فى محاضرات ودروس عامة ، وعرض آثار مدنية الأسلاف على أنظاره لبعث عقليته من رقدتها .

(« خطط الشام » ج ٤ ص ٨٦)

(٢) ويصف الأستاذ كرد على ثقافة أساتذة الكليتين فى تلك الفترة بقوله :

ما زالت اللغة العامية شائعة فى مدرستى الطب والحقوق ، ولا شأن للفصحى فيها إلا قليلا . . لأن معظم المدرسين من الطبقة التى تخرجت فى مدارس الترك ، متوسطة فى معلوماتها ، لتكون فى جملة الموظفين فى الحكومة العثمانية ولم تُعن بالمطالعة والبحث ، ولا بالتأليف والترجمة ، وفترت عن المطالعة منذ خرجت تحمل شهاداتها . . وهذه الطبقة لا تقيم للعربية وزناً . . ولا تكتب جملة مسبوكة . . ولا تكاد تلفظ كلمة صحيحة .

(« خطط الشام » ج ٤ ص ٨٥)

الرازى إلى ابن سينا إلى غيرهم – رأوا فيها مادة خصبة أعانتهم على تعريب المصطلحات الطبية ، وكانوا يحرصون أن يوفقوا بينها وبين أدقّ مصطلحات الطب الحديث . . وخطوْا فى هذا الميدان خطوات موفقة ، وكانت « كلية الطب » فى الجامعة السورية ، وما تزال ، أول كلية فى الشرق العربى تدرس الطب بلغة عربية فصيحة . . وصدر للأساتذة عشرات الكتب الضخمة فى شتّى فروع الطب ، وهى تؤلف مكتبة طبية واسعة ، وكلها مراجع وثيقة للطلاب ، إلى إغناء العربية بالبحوث العلمية .. وهكذا ، فإن الصعوبات التى لاقتها كلية الطب فى البدء ، قد ذللت بجهود الأساتذة وصبرهم الطويل على التعريب . وما نقوله عن كلية الطب نقوله عن كلية الحقوق التى أغنت العربية أيضاً بمجموعة ضخمة من الكتب ، وكان عناؤهم وجهدهم أقل من عناء وجهود زملائهم الأطباء[1] . .

ولاعلينا أن نقول إن اللغة العربية التى وسعت كتاب الله ، وهى لغة مرنة ، لاتضيق بلغة الحضارة والعلم . . وقد مرّت لغتنا بتلك التجربة القاسية – تجربة التعريب – فنقلت عن الهند وعن الفرس وعن الإغريق فلسفتهم وأدبهم وصقلتها

(١) إن كلية الطب فى الجامعة السورية خلفت كلية قصر العينى بمصر والكلية الأمريكية فى بيروت فى وضع المصطلحات العربية ، وفى تأليف الكتب الطبية والطبيعية بلغتنا الضادية . تأسست كلية الطب فى دمشق سنة ١٩١٩ بأمر من الملك فيصل الأول ، وقامت على أنقاض كلية الطب التركية ، واختير لها أساتذة من الأطباء العرب ، بعضهم يتقنون العربية ، وبعضهم لا يتقنونها ، ولكنهم جميعاً تعاهدوا على الاضطلاع بمهمة التدريس بالعربية ، وعلى جعل لغتنا تتسع للعلوم الطبية كما اتسعت للعلوم الحقوقية فى كلية الحقوق ، وراحوا يتدارسون المصطلحات التى جاءت فى كتب الطب القديمة وفى الكتب المصرية والتركية ، وكتب الكلية الأمريكية وغيرها .

وعكف كل أستاذ فى علمه على نخل تلك المصطلحات ، وعلى وضع مصطلح جديد لكل لفظ علمى أعجمى لم يذكر القدماء له مصطلحاً عربياً ، وألف الأساتيذ شبه مجمع لغوى ينظر فيما يعرضه كل أستاذ من ألفاظ العلم الذى يدرسه ، وهكذا استطاع أساتذة هذه الكلية أن يؤلفوا كتباً جليلة فى فروع الطب المختلفة ، وفى الكيمياء والفيزياء « الطبيعة » والمواليد ، وأن يجعلوا فى آخر كل كتاب مسرداً لمصطلحاته بالعربية والفرنسية .

(المصطلحات العلمية فى اللغة العربية ص ٦٥)

بأسلوب عربى مبين لم تعتوره العجمة ، ولا ظهر فيه الخلل ولا الاضطراب ..

* * *

وأقبل الشباب ينهلون من معين هاتين الكليتين .. وأخذت العربية تزدهر فى هذه البيئة الجامعية . . وكان لابد لاستكمال عناصر الجامعة بفروعها المختلفة من إنشاء كلية للآداب ، وأخرى للعلوم ، وكلية هندسة ، وكلية تربية — معهد المعلمين العالى — وتم تأسيس هذه الكليات عام ١٩٤٦ ، وبذلك تكوّنت «الجامعة السورية » تكويناً واسعاً .. وأصبحت بنية علمية ازدهرت العربية فى ربوعها ازدهاراً حسناً .

وقد يسأل القارئ عن العوامل التى أخرت تأسيس هذه الكليات خلال هذه الفترة الطويلة من ١٩٢٣ إلى ١٩٤٦ . ومن حقه أن يسأل . . فقد كان الفرنسيون يحولون دون إنشاء هذه الكليات . . وحاولوا أكثر من مرة أن يغلقوا كلية الحقوق التى اعتبروها بيئة خطرة ضد النفوذ الفرنسى ، وكانوا يحسبون أكبر حساب لثورة الشباب الجامعيين وتكتلهم . . وكانوا يلقون منهم العناء وهم فى المدارس الثانوية ، لذلك حالوا بقوة دون تأسيس كليات الجامعة ، وكانوا يأملون من البعوث التى يرسلونها إلى جامعاتهم فى فرنسا أن يعودوا « متفرنسين » — وقد خمد شعورهم الوطنى — فخاب ظنهم ، ورجع أكثرهم مزودين بثقافات علمية وهم أكثر وطنية وأشدّ حماساً .

وحين تمّ الجلاء أخذ العهد الوطنى على عاتقه أن ينشئ هذه الكليات : الآداب ، والعلوم ، والهندسة ، والتربية ، وهى تقوم اليوم بدور خطير فى إنشاء جيل عربى واع ، قد استكمل عدته من العلم والمعرفة ، وأخذ يعمل لوطنه ولعروبته ، وينهض بالعبء الفكرى بقوة واعتزاز [١] .

---

(١) فى التقويم الذى أصدرته جامعة دمشق ذكرت أن نشأة الجامعة بدأت فى العهد العثمانى سنة ١٩٠٣ كمعهد للطب لا يزيد عدد طلابه على أربعين طالباً من سورية والأناضول ، ثم غدت خلال هذه الفترة الطويلة ، جامعة تضم اثنتى عشرة كلية للعلوم والفنون والآداب والشريعة ومعهداً للخدمة الاجتماعية يربو عدد طلابها على ثمانية وعشرين ألف طالب وطالبة . هذا عدا جامعة حلب التى تأسست سنة ١٩٦٠ مؤلفة من كليات الهندسة والحقوق والزراعة واللغات .

٨

إننى فى إلماعى إلى هذه الظواهر أؤرخ فترة من فترات ازدهار اللغة العربية منذ جلاء الأتراك الذين فرضوا لغتهم — إلى يومنا هذا ، حيث أصبح للعربية شأنها ، وأصبح لها مقامها سواء فى لغة الدواوين . . أو فى المدارس . . أو فى مختلف البيئات الثقافية مما مهد لها أن تستعيد رونقها القديم ، وقد تنوعت الدراسات الأدبية ، فنشرت مخطوطات ، وترجمت روائع ، وألفت كتب تتناول مشاكل العلم ، ومشاكل المجتمع ، وما يتصل بالتطورات العلمية والمذاهب الاجتماعية ، وإن من ينظر إلى الجهد الذى بذله أساتذة «الجامعة السورية» ولاسيما الذين أتموا دراساتهم فى جامعات الغرب ، لا يسعه — وقد طوّعوا العربية لأن تكون لغة علم مبسطة — لا يسعه إلا أن يشيد بمجهودهم الفذ ، فقد كتبوا كتبهم بكثير من الدقة والإسهاب ، وبنزعات حرة منطلقة ، وبأساليب غاية فى السهولة والوضوح .

ولم يهمل «المجمع العلمى العربى» واجبه فنشر طائفة من الكتب الكلاسيكية — تلك الذخائر الثمينة من أدبنا القديم وتراثنا الفكرى النفيس — ولا يمر عام دون أن يتحف العربية بأكثر من كتاب واحد . . وعنايته موجهة إلى نشر مخطوطات أغلبها فى الشعر ، وفى الأدب ، والتاريخ ، والمنطق .

وهناك كثير من المفكرين يغذّون حركة النشر بمؤلفاتهم المترجمة والموضوعة فى شتى ميادين المعرفة . . والجانب الأدبى أغلب من بقية الجوانب ، ولا سيما الجوانب العلمية ، ذلك أننا أمة لا تزال فى بداية الطريق ، ولأن الأدب ألصق بالحياة من سائر فروع العلم ، وهو الأداة التى تعبر عن نوازعنا وترسم خطط سيرنا ، وتثيرنا للنضال فى كفاحنا القومى وثوراتنا التحريرية .

٩

ثمة ظاهرة ذات مساس فى تطوير اللغة وصقلها ، وفى تبسيط الأسلوب الذى يسيغه الجمهور . أريد بها — بعد المدرسة — الصحافة . .

فقد عرف السوريون ، قبيل جلاء الأتراك ، عدة صحف عربية محدودة

النطاق . . لا تكاد تلتمع حتى تخبو وتنطفئ . . وبدهى ألا تؤدى الغاية من تنوير الجمهور وتثقيفه .

ثم كان الحكم العربى فصدرت عدة جرائد ، ثم دخل الفرنسيون فحدّوا من حرية الصحافة . .

ولا بأس هنا ، قبل أن نتحدث عن الصحافة وأثرها فى ثقافة الجمهور وفى مرونة اللغة ، أن نرجع قليلاً إلى التاريخ نتحدث عن النضال السياسى والنضال الثورى منذ جلاء الأتراك سنة ١٩١٨ إلى جلاء الفرنسيين سنة ١٩٤٦ فإن لهذا أثره فى الوعى القومى ، وفى يقظة الشعب وكفاحه . . وفى الأدب — أريد أدب المقالة الصحفية ، والشعر القومى .

لقد أشرنا آنفاً إلى أن حكومة عربية تألفت برياسة الملك فيصل .. ولا بأس أن نحدد تاريخ هذه الأحداث فنقول إن المؤتمر السورى الذى انعقد فى دمشق والذى ضمّ رجالات البلاد من سورية ولبنان والأردن وفلسطين قد أعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية فى السابع من شهر آذار (مارس) سنة ١٩١٩ . . . وفى الثامن من الشهر المذكور نودى بالأمير فيصل ملكاً على سورية . . . ولكن هذه المملكة الفتية لم تدم طويلا . . وثارت ثائرة الفرنسيين . . وبدأت مناوراتهم تنطلق من لبنان . . وبعثوا برسلهم . . ثم أخذوا يوجهون الإنذار تلو الإنذار ، وكانت فرنسا وهى من أقوى دول الغرب آنئذ وقد خرجت من الحرب ظافرة — كانت تعتبر سورية ولبنان مناطق نفوذ لها . . وكبر عليها أن تستقل سورية . . وأن يقوم فيها حكم عربى . . فما كان منها إلا أن هجم الجيش الفرنسى على هذه المملكة لتقويضها . . ونشبت معركة ضارية فى ميسلون فى الرابع والعشرين من شهر تموز (يولية) سنة ١٩١٩ بين القوات الفرنسية وفصائل من قوات الجيش العربى المسرّح بقيادة يوسف العظمة وزير الحربية لم تدم غير يوم واحد كانت الغلبة فيه للفرنسيين ، واستشهد القائد البطل فى تلك المعركة .. وفى اليوم الثانى — أى فى يوم ٢٥ تموز (يولية) سنة ١٩١٩ — دخلت قوات الاحتلال الفرنسية دمشق عاصمة سورية . . واضطر الملك فيصل أن يغادر دمشق إلى فلسطين . . ومنها إلى بريطانيا . . .

وهكذا ، قد انهار العهد الاستقلالى الأول ، وبدأ عهد الانتداب الفرنسى الذى عانت منه البلاد مرارة الاحتلال .

وكان من جراء ذلك أن قامت الثورات فى جميع أنحاء البلاد . .

ثار الشيخ صالح العلى فى جبال العلويين فدامت ثورته من شهر أيار (مايو) سنة ١٩١٩ حتى شهر حزيران (يونية) سنة ١٩٢١ .

وثار إبراهيم هنانو فى جبال الأربعين فاستمرت ثورته سنة كاملة بدأت من ٢٠ تموز (يولية) سنة ١٩٢٠ حتى ٣١ تموز (يولية) سنة ١٩٢١ . .[(١)] .

ثم بدأت ثورة سلطان باشا الأطرش الأولى فى جبل الدروز فى تموز (يولية) سنة ١٩٢٢ فدامت ستة أشهر .

وكانت البلاد فى غليان شديد ، والنفوس ثائرة . . . والهياج من تصرفات الفرنسيين بالغ أشده . . ولاسيما نفوس الكتّاب والشعراء ورجال السياسة . .

وضاق الفرنسيون بهذه الثورات تنبثق من هنا وهناك . . وكانت حملاتهم العسكرية تنتقل من بقعة إلى بقعة ، ومن سهل إلى جبل . . وتكبد الفرنسيون من جراء هذه الثورات الكثير من الضحايا .. وفى تقرير خطير للجنرال ساراى بعثه إلى « الكى دورسه » يقول فيه — إنه فى عام ١٩٢٢ نشبت فى سورية وحدها خمس وثلاثون ثورة دفن فيها خمسة آلاف جندى فرنسى . .

وعمد الفرنسيون إلى تقطيع أوصال البلاد ، وأقاموا عدة دويلات فى سورية ، فجعلوا من حلب دولة ، ومن دمشق دولة ، ومن جبال العلويين دولة ، ومن جبل الدروز دولة ، ومن لواء الإسكندرونة « دوقية » فرنسية . . .

وأقيمت المحاكم العسكرية تحكم على كل من اتهم بوطنيته أو بتحريض الناس على الانتداب .. فحكمت على الكثيرين بالسجن.. وبالنفى .. وبالإعدام ..

---

(١) إبراهيم هنانو « ١٨٦٩ — ١٩٣٥ » من مواليد كفر تخاريم التابعة لقضاء حارم ، تبعد عن حلب بالسيارة قرابة الثمانين كيلو متراً . تخرج فى مدرسة الحقوق والإدارة فى إستانبول ، ومارس بعض الوظائف . وحين احتل الفرنسيون سورية ثار عليهم وكبدهم خسائر فادحة فى الأرواح ، وظلّ يكافح إلى أن تغلبت عليه القوات الفرنسية فلجأ إلى عمان فالقدس حيث كانت فلسطين تحت الانتداب البريطانى فسلموه إلى الفرنسيين الذين قدموه للمحاكم الأجنبية فى حلب . . ووقف الشعب قلقاً وخاف الفرنسيون نتائج الحكم على زعيم وطنى ثائر فبرأته المحكمة .. وظلّ بعد خروجه من السجن من أبرز رجالات « الكتلة الوطنية » يقود الجماهير إلى الكفاح ، برغم مرضه ، وما زال حتى آخر يوم من حياته . .

وظنوا أن سياسة العنف هذه ستخضع السوريين وتوطّد أركان حكمهم .. وخاب ظنهم .

ونشبت الثورة الكبرى – ثورة سلطان باشا الأطرش الثانية التى قام بها فى أواخر شهر تموز (يولية) من عام ١٩٢٥ ، ثم سرت إلى حماة ودمشق وقرى الغوطة ووادى التيم وإلى أطراف حمص بما فيها القلمون .. وإلى شمالى لبنان وبعلبك .. ودامت أكثر من سنتين .. ولما لم يستطيعوا إخمادها بقواتهم لجأوا إلى تحقيق بعض الأمنيات التى يطالب بها الشعب .. أعلنوا وحدة البلدان التى أقاموا منها دويلات هزيلة . . ولوّحوا بأسطورة الحكم الذاتى ، وبإجراء انتخابات حرة لوضع الدستور .. ثم إلى عقد معاهدة ، إلى غير ذلك من محاولاتهم الكاذبة التى ترمى إلى دوام سيطرتهم . . وتثبيت نفوذهم . . ولكن نضال الشعب الذى قادت « الكتلة الوطنية » حركاته – وكانت الكتلة الوطنية فى سورية بمثابة « الوفد المصرى » فى مصر – أقول إن رجالات « الكتلة الوطنية » قد أحبطوا كل مؤامراتهم .. وما زال الشعب فى نضاله ، وما زال فى كفاحه ، إلى أن تم الجلاء فى الساعة التاسعة من صباح ١٧ نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٦ فى عهد شكرى القوتلى الذى خاطب الشعب فى ذلك اليوم بخطاب تاريخى استعرض فيه الأدوار التى مرّت بها البلاد السورية ومما قاله :

« هذا اليوم تشرق فيه شمس الحرية ساطعة على وطنكم ، فلا يخفق فيه إلا علَمكم ، ولا تعلو فيه إلا رايتكم .. هذا يوم الحق تدوّى فيه كلمته ، ويوم الاستقلال تتجلّى عزته . . يوم يرى الباطل فيه كيف تدول دولته ، وكيف تضمحل جولته . .

هذا يوم النصر العظيم . . والفتح المبين » .

ثم توجه بالتحية والتمجيد إلى أرواح الشهداء الأبرار ، الخالدين الأطهار ، « الذين غرسوا شجرة الاستقلال بيدهم ، وسقوها بكريم دمهم ، فغدت فى هذا اليوم المبارك وارفة الظلال ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء .. أولئك الذين ماتوا ليحيا وطنهم ، قضوا لتبقى أمتهم ، هم أصحاب الفضل الأول ، وما يوم الاستقلال هذا إلا عيد الفداء ، ومهرجان الشهداء . . فسلام عليهم فى عليين ، وتمجيد

لذكرهم فى الخالدين » .

* * *

ونتساءل الآن ، بعد هذه اللمحة السريعة عن عهد الكفاح الدامى الذى استمر ربع قرن كاملا – نتساءل ماذا كان موقف الأدباء والشعراء ورجال الصحافة من هذه الأحداث ؟

أريد أن أسجل حقيقة بارزة . . وهى أن هذه الثورات التى نشبت قد أهاجت النفوس وأثارت قرائح الشعراء . . وهزّت ضمائر الكتاب والصحفيين . .

* * *

فالشعراء قد عبّروا عن أحاسيسهم وأحاسيس قومهم بقصائد تختلف فى مضمونها وطريقة تعبيرها . . . منهم من لجأ إلى الرمز خشية بطش الغاصبين ، ومنهم من ألمع وأبان عن قصده بوضوح ولكنه لم يستطع نشر شعره فى الصحف الخاضعة لسيف الرقابة المصلت فتناقلته الألسن ووعته الصدور . .

فشفيق جبرى فى مقطوعته الشعرية « حنين العندليب » عمد إلى الرمز فى تصوير حرمان السوريين من البوح بما فى صدورهم :

دع العندليب على غصنه ... يردّد على الغصن أحزانه
فلم أر فى لحنه كلفة ... تهجن إن ناح ألحانه
لئن دوّن الناس أشعارهم ... لقد جعل الروض ديوانه
وإن قيّد الوزن أفكارهم ... لقد أطلق الشدو أوزانه
كتمت الشجون عن العندليب ... فراح يبثّك أشجانه
وأخفيت عنه دموع الجفون ... وقد بلّل الدمع أجفانه
فهل شطّ عن وكره جاره ... فأصبح يندب جيرانه
أم الباز أودى بخلّانه ... فودّع بالنوح خلانه
أم الريح هبّت بأفنانه ... فزلزلت الريح أفنانه
فيا لك من ممعن فى الحنين ... ألم يشهد الناس إمعانه
أتبكى العنادل أوطانها ... ولا يندب المرء أوطانه

وحين ناجى الحرية فى قصيدة ثانية – ناجاها بأسلوب رمزى . . فخاطب

الدهر بدلاً من مخاطبة الفرنسيين مباشرة .. فكانت أبياتها غمزاً ولمزاً وتقريعاً :

هاج نسيم الريح لى أمرهـا ... بالله يا ريح ابعثى ذكرها
تجهّز الدهر لإقلاقها ... ما حمدت فى ليلة دهرها

ومنها :

عشقتها والله أدرى بنا ... ما مسّ صدرى فى الهوى صدرها
ظلّل أكناف الحمى طيفها ... هنيهة ثم ابتغى هجرها

يشير إلى عهد الملك فيصل ، ثم يقول :

لا تخفضن يا دهر من قدرها ... كل كريم رافع قدرها
دحرتها والنفس فى إثرها ... خارجة ما احتملت دحرها
كم حائر طاحت به ضلة ... ثم اهتدى لما رأى بدرها

ومنها :

ومستبد راعه خطبها ... يجهد فى تهتيكه سترها
لئن طوى استبداده ليلها ... فما طوى عن مقلتى فجرها
حصرت يا دهر نفوس الورى ... فهل أطاقت مهجة حصرها
نجوت من ظلم ومن ظالم ... يا دهر إن يسّرت لى أمرها

ثم يختمها بقوله :

إن تحرجوا الآساد فى غابها ... هيهات ما تكفيكم شرها

وخير الدين الزركلى يندب وطنه الذى آل أمره إلى قراصنة الاستعمار ، فلا يعمد إلى الرمز بل يبين عن قصده بوضوح . . وقد كتب أكثر من قصيدة وطنية ثائرة . . فمن إحدى أغنياته الحزينة :

متى ترى تبسم لى ، يا زمان ... ألا حنان ؟
أسلمتنى لا أنس لى لا أمان ... للحدثان !
أبكى ربوعاً لا تطيق الهوان ... رهن امتهان

* * *

أبـــكى دياراً خلقت للجمال   أبهى مثـــال
أبـــكى تراث العز والعزّ غال   صعب المنـــال
أبـــكى نفوساً قعدت للرجال   عن النضـــال
أبكى جلال الملك كيف استحال   إلى خيـــال

ومنها :

ضاعت بلادى. يا زمان الصغار   والانــدثـــــــار
النـــاس يبنون وما فى الديـــار   غـــير الدمـــار
أما ترى الغرب تعـــلّى وطـــار   فـــوق البحـــار
وأمتى — هاوية فى انحـــدار   بئس القـــرار

ثم يقول :

يا زمن الشؤم ، سقيت الشآم   كأس الحمـــام
القبلتـــان اشتكتا والمقـــام   ممـــا نســـام
إلى متى نبقى أسارى انقسام   ونستضـــــــــام
مصر تناجيك . . ودار السلام   مـــلّ المقـــام . .

وتتوالى صيحات الشعراء منذ تقوّض عرش فيصل إلى أيام الثورة الكبرى . إلى يوم الجلاء — صيحات انبعثت من أفئدة الشعراء وفى طليعتّهم محمد البزم ، وخير الدين الزركلى ، وخليل مردم ، وشفيق جبرى ، ومحمد الفراتى ، وبدوى الجبل ، وعمر أبو ريشة ، وعمر يحيي وغيرهم . ويقول بدر الدين الحامد أحد شعراء حماة من قصيدة له فى يوم الجلاء ذاكراً الماضى الأسود الذى مرّت به البلـد :

هذا التراب دم بالدمع ممتزج   تهبّ منـــه على الأجبال أنسام
ست وعشرون مرت كلما فرغت   جام من اليأس صرفاً أترعت جام
لولا اليقين ولولا الله ما صبرت   على النوائب فى أحداثها الشام
يوم الجلاء هو الدنيا وزهرتها   لنـــا ابتهاج وللباغين إرغام
يا راقداً فى روابى ميسلون أفق   جلت فرنسا فما فى الدار هضام

لقـــد ثأرنا وألقينا السواد وإن مرّت على الليث أيام وأعوام
لو فيصل عاد حيًّا بيننا فيرى أن العلوج هنا فى الشام ما داموا

* * *

«غورو» يجىء «صلاح الدين» منتقماً مهـــلا فدنيـــاك أقدار وأيام
هذى الديار قبور الفاتحين فلا يغررك ما فتكوا فيها وما ضاموا

ثم يقول :

فيا فرنسا ارجعى بالخزى صاغرة ذكراك فى صفحة التاريخ آثام

وهكذا ، فإن الأحداث قد هزّت شعراء الشام فكتبوا قصائد تصف الشعور العارم الذى يختلج فى ضمير الشعب ، كما وصفوا النقمة الصارخة على رسل الانتداب ، ولا سيما حين نشبت الثورة التى لم يقتصر وصف لهيبها المندلع على شعراء سورية بل تعداه إلى شعراء الأقطار العربية . . فرأينا أمير الشعراء أحمد شوقى يخص الثورة ، ويخصّ دمشق وبنى معروف وعلى رأسهم سلطان باشا الأطرش بأكثر من قصيدة واحدة . . فى قصيدته — سلام من صبا بردى أرق : يقول :

وقفتم بين موت أو حيـــاة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان فى دم كل حـــر يـــد سلفت ودين مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمنـــايا إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا
ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ولا يحق
ففى القتـــلى لأجيـــال حياة وفى الأسرى فدى لهمُ وعتق
وللحـــرية الحمـــراء بـــاب بـــكل يـــد مضرجة يدق

وهذا يدل على أن التجاوب العربى حقيقة ساطعة وإن أنكرها المتشككون الذين تدغدغهم وتخدّرهم أكاذيب المستعمرين .

ورأينا شعراء المهجر ينظمون قصائد أو قذائف من جمر ، وقد وصف الشاعر القروى بطولة سلطان الأطرش الذى نفخ فى بوق الثورة الكبرى — وصف بطولته فى أكثر من قصيدة . . ولاسيما قصيدته التى يقول فى مطلعها :

خففتَ لنجـــدة العانى سريعا غضوباً لو رآك الليث ريعا
وحولك من بنى معروف جمع بهم وبدونهم تفنى الجموعا

والتى يقول فيها :

ولما صرت من مهج الأعادى بحيث تذيقها السم النجيعا
وثبت إلى سنام « التنلك » وثباً عجيبـــاً علّم النسر الوقوعا
وكهربت البطاح بحد عضب بهرت به العدى فهووا ركوعا
كأن به إلى الإفرنك جـــوعا وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا

* * *

فيا لك غارة لو لم تدعهـــا أعادينـــا لــكذبنا المذيعا
ويالك « أطرشا » لما دعينـــا لثـــأر كنت أسمعنا جميعا

ومن قصائده :

فرنسة ليس فى حـــوران لحم يسر بنيلك يا أم الضبـــاع
وهل لاقيت فى حـــوران إلا مآســـد خلتهـــا جهلا مراعى
طرقت ضياعها غدراً فشمنا ضياع الأمن فى تلك الضياع
وكدت لأهلها بالسيف طوراً وطـــوراً بالسعاية والخـــداع
فكنت لئيمـــة حرباً وسلماً كلؤمك فى الغـــرائز والطباع

ونقف عند هذا الحد من الإلماع ، وكل ما أردناه الإشارة العابرة إلى أثر الثورة الكبرى فى نفوس الكتاب والشعراء ورجال الصحافة . . وتأثر الأدب بهذه التيارات التى أثارتهم للتعبير عن خوالج نفوسهم وخوالج قومهم .

* * *

وكانت الصحافة أداة صادقة للتعبير عن هيجان النفوس ورسم هذه الخلجات التى تجول فى ضمير الأمة ، بل لعبت أكبر دور فى تقويض سلطان الأجنبى ، فكانت بحق صوت الوطن المدوّى ولسانه الذرب المعبّر . . وكانت المقالات الافتتاحية برغم سيف الرقابة المسلط ، شواظاً من نار ، كانت لا ترسم سياسة الوطن الذى ينشد حريته وسيادته فحسب بل كانت بإلهابها النفوس وبأسلوبها

النارى تقضّ مضاجع المحتلين متحملة فى سبيل مبدئها الكثير من الأهوال . . وكثيراً ما لقى الصحفيون العنف والإرهاق . . والنفى والاضطهاد . . وكثيراً ما حوربوا فى أرزاقهم ومعاشهم ، وشردوا عن أسرهم ووطنهم ، فلم يثنهم كل ذلك عن أداء حق الوطن ، فصمدوا للأعاصير ، وقارعوا الأحداث ، وكافحوا بإباء وصبر وشمم . .

وكان لهذه الأحداث أثرها فى لغتهم وفى أسلوبهم . . وكان ذلك مدعاة لتطور لغة الصحافة التى كانت أداة اتصال مباشر بالجمهور . . ولعبت دورها الخطير فى ثقافته . . .

ونريد أن نقرر حقيقة وهى أن صحافة سورية كانت متجاوبة مع صحافة مصر . . أى كان للكفاح القومى فى مصر وسورية أثره فى لغة الصحافة التى أخذت تعبر عن المشاعر الوطنية والأحاسيس الملتهبة الثائرة ، كما كان للخصومات التى ثارت بين الأحزاب أو — وهذا أدق — بين صحف الحاكمين وصحف المناضلين — كان لهذا أثره فى لغة الصحافة التى ارتقت عما كانت عليه فى عهد الأتراك .. فمرنت وتطورت وأصبحت تعبر تعبيراً صادقاً عن شعور القوم ونزعاتهم التحررية . . وقد دخل ميدانها أدباء وشعراء وأساتذة جامعيون فكانت منبراً عالياً يتلاقى على منصته قادة الفكر وزعماء الحركة الوطنية .

* * *

هذه العوامل مجتمعة . . إلى التطور الذى دبّ فى كل مرافق الحياة . . وإلى هذه البعثات التعليمية التى نهلت من علم الغرب — كل ذلك خلق فى سورية وعياً تقدميًّا واسعاً .. وكان من البدهى أن يسير الأدب فى طريقه المتكامل .. وأن يكثر محصولنا من الأدباء والشعراء .. وأن يتجهوا اتجاهات مختلفة فى التعبير عن « ذاتهم » وعن « مجتمعهم » ، وعما يعانيه وطنهم من أحداث .

* * *

هذا ، وحديثى عن الصحافة كعامل كبير من عوامل تطور الحركة الفكرية يجرنى إلى الحديث عن الصحافة الأدبية التى يرجع تاريخها فى سورية إلى نصف قرن تقريباً . . وقد رافقت البعث السياسى بكافة مراحله .. ولا أغالى

إذا قلت إن الصحافة الأدبية كانت من العوامل التى مهّدت للبعث القومى ، إذ لم يكن فى الماضى القريب ثمة فرق بين الأدب والصحافة . . بل كانت الصحافة بيد الأدباء الذين يحبّرون المقالات السياسية والاجتماعية والدراسات الأدبية . . وظلّ الحال هكذا ، إلى سنوات قريبة حيث أصبح الصحفى يعنى بالشئون التى تفرضها حوادث الساعة بينما يعنى الأديب بشئون الفكر — بالدراسات الأدبية والتاريخية دون الاهتمام بالمشاكل السياسية إلا ما كان متعلقاً بالنواحى القومية . . أى أن الصحافة قد انفصلت عن الأدب ، إلى حد ما . .

فتاريخ الصحافة الأدبية يبدأ فى سورية بصدور مجلة « المقتبس » سنة ١٩٠٦ لمحمد كرد على . . فهى أول مجلة صدرت فى دمشق لتعنى بحركات الفكر . . ثم تحولت إلى جريدة سياسية . . وظهرت فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الكبرى عدة مجلات لم تعش طويلاً . . ولكنها كانت سجلاً للتيارات الفكرية التى ترسم هواجس الأدباء والشعراء فى تلك الفترة . .

ثم صدرت مجلة « المجمع العلمى العربى » (١) ، وقد جعلها الأستاذ محمد كرد على ، كما ألمعت ، سجلاً صادقاً لمباحث الأكاديميين فى اللغة وما يمتّ بصلة إلى ترقية اللغة العربية . . وما تزال تصدر ، وهى وفية لأداء هذه الرسالة .

وصدرت أيام الانتداب الفرنسى مجلة « الرابطة الأدبية » وكانت ذات نزعة حرة ، جعلت الأدب وسيلتها لرسم الخوالج القومية ، وهى لسان حال جمعية « الرابطة الأدبية » التى ضمت الأدباء والشعراء ليتباحثوا فى شئون الأدب بعد غفوته الطويلة ، دعا إلى تأسيسها الأستاذ خليل مردم الذى رأى أن الأدب العربى فى حاجة إلى نهضة توقظه من سباته ، وتبعث فيه روح النشاط . وقد ضاق الفرنسيون بالجمعية وبالمجلة معاً ، فلم يكد يصدر العدد التاسع من المجلة ، أى قبيل أن تتم سنتها الأولى ، حتى أصدروا أمراً بإغلاقها ، وانطفأت بإغلاق هذه المجلة شعلة أدبية كانت ترمى إلى البعث القومى عن طريق الأدب .

لقد كانت الصحافة الأدبية كالصحافة السياسية خاضعة للمراقبة فى عهد الفرنسيين ، وكانت معرضة للتعطيل دائماً .

---

(١) أصبح اسمها الآن « مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق » .

وفى سنة ١٩٢٣ صدرت مجلة « الميزان » وهى مجلة أسبوعية أنشأها أحمد شاكر الكرمى ، وكانت صحيفة تعنى بالنقد والأدب ، التفّ حول محررها طائفة من الشباب المجددين الذين أخذوا على عاتقهم مجاراة التيارات الفكرية الحديثة ، وتحطيم أصنام الأدب .. وقد ساروا على نفس النهج الذى سار عليه طه حسين والعقاد والمازنى ، ولكنها لم تعش طويلاً ، فإن القدر لم يرأف بصاحبها الذى مات مصدوراً وهو فى شرخ شبابه فخسرت الحياة الأدبية بموته ركناً من أعظم أركانها ..

لست أريد أن أسرد أسماء الصحف الأدبية التى ظهرت فى سورية ، بل أردت الإلماع إلى بدء نهضتها الفكرية . . فكانت الصحافة الأدبية من العوامل التى مهدت للمواهب الأدبية أن تلتمع . . .

وقد ظهرت خلال هذه الفترات صحف أدبية كثيرة .. منها المحافظة ، ومنها المستجيبة لنزعات التطور . . وفى الفترة التى حمى فيها الصراع بين المجددين والقدماء فى مصر صدرت مجلة « الحديث » تحمل رسالة التجديد[1] ، فقوبل صدورها من الطبقات الرجعية بكثير من الوجوم ، كما قوبلت من الشباب المتوثب بكثير من الترحاب واعتبروها بداية مرحلة جديدة فى مجاراة التيارات الفكرية التى تبناها زعماء التجديد .

وأصدر الأستاذ خليل مردم ونفر من أصحابه مجلة « الثقافة » وكانت مرآة صادقة للثقافة العربية الحية ، تحرص على جمال الأدب القديم حرصها على روعة الأدب الحديث . . ولكنها لم تعش غير سنة واحدة . . ثم صدرت عدة صحف ومجلات أدبية كانت من العوامل القوية لدعم الحياة الفكرية فى شتى ظواهرها ، يلتقى على صفحاتها الأدباء والشعراء ليعبروا عن شعورهم وشعور أمتهم ومجتمعهم . . وأمنيات وطنهم فى النضال والكفاح . .

فالمدرسة والصحافة والمجمع العلمى العربى والجامعة السورية بمختلف كلياتها — إن كل ما صدر عن هذه البيئات الفكرية وما تفاعل فى أجوائها هو

---

(١) أصدرت مجلة « الحديث » سنة ١٩٢٧ وظلّت مستمرة فى أداء رسالتها حتى عام ١٩٥٩ فصدر منها « ٣٢ » مجلداً ضمت أبحاثاً ودراسات لأكابر أدباء العالم العربى ، وتعتبر من المراجع الوثيقة للتيارات الفكرية المعاصرة خلال هذه الفترة ، وقد توقفت عن الصدور بعد أن ألغت الدولة امتيازات الصحف وتولت هى شئون النشر .

الذى مهد للحياة الأدبية أن تسير سيرها الوئيد . . وأن تنمو وتزدهر مع الأيام .

وقد تطور الأدب مع تطور الحياة الفكرية ؛ وكان للأحداث السياسية أثرها فى هذا التطور . . .

* * *

ونرجع مرة ثانية إلى الماضى القريب نستشف من ظلاله سير الأدب ، بعد أن أرّخنا حياة الفكر خلال هذه الفترة الطويلة التى مرت بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٩٥٠ . .

كان الأدب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بعيداً ، إلى حد ما ، عن التيارات السياسية . كان يعيش فى نطاق ضيق . . بعض قصائد ورسائل يكتبها الأدباء والشعراء فى أغراض محدودة .. وهى لون من أدب المحاكاة والتقليد إلا من تحرر أدبه من قيود مدرسة أدب الانحطاط . . وكتب هواجسه بالانطلاق ، وهؤلاء جدّ قلائل . .

فإذا خطونا إلى بداية إعلان الدستور رأينا الأدباء والشعراء يتحررون بعض التحرر من قيود السجع ، ويعبّرون عن فرحتهم بالدستور كعامل من عوامل انطلاقهم من كابوس الاستبداد الذى يعيشون فى كهوفه المظلمة وسراديبه العفنة الخانقة ، إلى جوّ تعبق نسماته بفجر الحرية الباسم . وشعرهم ، كما قلنا ، أمنيات ودعوات بطول عمر السلطان الذى منح الأمة هذه المنحة السنية لتنهض وتسير فى طريق العزة والكرامة .

وكان رجال هذه الفترة يختلفون فى مناهجهم ، كل واحد حسب نشأته وثقافته . . وكانوا جميعهم ينشدون الإصلاح بشتى منازعه . . والإصلاح فى نظرهم أن نتتبع سنن الأقدمين . . وبعضهم كان يرى الإصلاح فى مجاراة أوربا فى سيرها ونظمها ومناهجها . . أى كان رجال تلك الفترة — والأدباء منهم على الأخص — يتأرجحون بين الماضى والحاضر . . وكان للماضى سحره فى أدبهم وفى تفكيرهم .

* * *

ثم تأتى الحرب العالمية الكبرى. . وإذا الشعراء — أريد أكثرهم — يعتمدون

شعر المدح والملق . . وإذا شعرهم أماديح فى الطاغية التركى جمال باشا الذى صلب أحرار العرب . . .

وهذه وصمة فى تاريخ الأدب ، تدلنا على أن شعراء تلك الفترة لا يجيدون إلا شعر المدح الذى تأثروا به خلال حياتهم الأدبية . . .

فالمبالغة فى وصف الممدوح ، فاقت بتعابيرها ، أماديح المتنبي فى سيف الدولة . . وشتان بين الممدوحين .. فهذا يمدح سيداً عربيًّا .. وأولئك يمدحون سفاكاً طورانيًّا يطيح بزعماء العرب . يقول شاعر من قصيدة طويلة يمدح بها جمال باشا :

لقد عزّ جيش كنت فيه رئيسه ... وعزّت جموع كنت فيهن رائدا
فلم أر مثـــل اليوم أرفع همة ... وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا
وأطهر أخلاقاً ، وأصفى سريرة ... وأنجب مولوداً ، وأكرم والدا
وقفت على علياك فيض قريحتى ... ونفسى وفكرى والقوافى الشواردا [1]

وليت هذا الشاعر وقف قريحته ونفسه وفكره وقوافيه الشوارد على مدح بنى قومه ، أو رثاء شهداء العرب . . . لا على التغنى بعلياء سفاح العرب !

* * *

وكثيرون من الشعراء نهجوا هذا النهج من الأماديح الكاذبة . . وقليلون هم الذين قالوا شعراً ظل حبيس صدورهم . . أو عبثت به يد الضياع خشية أن ينم على نوازعهم القومية فيقودهم إلى الموت ، وقد قبعوا فى بيوتهم يراقبون المآسى بقلوب جريحة . .

إذن ، كان الأدب حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، يدور فى آفاق ضيقة . . أدب أماديح وأمنيات . . أدب تورية ومباسطات . . أدب جناس

---

(١) القصيدة لبدر الدين النعسانى وكان « عثمانى الهوى » تولى تحرير جريدة « الشرق » التى أمر بإصدارها جمال باشا فى دمشق خلال الحرب لتدافع عن سياسته الهوجاء ، وقد أشرك فى تحريرها الأمير شكيب أرسلان ومحمد كرد على وعبد القادر المغربى واعتبروا عملهم لوناً من « التقية » خشية بطش السفاح .

ومطابقة . . ليس عليه هذه المسحة المثالية والنزعة التحريرية .. وهو أبعد ما يكون عن أدب الحياة التى تحياها الأمة بشتى نوازعها . .

فما هو شأنه عقب الحرب ؟

يصف خليل مردم أدب تلك الفترة بقوله :

« أدبنا اليوم أشبه بمريض ألحّت عليه العلل والأمراض حتى أمضته .. أما علاجه فهو لا يعدو أحد قسمين لا يجوز التفريق بينهما وإن اختلفا . . تعهد جسمه الناحل الضاوى بالتقوية . . والثانى : نفى الأوضار التى علقت ببدنه . . وكان منها بؤرة جراثيم خارت لها عزائمه . . فعلى من يتصدى لمعالجته أن يكون بانياً وهادماً . . وطبيباً وجزاراً . . ونعنى هدم ما تداعى من الفاسد ، وبناء الصالح مع حياطة المتين منه » . .

هذا الأدب المريض الذى ألحت عليه العلل كان يتطلع إلى طبيبه الحاذق .. وكان « المجمع العلمى العربى » يضم الكثير من الأطباء . . ولكنهم كانوا يحاولون إنقاذ علته بطب ابن سينا لا بطب باستور مثلا . . أى كانت مهمته مقتصرة على صون اللغة وإنقاذها من الميوعة والعجمة . . وقد أدى واجبه فى هذا المضمار ولم يستطع أن يخطو أى خطوة فى تطوير الأدب . . وتطلع الشباب إلى مصر وأدبائها . . وإلى المهجر وشعرائه . . وإذا هم إزاء ألوان حية ، وأصداء متنافرة تجمع بين النزعات القديمة والنزعات الحديثة . . بين الأدب الوجدانى . . والأدب الكلاسيكى . . وأثيرت مشكلة أطلق عليها مشكلة « الأدب القديم » و « الأدب الحديث » أثارها الأدباء المصريون بقوة وعنف — هذه المشكلة التى استمرّت فترة طويلة زادت على العشرين سنة إلى أن انتهت عند هذه الناحية التى اعتبرها أنصار القديم — سواء فى ميادين الأدب أو فى ميادين الفكر — الأساس لصون دعائم التراث وهو عدم التحول عن الماضى . . حسبهم من الأدب تقليد ما أنتجه الأدباء والشعراء فى العصرين الأموى والعباسى . . فهم مثلهم الأعلى فى الأدب . . بينا أنصار الأدب الحديث قد اتجهوا اتجاهاً يختلف كل الاختلاف عن مذاهب خصومهم . . فقيمة الأدب عندهم فى الإبداع لا فى التقليد . . وفى المعنى قبل المبنى . . وفى أن يقترب أدبنا من الآداب الحية لا أن يظل فى عزلته . .

كان مصطفى صادق الرافعى على رأس أنصار الأدب القديم . . وكان طه حسين على رأس أنصار الأدب الحديث . . وقد وقعت بينهما خصومات أدبية عنيفة . . ومع اختلافهما فى المنهج كانا يتشددان فى الحرص على سلامة اللغة [١] . .

وقد كان لهذه الخصومات التى دامت طويلاً أثرها فى أدباء سورية . . منهم من انحاز إلى الرافعى وقال بالمذهب القديم . . ومنهم من تابع طه حسين وسار على نهجه . . وهم الكثير . . وكان لنهجه المدرسى فى الأدب أثره لا فى عقول الشباب فحسب بل حتى فى نفوس وعقول الأساتذة الجامعيين . . ومنهم من اعتصم فى برج منعزل يرقب هذه المعارك بهدوء وحذر ، غير منساق وراء تيارات الخصومة ، يكوّن ثقافته الأدبية من أدبنا القديم ، ومن ثقافة الغرب وأدبه . .

* * *

أخذ الأدب خلال هذه الفترات التى مرّت بين الحربين العالميتين ينمو ويتطور . . وقد اتجه اتجاهاً قومياً يعبر عن أحاسيس الوطن وشعور الأمة ووجدانها . . ويتغنى بماضى العرب وزهو حضارتهم . . وكان للترجمة — أريد ترجمة روائع الأدب العالمى — أثرها فى التفكير . . كما كان للأدباء الشباب الذين اغترفوا من جامعات الغرب ودرسوا أدب الغرب أثرهم فى تلقيح أدبنا ونموه . .

وككل حركة جديدة لابد لها من أن تأخذ طريقها للسير إلى الأمام ومجاراة

(١) كان الأستاذ الرافعى يزعم أن المذهب الجديد فى الأدب ليس فى حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف فى اللغة والأدب العربى ، وقوة فى اللغة والأدب الأجنبى . . وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد إنما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور من لغة الإفرنج وآدابهم . . وقد رد طه حسين عليه بقوله : إن الأستاذ الرافعى أخطأ فهم ما يكتب أنصار الجديد . . فبعض أنصار الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وأدبها بحظ لابأس به . . وإن قوتهم فى اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها . . فالأدب الجديد ليس قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب وإنما هو قائم على شىء آخر غير هذا كله — قائم على الفهم قبل كل شىء .. إن أنصار المذهب الجديد يريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة . يريدون أن يفهموا الناس ، يعيشون مع الجيل الذى هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

المذاهب الأدبية الجديدة — أخذت الحركة الأدبية فى سورية لونها الجديد ، وهى تختلف كل الاختلاف عن الاتجاهات السابقة . . شعرنا أننا إزاء جيل جديد من الشباب يفهم الأدب بمقاييسه الصحيحة . . لم يعد همّ الشاعر المحاكاة بل همه أن يصوّر خلجات نفسه وهجسات قومه . . أن يصدق فى التعبير ، وأن يعطينا شعراً يمتاز بصفاء الديباجة وموسيقية اللفظ ووحدة القصيدة ، يضاف إلى ذلك جمال الصورة وعمق الفكرة . .

شعراء يصورون عواطفهم ، ويصورون الأحداث التى تنتاب وطنهم .

وهذه الفئة تأثرت إلى حد كبير بالآداب الغربية . . وبالحياة الأوربية . . وبهذه المقاييس الأدبية التى رسمها زعماء التجديد فى مصر . .

* * *

وبادرة ثانية نستطيع أن نشير إليها بإعجاب وهى « القصة » . . وقد حاولها أدباء الشباب بجرأة ولباقة . . كتبوا أقاصيص تصور المحيط والبيئة ، ورسموا أخلاق الناس وطباعهم . . وما يقاسيه المجتمع من بؤس وشقاء . . فصدرت طائفة من الأقاصيص والروايات تمتاز ببعدها عن المبالغات والتهويل . . وترسم النماذج البشرية والصور الإنسانية التى تطفو على وجه الحياة بنزعة فنية صحيحة وشعور حى .

* * *

لقد كان معروف الأرناؤوط أول من حاول كتابة الرواية التاريخية الطويلة فكتب رواية « سيد قريش » و « عمر بن الخطاب » و « طارق بن زياد » و « فاطمة البتول » وتبعه فؤاد الشايب برواية « تاريخ جرح » ثم الدكتور شكيب الجابرى بروايات « نهم » و « قدر يلهو » و « قوس قزح » أما القصة القصيرة فعالجها الدكتور عبد السلام العجيلى ووداد السكاكينى . . ومظفر سلطان ، وألفة أدلبى ، ومطاع الصفدى ، وغيرهم من الشباب الذين تأثروا بالقصص الغربى فأخذوا يصورون بيئاتهم ومجتمعهم بأسلوب قصصى شائق . .

وبالرغم من ذلك فما يزال الفن القصصى عندنا فى بدايته . . ولما تصدر بعد روايات طويلة تصور مجتمعنا وتكون مادة يستطيع المؤرخ الأدبى أن يجعلها

موضوع دراسة ونقد . . وكل ما نستطيع قوله أن النزعة القصصية ، وقد خطت فى مصر خطوتها الكبرى – قد لامست ضمائر الكتاب الشباب فأخذوا يحاولونها بحذق محاولة طيبة ولكنها ما تزال فى بداية الطريق ..

* * *

نخلص من هذا الاستطراد الطويل إلى أن الأدب فى سورية كان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر محدود النطاق . . يعيش فى الآفاق الضيقة : مقالات وقصائد فى المناسبات الطارئة .. وقد لا يمتّ إلى المجتمع بأية صلة إلا من استطاع أن يتحرر وينطلق . . وهؤلاء قليلون منهم الكواكبي وأديب إسحق ، وفرانسيس مراش وجبرائيل دلاّل ورفيق العظم .

ثم جاءت مدرسة كرد على الفكرية التى نشأ فى ظلالها أدباء وشعراء فى طليعتهم محمد البزم وخير الدين الزركلى وخليل مردم وشفيق جبرى ومعروف الأرناؤوط وجميل صليبا وكامل عياد . . وكان أدبهم المنظوم والمنثور يتميز بجزالة الأسلوب وقوة المعنى ، وقد اتجه ، حتى فى البحوث الفكرية ، اتجاهاً تترقرق بين سطوره النزعات القومية ، إلى اتصاله بأدبنا القديم وبحضارة العرب فى أزهى عصورها .

وفى ظلال هذه الفئة نشأ شعراء توالى تفاعلهم مع مجتمعهم وترديدهم هذه الأهازيج التى ينبض بها عهد النضال – اتخذ أكثرهم الرومانسية مادة للتعبير عن منازعهم الذاتية ، فى طليعتهم عمر أبو ريشة وعمر يحيي وبدر الدين الحامد وأنور العطار ونديم محمد وزكى المحاسنى ورضا صافى ورفيق فاخورى وسليمان العيسى وشارل الخورى . .

ونذكر من الأدباء منير العجلانى وأمجد الطرابلسى وصلاح المنجد وعلى الطنطاوى وسامى الدهان ومحمد روحى فيصل وغيرهم وغيرهم .

ثم كانت الفترة التى بدأت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى يومنا هذا ، فعرف الأدب السورى انطلاقات جديدة فى معالجة حياتنا الفكرية وتفهم ألوان الأدب على اختلاف مذاهبه ، فى طليعتهم عبد الله عبد الدائم وشاكر مصطفى وعمر النصّ وسامى الدروبى ونزار قبانى . وغيرهم وغيرهم . .

وفى إلماعى إلى بعض الأسماء أردت أن أرمز رمزاً ، إذ لا مجال لسرد أسماء جميع

الأدباء الذين يتكوّن من إنتاجهم « الأدب السورى » خلال هذه الفترة الطويلة .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم المراحل التى مرّت بها الحياة الأدبية خلال المائة سنة المنصرمة إلى ثلاث مراحل :

١ – الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى (١٨٥٠ – ١٩١٤) .

٢ – الفترة التى مرّت بين الحربين العالميتين (١٩١٩ – ١٩٣٩) .

٣ – الفترة التى نعيش فى ظلالها منذ سنة ١٩٤٠ إلى يومنا هذا . .

وقد سار الأدب فى الفترة الأولى فى طور محدود من التأملات الذاتية والصيحات القومية . . وإذ كان السجع هو المسيطر على طبيعة الأدباء آنئذ فقد تمشت الركاكة فى أدبهم . . وكأنه قد شدّ إلى أدب عصر الانحطاط بأمراس متينة إلا من استطاع أن يفك تلك الأقمطة ويثور على قيود السجع والمحسنات البديعية ، ونستطيع أن نقول إن الأدب فى تلك الفترة كان يتمخض عن ولادة عسيرة إذ كان يتسم بطابع السجع المتكلف الذى يحاكى أسلوب المقامات .

كانت الآراء التى تدعو للثورة والتحرر والانطلاق وبذر بذور الحرية ومكافحة السلطان الجائر – كانت هذه الآراء تجيش بالصدور فيعبر عنها الأدباء بلغة قاموسية ، وكانوا يعانون الأمرّين لإلباس تلك المعانى صوراً قشيبة غير بعيدة عن ذوق القارئ وفهمه . .

أما فى الفترة الثانية فقد تطورت الحياة الأدبية تطوراً ملموساً . . قطع الأدباء صلتهم بفن السجع ومحسنات البديع . . وكان لتطور الدراسات الأدبية وكثرة الاتصال بالغرب و بمدارسه وترجمة روائع كبار الأدباء . . والرجوع بالأساليب إلى جزالتها المشرقة . . ثم هذه البواعث القومية التى أثارت الأمة العربية فاستيقظت بعد غفوتها الطويلة . . وما رافق نضال الوطن السورى من ثورات دامية أثارت الكتّاب والشعراء للتعبير عن نوازعهم والتفاعل مع الأحداث وتصويرها – كان لجميع هذه العوامل أثرها فى تطور فكرة الأدب فتعددت منازعه وتطورت أساليبه فلم يعد مقالة وقصيدة فحسب بل دخل الكثير من آفاق الفكر وأغوار

النفس ومجاهل العلم وشتى ميادين الحياة . . وكان أداة صادقة للتعبير عن المنازع والأحاسيس والأفكار . .

أما الفترة الأخيرة التى جاءت بعد الحرب العالمية الثانية والتى يعيش فى ظلالها صفوة من الشباب درسوا الأدب بمفاهيمه الصحيحة — فإن أدباء هذه الفترة قد تحرروا أو كادوا من المحاكاة والتقليد وأطلقوا لأنفسهم الحرية للتعبير عن كل خالجة من خوالج الحياة والمجتمع .

ولا أريد التوسع فى هذه الناحية ، فحسبى أن أقول إن مفهوم الأدب عند أدباء هذه الفترة يختلف كل الاختلاف عن مفهومه عند أدباء الفترتين الأوليين ..

إن جيلاً جديداً قد ولد فى عهد نستطيع أن نطلق عليه بدء عهد ازدهار الأدب العربى .

نشأ أفراده بعد أن قرءوا كثيراً ، وامتلأت نفوسهم بالصور الحية من الأدب العالمى . . تفاعلوا مع مجتمعهم وعبّروا التعبير الصادق عن تجارب أمتهم ومواطنيهم ولاسيما فى كارثة فلسطين . . وثورة الجزائر . . ونضال بورسعيد إثر العدوان (الإنكلو— فرنسى — الإسرائيلى) على مصر . . إلى تعبيرهم عن تجارب ذاتهم فى شتى ألوانها . . ورأينا فى آثار بعضهم صوراً مشرقة من القيم الفنية والقيم الجمالية ، وقد ثار بعضهم على قيود الأدب الكلاسيكى منطلقين أبعد ما يكونون عن الموضوعات التجريدية والوجدانيات الحالمة . هدفهم أن يصوّروا الروح الجديدة التى تتمثل فيها اليقظة والعمل والكفاح — كفاح أمتهم ونضالها المرير .

قلت إن أدباء هذه الفترة وقد تجاوبوا مع مجتمعهم والمجتمع العربى بشتى أقطاره . ثاروا أو ثار أكثرهم على قيود الأدب الكلاسيكى وآثروا الانطلاق .. ففى الشعر مثلاً آمنوا بنظرية الشعر الحر غير المقيد . . وهو فى نظرهم أصعب ألوان الفن ، لأنه « لا يعتمد كالشعر القديم على الإيقاع والتناسب وتوازن أجزاء البيت والألاعيب البلاغية . . إنه كصور — بيكاسو — تأخذ جمالها من انعدام النسب واضطراب الخطوط وتداخل الظلال وموت المسافات فى بعضها . . » .

وهذا الاتجاه الذى ألزم نزار القبانى نفسه به فى الدفاع عن نظرية الشعر

الحر يمثل رأى شعراء الشباب أصدق تصوير . . وهو رأى قد لا يقره عليه الكثيرون . . ولكنه لون يعالجه أكثر من شاعر . . ويقول به أكثر من أديب فى سورية بل فى أكثر الأقطار العربية . .

وليس معنى هذا أن شعراء الشباب ثاروا كلهم على الأوزان التقليدية . . وعلى الأساليب القديمة ، ولكن شعرهم بمضمونه وبتعبيره يختلف عن شعر من سبقهم من الأدباء .

والظاهرة الجديدة فى الشعر السورى الجديد أنك تلمس فى شعر بعض الشعراء « نزعة إنسانية عميقة تستقى تارة من الوجدانات الرومانتيكية وأخرى من المبادئ السياسية ، وثالثة من النكبات القومية ، ولكنها تلتقى دوماً عند منهل واحد هو الشعور بكرامة الإنسان » .

وأقف عند هذا الحد لأقول فى ختام هذا البحث إن تطورنا الفكرى الذى لامس حياتنا فى شتى مظاهرها قد انعكست أضواؤه على أذواق الشعراء ووجدان الكتّاب فكانت نهضة أدبية مباركة .. وإذا طائفة من الأدباء والشعراء يرجعون إلى ذاتهم . . إلى طبيعة بلادهم . . إلى نضال الشعب وكفاحه . . إلى ما يحسه الإنسان من مشاعر إنسانية . . يشاركون مشاركة قوية فى بناء أسس الحياة الأدبية بما ينشرونه من دراسات . . وما يلقونه من محاضرات . . وما يؤلفون من كتب . . وما يترجمون من روائع أدب الغرب .. وقد حرصوا جميعهم أن يكون حاضرنا موصول الآماد بماضينا الذهبى ، وأن يخلقوا من هذه الصلة بتاريخ العقلية العربية مستقبلاً زاهراً يعيد ما كان للعرب فى تاريخهم الطويل من الدور الخطير الذى لعبوه فى تاريخ العقل الإنسانى . .

ولا علينا أن نقول إن أدبنا المعاصر وقد أصبح له كيانه المتميز ، ما زال يستمد قوته من هذه الينابيع :

١ — من الأدب العربى القديم .
٢ — من أدب الأمم الحية .
٣ — من الذات السورية .
٤ — من طبيعة الأرض .

٥ – من كفاح الشعب ونضاله فى سبيل سيادته وسيادة العرب وحريتهم .

* * *

هذا ، وأكتفى فى هذه المقدمة ، بهذه الخطوط العامة عن مجرى حياتنا الأدبية خلال هذه الفترة الطويلة .. وقد ترجمت للأدباء والشعراء ترجمة لا أقول إنها وافية . . فهى « تعريف » بملامح الأدباء و « إلماع » إلى آثارهم أكثر منها دراسة شاملة . . إذ الغاية من هذا الكتاب إعطاء صورة مجملة عن سيرة أدبائنا ، ولو ذهبت أجعل من كل أديب وكل شاعر مادة للدرس لبلغت صفحات هذا الكتاب الألف . وما لهذا كتبت هذه السلسلة . . ومن جهة ثانية فإن أكثر أدبائنا الأحياء لم ينشروا آثارهم .. وما نشروه من كتب ودواوين لا يعطى الصورة الصادقة عما فاضت به قرائحهم وخطته يراعتهم . . ومع ذلك فقد حرصت أن ألم إلمامة واسعة بإنتاجهم الأدبى ، وأن أعطى نماذج من منظومهم ومنثورهم . . واضطررت أن أهمل الإشارة إلى البعض . . وإلى بعض أدباء الشباب . . وعذرى أنهم ما زالوا فى أول تفتحهم وانطلاقهم . . وأن إنتاجهم الموزع فى الصحف والمجلات لما ينتظمه كتاب.. وما نشروه من بواكير إنتاجهم لا يعطى الصورة الصادقة لأدب نرجو أن يتكامل . .

وإنى لأرجو أن أعود إلى هؤلاء وإلى من أهملت الإشارة إلى ذكرهم من الكهول والشيوخ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . والله الموفق . .

رزق الله حسّون

١٨٢٥ — ١٨٨٠

تميز القرن التاسع عشر فى شرقنا العربى بظهور فطاحل من رجالات الفكر ساهموا مساهمة فعالة فى التمهيد لهذه النهضة التى يقطف ثمارها أبناء الجيل الحاضر .. أظهرهم : جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، بطرس البستانى ، رفاعة الطهطاوى ، أحمد فارس الشدياق ، الشيخ ناصيف اليازجى ، عبد الله نديم ، أديب إسحق ، وغيرهم من رجالات الفكر فى البلاد العربية . .

من هؤلاء الأعلام رزق الله حسون الصحفى الأديب الشاعر الذى مرّت حياته بألوان مختلفة من الصراع .

فقد نشأ فى حلب ، وهو من أصل أرمنى ، ولم يكد يتم دراسته الابتدائية حتى سافر إلى لبنان حيث انتسب إلى « دير بزمار » فى جهات كسروان فدرس العلوم اللاهوتية واللغات الإفرنسية والعربية ، والعلوم الرياضية ، وكان بحكم نشأته يعرف الأرمنية والتركية .

وبرهن فى فترة الدراسة على تفوق ملحوظ . . . وتعلق منذ صغره بنظم الشعر . . ويحدثنا معاصروه أنه نظم بعض الأبيات وهو فى الثالثة عشرة من عمره . .

* * *

بعد أن أتم دراسته الثانوية فى لبنان عاد إلى حلب ليعمل مترجماً فى القنصلية النمسوية . . . وبعد بضع سنوات سافر إلى باريس ولندن فقضى فى ربوعهما فترة غير قليلة كان يتردد خلالها على المتاحف والجامعات ودور الكتب ويعبّ ، ما شاء له شبابه . من حياة الليل فى ملاهيهما ومسارحهما . . ولم يترك مظهراً من مظاهر المدنية الحديثة فى أوربا إلا اطلع عليه . . .

وحين أنهى تطوافه فى أوربا عرّج إلى مصر حيث مكث فيها فترة استنسخ خلالها الكثير من المخطوطات . .

ومن مصر إلى الآستانة حيث تعرّف على الكثيرين من رجالات الشرق والغرب . .

وبينما هو فى إستانبول نشبت حرب القرم بين الروم والدولة العثمانية ورأى أن يصدر جريدة عربية فى قلب عاصمة الدولة ، فأصدر جريدة « مرآة الأحوال » ويقول المؤرخون إنها أول جريدة عربية صدرت فى الآستانة .

وأخذ رزق الله حسون يدبج المقالات السياسية عن هذه الحرب وعواملها وخفاياها وما يكمن وراءها من أسرار . . .

فلمع اسمه بعد إصدار هذه الجريدة ، وتوثقت صلاته مع مختلف الهيئات السياسية ، ومع رجالات الدولة بصورة خاصة .

وحين نشبت حوادث سنة ١٨٦٠ فى سورية انتدبت الدولة وزير خارجيتها السياسى الكبير فؤاد باشا لإخماد الفتنة وإصلاح ذات البين والحيلولة دون تدخل الدول الأجنبية . . .

فكان رزق الله حسون من الأشخاص الذين اصطحبهم معه ليقوم بتعريب الأوامر والبلاغات .

وفى دمشق اتصل بالأمير عبد القادر الجزائرى ومدحه بعدة قصائد كان لها وقعها عند الأمير الشجاع الذى قارع الاستعمار فى بلاده مدة طويلة . .

وحين رجع فؤاد باشا إلى الآستانة ليتقلد منصب الصدارة العظمى سنة ١٨٦١ — أى رياسة الوزراء — رجع معه رزق الله حسون . .

وقد اعتمده كسكرتير خاص لتحرير مراسلاته الأجنبية وكتابة المذكرات السياسية .. وحين سافر إلى لندن لتمثيل الدولة العثمانية فى افتتاح معرضها الكبير صحبه معه أيضاً وقد أولاه الكثير من ثقته . .

وبعد عودتهما من لندن أسند إليه نظارة جمارك التبغ فلم يلبث فيها طويلاً . . واتهم بمدّ يده إلى وارداتها واستيلائه على مبالغ ضخمة فكفت يده وزجّ فى السجن .

وأرسل من السجن عدة قصائد استعطاف إلى فؤاد باشا عبر فيها عن آلامه وبراءته وندد بأعدائه الذين وشوا به هذه الوشاية السافلة للحط من كرامته . .

ومما قاله فى إحدى قصائده :

أعيذك الله أن تميــل إلى . . مقال واش يسعى على دخل
وكيف تأخــذنى بإغراء ذى حقــد يكشر بالعــداوة لى
أشبه خلقاً بالذئب مفترساً طار اسمه فى الأذى مع المثل
لولا البنــون وما أحــاذره ضيماً يلمّ بهم على عجل
ما كنت أضرع أن تحــولنى عن مقعد الذل ليس عن زللى

ولكن قصائده ورسائله لم تجده نفعاً فلجأ إلى وسيلة أخرى للخلاص من نكبته — إلى ما فعله الشاعر ابن زيدون ، حين زج فى أعماق السجن .

لقد فر . . وأخذ طريقه إلى روسيا . .

* * *

وفى روسيا .. — فى بلاد القياصرة — أطلق لسانه ينقد الحكومة العثمانية نقداً مرًّا .

ويحدثنا المستشرق الروسى العظيم كراتشوفسكى حديثاً طريفاً عن رزق الله حسّون فى كتابه « مع المخطوطات العربية » فيقول :

« . . . اليوم أحضر بيتشكوف مخطوطاً عجيباً ، وإنى لشديد الرغبة فى أن أفهم بعمق موضوع علاقات العرب مع الشعوب المغلوبة فى البلاد التى استولوا عليها . وأريد أن أفهم الروابط بين المسلمين والمسيحيين ، وأن أستوضح مسألة انتشار اللغة العربية فى سوريا ، ونظرت فى فهرس المكتبة فوجدت إشارة إلى إنجيل غير معروف مكتوب باللغة العربية ، وسألت بيتشكوف أن يحضره فأحضر بدلا من ذلك ورقة واحدة كبيرة مجوّفة تملأ الورقة كلها ، وفى تجويف حروف هاتين الكلمتين حروف كثيرة وسطور كثيرة ، وهاتان الكلمتان هما "ألكسندر نيقولا يفيتش" . فاعترانى بادئ الأمر جمود العجب والدهشة ، وحين أمعنت النظر إلى هذه السطور رأيت أنها من حروف عربية صغيرة ، وفى هذه السطور فى تلك الكلمتين كتب كل الإنجيل بلغة عربية . وسألت نفسى : "وأية علاقة بهذا لألكسندر نيقولا يفيتش بالذات ؟ ". ولكن عندما عرفت بعد ذلك من تقرير المكتبة أن هذا المخطوط جاء إلى المكتبة سنة ١٨٦٨ من رزق الله حسّون

فهمت كل شيء . وبسرعة تجمّعت فى ذهنى خطوط هذا الرجل العجيب الذى كان خطاطاً وسياسيـًّا وشاعراً ومغامراً، وقد كان هذا الرجل قوميـًّا عربيـًّا فخاف على حياته وهرب من تركيا إلى روسيا عبر بلاد القفقاس . وما كان ذلك ، على ما يبدو ، بدون مساعدة من ديبلوماسى روسى فى القسطنطينية هو الجنرال بوغوسلافسكى الذى كان من قبل الزعيم الأوارى شامل عندما نفوه إلى مدينة كالوغا . وكان حسون قد قضى عدة أعوام فى بطرسبورغ وحاول أثناءها فى بساطة أو سذاجة أن يحصل على مساعدة القيصر ألكسندر الثانى فى تأسيس دولة عربية مستقلة ، وفى سبيل ذلك ، على ما يبدو أهدى هذا المخطوط الذى هو عبارة عن طرفة فنية خطية .

وعندما دبّ إليه اليأس والقنوط فى محاولته تلك ، رحل حسون إلى إنجلترا وهناك استخدم الهجاء اللاذع وكلماته الملتهبة فى الكفاح ضدّ السلطان التركى والحزب الموالى لتركيا من العرب » .

وقال : « وقد كان حسّون محبـًّا للأدب وعالماً به ، وقد زيّنت الكتب التى كتبها بخطه الجميل خزائن المخطوطات المختلفة وتجدها ببيروت وحلب ولندن ، وقد لقى حسون فى بلاد الروس كثيراً من كرم الضيافة مما هزّ شاعريته فنظم فى مدحهم بضع قصائد كانت فى الواقع شعراً ساذجاً إلا أنها صادرة من قلبه ، وكذلك قام حسون بترجمة أصيلة جدًّا لبعض أشعار الحكمة التى نظمها كريلوف الشاعر الروسى ونقلها من الروسية إلى العربية »(١) .

* * *

بعد أن مكث فترة طويلة فى روسيا شدّ الرحال إلى إنكلترا واتخذ لندن مقاماً له حيث استأنف إصدار جريدته « مرآة الأحوال » وجعلها منبراً حرًّا للتنديد بسياسة الحكومة العثمانية . . .

* * *

وإذ كانت بينه وبين الشيخ أحمد فارس الشدياق خصومات أدبية عنيفة فقد أصدر إلى جانب جريدته نشرة أدبية بعنوان « رجوم وغساق إلى فارس

(١) مع المخطوطات العربية لكراتشوفسكى ص ٢٦ .

الشدياق » . . لم يصدر منها غير عددين كل عدد فى ١٤ صفحة وكان ذلك سنة ١٨٦٨ . . .

ثم أوقفها كما أوقف جريدته ، فأصدر عام ١٨٧٦ مجلة نصف شهرية عنوانها « حل المسألتين الشرقية والغربية » .

والغريب أنه بحث هذه القضايا السياسية الشائكة بلغة الشعر .

* * *

حين فشل رزق الله حسون فى عالم السياسة وملتوياتها لجأ إلى حياة الفكر — أى إلى عالم الأدب وأفقه الواسع الرحاب . . .

عنى بالمخطوطات التى تحتويها مكتبة لندن فنسخ أكثر من عشرين مخطوطة أهمها ديوان الأخطل وديوان ذى الرمة ونقائض جرير والفرزدق وصبح الأعشى والمتمم لابن درستويه والأناجيل المقدسة ترجمة أبى الغيث الدبسى وديوان حاتم الطائى الذى تولى طبعه ، عدا الكثير من المخطوطات نقلها من مكتبات روسيا وفرنسا وإنكلترا وألمانيا وهولندة . .

وهكذا ، فقد اتخذ إنكلترا موطناً ثانياً فقضى فى ظلال ربوعها بقية حياته . . يكتب ويؤلف ويعلّم . . وقد تتلمذ عليه كثيرون . . ومن المستشرقين الذين تتلمذوا عليه وأفادوا من علمه وأدبه « إدور هنرى بالمر » الذى عرف فى دوائر الاستشراق باسم الشيخ عبد الله والذى حذق اللهجات العربية ونظم الشعر العربى وقام برحلة إلى صحراء سينا فلقى حتفه على يد بعض الأعراب الذين ارتابوا فى نياته وشكوا فى عوامل رحلته فقتلوه . . كما آزر بدجر Budger على وضعه معجمه العربى الإنكليزى وكتب له مقدمة بالعربية .

هذا الصحفى الأديب الشاعر الذى عاش أخريات أيامه فى لندن بعد أن حرم من العودة إلى وطنه حلب — رأى أن الاشتغال بالأدب هو خير ما يشغل به نفسه . أى تغلّب على فراق الأهل ونأىِ الوطن بنشر المخطوطات وتحقيق الدواوين وكتب الأمثال ونظم الشعر . . فقد نظم بعض هواجسه بشعر كان لنا منه ديوانان . .

أحدهما : « أشعر الشعر » . .

والثانى : « النفثات » . .

ففى ديوانه « أشعر الشعر » رجع إلى بعض قصص التوراة ينظمها ويختار ما له صلة باللوعة والكمد . . وبالحزن والوجيب والألم . . أى بالحياة التى عاشها .. ولم يجد ما يعبّر عن هواجسه غير شعر أيوب . . فاختار اثنين وأربعين فصلاً من سفر أيوب نظمها شعراً . . كما اختار فصلاً من نشيد موسى فى الخروج وآخر من نشيده فى التثنية ، وثمانية فصول من نشيد الإنشاد لسليمان ، واثنى عشر فصلاً من الجامعة . . وخمسة من مراثى أرميا . .

ولا شك أن الأدباء يقدرون الجهد الذى يلاقيه الشاعر فى نقل تلك القصص إلى الشعر . . وهو جهد مضن . . ولكن ثقة رزق الله حسون بنفسه والآلام التى تحملها دفعته أن يركب هذا المركب الخشن لينفّس عن صدره بعض هواجسه وآلامه المكبوتة . .

وقد أشار فى مقدمة الديوان إلى صعوبة هذه المحاولة التى أقدم عليها فقال :

« أجمع فضلاء المغرب الذين استّمازوا البلاغة بالحق ، على أن أيوب وهوميروس وشكسبير أشعر الخلق . .

واصطفقت آراء الأكثرين على تفضيل أيوب إجادة وله السبق . . فلما اتخذت سفر أيوب أيام النكبة الممتدة — سميراً ، نظمته قريضاً ، ولم أر له فى آثار السالفين نظيراً ، سميته "أشعر الشعر" اتباعاً لفضلاء المغرب رأياً ومقالاً مأثوراً ». .

ونلاحظ أن الشاعر قد التزم فى مقدمته السجع — لغة الأدباء فى ذلك العصر ، ويبدو الجهد الذى عاناه فى نظمه هذه الفصول من أسفار أيوب بالشعر . .

* * *

وقد خانته القافية فى أحد الفصول فنظمه على طريقة الشعر المرسل ، ومن رأيه « أن الشعر نظم موزون ، ولا تشترط القافية إلا لتحسينه . . فقد كان الشعر شعراً قبل أن تعرف القافية ؛ كما هو عند سائر الأمم ؛ ولم يسمع للعرب سبعة أبيات على قافية واحدة قبل امرئ القيس لأنه أول من أحكم قوافيها » .

ليس فى شعر الديوان هذه الطلاوة التى نجدها فى شعرنا المعاصر مثلاً . . ولا تلك القوة والجزالة التى نجدها فى الشعر القديم . . ومع هذا فلا نستطيع أن ننكر عليه جهده فى نقل قصص دينى مستوحى من التوراة إلى لغة الشعر . .

ولا سيما وقد كانت اللغة العربية فى بدء تحررها من أقمطة عصور الانحطاط .

* * *

وقبل صدور ديوانه هذا « أشعر الشعر » الذى أتم نظمه فى قرية « وندسور » إحدى قرى لندن سنة ١٨٦٧ كان قد طبع ديوانه « النفثات » فى لندن سنة ١٨٦٩ . . وهو فى قسمين أولهما قصص كريلوف شاعر الصقالبة التى وضعها على طريقة بيدبا الفيلسوف الهندى فى كليلة ودمنة ولافونتين شاعر الإفرنسيين وقد عرّبها نظماً فى ٤١ قصة جاءت فى ٦٩ صفحة . .

وقد يكون رزق الله حسون أول أديب عربى التفت إلى خصائص الأدب الروسى فنقل بعض أقاصيصه . .

وفى القسم الثانى من ديوانه قصائد موجهة إلى الشيخ فارس الشدياق وهى هجو مقذع من الوخز المؤلم . .

وقد أثارت هذه القصيدة إمام الهجو الشيخ فارس فلم يتمالك حين قرأها إلا أن قال : « كان حسّون لصًّا وله سرقات ، فأصبح صلاً وله نفثات » .

ومن ترجمته لشعر كريلوف نعلم أن الأدب الرمزى الذى اعتمده بعض أدباء الروس فى نقد أساليب الحكم القيصرى قد صادف هوى من نفسه فنقل تلك القصص ليشير إلى فساد الحكم فى العهد العثمانى .

فالقصائد المعربة تتناول هذه الصور التى تصور لنا فساد الحكم على ألسنة الحيوانات . . وتشير إلى صلف الحكام وقسوتهم — إلى الظلم والعدل ، إلى القسوة والرحمة . . إلى غير ذلك من هذه الخطوط التى ترينا تحكم الأقوياء فى الضعفاء ، وحكم الأغبياء بدلاً من حكم الأذكياء . . فى حكايات عن النسر والعنكبوت ، عن البلبل والحمار ، عن الذبابة والنحلة ، عن الفأرة والجرذ ، عن الذئاب والغنم . . عن المرآة والقرد ، وغير ذلك من عشرات القصص . .

وتؤلف هذه القصائد أكثر من نصف الديوان .

وخص الباقى بالمناسبات ، من تهان إلى حنين ، إلى وصف شجونه وآلامه ، إلى مدح الأمير عبد القادر الجزائرى لوقوفه ذلك الموقف النبيل من حماية نصارى دمشق فى فتنة ١٨٦٠ .

وديوانه هذا الذى طبع فى لندن قبل مائة سنة يؤرخ طوراً من أطوار حياة هذا الصحفى الأديب الشاعر الذى عاش فى منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت حياته مليئة بالتيارات السياسية والأدبية معاً . . وهى ترمز إلى طبيعة الحياة وألوان الحكم ومذاهب الشعراء والأدباء وطرق تفكيرهم وصدى نزعاتهم وهواجسهم والفارق بين أدبنا وأدبهم فى تلك الفترة . .

وبعد فنقف عند هذا الحد ، إذ لا مجال للإسهاب عن رزق الله حسون أكثر من هذا . . وإن كان مجال الحديث عنه واسعاً جداً . . وهكذا ، فقد مرت حياته بألوان مختلفة من الصراع . . وقضى أيامه الأخيرة بين المحابر والأقلام والكتب يؤلف ويكتب ويحقق وينظم الشعر ويترجم عن الروسية والإنكليزية والإفرنسية . وظل فى وندسور — تلك القرية الهادئة — إلى أن فاضت روحه إلى بارئها سنة ١٨٨٠ .

ويقول معاصروه :

إنه « وهو فى غربته ، كان يردد دائماً هذين البيتين اللذين يدلان على حرقته وألمه من النهاية المحزنة التى انتهت بها حياته وهو بعيد عن أهله ووطنه » :

قد قضى الله أن أموت غريباً   فى بلاد أساق كرهاً إليها

وبقلبى مخدرات معان   نزلت آية الحجاب عليها[1]

---

(١) إن جميع الذين أرخوا لرزق الله حسون عزوا له هذين البيتين اللذين كان ينشدهما فى غربته وهما ليسا من شعره ، فقد أورد المراوى فى سلك الدرر وهو يترجم للشيخ عمر بن حسين اللبقى المتوفى سنة ١١٩٨ هـ تشطيره لهما بقوله :

قدر لى أن أكون غريباً   بين قوم أغدو مضاعاً لديها

ورمتنى الأقدار بعد دمشق   فى بلاد أساق كرهاً إليها

وبقلبى مخدرات معان   حين تبدو : تختال عجباً وتيها

صرت إن رمت كشفها فأراها   نزلت آية الحجاب عليها

وهذا يؤكد أن البيتين لشاعر قديم غير معروف ، فإن وفاة حسون سنة ١٢٩٨ هـ ووفاة اللبقى سنة ١١٩٨ هـ أى بينهما مائة عام .

ومن شعره :

قرد ونظارة

مترجمة عن شاعر الصقالبة كريلوف

قرد على الزمان أعياه الكبر
وساءه من وهنه ضعف البصر
بَلَغَهُ فيما مضى من النفر
دواء هذا الدّاء فيهم مشتهر
بآلة الزجاج تحديق النظر
فابتاع نظارات بلّور أغر
مجرباً أحسنها للمختبر
فى رأسه يضعها كما ائتمر
ثم على ذنبه إذا اسبكرّ
وكان هذا دأبه وما ظفر
بما تمنّى نفعه ولا شعر
حتى اعتراه اليأس من فرط الخور
ألقى بها يقول موفور الكدر
أحمق من صدّق أقوال البشر
مديحهم كذب نفاق وهذر
صدقتهم بذا فكنت المغترر
ضربها ضرباً شديداً بالحجر
بدّدها على الثرى شذر مذر
وقد فشا هذا الخطاء وانتشر
فى الناس مَنْ أفعالهم على غرر
فكل شىء نافع له خطر

عند الذى يجهله لمحتقر
لا قدر الله جهول إن قدر
فى فرصةٍ يكافئ الخير بشر

مرآة وقرد

حكى لنا الراوون عن قرد ودُبّ فى سمر
فى صفحة المرآة قـــرد مذ تراءى وانبهر
وأعجبتـــه نفســـه وهيئـــة فيها اشتّهر
دبّ على الدب يداً هـــزّ به ثم انتهر
وقال ما أشنأ ذا الممسوخ من بين الصور
لو حلّ بعض قبحه بى فاض قلبى وانفطر
أقبح به ذا سحنة شوهاء سوداء الوبر
ونوعـــه جميعـــه أبشع خلق فى النظر
أجابه الدّب على تعبيره بمـــا ذكر
أيا أخى القرد التفت وارجـــع لمرآك البصر
تجد على نفسك ما أنكرت منى فالحـــذر
الخلق لا يرون ما فى ذاتّهم من العور
مسألة مبحـــوثة بالأمس عنها ذو عبر
إن الرشى يأكلهـــا بكر ويحكى عن عمر

ذبابة ونحلة

يوم اجتلاه الربيع واعتبقت نُواره بالرياض باهرها
والبان ترقصه الصبا مرحاً والطير كاسية منابرُها

والنحل حول اليعسوب جائلةٌ ... كالفرس غائرة أساورهـا
ذبابة قعدت على فنن ... تعجب من نحلةٍ تجاورها
قالت النحلة : ما معيشتكم ... أولها متعب وآخـرها
مرّ الدقائق تجهدين ولو ... إياك كنت لما أصابرها
ولو تحملتُ قدر يومك لا ... أشك فى هلكة أحاذرها
أليس بى عِبرة وأحسبنى ... فى جنة طافح بشائرها
وشغلى البحث والتطلب عن ... دار بها موسم أبادرها
لا بدّ ألقى الذباب قاعدة ... على أسرّتها أسامرها
فى بلدتى هذه أدور على ... القصور يعرفنى أكابرها
لا فخر والـوزراء كلهم ... والغانيات ، وقد أعاشرها
أقبل الجيد والجبين وفى ... المباح من لثمه أكابرها
كأننى شامة الخدود وكم ... جمشت تفاحها أعاقرها
وللضيافات والولائم إن ... أسعى فخلفى مشى جماهرها
مطاعمى آنيتها الخزف ... الصينى مثمنهـا وفاخرها
ولقمتى ما اشتهيتها لفمى ... قبالتى لا عنًى ولا كـرّها
أرتشف الخمر من زجاجتها ... والقوم من فضلتى تباشرها
هلاّ وإيّاى تذهبين ترى ... معيشة بالهنا أخامرها
ردّت جواباً : بلى ، وبلغنا ... أخباركن الرواة خابرها
بئس الهوام الذباب بعضها فى ... الأرض بادى الملا وحاضرها
إذا أتيتن دارة رفعت ... لا للسلام يداً معاشرها
يهز إخراجكن مروحة ... للوقت كبارها أصاغرها
فتطردن عن البيوت وفى ... وجوهكن انطوت معابرها
فاستضحكت تلكم الذبابة من ... كلام نحلتنـا تقامرها
قالت : فما لنا وذمّهمُ ... أو بغضة تتقى نهابرها
الطرد لا تعبأ الذباب به ... تعود فى كرّة تظافرها
أيتها النحلة افهمى كلمى ... بالغمز عمن يشار ظاهرها

فرنسيس المراش

١٨٣٥ – ١٨٧٤

أديب عالم ، وشاعر رومانتيكي ذو نزعات فلسفية . . .

درس الطب وتعلق بالأدب فتأرجحت حياته بين الطب والأدب ، وقضى أيام شبابه وكهولته بين حلب وباريس . . . فكانت أيام البؤس والشقاء أكثر من سويعات السعادة والهناء ، صدمته المصائب منذ نعومة أظفاره فأصيب وهو فى الرابعة من عمره بداء الحصبة حتى كادت تودى بحياته . . . إلا أنه شفى منها وبقى فى آثارها من جسمه وبصره ما نغص عليه عيشه وأوهن قواه مدى العمر . . .

تعلق بالأدب فقرأ كثيراً . . واستهواه الشعر فحاول النظم وهو صغير . . . ثم ملك قياده وهو شاب . . .

وكان إلى حبه الأدب ، ذا ميل إلى دراسة العلوم . . وإلى دراسة كتب الطب بصورة خاصة . . .

وقد تتلمذ فى حلب على طبيب إنكليزى مدة أربع سنوات مكنته من ممارسة الصناعة ولكنه شعر أنه لم يبلغ منها مرامه . . . فدفعته نزعته العلمية أن يسافر إلى باريس لدراسة الطب فى كليتها . . .

لم يكد يترك حلب ويركب البحر حتى أخذ يسجل خواطره عن هذه الرحلة . . وحين وصل باريس ورأى معاهدها ومتاحفها وحدائقها واستمتع بمباهجها بهرته أضواؤها ومظاهر حضارتها فثارت نفسه ونظم عقيب وصوله موشحاً طويلاً عبر عن أحاسيسه . ومما جاء فى مطلع هذا الموشح :

إننى قد جئت باريس العلا ورأت عيناى ما قد سمعت
شمت ما لا نظرت عينى ولا سمعت أذنى ولا روحى وعت
آه ما هذى المبانى والملا هل بروج أم نجوم طلعت
كل حى أم جماد قد سما وبثوب المجد والكبر كسى
مشهد يسطو على العقل بها فيه من آى بها الدهر نسى

ووصف فى عدة قصائد غابة بولونيا ، وساحة الكونكورد والحفلات الراقصة والسهرات الخاصة والكثير من المظاهر الحية . . . ثم انصرف إلى الدرس . . . ولكن دروس الطب أتعبته . . وتناوبته الأمراض فهدّت جسمه ، وأصيب بعد دراسته سنتين ، بفقد بصره . . . فتوقف عن الدرس . . . وزاد فى مصابه أن بلغه ، وهو فى الغربة النائية ، فقد والديه . . . فاسودّت الدنيا فى وجهه وأضواه اليأس والألم ، فرثاهما بقصائد تعبر عن لوعته وعظم مصابه ... فمن قصيدة يقول :

فأنا أبكيكما يا والـدىّ ... بدمـوع ما بـكاها أحد
إن فى موتكما القاسى لدىّ ... مـات حقـّـا سندى والعضد

حتى باريس أصبحت عنده كابية مظلمة :

لم أجـد والله فى هذى البـلاد ... غـير داء لى وللغـير دوا
ذقت فيها كل كاسات النكاد ... وكما غـيرى من البشر ارتوى
يا فؤادى قد جرى فيك الردى ... فعلى هذا الردى مت أو عش

وعاد إلى وطنه فلازم بيته . . . وكان لهذه الأرزاء المتوالية أثرها فى نفسه الحزينة المكتئبة التى غلب عليها التشاؤم . . .

وكان فى عزلته يأنس بأدب أبى العلاء وفلسفة شوبنهور . . . وقد أملى خواطره نثراً وشعراً فترك أكثر من كتاب واحد فى أغراض مختلفة . . .

* * *

عرف فرنسيس المراش بين مواطنيه بنزعته الحرة وكرهه لكل عتيق ولكل ما يتنافى ونزعة التجدد . . . وذهب بعض المفكرين إلى أنه أول من نادى فى الشرق بمذهب داروين ... كما كان ذا نزعة ديمقراطية .. يريد مثلاً ألاّ يقتصر البرلمان على ذوى النفوذ والأغنياء وأصحاب الجاه من الإقطاعيين ، بل دعا إلى أن يتمثل الشعب بكافة طبقاته فى الندوة النيابية ... فمن كلماته قوله :

« لماذا يوجد حق لأصوات الأغنياء فترنّ فى قاعات السياسة ولا يوجد الحق لأصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الأكبر والأهم والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات » .

إنه يريد لصوت الشعب أن يرتفع عالياً فى الندوات السياسية . . . فأعظم المقوّمات لصحة السياسة وإقامة الحق عنده هى :

« مجرى شرائعها متساوية على كل أبنائها بدون أدنى امتياز بين الأشخاص أو تفريق بين الأحوال . . . فلا يجب الأخذ بيد الكبير ودفع الصغير . . والالتفات إلى الغنى والإعراض عن الفقير . . . ولا مؤازرة القوى ، ومداراة الضعيف . . . بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل فى نظام الحق ، لأن كل فئة من الناس لها منزلة فى طريق السياسة تستدعى النظر إليها ، فكما أن العظماء والأغنياء هم القوة الواصلة ، كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة . . . فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير ، ولولا تعب ذوى الفاقة لم تسهل متاجر أرباب الغنى ، ولم تحرس أموالهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة » .

وهو ذو نزعة اشتراكية حرة . . . ينصر العامل على أرباب العمل . . . أو – وهذا الأصح – يريد أن يأخذ العدل مجراه . . . وأن تكون الحقوق متساوية كل بقدر جهده من العمل . . .

هذا ، وبالرغم من ميوله الأدبية فقد كانت النزعة العلمية فى أدبه أغلب . . فثقافة العقل عنده لا تكون إلا بترويضه على العلوم . . . وإلى هذا أشار فى بعض مباحثه :

« لا يتم تثقيف العقل إلا بالتروض فى العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية . . . على أنه لأمر محقق كون العلم يخلق فى الإنسان قلباً نقيًّا وروحاً مستقيمة ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية ، ونافراً عن كل ما يشين الجوهر الإنسانى ، ولا يترك له سبيلاً إلى التفكير بالأمور الدنيَّة والميول المنحرفة الأمر الذى منه يشتق كل أفعال الشر . . . وعليه تبنى كل دعائم التوحش . . . »

إن مثل هذه الآراء الشائعة اليوم لم تكن مطروقة بالأمس . . . وكان لتأثره بمفكرى الغرب أثره فى نفسه وفى أدبه ، ويعتبر باتجاهه هذا فى طليعة أدباء عصره الذين تناولوا – فى العصر المظلم – مباحث الديمقراطية والحرية وحتى النزعات الاشتراكية .

يقول قسطاكى الحمصى : « إذا نظرت فيما ألفه فى هذه المدة الوجيزة ، أى منذ عودته من باريس إلى وفاته ، وهى مدة لا تتجاوز ست سنوات ، أيقنت أن هذا الرجل الكفيف أوتى من حدة الذهن وسرعة الخاطر وغزارة المادة وجودة القريحة والألمعية ، ما كان فيه نسيج وحده . إلا أنه كان قليل التثبت فيما يكتب فبادرت من قلمه أغلاط فى اللغة ، وألفاظ عامية استدرج إليها » .

« فهو كاتب مبادئ وتفكير ، ذو خيال مبدع ، عبارته رقيقة ، سهلة ، ركيكة أحياناً ، ليس لها نصاعة أديب إسحق ولا هديره ، ولا جزالة الشدياق وظرفه وتهكمه . غزير الأفكار ، خطابى اللهجة فى كل من شعره ونثره . ولعله أسبق كتاب العصر للمطالبة بإنشاء دنيا جديدة يسودها السلام ، ويرف عليها الوئام فى كتابه " غابة الحق " » .

نظم كثيراً إلا أنه قليل العناية بأوزانه ، قليل التدقيق بألفاظه ، ولعل هذا أثر من حبه للحرية ودعوته للتحرر من القيود . . . وهو شاعر حساس ، لا بأوزانه وألفاظه ، بل بخياله وحسه الدافق ، فالصورة عنده تسابق الألفاظ . . . واضح الصور ، واسع الوصف ، يكثر عنده الحواشى والكلمات الغريبة ، عنده ميل بارز للسجع والاستعارات والتشابيه ، نظم الموشحات كما فعل الأندلسيون[١] .

واعتبره الأستاذ مارون عبود شيخ نقاد لبنان — اعتبره زعيماً من زعماء الأدب ، فكتب عنه يقول[٢] :

« كان فرنسيس المرّاش ، على قصر عمره ، زعيماً أدبيًّا ترك دويًّا ، وإن لم يكن فى الدنيا ، كما أراده أبو الطيب ، فقد بلغ الفرات زئيره والنيلا ، وكيف لا يسوغ لى أن أستعير له وصف المتنبى لأسده وهو الذى اجترأ على نشد الحرية يوم كانت الأفواه مكمومة ، والخزامة فى الأنوف والشفاه » .

ثم يقول :

« فرنسيس المراش حلبى ، وعن حلب الشهباء أخذ لبنان لغة الضاد ، وأعطاها ما عرفه فى القرن السابع عشر من لغات أجنبية .

---

(١) يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسات الأدبية ج ١ ، ص ٦٩٣ .

(٢) رواد النهضة الحديثة ص ١٢١ .

كان الشدياق في ذلك الزمان ، يملي من وراء بحرنا، يجلوها خرائد ، وكان اليازجي والبستاني والأسير والأحدب يؤلفون ويصنفون ، أما هذا الشاب فكان يتطاول إلى إنعاش الأدب ، ويحاول بثّ دم جديد في الجسم المترهل ، كان هو بلبل الشمال الصداح ، أدركته حرفة الأدب . فازور لتجارة أبيه وأخيه الواسعة ، ووقف فكره وقلبه على النظم والنثر وقفاً خالصاً لوجه الأدب والفكر ، فكان كاهن الحرية الأعظم في هيكلها الذي بناه لها رفيع العماد في برية الشهباء كما سترى في "غابة الحق" .

إن مخيلة المراش ككأس أبي نواس ، فأنّى اتّجهت في شعره ونثره تجدها منتصبة أمامك كالمنارة أمام السفن الضاربة في عرض البحار .

قال أكثر شعره في أغراض جديدة ، وعبارته سهلة ، وأحياناً ركيكة ، غزير الأفكار ، وكثيراً ما يعجز عن تأديتها بعبارة صحيحة ، متشعّب المواضيع ، تغلب اللهجة الخطابية على ما يكتب شعراً ونثراً ، واضح الصور ، واسع الوصف ، تشابيهه واستعاراته وصوره مؤثرة ، ولكنها تفيض عذوبة وحناناً ، يغلب عليه التشاؤم في غزله ، وفي أشدّ مواطن الفرح تجد على وجهه جهومة ابتسامة حزينة إلا أنها صادقة » .

* * *

ومن تصانيفه :

١ — « غابة الحق » كتب أكثر فصوله في باريس، وقد تضمن الكثير من الآراء الفلسفية والاجتماعية ، وفيه دعوة إلى الحرية ، ودعوة صارخة إلى السلام . . وهو أقرب إلى أن يكون قصة من القصص . . . طبع في بيروت عام ١٨٨١ .

٢ — « مشهد الأحوال » أملاه في حلب، وقد تضمن الكثير من النزعات الحرة ، فسلك فيه مسلكاً فلسفيًّا اجتماعيًّا، وعالج أحوال الكون من جماد ونبات وحيوان وإنسان،وجرى فيه مجرى المقامات . . وقد طبع في بيروت أيضاً سنة ١٨٨٣ .

٣ — « رحلة إلى باريس » ، وصف للرحلة التي قام بها سنة ١٨٦٦ والطريق التي قطعها بين حلب والإسكندرونة .

٤ — « شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة » .

٥ — « المرآة الصفية فى المبادئ الطبيعية » : يبحث بحث العالم فى الحجارة والأجسام البسيطة والمركبة والأنسجة . . .

٦ — « الكنوز الفنية فى الرموز الميمونية » وهذه قصيدة رائعة فى خمسمائة بيت ضمنها ، كما يقول جرجى زيدان ، خيالات شعرية رمزية كما يفعل أدباء الإفرنج . وقد جاراهم فى شعره ونثره بالالتفات إلى المعنى دون اللفظ ، فجاء أسلوبه ضعيفاً .. والميمونية نسبة إلى بطلها ميمون بن مفتقر ، سرد فيها بعض حوادث وقعت فى عهده . . .

٧ — ديوان « مرآة الحسناء » وقد طبع فى بيروت سنة ١٨٨٣ .

٨ — « تعزية المكروب ، وراحة المتعوب » : خطبته حول تاريخ الدول المنقرضة ، تبدو عليها نزعة فلسفية تشاؤمية . .

٩ — « دليل الحرية الإنسانية » .

١٠ — « در الصدف فى غرائب الصدف » رواية اجتماعية .

وهذه مقطوعات من شعره :

الاعتزاز بقومه العرب

حتامَ تزرون يا إفرنج بالعرب ... مهلاً فلا خير بابن قد زرى بأب
إن كان بالعلم جئتم تفخرون فمن ... معالم العرب كل العلم والأدب
تذكروا ما غنمتم يوم ندوتكم ... فى أرض أندلس من تلكم الكتب

الشعراء المداحون

لا أمدحنّ سوى لبيب فاضـــل ... أو صاحب حامى الذمار مؤاس
مالى وللألقـــاب ، فهى بأهلهـــا ... جـــاءت كأجراس على أفراس
كم دولة ، أو رفعة ، أو عـــزّة (١) ... شريت بمال ، أو برشفة كاس
كلمات تعظيم عـــلى مستحقر ... لم يسو فلساً فى غـــلاء الناس

---

(١) هذه ألقاب كانت تباع وتشرى فى العهد العثمانى فيصبح الإمعة والجاهل والوضيع صاحب رفعة « رفعتلو » وعزة « عزتلو » وسعادة « سعادتلو » ويمنح عليها رتبة « البكوية » !

الشعر

الشعر ليس يجلّه شيء سوى لفظ جميل فيه معنى مطرب

باريس

مَنْ لا يرى باريس فى دنياه لم يدر ما الجنة فى أخراه
ذى جنة ليس لها أشباهُ ما صاح فى جوارها : ويلاه
سوى عديم الذوق والفقير !

فى وصفه لإحدى الحسناوات

وقوامٍ كأنه صنم الأسـ رار يوحى بعشقه للسرائر
هيكل الحسن واللطافة لم يحـ رق عليه سوى بخور الضمائر

جبرائيل الدلاّل

١٨٣٦ — ١٨٩٢

شاعر سياسى حرّ ، مرّت حياته بسلسلة من التيارات ، فعلا مقامه ، وسطع نجمه . . ولم يكد يجرد قلمه لشجب سلطان المستبدين ، وكشف الستار عن الأوهام والخرافات التى يتخذها بعض المشعوذين سلاحاً فى التمويه على عقول السذّج حتى قامت الدنيا عليه ، فكان مصيره السجن فالموت . . .

ولد فى الثالث من شهر نيسان سنة ١٨٣٦ من أبوين كريمين . . كان أبوه عبد الله الدلال من وجوه حلب ورجالاتها المشهورين . وكان بيته من أعرق بيوتات حلب . وكان إلى هذا ملتقى رجالات الفكر والأدب ، ففى صالونه الأدبى كان يجتمع غير واحد من الأدباء يتدارسون دواوين الشعراء ويقرأون المقامات وينظمون شعر المناسبات ويعرضون لشئون الدولة بالهمس والتلميح والإشارات .

وقد عنى الأب بتربية ابنه منذ الصغر . . ولكنه لم يبلغ الحادية عشرة من عمره حتى فقد أباه . . فكفلته عمته وأرسلته إلى مدرسة « عين طورا » فى لبنان . .

ثم عاد إلى حلب وعكف على دراسة اللغتين الإفرنسية والإيطالية — وهما اللغتان اللتان دخلتا البيوت المسيحية فى تلك الفترة قبل غيرهما من اللغات — وكانت الإفرنسية أكثر تغلغلاً ونفوذاً . .

وما مرّت سنوات على دراسته لهاتين اللغتين حتى أصبح من المتمكنين بهما . وحذق إلى جانبهما اللغة التركية — لغة الدولة آنئذ — إلى جانب العربية التى تمكن منها — وهى لغة آبائه وأجداده — وأصبح فيها من الأعلام .

ومذ تفتح ذهنه إلى المعرفة بدأ يثقف نفسه الثقافة العالية فانكب على علوم ذلك العصر يعبّ من رحيقها ، وساعده على ذلك فرط ذكائه وقوة حافظته وشدة ميله إلى العلوم .

كان يحفظ ، وهو فى سن الشباب ، ديوان المتنبي وأكثر شعر صفى الدين الحلّى ومقامات الحريرى ، وكثيراً من مقدمة ابن خلدون والمعلقات السبع وطائفة

من أشعار العرب ، وقسماً كبيراً من القرآن الكريم ، وبذلك تكوّنت عنده ملكة قوية ليكتب وينظم ، فكتب كثيراً ، ونظم فى مختلف موضوعات الشعر . .

وكان لمعرفته اللغات الأجنبية أثرها فى تكوينه الثقافى .

واستهوته كتب فولتير فقرأها كلها .. وكان عنده الأديب المفضّل الذى أثر تأثيراً كبيراً فى اتجاهه الفكرى ونزعاته الحرة . .

وكان يحلم بالسفر إلى أوربا . .

ولكن أنّى له ذلك وضيق ذات يده يحول دون تحقيق بغيته . .

وكانت إستانبول آنئذ مهوى أفئدة الكثيرين ، وكان يتحرق شوقاً لزيارتها فشاءت الظروف أن يتوفى عمه بلا عقب ، وأن يترك ثروة كبيرة ، فسافر إليها واستولى على حصته من التركة . .

وهناك ، فى مدينة السلاطين ، بقى خمسة أشهر ينعم بفيض جمالها ويغوص فى بحر لذاتها ويتأمل سحر سمائها ومفاتن بوسفورها . . ويتعرف إلى مغانيها وآثارها وجوامعها وقصورها . ويختلط برجالاتها . . واستطاع فى هذه الفترة القصيرة أن يعرض شيئاً من بضاعته وهى ذكاؤه وعلمه وشتى فروع ثقافته فظفر بإعجاب الكثيرين ممن اتصل بهم من رجالات الفكر والدولة معاً .

وكان يتنقل بين حلب وإستانبول بعد أن تزوج فتاة يقول الذين عاصروه إنها كانت من أجمل فتيات سورية . .

وشدّ الرحال بعد زواجه إلى أوربا — زار فرنسا وإيطاليا وإسبانيا . .

وفى الفردوس المفقود تجلّت له عظمة العرب . . فما كاد يطوف أبهاء قصر الحمراء فى غرناطة ويرى بدائع الفن فى جامع قرطبة حتى وقف مشدوه الفكر إزاء تلك الآثار العظيمة التى تركها العرب كأثر خالد من آثار عبقريتهم فى الفن والعمارة . . وفى المدنية والحضارة .

ومن رسالة له إلى أحد أصدقائه يقول :

« . . وبت وكأنى أشاهد من الأمراء والوزراء خيال المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية وابن الحجاج وبنى سراج وبنى المظفر — ومن العلماء والشعراء ابن خلوف ، وابن زيدون ، وابن خاقان ، وإبراهيم بن سهل . . وكنت أرى

آثارهم واضحة لا فقط من الأسماء الباقية على كثير من الأماكن والأبنية العربية الشامخة ، بل أيضاً من هيئة الجنس والسحنات الدالة على الأصل العربي وأخص العيون والحواجب » .

ومن إسبانيا سافر إلى البرتغال . . .

وبعد رحلة طويلة فى أكثر مدن أوربا أخذ طريقه للعودة إلى الوطن . .

وما كاد يصل إلى مرسيليا حتّى أصيبت زوجته الحسناء بمرض عضال فقضت نحبها هناك . .

ولما أراد أن يرثيها عصاه الكلام ولم يستطع أن يعبر عن لوعته إلا بهذه المقطوعة الحزينة :

لى حـــالة يكتمها تجلدى   إظهارها يصدع قلب الجلمد
قد شرّد الغم جنانى بالأسى   وقيّـــد الهم لسانى ويـــدى
فبـــاطن تبـــكى له أحبّتى   وظاهر تضحك منه حسّدى
وما جرى نفى الكرى وفى الورى   بعد الذرى عدت أرى فى الوبد
من محنتى وفـــكرتى ولوعتى   تجلدى ، تسهّدى ، تنهّدى
وهمتى تأبى الخمول فترى الــ   جد مقيمى والقضاء مقعدى
على شبابى والبـــلاد والغنى   واحسرتى ، واحزنى ، واكمدى

ولم يتابع سفره إلى الوطن . . فعاد إلى باريس ومنها إلى الجزائر . . ثم إلى بلجيكا .. ثم عاد إلى باريس فتعاقد معه وزير المعارف الفرنسية لتحرير جريدة « الصدى العربية » فقبل العمل ليلهو به عن مصابه الفادح .. وأرادوه أن يكتب فيها ما يريدون نشره . . فلم يطل عمله فيها . . وضاق ، وهو الأديب الحر ، بهذا العمل ، فترك الجريدة وعاد إلى باريس . . وكان على اتصال بمختلف الهيئات والرجالات . . وكان فى طليعة من اصطفاهم وتوثقت صلته بهم الوزير التونسى الشهير خير الدين باشا ، وقد رأى الوزير عند جبرائيل الدلاّل الألمعية والعلم والذكاء فاتخذه نديماً له وجعله أمين سره وكلفه ترجمة الكثير من الرسائل والمذكرات السياسية التى كانت تتضمن أمانى التونسيين الوطنية . . وكان يصحبه معه أنّى ذهب . . وأى مكان قصد . . حتّى إلى المصايف . .

وكان الدّلال يترجم بين سفراء الحكومات العربية الذين يقصدون باريس كوزراء مراكش وتونس وزنجبار وبين وزراء فرنسا . .

وحين انتدب خير الدين باشا سنة ١٨٧٩ لمنصب الصدارة العظمى فى الدولة العثمانية كتب إلى جبرائيل الدّلال ، يستدعيه إلى الآستانة ليكون سكرتيره الخاص .

وعرف فى الأوساط الدبلوماسية كرجل يتميز بالكثير من المواهب . . وتوثقت صلته بسفراء الدول الأجنبية الذين عرفوا مكانته وفضله . .

وحين استقال الوزير خير الدين باشا ، قرر أن يعود إلى وطنه ، ولكنه تلقى وهو فى إستانبول رسالة من رئيس جامعة فيينا يطلب إليه أن يدرّس العربية فى كلية الآداب ، فقبل المهمة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٢ . وسافر إلى عاصمة النمسا وتولى التدريس مدة سنتين . .

وقد ألّف لتلاميذه رسالة فى الهمزة وأحكامها . . ورسالة ثانية فى قواعد اللغة العربية تقرّب منالها على الطالبين من الإفرنج . . وقد نهج فى رسالته هذه نهجاً جديداً فى تعليم الأجانب اللغة العربية . . .

ولم يقتصر عمله على التدريس فكان يراسل من فيينا الجرائد العربية الكبرى فيكتب أدق الملاحظات السياسية والاجتماعية عن أحوال الغرب ، فكتب إلى « الجوائب » و « الجنان » و « الأهرام » و « مرآة الأحوال » .

بعد طواف سبعة عشر عاماً فى أوربا وآسيا وأفريقيا عاد إلى وطنه ليدرّس الإفرنسية فى المدرسة السلطانية . وكأنما كانت العيون تترصده فما كاد يعود إلى أرض الوطن حتى أخذ الوشاة يثيرون موضوع قصيدته « العرش والهيكل » وهى قصيدة ثورية عرض فيها إلى تصوير حقائق الحياة بشتى مظاهرها ، وأطلق لنفسه العنان وهو فى باريس للتعبير عن آرائه الحرة فى جور السلطان وشعوذة بعض الكهنوت . فكان مفكّراً حرًّا لا يتقيد بنزعة ، وكان لهذه القصيدة الثورية ، وهى فى مائة واثنين وخمسين بيتاً ، صداها البعيد فى مختلف الأوساط ، وكانت وسيلة بيد حاسديه لتحطيمه والقضاء عليه . .

فقد بدأت الوشايات تنهال عليه من كل جانب . . من جواسيس

عبد الحميد ، ومن رجال الكهنوت . . هؤلاء يتهمونه بالهرطقة والتجديف . . وأولئك بغمزه من قناة السلطان المستبد . .

فقد تعاونت عليه سلطتان جائرتان :

سلطة الكهنوت التي فضح الكثير من أضاليلها وخزعبلاتها ، وسلطان الجور في العهد الحميدى . . فوشى به حاسدوه . . وكانت النتيجة أن عزل من منصبه ، وزجّ في السجن .

وظل في سجنه يقاسى الآلام المريرة مدة سنتين . . وما زال حتى لفظ أنفاسه في صباح الرابع والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢ عن ستة وخمسين عاماً .

وقد نقله أهله من السجن . . إلى المنزل . . ثم إلى المقبرة ، فدفن في موكب صامت بين الدموع والحسرات . .

وهكذا ، فقد كانت قصيدته « العرش والهيكل » هى التي أودت به إلى هذه النهاية المؤلمة . .

وذهب البعض إلى أنه ترجمها عن فولتير . . وهذا غير صحيح ، والواقع أنه تأثر بآراء فولتير بعد أن تشبع بمبادئه وقرأ أدبه . والقصيدة تدور حول ثلاث نقاط رئيسية :

١ — « مقاومة سلطان الكهنوت »

٢ — « مقاومة استبداد الملوك »

٣ — « الدعوة إلى الحكم الجمهورى » . . .

ومتى ؟ . . . في الفترة التي حكم فيها السلطان عبد الحميد البلاد حكماً أوتوقراطياً كان التلويح بكلمة من كلمات الحرية كافياً لأن يكون نصيب صاحبها الموت . .

ومن شعره :

العرش والهيكل

مواعظ وحكم :

عسرت لك الأيام فى تجريبها ... وسرت بك الأوهام إذ تجرى بها
ومضت أويقات الهنا وتلاعبت ... أيدى سبا ببعيدها وقريبها
فإلام تعرض ناسياً ذكر البلى ... وعلام تغريك الحياة بطيبها
واللمة الشمطاء تنذر بالفنا ... وتشيب صفو صفائنا بمشيبها
ولّى الشباب وأخلقت أثوابه ... واحسرتى لنضيرها وقشيبها
وتجشّمت هول الزمان وجوهنا ... وعن النضارة بدّلت بشحوبها
والشمس تسطع فى أوان شروقها ... والإصفرار يكون عند مغيبها
وحياتنا بشرورها وغرورها ... كسفت فكان شروقها كغروبها
فكأنها لجج تخوض عبابها ... وسوابق تجرى على يعبوبها
فإذا دعتك دواعى اللهو اتئد ... بعداً لسامع صوتها ومجيبها
ربّ النهى من صمّ عن تصويتها ... وأخو الحجى من ضلّ عن تصويبها
تصفو الحياة مع الشبيبة برهة ... ويروق كأس العمر عن مشروبها
ومع المشيب تمضنا أكدارها ... واخشيتى من مرّ طعم رسوبها
ركدت وقد كمن البلاء وشره ... برحيقها ورسا بصافى كوبها
من دأبها عطل الكريم وسلبه ... جمحت فما تنفك عن أسلوبها
عجباً لها إن كان أول أمرها ... هذا النكال فما ترى بعقيبها
لا تتقى الأحداث سطوة مالك ... وبصمتها حكم لمن يدرى بها
فالعرش أفصح مخبر بخطوبها ... والنعش أصلح منبر لخطيبها
وبسلبها حال الخليفة أوجبت ... حصر الفصيح بها وعى طبيبها
جبتُ البلاد فما نعمت بشرقها ... وبغربها وشمالها وجنوبها
فبكل قطر شاع لفظ كرورها ... وبكل مصر ذاع فرط كروبها
بخلت بجبر كسيرها وأبت فكا ... ك أسيرها ، ضنت برد سبيلها

وأولو النهى تبكى لحالة جاهل ... متعاقل بعيونها وقلوبها
إن الطبيعة أودعت مكتومها ... فى صدر عالمها وذهن أديبها
لا يحزن الراسى شقا مطعونها ... كلا ولا الآسى أسى مضروبها
هل يوجد المعدوم من تحضيرها ... أو يعدم الموجود من تغييبها
أبداً لعمرى كل ذاك تحايل ... يبدو لغمر ضل عن محجوبها
لكنها تأتى بما يتوهم الرائى ... عجاباً من جمود حبيبها
فتباعد الأجرام فى تحليلها ... وتساعد الأجسام فى تركيبها
ضاعت على الجهلاء غايتها وقد ... ضاعت على العقلاء نفحة طيبها
خفيت عن الحمق غوامض أمرها ... وأولو النهى علموا حقائق صوبها
وعدوا بخافى سرها وجلائها ... وغذوا بصافى درها وحليبها
لكن أكثرهم لسوء الحظ قد ... بلغوا من الدنيا أقلّ نصيبها

* * *

وصف رجال الدين :

كل الأنام وإن تباين حالها ... فالمال جل القصد من مطلوبها
فلكسبه أحبار روما وزّعت ... للناس كفارات غفر ذنوبها
ولأجله القسّان فى بيعاتها ... باعت ذخائرها وعود صليبها
وبطارك ومطارن إذ مخرقت ... حصلت لما أفكت على مرغوبها
ثم ادعت زوراً بخافى قدرة ... ومزية علوية تسطو بها
زعمت تسلسل سلطة أذنت لها ال ... رسل الكرام بمنعها أو سيبها
ما بالها عجزت عن الأبيات حيـ ... ث خلافة الأفعال فى تنويبها
عميت عن الخشب الذى بعيونها ... وقذى الأنام رأت ونزر عيوبها
فهى الذئاب وإن تردت حيلة ... بلباس حملان وظاهر ثوبها
بسوادها تنساب فهى أساود ... تسعى لتنفث سمها بلبوبها

تعاليم المسيحية :

وتقول إن الله قامت ذاته ... بثلاثة يقضى النهى بوجوبها
من ضاقت الأكوان عن أن تحويـ ... ـه كلها بفسيحها ورحيبها

قد جاءنا متجسداً من ابنه ولدته حقًّا كابنها وربيبها
والناس قد قتلوه ظلماً ثم قام وفر من غصص الجحيم وصوبها
وبذاته وجميعــه وصفاته وكمال عزته وسامى نوبهــا
يعنو لها متنازلا عن عرشــه بصلاتهـــا أبداً وفعل عجيبها
وبأن مالى الكون يحضر صاغراً فى خبزه تبلى بمضغ رغيبها
حاشا وجل جلاله عن مثل ذا وتنزهت أوصافه عن ريبها
فلقد تسامى شأنه عن شيبها ولقد تعالى قدره عن ذيبها

* * *

التوراة :

جاءت بأسفار غدت تهذى بها زعمت وجود الحق فى تهذيبها
والعقل دلّ على صريح ضلالها والرشد يهدينا إلى تكذيبها
وصواب ذى العقل السليم بطبعه يأبى قبول السهل من تصعيبها
ينبى سخيف النص عن تزويرها ومناقضات القول فى ترتيبها
وإذا افترضنا الصدق فى أخبارها ووجود محض النصح فى تأنيبها
أو أن كل خُرافة بحديثها تنبى عن الآتى برجم غيوبها
فنرى الرموز بها أتت بخشونة قد تشمئز النفس من تقليبها
كالفتك بالمغلوب دون ترأف وكذبحها الإخوان فى تأديبها
وغلاظة الأفكار فيما أوردت وقذارة التكهين فى تقريبهـــا
فكأن كهنتها بهيكل ربهـــا غلمان مجزرة لدى مربوبها
حيث الذبائح والصعائد دهنها مع شحمها وعظامها وكعوبها
نسيت جميل الصبر بعد مصائب وإياب خيرات إلى أيوبهـــا
ووجود خلق لا تعد لكثرها من نسل يوسفها ومن يعقوبها
وقد اصطفاها أمة محبوبة بارى الخليقة دون كل شعوبها
وأنالها بالوعد أحسن بقعـــة بالأرض تنعم فى امتلاك خصيبها
فاستعبدتها أهل مصر بجورها قسرًا لتعمل بالآجرّ وطوبها
ودعا لموسى الله من عليقـــة لهبت ولم تحرق بحر شبوبها

واختاره لخلاص أمته من الأسر ... المهين وشد عزم رغيبهـــا
بسيوف إعجاز أراعت أهل مصـ ... ـر وأرغمت أبطالهم بضبيبها
فسطا على صحرائها بخوارق ... نكبت بها وعلا ضجيج نحيبها
ذكروا بأن الله أوصى أمة اسـ ... ـرائيل يوم خروجها وغروبها
أن تستعير متاع جيران وتهـ ... ـرب كاللصوص بمالها وذهوبها
ومن العجيب بأنها مع كثرها ... عدد وبطش شجاعها وغضُوبها
ومساعدات الله فى إبلائه ... أضدادها قهر بأم رقوبهـــا
وحوادث وكوارث ونوازل ... نالت بها فوزاً على مشجوبها
أودى بها هرباً وساعده يسا ... عد سيرها فى وخدها وخبيبها
وختام ذا النصر المجيد لأمة ... نسبت له ومضى زمان شعوبها
شق البحار أمامها لتجوزها ... ربة وتنجو من أذى مغلوبهـــا
وقد اهتدت فى التيه حيث عن الأما ... ن وأصبح الأعوان حظ طلوبها
بعمود نار كان فوق خيامها ... يبدو ليجلى الشك عن مذبوبها
فيدلها بالسير إما قوضت ... وبنيرها فى الليل فى تطنيبها
ودعاء موسى أمطر السلوى لها ... والمن قوتا فيه سد سغوبهـــا
وعصاه قد أجرت لها من صخرة ... صافى المياه طغت بفيض سكوبها
نزل الإله على الجبال له وأعطا ... ه الشريعة وهو فى شنخوبهـــا
مكتوبة بأصابع الخلاق فى الأحـ ... ـجار فهو مليّن لصليبهـــا
وكذاك إرميا بفضل عجيبة ... حل الدمار بسورها وصقوبها
نفخوا بأبواق وطافـــوا حولها ... فتقوضت دكًّا لهـــول صخوبها
ومع الجواسيس الألى نزلوا بها ... قد خامرت راحاب فى ترحيبها
وكذا ابن نون توقفت شمس الضحـ ... ـى بصلاته عن سيرها وغيوبها
ليتمم الفتك الذريع بفيئة ... شجعت وخاب السعى مع تدريبها

* * *

عود إلى القسيسين :

وعلى أضاحيك كذا استندت وقد ... ترجو نوال النصر من ترغيبها
وأتت تكابر باختراع زخارف ... تبغى اجتلاب النفع من تجنيبها

وعدت بجنات النعيم لطائع وتوعدت بالنار فى ترهيبهـا
حيث الشياطين التى تغوى الورى تسطو على الهلكى ببعلزبوبها
لما رأت شمس التمدن أشرقت وضلالها يبغى دوام قتوبهـا
بمحاورات الشهم فولتير التى اذ دفعت مياه الحق من أنبوبها
فيها قد افتضحت وبان سقامها وبدا خفى جراحها وندوبها
إذ عن صراط الحق ذاع مسيرها وإلى احتشاد المال فرط لغوبها
وأراعها منه تهدم عرشها وتزعزع الأركان بعد رتوبها
هرعت لتـدرك فائتاً فترده هيهات قد ولّى زمان رحوبهـا
قنطت وقد أبدى الهدى بهتانها كقنوط نفس من فراق حبيبها
جزعت بحزن لابتذال حجابها وتهتك الأستار عن مكذوبها
عبراتها تجرى لعابر وقتها مع لطم أوجهها وشق جيوبها
جمعت بروما جمعها وتقاطرت تدعو التئام أولى الدها بضغيبها
وتصيح يا أهل الكنيسة بادروا لقيام دعوة ربـكم مصلوبها
يا دار ندوتنا لفحص الدين هل من عودة يرجى رجوع مريبها
أيام نسلب مال من كفروا ونحرق جسم عاصينا بحر لهيبها
فالدين مفتقر لحل مشاكل وخلاص قائبة له من قوبها
لنرى مبادئ رأينا منبثة فى الأرض فاسد قولها كمصيبها
تشرى بمن جهلوا حمياً وهمها ويدب فى الحمقى ردى دبيبها
وبكل ذا ترجو ثبات دعائم مادت بها ودنا أوان ذهوبها
تسدى الثناء لـكل فدم دأبه تأييدها والقرع فى ظنبوبهـا
فتحوم كالغربان تنشد فائتاً منها وقد ملىء الفضا بنعيبها
إن اختفاء النور مهما حاولت رتق الفتيق وأين سد ثقوبها
والله عالم سرنا لا يرتضى فيما افترت ويسرّ فى تخييبها
كل البلايا والشرور أتت بذى الدنـ يا وها التاريخ فى تخريبها

* * *

الانتقال إلى السياسة :

وكذا الملوك فليس ينكر ما جرى	فينا من استبدادها ووثوبهـا
أو جور من فتح الممالك عنوة	وبغى على سكانها وغريبهـا
فبنصره خذل العلوم وأخربت	تلك البلاد جيوشه بحروبهـا
أودى بأسباب المعيشة بطشها	وعلى التجارة سدّ أصل دروبها
نزل البلاء على الفلاحة والبوا	ر فأمحلت بغراسها وحبوبهـا
وتقشعت سحب النجاح وإن سقت	تلك السباخ المزن من شؤبوبها
ذبح العباد على الوهاد بظلمه	وسقى المهاد دماءها عن صوبها
فذوت جراثيم الفلاح لعسفه	وبدا لما سقيت جفاف رطيبها
فلم الخضوع لذى البغاء ومالها	عجباً تتيه بتاجها وقضيبها
أم كيف نحمل جورها ونقاد رغ	ماً مرتضين بغمرها كنجيبها
وبما نرى فضلت على كل الورى	وسمت على نحريرها ولبيبها
باللحظ أم بالسمع أم بالذوق أم باللم	س أم بالشم فضل حسيبهـا
هل أنها إلا أناس مثالنـا	وبنا ومنا العزم فى تغليبها
فالجيش من أولادنا لقتالها	والبذخ من أموالنا لمعيبها
حازت نفائس ما يرى فوق الث	رى وتفاخرت بمتاعها وأثوبها
الخز والديباج أضحى لبسها	وغدت كرام الخيل من مركوبها
فتنافست فيما حوت من سابق	وتمتعت بنجيبها وجنيبهـا
لولا اختلاس الكل من أتعابنا	لغدت تموت بجوعها وبلوبها
ولكنت تنظر كيف دون مساعد	تسطو وأى مهابة لرهيبهـا
إذ فى الوغى يبدو نبو ضرابها	ويبان فى الهيجاء جبن ضريبها
لكنها بالمكر سادت مذ غدت	كل الملا تعنو لبطش مهيبها
وغدا على كل الوجوه وجومها	يبدو فعاد بشوشها كقطوبهـا
ولها أذلّ من العباد رقابها	إرجاف واشيها وخوف رقيبها
خطفت سموم الظلم صوت خطابها	لما اشتكت من عصفها وخطوبها
إذ تلك ريح زعزع نكباؤها	ألوت بهم عن رشدهم بنكوبها

غدت الورى صرعى كأن عذابها ... الصهباء يسكر مرّه كعذيبها
عجباً فهل غفلت لخبث مهبّها ... أم هل ترى قد حان وقت هبوبها
يا غافلين تنبهوا من رقدة ... طالت لسعد الوحش فى تأديبها
فيها قد افترستكمو مذ كشرتْ ... عن سر أنياب لهول نبيبهـــا
هيا انهضوا، وبطردها اجتهد وافقد ... ساد الدمار وعمّ من تخريبها
إى لا أبا لكم، اخلعوا الأنيار إذ ... جارت على أعناقكم بلتوبها
وليحكم الجمهور من عقلائه ... قوم تراعى خيره كنسيبهـــا
ولتستوِ كل الحقوق تعـــادلا ... فيعود صوت قصيرها كأريبها
حتى ترى كل الورى فوق الثرى ... بالأمن يرعى شاتها مع ذيبها

عبد الله مرّاش

١٨٣٩ — ١٨٩٩

أديب حلبي عاش الشطر الأكبر من حياته فى الغرب يعمل فى الشئون التجارية ، إلاّ أن التجارة وما فى عالمها الزاخر من مغريات الربح لم تصرفه عن حياة الفكر ، فقد كانت النزعة الأدبية فى نفسه أغلب.

كان ، وهو فى باريس ولندن ، على اتصال وثيق بما ينشره أعلام الفكر من الأوربيين ، يقرأ كتبهم بتفهم ووعى ، وكان على اتصال أكثر بما ينشره المستشرقون من مخطوطات عربية ، وقد نسخ بدوره الكثير من المخطوطات التى تضمها مكتبات الغرب .

ومن باريس ، ومن مقرّ عمله فى مرسيليا كان يبعث برسائله ومقالاته إلى صحف القاهرة وبيروت ، وإلى جريدة « الجوائب » فى إستانبول ، منها ما يوشحها بتوقيعه ، ومنها بالحرف الأول من اسمه فينمّ أسلوبه عن شخصيته . . .

لم تكن لعبد الله شهرة أخيه فرنسيس ، ولا شهرة أخته مريانا ، وإن كان يبزهما فى فن الترسل . فلأسلوبه الرصين هذه الجزالة التى تفصح عن أدقّ المعانى بأبلغ الكلمات . . .

ولا أسترسل فى الحديث عن هذه الناحية وعن أطوار حياته ، فحسبى أن أترك الكلام للشيخ إبراهيم اليازجى ، إمام البلغاء فى عصره ، فقد كان عبد الله على اتصال وثيق به . وبمجلتيه « الضياء » و« البيان » اللتين ازدانتا بالكثير من مقالاته ، ولا سيما ماله علاقة بالتربية ، فقد نشر سلسلة مقالات تؤلف كتاباً تربو صفحاته على المائة صفحة ، ومن يرجع إليها يرَ أنه ، إلى اطلاعه على أحدث نظريات علماء التربية فى الغرب ، كان يرجع إلى ما تركه العرب من آراء سديدة فى السلوك والأخلاق فيراها أجدر بالاتباع .

قال اليازجى يصف بعض ملامحه ومراحل من سيرته :

« عبد الله بن فتح الله مراش وشقيق المرحوم فرنسيس مراش الشاعر

الكاتب المشهور من أسرة عريقة فى الفضل والوجاهة ، معروفة بالعلم والأدب ، ولد فى حلب فى ١٤ أيار (مايو) سنة ١٨٣٩ ، ونشأ بها وتأدب على والده وغيره فتلقى فى حداثته مبادئ علوم العربية والخط والحساب . ثم دخل فى أعمال التجارة فتخرج فى فنونها ، ولما بدت نجابته فيها انتدبته جماعة من جلة تجار حلب لعقد شركة تجارية ينشئ لها محلاً فى منشستر من بلاد الإنكليز . فسافر إليها فى سنة ١٨٦١ واشتهر بما كان عليه من الأمانة والدراية ، فكان له مقام محمود بين معامليه .

ثم انتقل سنة ١٨٧٠ إلى باريس فلبث بها إلى سنة ١٨٨٢ ، وبعد ذلك فارقها إلى مرسيليا وألقى بها عصاه ولم يزل مقيماً بها إلى أن توفاه الله فى ١٧ كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٩٩ .

كان عبد الله مراش على حظ من الدنيا بلغ به مبلغ الرضا وهو الغنى كله ، فلم يكن بعد ذلك يحرص على حشد الدينار ، ولا يعانى الكسب ، ولكنه انصرف إلى المطالعة ، والتوسع فى العلم ، وهو ما لم ينقطع عنه قط مع اشتغاله بالتجارة أيضاً ، فإنه كان كثير الاختلاف إلى مكاتب لندن وباريز يتصفح ما فيها من الأسفار قديمها وحديثها ، ولا سيما الخطية منها ، فأدرك حظاً وافراً من لغة العرب وتواريخهم وآدابهم ، ونسخ عنها عدة كتب عزيزة ورسائل أخرى كلها من غرر آثار الأقدمين ونوادر تآليفهم — نسخها بخطه مع العناية والتوفيق فى مقابلتها وتصحيحها — وكان مليح الخط ، نقى الرقعة ، كثير التأنق كأكثر خطاطى حلب » .

ثم يتحدث عن أسلوبه فيقول :

وكان رحمه الله من أكابر أهل الإنشاء ، حسن الترسل ، سهل العبارة ، واضح الأسلوب ، بصيراً باختيار الألفاظ والتراكيب ، حسن النقد ، حريصاً على البلاغة ووضوح المعانى ، آخذاً بالنصيب الأوفر من قوالب فصحاء العرب ، وألفاظ الخاصة من أهل الأدب .

وكان مع ذلك متقناً اللغة الإنكليزية والفرنسية والطليانية ، يكتب فيهن جميعاً ، وكان له باع طويل فى التاريخ والفلسفة وعلم الأخلاق والأديان

والشرائع المختلفة ، مشاركاً فى كثير من علوم المعاصرين ، كالطبيعيات والهيئة وسائر الفنون الرياضية .

وكان بصيراً بالسياسة ، مطلعاً على أسرارها ودقائقها ، وله فى كل ذلك مقالات ورسائل شتى ، منها ما نشر فى بعض الجرائد العربية فى لندرة وباريز وجرائد ومجلات القطر المصرى .

وأما صفاته الشخصية فقد كان ربعة القوام ، معتدل الجسم ، أبيض اللون ، طلق المحيا ، فصيح اللسان ، مهذّب المنطق ، واسع الرواية ، لطيف المحاضرة ، وقد أتيح لنا لقاؤه ، عند مرورنا فى مرسيليا فى أواخر سنة ١٨٩٥ ، وهو فى نحو السابعة والخمسين من عمره ، وقد وخطه الشيب وأنضجته السن والتجربة ، فألفينا فيه رجلاً جليل القدر ، كامل الصفات ، قد جمع بين رزانة الإنكليز ورقة الفرنسيين ، وأريحية العرب .

وكان على أعظم جانب من الزهد ، وخفض الجناح . بعيداً عن الزهوّ والخيلاء ، منزهاً عن الدعوى والكبر ، حتى إنه ، مع سعة فضله ورسوخ قدمه فى العلم والإنشاء وإجماع المطالعين على استحسان كلامه — كان يتفادى من ذكر اسمه فى أكثر ما كتبه وما طبع له ، ويشترط ذلك على كل مَنْ يروم نشر شيء من آثاره ، وهذا لا جرم من عنوان تمام فضله وتناهيه فى الكمالات الإنسانية (١) . . .

نماذج من نثره :

التربية ورجال الأمة

قوام كل أمةٍ برجالها ، ولا رجال إلاّ بالتربية ، لأنها هى التى تعين الطبيعة على إنماء بدن الولد فى صحة ، وإرهاف ذهنه فى سداد ، وتقويم سيرته فى رشاد ، وتكسبه من صفات الرجولية ما يؤهله لأن يكون رجلاً حقًّا إذا شبّ .

والمراد بالرجل هنا ذاك الذى عناه أحد الفلاسفة بقوله : إنه لأيسر عليك

---

(١) مجلة « الضياء » السنة الثامنة .

أن تلقى فى شوارع آتينا « إلهًا » من أن تلقى فيها رجلاً ، والذى عناه فيلسوف آخر وقد رُؤى فى رائعة النهار وبيده مصباح وهو يتطوّف فى شوارع تلك المدينة الغاصة بالناس تطوّف من يطلب شيئًا لا يكاد يرى ، فسُئل عما يطلب فقال : أطلب رجلا .

هذا هو المعنى المراد بالرجال هنا ، وقليل ما هم . وأما الرجال بالمعنى المتعارف فكثيرون ، ولله در القائل وإن بالغ :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلّهم … والله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأغلق عينى ثم أفتحها … على كثير ، ولكن ما أرى أحدا

وكل من يتصفح كتب التاريخ القديم والحديث يجد أنه قلما انحطّت أمة عن منزلتها إلاّ لأنها عدمت رجالها ، وأنها ما عدمت رجالها إلاّ لأنها لم تُعن حق العناية بتربيتهم صغاراً ، فلم يكن لها منهم كباراً سوى أشخاص لا شيء فيهم من الرجولية سوى الاسم .

تربية الصغار كسياسة الكبار

اعلم أن تربية الصغار كسياسة الكبار قائمة على ركنين مهمين :

أحدهما : السلطان بالإضافة إلى المربى . . .

وثانيهما : الطاعة بالإضافة إلى الولد . . .

إلاّ أن السلطان ينبغى أن يكون مقترنًا بالرفق فى حزم أى منزهًا عن العنف فى غير موضعه ، وعن الرخصة والتسامح فى غير موضعهما .

كما أن الطاعة ينبغى أن تكون ناشئة عن ثقة الولد بمربيه ، وعن الاحترام والهيبة اللذين تبعثه عليهما المحبة له لا الخوف من عقابه .

فإن أهمل من التربية واحدة من تلك الطرق أو عدم منها أحد هذين الركنين فسدت وفاتت الحلة المقصودة منها .

المعلم

إن القدماء والمحدثين من أهل البلاد التي توفّر حظّها من المدنية كانوا ، ولا يزالون ، يقدرون المعلم ، أي المربّي أو المؤدب ، حقّ قدره ، ويبجلونه وينزلونه فوق منزلة الطبيب ، بل فوق منزلة الحاكم ، لأن الطبيب إن داوى أسقام البدن وشفاها ، وهيهات ... فلا يقدر أن يداوي أسقام النفس ويشفيها ، بل هذا من ولاية المعلم . ولأن الحاكم إنما يعاقب الجاني إذا جنى ، ولكن ليس من ولايته أن يجعله خيّراً عزوفاً عن اقتراف الجرائم بل هذا منوط بالمعلم .

والحاكم يقيم الحدّ على الشرير إذا أذنب ، وقد يقصيه ، أو يعتقله ليؤدبه ويريح الناس من شره حيناً ما ، فمثله في ذلك مثل الجراح الذي يقطع من أعضاء الجسم ما كان مريضاً ليسلم سائرها ، إلاّ أن المعلم يحاول استئصال الشر من جرثومته ، وكثيراً ما ينجح فيما يحاوله .

لا جرم أن ما كان من ولايته أن يتعهد نفس الولد فضلاً عن جسده ، ويهتم بلعبه ودرسه بل فرحه وترحه ، لجدير بأن يكون عالي المنزلة ، ولذا كان اليونان يدعون سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وغيرهم من الفلاسفة معلمين وآباء ، ولا بدع لأن المعلم في الحقيقة أب ثان للولد . وإن شئت دعوته أباه الروحاني كما أن الوالد أبوه الجسماني ، ولما لم يكن أحد في الدنيا أولى من الأبوين بأن يجلهما الولد ويحترمهما ، وكان المعلم نائباً عنهما في تربيته إن غابا ، وشريكاً لهما فيها إذا حضرا ، كان بحكم الضرورة مستحقاً شيئاً من التبجيل عينه .

* * *

إن المعلم أبٌ ثانٍ للولد ، ولذا قال الإسكندر يوماً : إنه وإن كان ابن فيلبس المكدوني جسماً فهو ابن أرسطوطاليس نفساً ، لأنه إن كان فيلبس سبباً لحياته فأرسطوطاليس هو الذي علمه كيف يعيش مكرماً . وما أحسن ما قال الشاعر :

أقدّم أستاذي على فضل والدي ... وإن كان لي من والدي الفخر والشرف
فذاك مربّي الروح والروح جوهر ... وذاك مربّي الجسم والجسم من صدف

الدكتور لويس صابونجي

١٨٤٣ — ١٩٢٨

سورى من أبناء الجزيرة(١) ، ومن بليدة « ديريك »(٢) الواقعة فى محافظة الحسكة ، وتُسمَّى « ديريك » اليوم بـ « المالكية » بعد أن تمّ تخطيط الحدود سنة ١٩٢٨ بين سورية وتركيا ، وولادته فى « ديريك » التابعة لولاية دياربكر فى العهد العثمانى كانت من باب الصدفة أيام خرج إليها والده فراراً من وباء « الهواء الأصفر » الذى فشا وقتئذ بديار بكر ، وقد أشار إلى ذلك فى أبيات من قصيدة له :

خُلقت بأرضٍ قد تجلّت ببهجة سقاها إلهى من فرات ودجلة

---

(١) عرف الجغرافيون العرب « الجزيرة » بأنها البقاع الواقعة بين نهرى الفرات والدجلة . والممتدة من منابع هذين النهرين فى أرمينيا ، حتّى جنوبى الموصل ، وقسمها بعضهم إلى ثلاث مقاطعات هى : ديار بكر — ديار مضر — ديار ربيعة ، نسبة إلى ثلاث قبائل عربية كبيرة ، أو إلى ثلاث مجموعات من قبائل عرفت بهذه الأسماء . وكانت قد تغلغلت شمالا . قبل الفتح العربى ، فبلغت الجزيرة فى زمن الدولة الساسانية ، إحدى الدول الفارسية ، وقد امتد حكمها من ٢٢٦ إلى ٦٢٨ م . واستمرت هذه القبائل فى التوسع والامتداد نحو الشمال بعد الفتح ، وجعل بعض هؤلاء المؤلفين الجزيرة مقاطعتين : ديار مضر وديار ربيعة ، وقال غيرهم إنها ديار بكر وديار مضر ، كما اختلفوا أحياناً فى قواعدها .

وزيادة فى الإيضاح نذكر أن مقاطعة ديار بكر كانت تقع شمال الجزيرة ، فى حوض الدجلة وكانت قاعدتها آمد — ديار بكر اليوم — ومن أهم مدنها ميافارقين وأرزن .

وتقع ديار مضر غرب الجزيرة ، فى حوض الفرات الأوسط ، وروافده البليخ . وقاعدتها مدينة الرقة ومن أهم حواضرها الرها — هى اليوم أورفا — وحران وبالس — وتقوم مكانها اليوم مسكنة .

أما ديار ربيعة فإلى الشرق والجنوب ، وهى أكثر الأقسام الثلاثة اتساعاً ، وأعظمها مدناً ، لأن فيها ماردين . ورأس العين ، ونصيبين وجزيرة ابن عمر ، وكانت تضم منطقة الخابور ، ومنطقة الدجلة الأوسط حتّى تكريت . والسهول الواقعة بين الخابور والدجلة ، وكان يتبعها أيضاً البلاد الواقعة على الضفة اليسرى للدجلة ، وعليه تكون « الجزرة السورية » القسم الأكبر من ديار ربيعة « الجزيرة السورية بين الماضى والحاضر لإسكندر داود ص ٢٧ » .

(٢) ضمت هذه البقعة إلى سورية سنة ١٩٢٨ بعد تخطيط الحدود النهائى بينها وبين تركيا ، وجعلت قضاءً كان مركزه فى « عين ديوار » ثم نقل إلى « ديريك » وسمى بعد ذلك قضاء الدجلة وأطلقوا عليه مؤخراً اسم « المالكية » وتتألف المنطقة من قسمين مختلفين : البقعة الجبلية فى الجبال ، والسهول المعروفة بمنطقة تل كوجك فى الجنوب . المصدر السابق ص ٣٧٥

بلاد ثواها «آدم» بعـــد جنة إليها انتمى الأبطال فى كل حقبة
ولدت بها فوراً على غير موعد غداة أتاها والدىّ لنـــزهة
بشهر فشا فيها الوباء مؤلفًا وشاع انتشاراً فى بلاد الجزيرة(١)

* * *

لم يكد يبلغ الثانية عشرة من عمره حتّى انتقل به أهله إلى سورية يتعلّم مبادئ القراءة والكتابة ، ومنها إلى «دير الشرفة» فى لبنان ، يدرس العربية والسريانية والإيطالية .

وكان منذ صغره شعلة ذكاء ، قوى الحافظة ، يلتهم ما يعرض عليه التهامًا ، وما كادت تظهر بوادر نبوغه حتّى أرسل إلى روما حيث أدخل مدرسة «مجمع انتشار الإيمان» فبرز على أقرانه خلال فترات قصيرة ، وما كاد يحظى بلقب — دكتور فى الفلسفة — حتّى عاد إلى الشرق مزهوًّا بما ظفر به . . .

وإذ أخذ مبادئ الفلسفة المسيحية من منابعها رغب بطريرك السريان الأنطاكى أغناطيوس أنطون سميحرى أن يضمـّه إلى سلك الكهنوت للإفادة من مواهبه . فامتنع أولاً إلاّ أنه رضخ أخيراً نزولاً عند رغبة الكثيرين من آله وذويه فسيم رئيسًا لطائفة السريان فى بيروت .

ومجتمع بيروت ، حيث يضمّ صفوة من الأعلام ، هو غير مجتمع الجزيرة ، وهذا الذى حفزه إلى القبول ليعيش حياة قريبة من الحياة الّتى قضاها فى روما . . .

وأول عمل قام به بعد أن تعرّف على مجتمع بيروت ورجالاتها وما يحتاجه أبناء طائفته — أن أسس مدرسة صار لها شأن عظيم حتّى قصدها طلبة العلم من كل أرجاء المدينة ، وصارت تبارى غيرها من المدارس العالية ، وكان من جملة تلامذتها أنجال متصرف بيروت كامل باشا الذى صار بعد ذلك صدراً أعظم . كما أنشأ سنة ١٨٦٣ مطبعة لنشر الكتب فى اللغات العربية والسريانية والتركية(٢) .

وإلى جانب عمله الكهنوتى والمدرسى اقتحم الميدان الصحفى فأصدر فى

(١ ، ٢) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٧١ ، ٧٢ .

الحادى عشر من آيار « مايو » سنة ١٨٧٠ مجلة « النحلة » ولكنها لم تعمّر طويلاً « لأنه تجاوز الحدود التى كان فرضها على نفسه وتحرّش بمسائل سياسية ومناظرات دينية ساقت راشد باشا والى سورية إلى إلغاء « النحلة » . إلاّ أن هذه الصدمة لم تفتّ من عزيمته فأصدر مجلة ثانية سمّاها « النجاح » وقدّر أن تستمرّ ولكنه واجه الفشل ولم يكتب لها النجاح لأنه تعرّض للسياسة وللطائفية مما اضطر الحكومة إلى إقفالها .

وهنا داخل قلبه اليأس من الإصلاح فقرر الهجرة . . . رأن يقوم برحلة حول العالم فركب البحر فى شهر آب « أغسطس » سنة ١٨٧١ وظلّ يتنقل من قارّة إلى قارة حتّى استكمل دورة الأرض فى سنتين وسبعة أشهر .

وكان بحق أول سورى بل أول شرقى يقوم بهذه المغامرة . . .

وقد أشار إلى ذلك فى إحدى قصائده بقوله :

وقد طفت حول الأرض شرقًا ومغربًا ... رصيتى سرى قبلى يذيع برحلتى
وما طاف قبلى من بنى سام طائف ... ولا جال منهم بالبسيطة جولتى

وقد أنتجت هذه الرحلة كتابًا طريفًا سمّاه « الرحلة النحلية » ذكر فيها أهم الشئون العلمية والتاريخية المنوطة بالبلاد التى زارها مع سكانها ولغاتها وصناعتها وزراعتها وحيوانها وأديان أهاليها وعاداتهم وأخلاقهم .

* * *

بعد هذه الرحلة الطويلة ، وبعد أن رأى العالم بشتى ألوانه وأجناسه ، ومختلف عاداته وثقافاته — عاد إلى بيروت متعبًا ، ولكنه كان أكثر نشاطًا وأوسع معرفة . . .

وفى بيروت ، عاوده الحنين إلى الصحافة ، وهى الميدان الفسيح لنشر آرائه وما اختزنه فى ذاكرته من مشاهد وآراء . . . فأصدر « النحلة الفتية » ، وما كاد ينشر على صفحاتها بعض آرائه الحرة حتّى اصطدم بموضوع طائفى حساس كاد يودى به ، وكان من جرائه أن هرب من بيروت إلى ليفربول حيث

نشر رسالة سمّاها « موسى الحلاقة » ضمنها الكثير من الوخزات بالرّد على خصومه [١] .

* * *

ومن ليفربول سافر إلى أمريكا — إلى نيويورك وفيلادلفيا فمكث فيها بضعة شهور اطّلع خلالها على الكثير من المظاهر العلمية . . . ثم عاد إلى لندن ليعمل فى الصحافة من جديد ، فأصدر سنة ١٨٧٧ مجلته « النحلة » باللغتين العربية والإنكليزية .

وربما كان أول صحفى عربى اجترأ على هذه المحاولة ، أى التحرير بغير لغته . . .

وبدأ نجمه يسطع ولا سيما بعد أن نشر سلسلة مقالات فى محاربة الاستبداد فى الدولة العثمانية . . .

وانضمّ إلى رزق الله حسّون فى تحرير « مرآة الأحوال » . . .

واستطاع عن طريق الصحافة والخطب التى كان يلقيها فى المنتديات العامة أن يحظى بمقابلة فيكتوريا ملكة بريطانيا . . .

وفتحت له هذه المقابلة الاتصال بأكثر من ملك وأمير — شرقيين وغربيين . . .

فقد اختاره سلطان زنجبار أن يكون وكيله ومعتمده .

ووثق صداقته مع ناصر الدين شاه . . .

وقابل قداسة البابا مرتين .

واختاره ولى عهد إنكلترا الذى صار فيما بعد ملكًا باسم إدوار السابع — أستاذاً للغات الشرقية فى دار الفنون التى أنشأها الأمير فى لندن باسم Tbe imperial institute وتناول الطعام على مائدته مرتين . . .

وكان على اتصال مع الميكادو إمبراطور اليابان ، ومع ملك حيدر آباد .

* * *

(١) لقد اتفق فى غضون إصدار مجلته الثانية ظهور مسألة تاريخية تتعلق بأصل إيمان الطائفة المارونية واستنصر القس بولس للقائلين بعكس ماترتئيه الطائفة المذكورة ، ونشر مقالات خارجة عن هذا الموضوع فثارت عليه من جراء ذلك فتنة من الرعاع كاد يذهب فيها قتيلا .

(تاريخ الصحافة العربية لطرازى ج ٢ ص ٧٣)

بعد أن ذاع صيته فى عواصم الغرب ، وفى أمريكا ، يمم الآستانة سنة ١٨٩٠ وسرعان ما احتضنه السلطان عبد الحميد فعينه فى « المعية الشاهانية » وأنعم عليه بدار فسيحة فى أحسن بقعة من ضواحى الآستانة بكل ما فيها من الرياش[١] وجعل له خمسين ليرة عثمانية راتباً شهرياً ، وأصدر إليه إرادته السنية بالمثول بين يديه مرتين فى الأسبوع ، واختاره أستاذاً لأنجاله فى فن التاريخ العام ، ومترجماً لجلالته من اللغات العربية والإنكليزية والإفرنسية والإيطالية — إلى التركية ، ثم عينه عضواً فى المجلس الكبير لنظارة المعارف ، ولبث على هذه الحال حتى أعلن الدستور العثمانى فاعتزل المأموريات ملازماً بيته ، ومنقطعاً إلى التأليف والمطالعة[٢] .

* * *

وفى ميدان التأليف أنتج فيضاً زاخراً من الكتب والرسائل فى شتى ميادين المعرفة ، بلغته وبغير لغته . . .

وكان لمعرفته اللغات أثره فى تبحره واطلاعه الواسع . . .

ويذكر الذين عرفوه أنه تعلق ، منذ فجر شبابه ، بدراسة عشر لغات أحكم أصول سبع منها وهى العربية والسريانية والتركية والإيطالية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية . . .

وفيما يلى إلماع إلى ما تركه من تآليف ومترجمات :

١ — نقل اثنى عشر كتاباً من أشعار فرجيل الشاعر اللاتينى إلى اللغة الإيطالية .

٢ — فلسفة ما بعد الطبيعة .

٣ — تهذيب الأخلاق .

٤ — المرآة السنية فى القواعد العثمانية — مترجم عن التركية للوزيرين فؤاد باشا وجودت باشا .

---

(١) القصر عرف باسم « قفير النحل » وهو قائم فى جزيرة الأمراء على شكل هندسى جميل ، وقد نقش فى صدر البيت صورة « عين » مع هذه العبارة « عين الله تعالى على محبيه الصادقين » وحفر فوق المدخل والأعمدة سبعة أبيات جاء فى آخرها :

اجعل بلطفك يا إله سعادتى   يومى بها بالعز يتلو ليلتى

(٢) نفس المصدر ص ٧٤ .

٥ — جمال الكائنات : وصف الجمال فى الحيوان والنبات والجماد .

٦ — الرحلة النحلية ، وقد طبع قسماً منها فى القسطنطينية وزينه بالرسوم .

٧ — قاموس إنكليزى عربى .

٨ — تنزيه الأبصار فى رحلة سلطان زنجبار .

٩ — شاؤل وداود — رواية تمثيلية مترجمة عن الإفرنسية .

١٠ — كتاب « حر عثمانلى » وضعه باللغتين التركية والإنكليزية بعد إعلان الدستور العثمانى .

١١ — مراثى إرميا الثانى الشجية على خراب أورشليم السريانية .

١٢ — السكان فى النجوم والأقمار : يحوى نحو ألف وخمسمائة صفحة مزينة بالرسوم الكثيرة ، وقد قسمه مؤلفه إلى ثلاثة أقسام : الأول وفيه ذكر العلماء والشعراء والفلاسفة وأصحاب الأديان العظام الذين علموا من أعصار قديمة إلى القرن العشرين وجود خلائق ناطقة على سطح النجوم والكواكب ، وأورد فى القسم الثانى أحوال الشمس وسياراتها وسكانها العلوية ، وأتى فى الثالث على وصف النجمة الأرضية .

أما كتبه غير المطبوعة فهى :

١ — قاموس الألفاظ المصطلح عليها فى العلوم الفلسفية وسائر العلوم والفنون : مترجم عن اللاتينية إلى العربية .

٢ — تاريخ فتنة حلب سنة ١٨٥٠ .

٣ — تاريخ فتنة لبنان وسورية فى سنة ١٨٦٠ .

٤ — تاريخ الثورة العرابية فى الديار المصرية سنة ١٨٨٢ .

٥ — الحق القانونى .

٦ — تاريخ بطاركة السريان .

٧ — مشاهير الرجال ، يشتمل على سير العلماء من اليونان والروم والعبرانيين والسريان والكلدان فى اللغة اللاتينية .

٨ — الأحوال المنطقية — بحث فى الفلسفة العصرية والقديمة .

٩ ـ مرآة الأعيان فى تسلسل الأديان .

١٠ ـ مجموع مقالات سياسية كتبها بالتركية ويبلغ عددها ٢٠٠ مقالة .

١١ ـ مجموع قصائد لاتينية نظمها فى صباه .

١٢ ـ قصائد ونشائد فى اللغة الإيطالية .

١٣ ـ مجموعة قصائد ومقالات سياسية فى اللغة الإنكليزية .

١٤ ـ مواعظ فى اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية .

١٥ ـ أفكارى : جمع فيه كل ما جرى له من الحوادث مدة حياته فى مجلدات شتى . . .

١٦ ـ مختصر تاريخ جميع الأديان « وضعه بالإنكليزية مبتدئاً من الديانة الطبيعية فالآثورية فالمثرائية فالبرهمية فالبوذية فالوثنية فالمصرية فاليهودية فالمسيحية فالمحمدية فالبروتستانتية فالشبكر فالرولر فالجمبر وهلم جرا . وقد طبعه فى لندن ، ثم ترجمه إلى التركية والإيطالية ولم يطبع .

* * *

ومن مأثوراته لوحة زيتية كبيرة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة ، وهى تمثل تسلسل جميع الأديان من عهد آدم إلى يومنا هذا ، وفيها ٦٦٠ شخصاً ، من جملتها رسوم جميع الذين أنشأوا ديناً أو مذهباً مع طريقة عبادتهم ورموز عقائدهم وطقوسهم .

ثمة ديوان شعر كبير فى ٥٨٦ صفحة سمّاه « شعر النحلة فى خلال الرحلة » . وشعره شعر فيلسوف روحانى امتلأ فؤاده بالوعظ والتوجيه الإنسانى ونثر العبر ، ليس فيه طلاوة الشعر وموسيقاه وقوة سبكه وإن اصطبغ بالهواجس التى كانت تخطر بباله وتصوّر بعض ظواهر مجتمعه .

ورأينا فى شعره اليوم يختلف عن آراء معاصريه الذين كانوا يرون فيه الطلاوة وتحاشى الكلام المهجور والألفاظ اللغوية البعيدة عن إدراك الجميع ، فقد « سلك فيه أسلوباً جديداً لا يعهد فى أساليب شعراء العرب ، ونهج منهجاً حديثاً يندر فيه ذكر البيداء والنوق والرحال والرمال والخيام وما جرى مجراها مما يدور عليه محور كثير من أشعار أهل الوبر ، واعتاض عن ذلك بالسكك الحديدية

والقطار والباخرة والكهربا وما أشبه ذلك من اختراعات العصر عند الحضر[١] ، وقد أشار إلى ذلك فى هذه الأبيات :

لأسفار أهل البيد رحلٌ وهودجٌ ونوقٌ عليه العربُ تغزو وتسرح
ونحن قد اعتضنا عن الكل فى السرى بفلكٍ كحوت البحر تجرى وتسبح
وفى البر سرنا فى قطار يجرّه بخار يحاكيه العقاب المجنَّح

والواقع ، أن الدكتور صابونجى لم يكن أديبًا ذا أسلوب مشرق ولا شاعراً فحلاً ملك ناصية القوافى بل كان عالمًا واسع المعرفة يعبر عن آرائه شعراً ونثراً بلغة سهلة بعيدة عن التقعر . وكثيراً ما عبر عن نفسه بقوله إنه «كاتب شعبى وليس بمنشئ لغوى» . ولو أراد أن يكون من أنداد اليازجى ، أى أن يحصر مواهبه باللغة والأدب ، لبزّ الكثيرين وفاق أقرانه من أساطين البلاغة ، ولكن هذه المواهب توزعت على شتى أنماط الفكر ، فكان «دائرة معارف» واسعة ، يحيط بكل شيء علمًا وصناعة وفنًّا وشعراً ووعظًا ، وتآليفه المتباينة الأهداف ترمز إلى ذلك .

إن قصة هذا الإنسان هى قصة العصاميين الموهوبين .

من قرية فى أقصى الجزيرة إلى أعظم عواصم الدنيا يعيش مع الملوك والأمراء يؤاكلهم ويشاربهم ، يحادثهم ويراسلهم ، ينال رفدهم وأوسمتهم ، فإن دلّ هذا على شيء فعلى النبوغ السورى الذى لا تكاد تتفتح أمامه مغاليق الدنيا حتى يتبوأ أعلى المراكز ويترك أجمل أثر فى تاريخ الفكر البشرى .

---

(١) الفيكونت فيليب دى طرازى – تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٧٥ .

مختارات من شعره :

إلى الله

إلى الله تنحو النفس بعد انفصالها ... وتُجزى بخير أو بشرٍ فعالها
وإن قيل : بعد القبر ليس قيامةٌ ... فقلنا : على الزنديق كان وبالها
وإن قيل : ليس النفس تدرى معادها ... فقلنا : ستدرى حين يأتى ارتحالها
إلى الله عود النفس بعد جهادها ... متى حلّ من قيد الحياة عقالُها

وحاججه ذات يوم فيلسوف من أتباع فلسفة اسبينوزا اليهودى المنكر لوجود الله ، فما كان منه بعد الجدال الطويل إلاّ أن نفّس عن صدره بهذه الأبيات :

يسبّح مَنْ فى البر والبحر والعلا ... إلهًا تجلّى بالخلائق للملا
كيانٌ بلا بدءٍ وحدّ وحيز ... به البدء منذ البدء كان ممثلا
إله على عرش بلا حدّ مركز ... يسوس وحيداً لا شريك له ولا
رآه بعين العقل كلُّ موحّدٍ ... وغاب عن الزنديق بالكنه واعتلى

ونظم هذه الأبيات لتنقش على قبره :

قضى العمر فى الأسفار طالب حكمة ... يروم فنونًا لا تحدُّ وتحصرُ
ومَنْ كانت الدنيا الفسيحة كلها ... تضيقُ لديه فى الحياة وتصغر
كفته بُعيدَ الموت أضيق حجرةٍ ... كما اكتفيا بالمثل كسرى وقيصر

الشيخ إبراهيم الحورانى

١٨٤٤ – ١٩١٦

شاعر أديب ، جمع بين العلم واللاهوت ، وبين التدريس والصحافة ، وكانت مهنة التعليم ورسالة الوعظ فى نفسه أغلب . .

حلبى المولد ، حمصى المحتد .

« . . كان يسمّى نفسه حلبيًّا لمولده فى حلب ويقول : مولدى فى حارة (الزّبال) من محلة الصليبة »(١) .

بعد مولده بسنة عاد والداه به وبأخيه الأكبر إلى حمص فقضى فيها طفولته وفتوّته يتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، فما كاد يبلغ سنة ١٨٦٠ السادسة عشرة من عمره حتّى نزح والداه بالأسرة إلى دمشق حيث أقام فيها حتّى سنة ١٨٧٠ . وقد درس الفتّى خلال هذه السنوات العشر فى مدرسة الأمريكان فى « عبيّه » ، وتتلمذ على الدكتورين ميخائيل مشاقة ويوسف دمّر : أخذ عن الأول الرياضيات واللغة والفسيولوجيا والمنطق ، وعن الثانى : الطبيعيات والكيميا.

وإذ كان من الأوائل بين أقرانه ، وقد تزوّد بثقافة مكنته أن يرقى إلى مرتبة المدرسين — دعته « الكلية الأمريكية » فى بيروت ليدرّس علوم البلاغة والرياضيات والمنطق فقبل المهمة ، وظل طوال حياته فى حرم الجامعة يدرس ويكتب وينظم فى الشئون التى تتصل بثقافة عصره . .

كان ينظر إليه كما ينظر إلى الشيخ إبراهيم اليازجى الذى لم يكد يترك تدريس اللغة والأدب فى المدرسة البطريركية سنة ١٨٩٤ حتّى كلّف بتدريس هاتين المادتين ، فأنس به تلاميذ اليازجى وعرفوا فضله ، وتابع التدريس فى « الكلية الأمريكية » ، إلى اضطلاعه بتحرير مجلة « النشرة الأسبوعية » التى ملأها بمقالاته وشعره وترجماته . .

لقد عاش الحورانى فترات الانتقال بين عصرين : النصف الثانى من

---

(١) « أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر » لقسطاكى الحمصى ص ٤٥ .

القرن التاسع عشر ، ومنتصف العقد الثانى من القرن العشرين ، وبالرغم من مظاهر الحياة فى القرن العشرين ظلّ مشدوداً إلى القرن التاسع عشر ، أقرب إلى المحافظين المتزمتين منه إلى المجددين المنطلقين . .

يبدو ذلك واضحاً فى شعره وأدبه ونمط تفكيره . .

فى الشعر وأغراضه ومناحيه « لم يبتكر جديداً . ولم يجترح فى نظام الشعر خارقاً ، وإنما سلك الأغراض التى قصد إليها الشعراء فى عهده ، وفيها ما هو صدًى للقديم ، وما هو وليد العصر . .

آثر المجاز وأكثر من التشبيه والاستعارة .

وبرع فى فنون البديع على اختلافها ، فحلّى بها شعره ، وزيّن ألفاظه .

وأكثر ما نصادفه فى شعره من ضروب البيان : التشبيه والاستعارة ، ومن فنون البديع الطباق والتورية والجناس ومراعاة النظير .

فمن جيد تشبيهه قوله يصف طول أرقه (١) :

قد طال ليلى لما قاسيت من أرق ... فرمت صبحى فلاقانى بكل شقا
كأننى من فراشٍ فرّ من غسقٍ ... إلى سنى لهب المصباح فاحترقا

ومن روائع تشبيهه المقلوب قوله متغزلاً :

من فرعها خُلقَ الدجى وقد انجلى ... من فرقها وجبينها الفجران
لو أن رقــة خصرها فى قلبهــا ... ما ذبتُ وجداً من لظى الهجران

شعر لا تسيغه أذواقنا ولا يعبر عن حس صادق وشعور مرهف . وكان لابدّ له وهو أستاذ بلاغة إلا أن يعطى تلاميذه نماذج على الطباق والتورية والجناس ومراعاة النظير .

وقد طرق جميع ألوان الشعر من مديح إلى رثاء إلى غزل إلى المعابثات والإخوانيات ، فكان فى جميع ما نظمه ألصق بالنهج الذى تغلب فيه الصنعة على الطبع .

فى مجال المدح مثلاً : « يستهلّ مدائحه بالغزل التقليدى ، فيحنّ إلى ديار الأحباب ، ويشكو ألم البعاد ، ويعاتب على الصدّ والهجران ، ثم يشيد

---

(١) الدكتور كمال اليازجى فى كتابه « الشيخ إبراهيم الحورانى » ص ١٤٠ .

بمحاسن المحبوبة ويغالى فى وصف الحرقة ، ولا يلبث أن ينتقل إلى الممدوح ، يطرى مزاياه ويعلن فضله ، فإذا استنفد جعبته ختم قصيدته بالدعاء الحار ، وبالتاريخ الشعرى ، وربما جعلها عروساً زانتها جواهر الأفكار ، وحلتها عقود البيان ، فإذا هى ترفل فى حلة زاهية من نسيج البلاغة وزركشة البديع »[١].

هذا ، وهو معتزّ بما نظمه من قصائد ومقطوعات ، ويبرّر هذا الاعتزاز بوراثته الشعر عن أجداده الغساسنة فحلاّه بعلم العصر ، وهذا الذى جعل القوافى تخضع لقريحته خضوع العبيد ! !

ورثت الشعر عن بلغاء قومى ... بنى غسانَ أرباب البنود
وحلّيت القريض بعلم عصر ... خلا من مثله دهرُ الجدود
فجاءتنى القوافى خاضعات ... لأمر قريحتى مثلَ العبيد

هذا الاعتزاز بشعره والاعتداد بذاته وبقدرته على النظم حفزه أن يطرق كل باب ،وقد ترجم شعراً بعض مقطوعات من شعر شكسبير وملتن وغيرهما من شعراء الإنكليز ، وجال جولة واسعة فى الأدب الشعبى فنظم الزجل والمواليا[٢] . وحين

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٩ .

(٢) يقول قسطاكى الحمصى إنه قد نظم موالا سبعاوياً كان يتغنى به وهو فى الحادية عشرة من عمره :

يا ساكن البان صبرى من بعادك بان
يبكى دماً كلما غنى حمام البان
سرك كتمته ولكن من دموعى بان
والدمع فضاح أرباب الهوى فى الصبا
يا روح عطفاً على العانى أسير الصبا
مولاى شكواى ألطف من نسيم الصبا
وإن كان يهز عطفك يا غصن البان

ومن موشح له قوله :

يللى بلحظك بابل الأسحار ... وبصحن خدك كوكب الأنوار
سرك مصون بمهجة المفتون ... ما بتدركه الألباب والأفكار

* * *

سرّك مصون بمهجة المفتون ... لولا دموعى والعيون عيون
يا ظبى عينك سيفها مسنون

=

طرق باب الزجل برّر وجهة نظره بمقال عنوانه « لمحة فى الشعر الفصيح والعامى منه » قال : « بعض الناس يطربون بالفصيح دون غيره ، وبعضهم يطربون بالعامى دون الفصيح ، وبعضهم يطرب ببليغ الشعرين ، وهو صاحب الذوق التام »[1] .

هذا الشاعر الأديب لم يقصر جهده على اللغة والأدب ، بل خاض فى علوم زمنه . وكان لنزعته الدينية ، وهو من علماء اللاهوت . الأثر المباشر فى تكوينه الفكرى واتجاهه الأدبى ، فحين تناول العلماء والأدباء ، وعلى رأسهم الدكتور شبلى شميل ، نظرية « داروين » فى النشوء والارتقاء كان فى طليعة المتصدين لنقضها بكتابيه « الحق اليقين فى الردّ على بطل داروين » و« مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء » .

وحين سخر الدكتور شميّل من المؤمنين بالحياة الأخرى بقوله :

زعموا أننى سأبعث حيـًّا ... بعد طول المقام فى الأرماس
وأجوز الجنـان أرتع فيهـا ... بين حور وولدة أكياس
أى شىء أصاب عقلك يا مسـ ... ـكين حتى رميت بالوسواس

أجابه الحورانى بقوله :

قال ابن فلسـفة : أبى ... قـرد كذاك أرى أبـاك
قلت : الصحيـح مقـدم ... فلقد صدقت ببعض ذاك
قال : اعتزل قولاً بـلا ... معنى يفيـد وسدّ فاك

= قطع أكبـاد الغزلان ... وجنـدك آساد الفرسان
واستعبـد مىّ وغيلان ... وليلى وعاشقهـا المجنـون
ولحظك صاب أسود الغـاب ... برشق حراب وشقّ كبود
وهز العطف رماح الحتف ... وسل الطرف سيوف هنـود
وراح الراح بغـير قداح ... وبلبـل صاح بلحن العـود
ومال البان وسرى بـان ... وكان الـكان بكاف ونون
سر الهـوى مدفوق ... مع دمعـة العاشق
يا فتنـة المخلـوق ... يا آيـة الخـالق
قلب الفـتى مسروق ... من لحظك السارق
سحر العيون بيسر فى الأرواح ... وبيظهر الأخفى من الأسرار ..

(١) النشرة الأسبوعية العدد ٢١٢١ ص ٦٠٣ .

أفحمت قبلك كل من علموا ولست كمن سواك
فأجبت : إنك صادق خلفتهم طرًّا وراك
ودليل صدقك حمرة كالنار فى أعلى قباك
لو لم تكن أفحمتهم بالعلم ما صفعوا قفاك

لقد عاش الشيخ إبراهيم الحورانى حياته بين المحابر والأقلام ، وفى قاعات الدرس وعلى منابر الوعظ ، يحاضر ويعظ ، يؤلف ويترجم، فترك خمسة وعشرين مؤلفاً بين كتاب ورسالة أحصاها الدكتور كمال اليازجى الذى اعتمدنا عليه فى الكثير مما جاء عن سيرته – فيما يلى :

المؤلفات المطبوعة :

١ – جلاء الدياجى فى المعميات والألغاز والأحاجى – بيروت ١٨٨٢ .
٢ – الآيات البينات فى عجائب الأرض والسماوات – بيروت ١٨٨٣ .
٣ – مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء – بيروت ١٨٨٤ .
٤ – الحق اليقين فى الردّ على بطل داروين – بيروت ١٨٨٦ .
٥ – القلائد المدرية فى الحياة المسيحية – بيروت ١٨٩٦ .
٦ – بيروت – ١٩٣٦ .
٧ – الضوء المشرق فى علم المنطق – ١٩١٤ .
٨ – غرائب الحياة فى صغار المخلوقات – بيروت ١٩٢١ .

المؤلفات المخطوطة :

١ – الكوكب المنير فى علم التفسير .
٢ – العرس البديعة فى علم الطبيعة .
٣ – الإعراب فى نهج الأعراب .
٤ – شمس البرهان فى علم الميزان .
٥ – الشهب الثواقب .
٦ – ديوان شعر كبير فى دفترين كبيرين .
٧ – مجموعة من الشعر الزجلى .
٨ – مقامتان باللغة العامية .

الكتب المترجمة :

حكم الإنصاف فى رجال التلغراف – بيروت ١٨٩٥ .

تاريخ الإصلاح .

عدد الصفحات ٨٩٩ – بيروت ١٩١٣ .

أعظم ما فى العالم .

وقد ذكر بين آثاره المترجمة الكتب التالية ولعلها لم تنشر ، أو نشرت فصولاً ولم تجمع :

سكان وادى النيل .

الطريق السلطانية .

التاريخ الكبير .

سيرة القديس أوغسطينوس .

بين المحبة وأشياء أخرى فى العالم .

المواعظ الميلادية .

ومن شعره :

من غزلياته :

سُليمى فاح رياّها ... فحيا الله مغناها
فسر بى أيها الحادى ... إلى جنّات محياها
ورنّم أيها الشادى ... بذكراها بذكراها
وقل للعاذل الأعمى ... أثمت : استغفر الله
لأهل الحب أرواحٌ ... من الأشواق سوّاها
وللغادات أعناق ... بنور العرش حلاّها
وللألحاظ أسهام ... بقلب الصب مرماها

ومن حنينه إلى مسقط رأسه ، فقد لمح وهو فى ربوة دمشق بارقاً يضىء من جهة حمص فقال :

أقول إذا ما لاح من حمصَ بارقٌ ... سلام على مغنى الصبابة والصبّ
سلامٌ على أيامنا فى مشاهد ... رشفنا بها ما راق من مسكر الحبّ
سلامٌ على «مرج الطواحين» كم بدتْ ... شموسُ الضحى ليلاً عليه من الغرب
وغابت عن الأبصار فى خيمٍ حكتْ ... قباب سماءٍ لا تغيم ولا تغبى

وذكرها فى شتى المناسبات :

مـا حمصُ إلاّ جنّـة ... والنهـر فيهـا الـكوثـر
وزلالـه خمـر بـلا ... غَـوْل ولا مـا يسكر

وله يلوم العاذل مؤثراً الموت فى الحب على الحياة خلياً :

يا عاذل العاشق الولهان فى غـزل ... جاوزتَ شرعَ الهوى فاستغفر الله
لمعشرِ الحب أرواحٌ وأفئـدة ... من جوهر الوجـد والأشواق سواها
فـلا تلمنى فمنْ أهوى بها تـلفى ... والموتُ وجـداً بها من خير نعماها
حسبى إذا متُّ فيهـا قولهم ، وأنـا ... فى مدفن العشق : هذا كان يهواها

ووصف خداع الدنيا بقوله :

دنيـاك مثلُ عشيقة طبعتْ على ... أن لا تزال بنى المودة تخـدع
شـوهاءُ أظهرتِ الحـلىَ وإنمـا ... غطّى محياها القبيح البرقـع
والناس من سكر الصبابة لم تفق ... وعلى العيـون سحابةٌ لا تقشع
هامـوا بظاهر حسنها فمؤخـر ... للسبق يدفع والمقـدم يصرع

وقال فى الإيمان بالله والتوفر على عمل الخير :

المرء يرجو اليوم ما فى غـدٍ ... وفى غدٍ ما كان فى أمسـه
فموتُـه فى البر من سـعده ... وعيشه فى الإثم من نحسه
لا نفـع للإنسان من كونه ... ما لم يسق نفعاً إلى جنسه

وقال فى هيكل أوثان :

ولم يزل كلُّ قلبٍ عابداً صنمـاً ... فى ذى البسيطة من مالٍ ومن ولد
فبعضهم ربُّـه الديبـاج يعبـده ... والبعضُ عابدُ ذاتِ الدل والميد
والأرض « هيكل أوثان » لكل فتًى ... ما شام نور الهدى من عالم الأبد
كل الرذائل والأوثـان آلهـةٌ ... صينت تماثيلها فى هيكل الجسد
إن الرذيلة حبلى بالشرور على ... طول المدى وبغير القلب لم تلد

ومن شعره فى المرأة :

استراحَ اللهُ لمـا خـلق الـ ... ـمرء فى الجنة فى بر وراح
ثم لمـا خـلق المـرأة لم ... يسترح منها ، ولا المرء استراح

مريانا المرّاش

١٨٤٨ – ١٩١٩

حين أذكر مريانا المراش أذكر تلك الفترة الغامضة من الحياة الأدبية التى عرفتها حلب والتى كانت تضم صفوة من الأعلام فى طليعتهم رزق الله حسون ، وجبرائيل الدلال ، وعبد الرحمن الكواكبى ، والشيخ كامل الغزى ، وعبد المسيح الأنطاكى ، وقسطاكى الحمصى ، وغيرهم من الأدباء والشعراء .

فقد كانت هواية الأدب تجمع بينهم وتؤلف بين قلوبهم برباط من الود وثيق .. فلا يكاد أحدهم ينظم قصيدة ، أو يكتب مقالة أو ينشئ مقامة حتى يبحث عن صديق أديب تتجاوب نفسه معه .

وكثيراً ما كانوا يلتقون فى منازل بعضهم يتناشدون الشعر وينثرون النكات ، ويتحدثون هذه الأحاديث التى تمس المعدة والمجتمع .. فإذا تجاوزت هذه الأحاديث إلى أنباء السياسة كانت تعليقاتهم مهموسة وفى جو الخوف والذعر ، إذ لم يكن العهد الحميدى الذى نشأوا فى ظلاله ليسمح لهم أن يتحدثوا هذه الأحاديث بروح منطلقة .

فى تلك الفترة نشأت مريانا المراش .

وكان بيت أبيها من البيوتات العريقة التى لها مشاركة بحياة الفكر والأدب .

وكان لأخويها فرنسيس وعبد الله ، والأول شاعر طبيب والثانى تاجر أديب ، أثرهما غير المنكور فى توجيهها نحو حياة الفكر ..

فبعد أن أتمت دراستها الابتدائية فى مدرسة مار يوسف – وكانت قد دخلت المدرسة المارونية فى الخامسة من عمرها – انتقلت إلى المدرسة الإنجليزية فى بيروت التى أنشأها الدكتوران أدى وورتبات ، فدرست فيهما مبادئ اللغة العربية والحساب وبعض العلوم ، وفى الخامسة عشرة من عمرها أخذ أبوها يعلمها الصرف والنحو والعروض ، ثم تلمذت على أخويها اللذين أشربا قلبها حب الأدب ، فحفظت فى بدء نشأتها الأدبية الكثير من شعر سلطان العاشقين عمر بن الفارض .

الفارض والبيوت الحلبية :

وكان شعره الوجدى قد غزا البيوت الحلبية فما من بيت إلا وقد حفظ بعض أفراده أكثر قصائد هذا الشاعر المتصوف .

ولا أعلل الأسباب بل أروى أطيافاً من واقع تاريخنا القريب . . ففى بيتنا كانت عمتى تحفظ ديوان ابن الفارض كله مع أنها أمية لا تقرأ ولا تكتب . وحين سألتها كيف أتيح لها حفظ هذه القصائد التى تربو أبياتها على الثلاثة آلاف بيت قالت :

كان أبوك يحفظ شعر ابن الفارض فى سويعات فراغه ، وكنت أنصت إليه باهتمام وأنا ملمومة على نفسى فى زاوية البيت فلا يكاد يتم حفظها حتى أكون قد حفظتها معه . وحين أعيد ترتيلها على مسمع من أذن جدك كان يبارك طفولتنا دون أن يثيره العجب ! . .

الشعراء العذريون :

ومريانا المراش كغيرها من السيدات الحلبيات ممن حفظن الكثير من شعر ابن الفارض ، وكان للشعراء العذريين أثرهم فى نفسها . .

وكما أحبت شعر ابن الفارض وإمام الغزلين عمر بن أبى ربيعة تعلقت بشعر لامارتين ودى موسيه .

كانت ترى فى تعبير أولئك الشعراء عن وجدهم وحبهم وشعورهم وأحاسيسهم إثارة لوجدها وحبها وشعورها وأحاسيسها . .

وهى فتاة فى رونق الصبا . **كانت** تمر أيام صباها بهذا الجو من الشعر والموسيقى والجمال .

ملاحتها وسحر جاذبيتها :

وعرف أدباء تلك الفترة وهم يترددون على بيت أبيها ، ما ينبض به قلب مريانا من حب للأدب ، وميل إلى قول الشعر إلى ولع بالموسيقى ، فأحبوا فيها هذه الخصائص .

وكانت ملاحتها وسحر جاذبيتها بدأت تجتذبهم .

وليس كالأديب إنسان يعشق الجمال ويحترق فى سنا أضوائه . .

فإذا اقترن الجمال بالجاذبية ، وكان من جملة عناصره الأدب والشعر والموسيقى والذكاء والانطلاق — كان ذلك مدعاة لأن ترقص النفوس على مباهجه وأضوائه .

صالونها الأدبى :

نعم ، فى بيت مريانا المراش كان يجتمع أدباء تلك الفترة ، وربما كان بيتها أول صالون أدبى عرف فى الشرق العربى . فكانت تعقد الاجتماعات وتطول السهرات ، وتثور المناقشات ، وتكثر المواجيد والمطارحات .

فى زاوية من زوايا بيتها كانت تتنزل ربة الإلهام على قريحة اللغوى الشاعر قسطاكى الحمصى فيكتب إلى خاله الشاعر جبرائيل دلال المقيم فى باريس قصيدة يبثه فيها عواطفه ويبلغه شوقه ، ويحدثه عن معابثات إخوانه ويشير إلى « المآكل الحلبية » التى تتفنن مريانا فى صنعها لهم .

وتثير هذه المقطوعة الشعرية قريحة الدلال فيجيبه بقصيدة طويلة يشكره فيها على عواطفه ، ويصف شوقه إلى حلب ، ويتنكر لأولئك الذين أكل الحسد قلوبهم فلم يعرفوا فضله ، ويقايس بين مآكل حلب الدسمة ومآكل باريس الشهية — أى شتى مآكلها المادية والمعنوية — ثم يمدح صفات مريانا ويشيد بنبوغها ، والقصيدة طويلة أجتزئ منها قوله :

وإذا لم يكن هنا غير أن الـ   حرّ فيهـا يعيش دون منازَع
فهو يكفى حظًّا لقلبى وإن سـا   لت على غربتى غروب المدامع

ويقول :

لا ولا أشتهى سـواكم ولا أر   غب فيهـا من بعد تلك الوقائع
غير قرب الفريدة اللطف ذات الـ   صون والحسن والذكا والبدائع
ربـة الفضل والفضائل « مريا   نا » التى ذكرها يسرّ المسامع
والتى زانهـا الـكمال إذا زا   ن سـواها الحلى وسدل البراقع

هذه المطارحات الأدبية كانت تدور فى ظلال السهرات الماتعة التى تعقد فى بيت مريانا المراش . ونحن نعلم أن صالونات الأدب التى ترعاها السيدات المترفات والأديبات الموهوبات تصبح ملتقى كبار الرجال من أدباء وشعراء وساسة ومفكرين . ولن أتحدث عن صالونات الأدب فى الغرب فحسبى الإلماع إلى الصالونات الأدبية فى شرقنا العربى — من صالون الأميرة فاطمة إسماعيل الذى كان يضم أعلام مصر من محمد عبده إلى قاسم أمين إلى سعد زغلول إلى غيرهم من الأفذاذ ، إلى صالون هدى شعراوى زعيمة الحركة النسائية فى الشرق العربى ، إلى صالون أديبة العرب الآنسة مىّ حيث كان يجتمع فى صالونها كل يوم ثلاثاء أكابر أدباء العرب وشعرائهم والصفوة المختارة من القضاة والساسة والصحفيين . .

ولا علىّ أن أقول إن مريانا المراش كانت أول أديبة عربية فتحت بيتها لاستقبال الأدباء ، مع أن العصر الذى عاشت فى ظلاله كان عصر تزمت وتقاليد .

أول أديبة كتبت فى الصحف :

كما أنها أول أديبة سورية كتبت فى الصحف كما روى الفيكونت دى طرازى صاحب كتاب « تاريخ الصحافة العربية » ففى عام ١٨٧٠ نشرت عدة مقالات فى مجلة « الجنان » ، وفى جريدة « لسان الحال » وفى غيرهما من صحف ومجلات بيروت ، فمن مقالاتها مقال عنوانه « جنون القلم » شكت فيه حال انحطاط الكتاب وحرصت على تحسين الإنشاء ، وترقية الموضوعات والتفنن فيها . وقد أفادت أيما إفادة من اختلاطها بأدباء عصرها فنهجت نهجهم وسارت على غرارهم ، كما احتذت أساليب الشعراء أيضاً فنظمت قصائد ومقطوعات من الشعر الوجدى ، مدحت ورثت ، وصفت وتغزلت ، ولم يكن بيتها ملتقى الأدباء والشعراء فحسب بل كان يؤمه رجال الحكم ورجال السلك السياسى ، فمدحت والى حلب آنئذ جميل باشا — ذلك الرجل العمرانى الذى كان أول من أسس المدارس المدنية فى حلب من ابتدائية وإعدادية — وكانت محرومة من المدارس المدنية وليس فيها سوى الكتاتيب والمدارس الدينية الإسلامية وبعض الإرساليات

الأجنبية – بل إنه أول من وسع الجواد وافتتح الشوارع – مدحت هذا الرجل كما مدحت غيره من رجال السلك السياسى ، وكانت لزمنها من الشاعرات المشهورات ، فإذا ذكرت عائشة التيمورية فى مصر ، ووردة البازجى وو ردة الترك فى لبنان ، ذكرت مريانا المراش فى سورية .

بنت فكر :

وقد جمعت مريانا قصائدها ومقطوعاتها الشعرية فى ديوان بعنوان « بنت فكر » وهو يضم قصائد المدح وقصائد الوجد والحكم والرثاء ، وشعرها الوجدى ينم عن إحساس عميق وشعور متقد . وقصائدها الحكمية تدل على أنها عاشت تجارب الحياة بعقل كبير وفؤاد بصير . . فمن منظوماتها الحكيمة قولها :

شرف الفتى عقل له يسمو على ... كل الورى فينـــال غايات المنى
وكذاك حسن الخلق فخر مسوَّد ... متسربل بالعطف نعم المقتنى
والمرء إن شهدت له أفعـــاله ... بالفضل والآداب يكتسب الثنا
ما كل من طلب الكرامة نالها ... من رام صيد الظبى حل به العنا
ذو المال يذهب ذكره مع ماله ... لكن ذكر الفاضلين بلا فنا

ورثاؤها لأخيها فرنسيس المراش وهو الشاعر الأديب والعالم الطبيب الذى كان أسبق من شبلى شميّل وسلامة موسى وإسماعيل مظهر فى الدعوة إلى مذهب النشوء والارتقاء – أقول إن رثاءها لأخيها قطعة جمر من كبد محروقة . وكأنها الخنساء ترثى أخاها صخراً . . فقد اسودت الدنيا فى عينيها وعبرت أصدق تعبير عن حالتها النفسية ، تقول فى رثائه :

مالى أرى أعين الأزهار قد ذبلت ... ومال غصن صباها من ذرى الشجر
مالى أرى الروض مكموداً وفى كرب ... والمـــاء فى أنّـــة ، والجو فى كدر

والقصيدة طويلة ، فبعد أن تعدد مآثره وتندب فضائله تقول :

هذا الذى جابت الأقطار شهرتـــه ... قد صار مطّرحاً فى أضيق الحفــــر
خنساء صخر بكته حينما نظـــرت ... إليـــه مُلقًى بلا سمع ولا بصر
أقلام أهل النهى ترثيـــه وا أســـفى ... هل عاد من عودة يا مفرد البشر

مذ غاب شخصك هذا اليوم عن نظرى   جادت عيونى بدمع سـال كالمطر
فيـا لدهر خؤون لا ذمـام لـه   قد راش سهماً أصاب الفضل بالقدر
فحزن يعقوب لا يـكفى لندبك يا   نـدباً تفرد بالأجيـال والعصر
ويـلاه من حزن قلب نـال غايته   مذ واصل القلب فى غم مدى الدهر
فى لجة الحزن نفسى ضاق مسكنها   من ذا يسلى فؤادى ؟ قل مصطبرى

وأكتفى بهذا المقدار من شعرها وهو يعطينا صورة صادقة عن أدبها — أدب عصرها الذى كانت تعيش أخيلته فى هذه الأجواء !

مريانا ومى :

عاشت مريانا المراش حياتها فى جو من النغم والألم ، عاشت مع الأدباء والشعراء ورجال الفن ، وقرأت ما كتبه أدباء الإفرنسيين وأدباء العرب فتكون عندها ثقافة تجمع بين القديم والحديث . وكانت تأنس إلى هذه الأجواء التى تغمرها أنغام الموسيقى ونفحات الأدب . يقول قسطاكى الحمصى أحد معاصريها :

« كانت مريانا مليحة القد ، رقيقة الشمائل ، عذبة المنطق ، فكهة الأخلاق ، طيبة العشرة ، تميل إلى المزاح ، حسنة الجملة ، عصبية المزاج ، وكان منزلها مثابة الفضلاء ، وملتقى الظرفاء والنبهاء ، وكان لنا عندها منزلة ترتد عنها أعين الحساد كليلة ، فسقياً لأيام الشباب . ومجالس الآداب والأحباب ، ومساجلاتنا بالمحفوظ والبديه من الأشعار ، ورقصنا على العود والمزمار ، وصوت بلبل ذلك العصر المدعو بالحجار (يريد باسيل حجار أحد مطربى حلب المشهورين بجمال صوته وحفظه الأدوار القديمة والتواشيح الأندلسية) » .

نعم ، كانت تأنس إلى هذه الأجواء التى تغمرها أنغام الموسيقى ونفحات الأدب ، وكانت حياتها شبيهة بحياة مى مع فارق الزمن فى ملابسات حياة العصر . . فتحت صالونها للرجال المرموقين ، كما قلت ، فكانوا يجدون عندها هذه النفحات التى تذهب عنهم سأم الحياة وضجر العمل ، كما فعلت مى تماماً .

ومن المفارقات الغريبة أن يتمكن الداء العصبى من الاثنتين فى أخريات

حياتهما ، وكانت كلتاهما عصبية المزاج ، وقد يرجع هذا إلى فرط حساسيتهما . ولئن كان الكبت الجنسي هو الذى أورث ميًّا هذا الداء ، فما كانت مريانا كميّ ، ولا سيما وقد ركبها الداء العصبي وهى متزوجة ولها أولاد .

أكان فرط الحساسية عند مريانا أكثر منه عند ميّ ؟

لا علم . . وهذا موضوع أدخل فى علم الطب منه فى عالم الأدب . ولست طبيباً لأبحث هذه الناحية الفسيولوجية ، وكل ما أريد أن أقوله إنها كانت أديبة عصرها فى تلك الفترة من الزمن حيث الجهالة طاغية . كانت نجمة من نجوم الأدب المشعة فى سماء ذلك الليل البهيم .

الشيخ طاهر الجزائرى

١٨٥٠ – ١٩٢٠

بحاثة ، من أكابر العلماء باللغة والأدب .

ولد فى دمشق سنة ١٢٦٨ﻫ ، وهو ابن الشيخ محمد صالح السمعونى الجزائرى من فقهاء المالكية ، وتولى الفتيا بمذهبه فى دمشق بعد هجرته من الجزائر .

تتلمذ الشيخ طاهر على الشيخين عبد الرحمن البوشناقى وعبد الغنى الميدانى وقد أخذ عن الأخير « أفضل الأخلاق وأصح المبادئ العلمية » ، لم يمارس التافهات ولا شغل قلبه بالبدع والضلالات ، فكان درسه عليه درساً حقيقياً يراد منه الرجوع بالشريعة إلى أصولها والأخذ من آدابها بلبابها ، ومحاربة الخرافات التى استمرأتها طبقات المتأخرين .

تولى التعليم لأول نشأته فى المدرسة الظاهرية الابتدائية ، ثم عين مفتشاً عاما للمدارس الابتدائية التى أنشئت فى عهد مدحت باشا حين كان والياً على سورية سنة ١٢٩٥ ﻫ .

أنشأ بمعاونة بضعة من أصدقائه دار الكتب الظاهرية فجمع فيها ما تفرق من المخطوطات . ولقى ممن يستحلون أكل الأوقاف مقاومة وأى مقاومة .

كان مغرماً باقتناء المخطوطات وهو ابن سبع سنين يبتاع منها الدشوت والأوراق المبعثرة وغيرها من الأسفار والصحف ، ويقرأها ويحتفظ بها حتى جمع منها خزانة حافلة بالنوادر .

فى سنة ١٣٢٥ ﻫ – ١٩٠٧ م – هاجر إلى القاهرة فراراً من ظلم العهد الحميدى وقد ظل فى مصر لم يبارحها غير مرتين حين أدى فريضة الحج وحين حضر مؤتمر المستشرقين فى باريس .

وفى ١٣٣٨ ﻫ – ١٩١٩ م عاد إلى دمشق فانتخب عضواً عاملا فى المجمع العلمى العربى ومديراً لدار الكتب الظاهرية .

يعتبره محمد كرد على من أئمة الإصلاح فى دمشق ويلقبه بشيخ المصلحين ويقول :

« ندر جداً أن جاء فى المتأخرين من علماء المسلمين ، أى فى عصور الانحطاط العلمى ، رجل وعى صدره من العلم ما وعاه صدر الشيخ طاهر الجزائرى ، فكان متضلعاً من علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل وما يتشعب عنها ، منقطع النظير فى تاريخ العرب وتراجم رجالهم وسلاسل أعمالهم ومناقبهم ومناقشاتهم ومناظراتهم ، فهو فى ذلك الحجة الثبت ، ساعده على ذلك قوة حافظته التى لا تكاد تنسى ما تمر به مهما طال العهد ، قرأ جميع الكتب العربية التى طبعت فى الشرق والغرب أو ترجمت من اللغات الأوربية . أما المخطوطات التى طالعها فتقرب من المطبوعات إن لم تكن أكثر ، وقلّ أن يدانيه أحد فى معرفة المظانّ ، ولذلك كان يسهل عليه التأليف فى أى موضوع أراد ، وقد يؤلف الكتاب الممتع فى بضعة أسابيع .

وكان إماماً فى علوم الأدب كلها ، يحسن من اللغات العربية والتركية والفارسية ويعرف مبادئ الإفرنسية والسريانية والحبشية والزواوية »(١) .

وقد وصفه أحمد زكى باشا — شيخ العروبة — بقوله :

« أستاذ الشام على الإطلاق ، فهو يضم بين طمريه العلم الجم والخلق الأشم »(٢) .

* * *

كتب الشيخ طاهر الجزائرى ما يقرب من عشرين مصنفاً منها ما ألفه فى صباه للمدارس الابتدائية ، ومنها ما ألفه لأغراض علمية خاصة ، ومن كتبه : « الجواهر الكلامية فى العقائد الإسلامية » و « قصص الأنبياء » ورسالة فى النحو وأخرى فى البديع وثالثة فى البيان ورابعة فى العروض وكتاب « تسهيل المجاز إلى فن المعمى والألغاز » وشرح رسائل ابن نباتة و « إرشاد الألباء إلى طريق تعليم ألف باء » وكتاب « توجيه النظر إلى علم الأثر » وكتاب « التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن » وهو مقدمة تفسيره الكبير الذى لم يطبع ويدخل فى بضعة

(١) محمد كرد على فى مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١ ج ١ ص ١٨ — ١٩ .

(٢) « تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر » لمحمد سعيد البانى ص ١٠٠ .

مجلدات ، ومقدمة معجم اللغة الذى ألفه ولم يطبع وهو تامّ ، ومن كتبه « التقريب إلى أصول التعريب » ومختصر أدب الكاتب لابن قتيبة ، والإلمام بسيرة النبى ، ومقاصد الشرع ، وغير ذلك من الكتب والرسائل والمقالات والتعليقات — هذا عدا مذكراته البالغة عشرات من المجلدات ، فيها وصف الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة التى طالعها و بعضها محفوظ جدير بالطبع (١) .

* * *

من هذا العرض الموجز لسيرته نعلم اتجاه هذا الرجل الذى كان ، إلى ثقافته الدينية ، وتبحره بالعلوم الغربية ، واهتمامه بكنوز الأجداد ونفائس المخطوطات — كان من القائلين بمجاراة التيارات العصرية والأخذ بالمدنية الأوربية . فقد وقف يحارب الجمود بجرأة و يناهض العلماء المتزمتين بأسلوب العقل المستمد من جوهر الدين . وكأنى به قد اختط لنفسه ذات الخطة التى اتبعها جمال الدين ومحمد عبده ، وهذا الذى دعا علامة الشام الأستاذ كرد على ، وهو من تلاميذه الأوفياء المخلصين ، أن يلقبه بشيخ المصلحين ، فقد استطاع هذا المصلح أن يخلق مدرسة فى دمشق تقول برأيه وتسير وفق نهجه ، وهى مدرسة ضمت الكثير من الأعلام والتى مهدت لنهضة دمشق الفكرية والعلمية — تلك النهضة التى يتمتع بثمراتها أبناء هذا الجيل . وأريد من مدرسته أثره فى تلامذته « إذ قل أن يوجد من أدباء هذا العصر وعلمائه فى بلاد الشام من لم يستفد من علم الأستاذ وتجاربه إن لم يكن مباشرة فبالواسطة ، وتلامذته الذين انتفعوا به فى شبابه فقط يعدون بالمئات وأكثرهم اليوم (٢) يشغلون مقامات سامية فى دور العلم والحكومة والإدارة ومنهم المؤلفون والصحفيون والمتأدبون والنابهون » (٣) .

---

(١) كرد على المصدر السابق ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) كتبت هذه الكلمة سنة وفاته (١٩٢٠) .

(٣) كرد على المصدر السابق ص ١٩ .

الشيخ كامل الغزى

١٨٥٢ — ١٩٣٣

أديب شاعر واسع المعرفة ، وهو فى ثقافته الأدبية وثقافته اللغوية من طراز الأستاذ المغربى ، يغوص على القديم فيستخرج من نصوصه اللآلئ والكنوز فيجلوها بلغة سهلة واضحة يسيغها أبناء العصر . . .

نشر الكثير من المقالات اللغوية والتحقيقات الأدبية فى مجلة « المجمع العلمى العربى » ولا سيما ما يتعلق بالفولكلور الحلبي .

أرّخ لحلب بكتابه « نهر الذهب فى تاريخ حلب » فعرض إلى أيامها الخوالى وما تعاقب على أرضها من أمم ، وتحدث عن آثارها وخططها وأعمالها ، وترجم لرجالاتها ، وبسط الكثير من حوادثها والأحداث التى مرّت بها ، وهو فى أربعة أجزاء طبع منه ثلاثة وظلّ الرابع غير مطبوع . . .

وميزة تاريخه أنه يغربل الحوادث فلا يثبتها كما جاءت فى كتب مَنْ تقدمه من المؤرخين بل يعلّق عليها بما توحيه إليه ثقافته وثبت تحرياته . . . ومع تصدّيه للتاريخ فنزعة الأديب عنده أغلب من نزعة المؤرخ .

وصفه قسطاكى الحمصى ، وهو من خلّص أصدقائه بقوله :

« أحد معاصرينا الألباء وأصحابنا الشعراء . . . وهو فرد من الأفراد الجامعين بين الأدب والظرف ، وبين خفة الروح وعذوبة المنطق واللطف . بصير بمذاهب الكلام ، حلو المعاشرة . ظريف المحاضرة ، ذكى المشاعر ، سريع الخاطر ، يميل إلى المزاح ، جوابه على رأس لسانه . ونظمه على رأس القلم ببيانه »(١) .

وأذكر ، أننى حين كلفته كتابة ما يعرف من مفارقات عن رفيقه وصفيّه عبد الرحمن الكواكبي لنشرها فى « الحديث » لم يتردّد ، وبعد يومين جاءنى بكراس ضمّت أشياء يجهلها الكثيرون عن هذا الرائد العربى ، وكانت المعلومات

---

(١) « أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر » ص ١١٥ .

التى سردها مرجع الكثيرين ممن كتب عن الكواكبى (١) .

* * *

من كتبه عدا تاريخ حلب : « الروضة الغناء فى حقوق النساء » نهج فيه نهج المجددين فى صون حقوق المرأة فى فترة كانت المرأة المسلمة تعيش فيها فى ظلمات الكهوف ، وكتاب « جلاء الظلمة فى حقوق أهل الذمة » ، وترجم عن التركية كتاب « إتحاف الأخلاف فى أحكام الأوقاف » ، وله ديوان شعر كبير لم يطبع ، أكثره فى المناسبات والإخوانيات .

وشعره سهل غير معقّد ، فمن شعره قصيدة أو أرجوزة فى مائة وعشرين بيتًا نظمها وهو فى السبعين من عمره ، بعد أن منّ الله عليه بولده الوحيد « فيصل » وهى نصائح أب يودّع الحياة إلى فلذة كبده ، فى فجر الحياة . . . وقد ضمنها » الكثير من الآداب الإسلامية مع مراعاة خصائص عصره وتقاليده .

قال بعد التحمدة :

أبنىّ أنت وديعـــة الله الذى   هو بالودائع خير مَنْ يتكفّل
أبصرت نجمك فى الديار وإننى   لأخال شمسى عن قريب تأفل
فإلى الإله وكلت أمرك إنه   نعم الوكيل لنا ونعم الموئل
أولاك مولاك السعادة والرضا   وحباك سعياً بالنجاح يكلل
ووقاك من غدر الزمان ومكره   وعليك فيما ترتجى يتفضـــل

* * *

أبنى ثق بالله واعلم أنـــه   هو وحده ما شـــاء فينا يفعل
الجأ إلى ظلّ الديانة واطّـــرح   ما قال فيهـــا ملحـــد ومضلل
أمسك عن الأبحاث فى قَدَر وفى   ما قال فيه مجبر ومعطّل

* * *

وجاءت القصيدة مع شرحها فى مائتى صفحة ، لأنه كان يقف عند كل مقطع من مقاطع القصيدة فيشرح ما أراد أن يزود به ابنه من النصائح الغالية والآداب الإسلامية ، وقد سمّى رسالته هذه « القول الصريح فى الأدب الصحيح »

---

(١) المقال منشور فى العدد ٦ ، ٧ من المجلد ٣ من مجلة « الحديث » سنة ١٩٢٩ .

فصبّ فيها جماع خبرته فى الحياة ووشاها بفيض من ثقافته الأدبية والدينية ، فإذا وقف عند بيت :

امسك عن الأبحاث فى قَدَرٍ وفى ما قال فيــه مجبر ومعطل

شرح عقيدة « القدر » شرحاً وافياً ، فيقول تحت عنوان « ترك البحث بالقدر » :

« جميع فرق الباحثين فى القدر يطلق عليها كلمة " القدرية " فهى كلمة مشتركة بين أربع طوائف :

اثنتان منها : غلاة هالكون ، إحداهما الطائفة التى نفت القدرة والإرادة عنه تعالى . وجعلت أفعال العباد كلها حركات النفس والروح . وثانيتها الطائفة الجبرية التى برأت العبد من المؤاخذة فى المعاصى لأنه مجبور عليها ، وإنه سبحانه واجب عليه أن لا يؤاخذ عليها . وأن مؤاخذته عليها تعدّ منه ظلماً وخرقاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

أما الطائفتان الأخريان فهما من الطوائف الناجية ، إحداهما الطائفة الأشعرية المنسوبة إلى أبى الحسن الأشعرى المعتدل فى عقيدته بين الجبرية والقدرية ، أى الذين ينسبون القدرة للعبد على خلق أفعال نفسه حيث قال إن الخير والشر مقدوران للعبد غير أن للعبد كسباً أى جزءاً اختيارياً يجعل له مندوحة عن اقتحام الشر ويحدو به إلى اختيار الخير ، وهذه العقيدة هى التى عليها أهل السنة والجماعة . . .

وثانيتهما : أى الطائفة الثانية الناجية هى الطائفة السلفية القائلة بأن الخير والشر جميعهما مقدوران من الله تعالى ، كما أرشدهم إليه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وأن الخلق خلقه تعالى والأمر أمره ، له أن يثيب العاصى ويعاقب الطائع وبالعكس لا يجب عليه أحد الأمرين ، ولا يعد ذلك منه ظلماً ولا رعونة لأنه هو الموجد للاثنين ، والبارئ والمصوّر للطائع والعاصى يحق له أن يتصرف فيما خلق وبرأ وصور كيف شاء وأراد ، كما يحق للمالك أن يتصرف فى ملكه .

هذه هى طريقة السلف الصالح واعتقادهم فى القضاء والقدر . لا يزيدون على ذلك ولا ينقصون ، غير مكترثين بتطبيق اعتقادهم هذا على علم الميزان ،

ولا ناظرين إلى التعارض والتناقض الذى تؤدى إليهما أبحاث أهل هذا الفن .

ثم يلتفت إلى ولده فيخاطبه :

فمرّن نفسك ، يا بنى ، على الرضا بهذا الاعتقاد ، وانقشه فى لوح مخيلتك ، وثبتْه فى سجل حافظتك ، حتى يصبح إلفًا وعادة وطبعًا ، واحذر كل الحذر أن يكون اعتقادك هذا ناسخًا ، أو معارضًا اعتقادك الآخر وهو ارتباط الأسباب بالمسببات . وأن القدرة الإلهية جعلت لكل شىء سببًا . لا تجعل اعتقادك أن الخير والشر مقدوران معارضًا لأعمالك ، وداعيًا لإهمالك السعى والاهتمام بشئونك ومقاصدك ، بل اجتهد أن تطبق أعمالك على الظاهر المحسوس ، وهو أن المقاصد التى هى جلب النفع ودفع الضرّ لا تحصل غالبًا إلاّ بالسعى والعمل . ولا عبرة لنفع يحصل وضرر يدفع بلا سعى وبلا عمل ، فإن هذا من باب المصادفة والاتفاق .

وبعد أن شرح موضوع القضاء والقدر شرحًا وافيًا ، عاد ينصح ابنه بعدم الاستسلام إلى التواكل فقال :

اترك البحث بالقدر ، كما تركه السلف الصالح ، فإننا لم يبلغنا عن أحد من الخلفاء الراشدين والصحابة المكرمين الذين ثلّوا العروش وأذلّوا الجبابرة وقهروا القياصرة والأكاسرة ، أنهم بحثوا فى مسائل القضاء والقدر . بل أخذوها على محكّ قضايا علم الميزان الذى لم يكن معروفًا فى أيام سيادتهم ، بل الذى قرأناه فى بعض أخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه دخل على جماعة من الصحابة فسمعهم يتحدثون بشىء عن القضاء فزجرهم وأمر بجلد بعضهم .

وقال :

« البحث فى القدر هو الذى فتح على المسلمين أبواب الزندقة والإلحاد قديمًا وحديثًا ، وكان من أعظم أسباب ما حدث فى العالم الإسلامى من الفتور والجمود وخمود نار الهمم .

إن تطبيق الأعمال على الاعتقاد بالجبر قد أوقع بالمسلمين ضررًا عظيمًا لأنه اضطر السواد الأعظم منهم إلى الاستسلام والتوانى وترك العمل ، والقناعة باليسير وأرسخ فى غرائزهم عقيدة التواكل المغلوط الفاسد ، فأخلدوا إلى الهدوء والسكون ،

وفترت هممهم ، وبردت عزائمهم، فوقعوا فى أمراض الضعف والمسكنة حتى أصبحوا لقمة سائغة للأمم الأجنبية التى نفضت عنها غبار الأوهام ، ولم تعر البحث فى القضاء والقدر التفاتاً بل نبذته وراء ظهورها ، ورأت أن المقاصد لا تتسنى إلا بالعمل والسعى فقامت تجد وتجتهد وراء الرقى والفنون وقبضت بيديها الحديديتين على أعناق المسلمين وغيرهم من أمم الشرق التى بقيت مطروحة فى زوايا الخمول . مكتوفة الأيدى عن السعى والعمل ، مقيدة بسلاسل اعتقادها المغلوط فى القضاء والقدر » .

* * *

وهكذا ، فما من مقطع من مقاطع هذه الأرجوزة الكبيرة إلا ذيله بهذه الاستطرادات حتى جاءت الرسالة متضمنة الكثير من الآراء والاتجاهات التى تفصح عن ثقافته ورأيه الحر فى شتى ظواهر الحياة . وتلمح أيضاً إلى نزعة التحرر وهزئه بروح الجمود التى كانت طابع عصره وطابع الكثيرين من أصحاب العمائم المتزمتين. وكثيراً ما أخذوا عليه هذا الانطلاق فى البحث فاعتبروه مارقاً واتهمه البعض بالزندقة !

والرسالة مخطوطة . ولعل ابنه — وقد أكمل دراسته الجامعية وأخذ مكانه فى أسرة التعليم — لعله يطبعها مع مجموعة من بحوثه التى لم تطبع . وفى طليعتها :

١ — الجزء الرابع من تاريخ حلب .

٢ — ديوان شعره . ويضم الكثير من ظواهر الحياة فى العهد العثمانى . وفى الفترة التى أعقبت هذا العهد .

وقد عرف بين زملائه المعممين بخفة الروح وطلاقة اللسان وحسن المحاضرة ، وكان إلى هذا . حلو المفاكهة لطيف المنادرة يغشى المجالس فيفيد الشباب والشيوخ من عذب حديثه وفيض نكاته وغزير أدبه وحكاياته .

ميخائيل الصقال

١٨٥٢ — ١٩٣٨

ولد فى مالطة ، وترعرع فى كنف أبيه أنطون الصقال الذى عاش فترة فى تلك الجزيرة يصحح الكتب العربية فى مطبعتها ، ويدرّس فى إحدى مدارسها ، وتعتمده بريطانيا فى ترجمة بلاغاتها ومنشوراتها .

إلاّ أن إقامته فى مالطة لم تطل ، فعاد بابنه إلى حلب ، يعيش مع أنداده من هواة الأدب ، يكتب القصص وينظم الشعر ويرسل المقالات إلى الجرائد والمجلات .

وقد نشأ ابنه على غراره ، فعلمه العربية والتركية ، ووجّهه إلى قراءة كتب الأدب .

وما كاد يشبّ حتى أخذ ينظم الشعر وهو فى السادسة عشرة من عمره . . .

كان شعره تعبيراً عن هواجس شاب مغرم بالجمال ، وقد تثيره المناسبات فيُطلب إليه أن يصف هذه أو تلك فلا يتردّد . . .

لقد جعل نظم الشعر ملهاته المحببة . . .

وكان للأدب ، ولا يزال ، أثره فى المجتمعات الحلبية ، والمسيحية منها بصورة خاصة ، ولا سيما حين تشعّ ليالى الطرب ، وتدور الكأس ، وتعقد حلقات الرقص . . .

فما من مناسبة عائلية إلاّ وله قصيدة أو مقطوعة . . .

ففى أحد المجتمعات أشعلت صبية حسناء لعبة فى يدها ، كعنقود من نور ، وجعلت تديرها ، فاقترح عليه وصفها فقال :

وخودٍ مذ بدتْ تسعى أرتنى غُصين البان يشرق منه نور
فقلتُ لها : ألستِ الشمس ؟ قالت : ألم ترها على كفّىّ تدور

وظلّ وثيق الاتصال بالحياة الفكرية يعبّ من الأدب القديم ما يقوم به

لسانه ، ومن الأدب الحديث ما يصقل ذوقه . . .

* * *

ومن عالم الشعر إلى عالم الصحافة . . .

فلم يكد يعى « ذاته » ، ويضيق بـ « مجتمعه » ، حتى سافر إلى مصر التى اجتذبت إلى ربوعها كل ذى موهبة من السوريين وغير السوريين الذين ضاقوا بالجو العثمانى الخانق . . .

وفى مصر ، دخل الميدان الصحفى ، فأصدر سنة ١٨٩٧ مجلة « الأجيال » المصورة التى يعتبرها مؤرخو الصحافة أول مجلة مصورة ظهرت فى العربية !

ولم تطل إقامته فى مصر . فعاد إلى حلب بعد أن أفاد الكثير من جوّ القاهرة وتياراتها الفكرية التى تتّسم بروح الحرية .

وكانت باكورة أعماله الأدبية. بعد عودته ، كتاب « لطائف السمر فى سكان الزهرة والقمر » نحا فيه . كما يقول الحمصي ، منحى الروايات التخيليّة ، وضمّنه كثيراً من الفوائد الأدبية والعادات القومية »[١] .

وقد أحدث الكتاب ضجة كبرى فى الوسط الكهنوتى واعتبر الأب لويس شيخو ما جاء فيه تمويهاً وتلفيقاً فقال : « إنه على شكل رواية فلسفية ادّعى كاتبها مدعيّات تبعد عن التصديق . وهى تمويه وتلفيق »[٢] .

ومن الغريب أن تخفى أهداف الرواية وعناصرها على رجل يعنى بتأريخ الأدب كالأب شيخو .

وهى ، بمضمونها ، لا تخرج عن روح الدين وقداسته ، اللهم إلا إذا اعتبر الحديث عن خطايا الإنسان ، فى الأرض أو فى السماء ، هو من خصائص رجال الكهنوت ، ولا حق لغير زمرتهم أن يعرض لها . . .

وأنا أوقن لو قرأها اليوم أحد تلامذة الأب شيخو لما ثار على الكاتب ثورة أستاذه عليه .

أتكون عقلية ابن نهاية القرن التاسع عشر هى غير عقلية ابن منتصف القرن العشرين ؟

---

(١) أدباء حلب ص ١١٢ .

(٢) آداب شيخو ج ٢ .

وللقارئ أن يمر مروراً سريعاً على ملخصها الذى أثبتناه فى الهامش[١].

---

(١) « .. تلخص الرواية التى أعطاها اسم (الغاية . . فى البداءة والنهاية) بالفقرات الآتية : الفصل الأول ترجمته وأخلاقه ومساوئه ، وفى الفصل الثانى ترجمة والده ، وفى الثالث : رؤياه لوالده . وهنا تبدأ فصول الرواية :

« . . لما كان اليوم السادس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٠١ "بعد ١٦ سنة من وفاة والده" جلست بعد طعام الظهر وأنا فى الدار وحدى أفكر فى الكون والخليقة حتى حرت فى أمرى ، وأخيراً نعست وغفوت ، عاينت والدى مقبلا على وهو فى بهاء ونور لا يستطيع بشر وصفهما ، فخررت لذقنى أستر بصرى براحتى . . فدنا منى ولمسنى بيده ورفعنى ثم أمرنى أن أجلس ، وقد لاح لى كبير الجثة ضخماً ، عريض الأكتاف فى حجم عشرة رجال ، أما حسنه فلا تجشمنى وصفه . .

« فرميت نفسى بين يديه أقبلهما فضمنى إلى صدره وقبلنى ثلاثاً مع أننى لا أذكر أنه قبلنى قبل ذلك مرة واحدة ، ثم أجلسنى إلى جانبه وقال :

ألا تذكر وعدى إياك . .

فقلت له : أتذكر ولكن لماذا تركتنى نحو ستة عشر حولا ؟

فأجاب : اعلم يا نجلى أنه لما فاضت نفسى حملتها مركبة برقية ، فمرّت بها مرور البرق تقصد السماء الثالثة حتى وصلت مدينة القضاة ، وهى أعظم مدينة فى الزهرة ، فتذكرت أننى وصلت إلى مدينة هى مسقط رأسى .

وهناك دخلت نفسى فى جسم أرق من جسمى الأرضى ولكنه دون أجساد سكان الزهرة ، فتيقنت أنى معاقب ، لا يحق لى ، ولا يسمح بأن ألبس الجسد الذى يلبسه البارّ .

ثم أدخلنى بعض القضاة المدينة فوجدت أقاربى وخلانى يباصروننى ، وهم فى خجل واستحياء من جسمى الذى هو جسم الأثيم المغضوب عليه .

وبعد دقائق أجلسنى القاضى فى مجلس القضاة الأصغر فإذا هو قصر عالى الأركان ، فسيح الجوانب فى روضة غناء ، بها من الثمار الشهية ما لم ير مثله آدم فى فردوسه ، وكانت المياه المختلفة الألوان تتدفق ولها خرير يروق السامعين .

وأبصرت ثلاثة من القضاة مكتوب فوق رأس أوسطهم الحق ، وعن اليمين العدل ، وعن اليسار الحكمة .

وأعلن الرجل رأساً عن توبته عن ذنوبه ، ولكن لوحاً ظهر مكتوباً عليه : إن التوبة غير كافية ، وقد حكم بالإقامة فى "مدينة التكفير فى القمر عشرين سنة" ، ولما وصل غرفته فى تلك المدينة رأى أمامه كل آثامه مجسمة وكل من أثم معهم يعنفه .

وبعد عشر سنوات ، نقل إلى علية فى روضة ، وبعد خمس سنوات من الإقامة بها بشروه بالعفو فركب "مركبة الأبرار" بجسد الطهارة . وخرج السكان يستقبلونه بالرياحين ، وفى مقدمتهم رئيس المحكمة العمومية التى كان فيها قاضياً قبل إنزاله على الأرض ، وأبلغوه أنه أعيد إلى منصبه .

ودخل المدينة فى زينة لا يمكن أن توصف والأطيار من حول عرش الله تحوم حوله وتهنئه بالعفو . "يبالغ فى هذه الصفحات باصطياد كلمات اللغة حول الموضوع فكل الأصوات مذكورة" والغلمان يركضون "وجميع أنواع الدواب والطيور والحشرات". =

. . . .

= ويقول : ". . إننى كنت أدهش من هذا الكلام الذى أشكل علىّ معظمه فأهم بسؤال والدى عنه فيقول لى فى الحال تمهل ، فأعلمك كل ما تريد أن تسألنى عنه".

وأخيراً قال الوالد : وبعد هذا تذكرت وعدك فالتمست الإذن من قاضى القضاة . . وها أنت جالس فى حضرتى .

فقلت له : أيجوز أن أسألك هل نحن فى الأرض أم فى الزهرة ؟

قال : لسنا فى إحداهما ، وإنما نحن بينهما ، لأنه لا يسمح لى بأن أعود إلى الأرض – سجن العاصين – ، ولا يؤذن لى فى الدخول إلى "الزهرة" – مقام الأبرار والصالحين –

وبدأ الحديث والمقارنة :

بوصف المريخ والزهرة مقابل الأرض ، وذكر المدن والطرق هناك ، والدور والنظافة والعبادة والمعابد والصلاة والأعياد والصيام والحج وقضاة الزهرة ونزولهم إلى الأرض ، وفى بعض الرؤساء بالأرض وخطيئات سكان الزهرة .

ثم تحدث الأب فى الأحكام الحقوقية وفى العقاب والقتل العدوانى والقتل الدينى والقتل الحربى والقتل السياسى والمدنى العقابى بالأرض .

ثم تحدث فى المحاماة والمحاكم والوصاية بالأرض والحروب والمذابح والسجون والمنافى ، ثم جاء حديث الطلق والولادة وتربية الطفولة والتربية وواجبات الوالدين بالأرض ، وفى مدارس وعلوم سكان الزهرة ، وفى المطابع وعلماء الأرض وحالة الإنسان الأولى ، وفى الشعر والشعراء . .

ثم تحدث الأب فى بنات الهوى والغوانى ، وفى المنتديات والتلهى بالزهرة وعلى الأرض ، وفى الأطباء وواجباتهم ، وفى السكر والعفاف ، والاختلاط والمعاشرة بالأرض ، وفى الرقص والأزياء والنسائج والتمويه والطلاء والخضاب واختيار الزوجة ، وفى الخطبة والحب والغيرة والمهر والجهاز والملابس والحلى والهدايا وفى الاقتران ، ثم جاء دور طبقات العباد والزراعة والآلات والمخترعات عند سكان الزهرة وحرف سكان الأرض ، والبيع والشراء والتجارة والربا وطمع سكان الأرض والحسد ، وتحدث بعد ذلك فى الرجل والمرأة والأصدقاء ، وفى الأعمار والموت بالزهرة والأحزان .

وأخيراً تحدث فى وجود الله تعالى ، وفى الأديان وتوحيدها ، وفى المجوسية والوثنية ، وفى التقمص والتشاؤم والمعتوهين والمشعوذين وفى الكافر والمكابر ، وفى النجس وفى التوجّع والطلق . .

وختم الرواية بكلام فى الأرض وقدمها وكيف خلق الله تعالى الخلق ؟ ولماذا ؟ وفى قولهم خير للإنسان أن لا يخلق ، وفى موقف الله من دعاء الناس ، ومن فقرهم وغناهم . .

ثم تنتهى بكشف السر . . بقول المؤلف :

قلت لوالدى كم سنة كان عمرك لما نزلت إلى الأرض ؟

فقال : كان مائتين وخمسين سنة .

وقلت : كم عاماً عمرك حين تزوجت فى الزهرة ؟

قال : ستون . .

=

« . . . وأول الخواطر التى يخرج بها المطالع لهذه الرواية ، وقد شرح علمه فى ثلاثمائة صفحة — أن شيئاً من "المعرى" فيها ، وأن "رسالة الغفران" يمكن أن تكون الأم المباشرة لها لولا . . .

وإذا كانت زيارة الدار الآخرة ، والتحدث إليها من الأخيلة الشائقة بعد المعرى ودانتى وملتون . . . أو كان تصور المجتمعات المثالية من جمهورية أفلاطون إلى مدن "يوتوبيا" و"إيكارية" . . . فإن الصقال جمع الفكرتين معاً ولكن دون عمق كبير ، أو خيال وثاب أو إحاطة واسعة ، ولئن وجد معاصرو الصقال ، فى حلمه ، وفى المجتمع الذى أوجده فى الزهرة كثيراً من التمرد ومن الخيال ، بل من الإلحادَ فإنه فى الواقع كان لا يجاوز الأرض نفسها وتراب الأرض إلا أشباراً معدودة . . .

فالصفحات الأولى من الكتاب ، وهى تمثل أبرز الأخيلة فيه ، لا تتجاوز أن تكون كتابة جديدة ، وأن تكون منسقة مهذبة ، للأخيلة المادية الدارجة عن العالم الآخر . . . أما الصفحات التالية فتصوير واقعى للمجتمع السورى كما يراه وكما يتمنى أن يكون واحد من المتنورين . . . وهو نقد اجتماعى مباشر وغير مباشر ، يعتمد فى الدرجة الأولى على المقارنة ما بين مجتمع الزهرة ومجتمع الأرض مقارنة دائمة ، فإذا أهملها المؤلف فليقفز بفكرته الإصلاحية إلى صورة

= قلت : بكم زوجة قترنت ؟

قال : بواحدة هى ابنة عمى . .

ثم تحدث عن أولاده وزواجهم وقال : إن أحد أنجالى ، وهو الأكبر ، له ابنتان فى الأرض ، وهما الفتاتان اللتان أحببتهما فى وقت واحد ، وأردت الاقتران بإحداهما . وأنت لا تعلم أيتهما تختار . .

وبعد ذلك تركتهما واقترنت ببنت عمك الأصغر المقيم الآن بالزهرة . . وقد زعمت على حسن ودادك أنك مسيء لها ولكنه لا يسمح لأسرتنا فى الزهرة أن يبنى الرجل على ابنة شقيقه ، فهذه هى التى خفيت عليك وأما شقيقك الأصغر فله بنت فى الأرض وهى التى أحببتها بعد تزوجك . .

ورأى مؤلف القصة بعد ذلك بناته الثلاث فى الزهرة وشقيقته الصغرى ، وقبل أن يودع أباه بشّره الأب أنه سيكون قاضياً فى مدينة القضاة . وأوصاه بأن يتوب توبة كاملة لينجو من عذاب الاحتضار وأن يثبت كل ما سمعه منه فى كتاب يطبعه لتعم فائدته . ثم ضمنى إلى صدره وغاب كأن غمامة وارته . فانتبهت والليل مظلم أقول :

اللهم زدنى إيماناً وتداركنى برحمتك . . ثم أخذت أتأمل وأقول فى نفسى أكل هذا منام ؟ إن فى الأمر عجباً . . . » .

اجتماعية مثلى ، تعكس بحسنها كل المساوئ القائمة . . .

إن أكثر ما يقرب الصقال من تقليد المعرى الولع اللغوى المبثوث فى عشرات الصفحات ؛ إنك لتمرّ أحياناً فى بعضها بأسطر وأسطر من حوشى اللفظ وغريبه . . . أو من أبحاث اللغة وفقهها . . . ومن الشعر . . . شعر المؤلف لا شعر قديم الشعراء العرب على طريقة أبى العلاء . . . وابن القارح عنده هو والده الذى يتحدث ويفسر ولكن . . . وهو قاعد دون طواف أو زيارة ونقلة ! . . . »[١].

* * *

وقد عرف الصقال بين أقرانه كشاعر أكثر منه كاتب قصص . وله ديوان شعر كبير لم يطبع منه غير الجزء الأول[٢] على أن النزعة القصصية عنده أغلب ، وقد ترك لنا رسالة شعرية سمّاها « العِبَر » ، وهى تزيد على خمسمائة بيت ، تشير إلى حوادث مرّت بحلب سنة ١٩٠٩ ، أخذ فيها – كما قال – مأخذ الشعر القصصى وقد أعرب بها عن « أحوال الكون وتقلباته وشئون الشرق وعباداته . وأمور الدنيا وأدوار الحياة ، وضمّنها حكماً ونصائح وفوائد وعظات ، ثم دبجها برواية غرامية تهذيبية » .

وهى فى عشرين فصلاً تحدث فيها عن الإخاء والمساواة والسياسة والسياسى والكون والخليقة والأجرام السماوية وجمالها وانتظامها والشرق وعظمة ماضيه ورجالاته والحروب والويلات والكوارث التى نجمت عن اختلاف العقائد .

وتتوالى فصول هذه الرواية ، وتتوالى تأملات الشاعر فى الكثير من الحياة ، ويبدو حكيماً ينثر العبر ويرسل العظات فيتحدث عن الموت ونسياننا أهواله وعن سيادة الغرب وتخلف الشرق . وعن طيش الشباب وغرورهم وتهتكهم والعواقب الوخيمة التى ينتهون إليها .

وبعد هذه الفصول الطويلة يعرض قصة « يوسف وسعدى » – قصة حب عنيف يحول الأهل بين بطليها .

ولا بدّ هنا من وقفة لعرض نماذج من شعر هذه الرواية :

يهوى فتـــاة فتهـــواه فيعلقها وفى زمان الصبا تهوى العلاقات

---

(١) القصة فى سورية لشاكر مصطفى ص ١٧٣ .
(٢) طبع فى المطبعة المارونية فى حلب ١٩١١ .

هما يبيتان في وجد لسرهما ... وللرقيبـــة والواشي رقابات
فاغتاظ والد ســـعدى منهما وله ... على قرينته « هند » استشاطات !
نحن الذين خلتْ من كل شائنة ... أفعالنا فلنا تعنو المقـــامات
فكيف نرضى الهوى وهو الهوان لنا ... وكيف ترضى به منا الحصانات
إنا نحب ولا نهوى فلا أحد ... يدرى ولو بقيت منا الحشاشات
فباتت الخود ترعى النجم نادبة . . . ... تقول يا أم ما هذى المراساة
وبات يوسف يورى زند فكرته ... وبـــين أضلعه منها شرارات
يقول سعداى يا سعداى منتحباً ... متى تعود لنا تلك المناغاة . . .

وتتزوج سعدى بمن لا تحبه — من رجل مفرط بالشح إلى درجة الجنون :

زفّت إليه على كره وقد ظلمت ... يا أيها الناس ما هذى القساوات
يا أمّ ! عرسى قبيح الشكل يكرهه ... قلبى الكئيب ولى منه كظاظات

وتثور ثائرة يوسف حين يعلم بالخبر . ويمرض وتنتابه الحمّى ، ويهذى ولا تردد شفتاه إلا ذكر سعدى :

فحمّ يوسف من تزويج غادته ... وبات يهذى وللحمى إراءات

* * *

يا ليت شعرى أيأتينى الشفاء وقد ... حار الطبيب وأعيتـــه العيادات
أقول سعدى وسعدى ليس يسعدنى ... يا سعد هل تنجلى عنى النحاسات
كم عاهدتنى ، وكم آلتْ وكم وعدت ... هل المواعيد يا سعدى هباءات

وتصله رسالة من سعدى وقد آلمها أن ينتهى هذه النهاية المحزنة :

وبعد ذا أرسلت سعدى تقـــول له ... صبراً فقد كذبت عنى الإشاعات
أنت الحبيب الذى تحلو الحياة به ... فلا تزخرنى عنك الإعاقات
إنى ليعذب لى منك الحديث كما ... تحلو وتعذب للطفل المنـــاغاة

لقد أكّدت له أنها لا تزال على حبها ووفائها ، وينتشى ، وتزايله الحمّى ويجدّ ويسعى وينجح :

فطاب نفساً وزال الغمّ عنه وقد ... كانت على قلبه منه سحابات
حتى إذا اجتمعا لذّ العتاب وقد ... زانت عفافهما تلك الخفارات

وتزول الغشاوة عن عيني أبي سعدى ويجتمع بيوسف ويعجب بذكائه وبحلو حديثه وعذب شخصيته . ويندم على ما بدر منه ، ويتحدث عن شح صهره برغم فرط غناه . وأيامه الأخيرة قبل الموت :

قال الأسيف أبو سعدى لزوجته   منا الحماقات كانت والسفاهات
مَن مثل يوسف في هذي البلاد وما   تلك العطافات منه والظرافات ! . .
جالسته فرأيت الناس في رجل   فهو الذي اجتمعت فيه الشهامات
يا لهف قلبي على سعدى ويا أسفي   إني لتنقص أيامي الأسافات

وتزف سعدى ليوسف بعد موت زوجها ، وتنعم بحياة رخية . ويرزقان بطفل وتبتهج العائلة ، ولكن هذه السعادة لا تدوم ، فسرعان ما تخمد شعلتها وتذوي نضارتها فيموت بكرهما ، ثم يموت يوسف وتلحقه سعدى .

هذي حياتك يا إنسان ، محزنة   فليس تخلص من أوصابها ذات !

* * *

على أن أهمّ ما في هذه القصة آراء وتأملات وفلسفة . وهي تعبير عن حياة عصره ومجتمعه . . . ويمكننا أن نعتبر الصقال رائداً من رواد الشعر القصصي في بداية النهضة الأدبية وإن لم يرتفع بشعره إلى المستوى الفني ، وقد نفى خير الدين الزركلي الشاعرية عنه ، فقال في أعلامه : « نظمه كثير وليس بشاعر »[١] .

* * *

وإلى نزعاته الأدبية ، وقرضه الشعر في المناسبات الاجتماعية . انصرف في أخريات أيامه إلى تدوين تاريخ حلب .

يقول قسطاكي الحمصي :

« وله كتاب تأريخ كبير كسَّرَهُ على قسمين : دعا الأول "طرائف النديم في تأريخ حلب القديم" وهو ما عُرف عنها قبل التاريخ المسيحي . وسمّى الثاني "لطائف الحديث في تأريخ حلب الحديث" وهو من ابتداء التاريخ المسيحي إلى اليوم . وهذا الثاني قارب التمام . وهو يشتغل به اليوم بما اعتاده حياته كلها من

(١) الأعلام ج ٨ ص ٢٩٤ .

الجد والهمة . ونرجو له التوفيق بطبعه فى القريب العاجل »[١] .

ومن المؤسف أن أقول إن الكتاب لم يطبع مع الكثير مما خلّفه من نثر وشعر.

* * *

كان الصقال ، حتى فى أيام شيخوخته ، جم النشاط ، عذب النكتة ، حلو الحديث ، يركض وراء « الطابع » البريدى ، قديمه أو حديثه ، ليكمل مجموعته التى تعتبر عند هواة الطوابع ، من أندر المجموعات .

وقد حضرت بعض دروسه ، فى بدء حياتى المدرسية ، فكان يوصى تلامذته بتلاوة « كليلة ودمنة » ولا شىء إلاّ ما تركه ابن المقفع الذى كان يؤثره ويؤثر أسلوبه على الكثيرين من الأدباء القدامى .

من شعره يخاطب اليهود :

يا أمة عبدَتْ دينارَها فلها ... فى حب صُفرته تحلو المراباة
ما كان دينكم حقّاً وقد ظهرت ... على وجوهكمُ منه أمارات
لو كان دينكم حقّاً لما اشتهرت ... منه الخدائع فيكم والخساسات
هذى نفوسكم من دينكم صغرت ... فكيف تعجبكم تلك الصغارات[٢]
إنا لنعجب من قوم أذيتهم ... بدينهم ولهم فيه مغالاة
إنا ندين بدين الأنبياء فلا ... تصيبنا أبداً منه كراهات
وقال ذلك أنتم أمة غلظت ... طبعاً لذاك نبت عنها الزكانات[٣]
لم يأت فى دينكم علم ولا أدب ... فما الفصاحات منكم والذلاقات
لم يأت فى دينكم علم ولا أدب ... فلا تهذبكم فيه الحضارات
لنا الهدى التقى فى ديننا فلذا ... فى كل أمر لنا منه استقامات
إذا خلونا تنسكنا وخلوتكم ... تبدو القبائح فيها والدعارات

---

(١) أدباء حلب ص ١١٢ .

(٢) الصغارات : الهوان والرضا بالذل .

(٣) الزكانة : اسم من زكن الشىء إذا فطن إليه وفهمه وتفرسه وظنه .

عبد الرحمن الكواكبي

١٨٥٤ — ١٩٠٢

زعيم مصلح ، اتخذ أدبه وسيلة لإضرام ثورة فكرية فى العالم العربى .

ولد فى حلب فى ٣ شوال سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م .

أخذ العلم عن أبيه الشيخ أحمد بهائى بن مسعود الكواكبى . . ثم تتلمذ على الأستاذ خورشيد أفندى من مشاهير أدباء الترك فتعلم عليه التركية والفارسية .

بعد أن حذق اللغات عكف يطالع بنفسه المجلات والكتب الاجتماعية والعلمية فكان له حظ وافر من فنون السياسة والعمران والاجتماع .

عنى فى صباه بحفظ الشعر القديم ، وقد سجل فى دفتره الكثير من القصائد المختارة فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء ، ويحتفظ أولاده بمجموعة كبيرة من هذه المختارات .

نظم الشعر فى بدء حياته ثم تركه .

كان ربعة إلى الطول أقرب ، قوى البنية ، صحيح الجسم ، عصبى المزاج ، عريض الصدر ، أسود شعر الرأس والذقن ، متأنقاً فى لباسه ، جسوراً غير هياب فيما يعتزمه ، يحسن السباحة والصيد والفروسية .

زاول الصحافة وهو شاب ، فقد عين سنة ١٢٩٢ محرراً لجريدة « فرات » الرسمية وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية ، ثم تركها وعين فى عدة وظائف حكومية فى المعارف والقضاء وما زال ينتقل من وظيفة إلى أخرى حتى عين رئيساً للبلدية .

لم تطق نفسه قيود الوظيفة فتركها وأصدر جريدة باسم « الشهباء » وهى أول جريدة سياسية صدرت فى حلب ، فلم يكد يفصح عن ميوله الإصلاحية حتى أوقفتها الحكومة ، وبعد فترة أصدر جريدة ثانية باسم « الاعتدال » لم يطل عمرها أيضاً وكان نصيبها نصيب زميلتها . .

كان فى صراع دائم مع ولاة الأتراك لميوله العربية ونزعاته الإصلاحية ونهجه

فى مقارعة طغيانهم وطغيان العهد الحميدى كله . . فاتهم عدة اتهامات وزجّ فى السجن ، وبعد محاكمته ظهر للمحكمة نبل مقصده فبرأته .

لم يطق الإقامة فى ذلك الجو البغيض الذى يقوم على الدسائس والظلم فقرر الهجرة إلى مصر ، موطن الأحرار . . . وهناك ، ظهر فضله وشاع ذكره ولاسيما بعد أن أخذ يكتب مقالات فى جريدة « المؤيد » واتصل بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما من زعماء الإصلاح ، وكانوا كلهم يهدفون إلى بذر بذور الإصلاح والنهوض بالشرق الإسلامى نهضة تخلصه من عبودية الجهل والظلم وسيطرة الأجنبى ، وكان الكواكبى . إلى مشاركتهم بهذه الاتجاهات ، يهدف إلى أن يكون الخليفة عربيًّا وأن تتخلص الخلافة من سيطرة الأتراك العثمانيين.

قام برحلات واسعة إلى سواحل إفريقيا الشمالية والجنوبية ، ومنها دخل الحبشة وسلطنة هرر الإسلامية والصومال . . ثم إلى سواحل آسيا الجنوبية . . ومن سواحل المحيط الهندى دخل بلاد شبه جزيرة العرب فاجتمع إلى أمراء وشيوخ القبائل ودرس أحوال البلاد الاقتصادية . . وانتهى من هناك إلى كراتشى . . ثم إلى بومباى . . ومنها إلى جاوة وسواحل الصين . . ثم عاد إلى مسقط فسواحل بلاد العرب الشرقية فالبحر الأحمر فمصر . . وكان يدوّن خواطره عن كل ما يراه ويشاهده ومَنْ يقابلهم من الملوك والأمراء وجميع من يأنس فيهم الميل لتحقيق فكرته .

بعد عودته من رحلته هذه حامت الظنون حوله . وكان جواسيس السلطان عبد الحميد منتشرين فى كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى ، وفى ليلة الخميس المصادف ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ — ١٤ من حزيران (يونية) سنة ١٩٠٢ كان فى مقهى سبلنددبار يتناول القهوة مع خلّص أصدقائه . وإذا هو يشعر بمغص أليم . فنقل إلى بيته . ولم ينتصف الليل حتّى كان قد فارق الحياة .

يقول الصحفى الكبير الأستاذ إبراهيم سليم النجار :

« جلست والفقيد والسيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد على ليلة الوفاة فى حلقتنا المعتادة فتحدثنا إلى نحو الساعة التاسعة ليلا حيث نهضنا فقصدت منزلى وذهب الأستاذ كرد على والكواكبى معاً . ولشد ما كانت دهشتى وحزنى فى

صباح اليوم الثانى لنبأ تليفونى ينعى لى فيه الأستاذ كرد على شيخنا الكبير بنوبة قلبية ضعيفة شعر بها فى نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . ثم عاودته بعد ساعة ، رحمه الله ، لتقضى عليه ، ولا بدع ولا عجب فقد أضعفت النوازل قلبه فجعل الإسلام فى فؤاده ، والأمة العربية فى رأسه ، والشرق على منكبيه » .

ويقال إن يداً أثيمة قد دست له السم فى القهوة . ودفن فى القاهرة فرثاه الكتاب والشعراء ، وكتب على قبره هذان البيتان لحافظ إبراهيم :

هنا رجـــل الدنيا ، هنا مهبط التقى هنا خـــير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرءوا أمّ الكتاب وسلموا عليـــه ، فهذا القبر قبر الكواكبى

* * *

عرفنا من السطور التى خططناها عن حياته ونشأته ما كان عليه المحيط الذى درج فى ظلاله ، كانت البلاد العربية ترسف فى أغلال العبودية والجهل ، وقد حزّ فى نفوس غير واحد من أحرار الفكر أن تكون أوطانهم فريسة لهذه الظلمات .. فهبوا يعملون على تحريرها من العبوديات ، وفكّ أغلالها وأصفادها ، لم يرهبوا فى سبيل ذلك طغيان ملك أو استبداد حاكم ، معرّضين أنفسهم للسجون والمنافى ، فكان جهادهم مقروناً بالمصاعب . . وفى طليعة هؤلاء المفكرين السوريين الرحالة العربى السيد عبد الرحمن الكواكبى الذى اتخذ من أدبه سوطاً يهز النائمين وينهال به ضرباً على الظالمين .

لقد كان الغرب فى يقظة علمية عارمة . . بينا كان الشرق لا يزال يغطّ فى نوم عميق . وقد آلم الكواكبى أن يكون وطنه فى هذه الحالة ، وأن يكون قومه العرب — وهم من العزة والرفعة والماضى المشرق — آلمه أن يكونوا محكومين ، ليس لهم كيان ، قد امحت شخصيتهم أو كادت . . فلا يبدعون كما كان يبدع أسلافهم . . فصرخ صرخاته المدوية بأبناء قومه أن يفيقوا وأن يجمعوا شتات شملهم ، وأن يعملوا متحدين على التحرر والنهوض ، إذ لا يجوز للأمة العربية أن تظل محكومة فى عصر انبثقت فيه الحريات وشعت أضواؤها على العالم .

* * *

أدب السيد الكواكبى من هذا اللون الذى يجمع بين النزعة الصحفية وأسلوب

الخطابة معاً فى إطار من الروح القومية . ويكاد يكون أول أديب سورى لم يشغل أدبه فى تلك الفترة بالقشور ، أى لم يسخر قلمه لمدح الملوك وتملق الحكام ، كما أن مزاجه لم يطاوعه أن يجارى الكثير من الأدباء الذين قصروا أدبهم على الاهتمام بالصناعة اللفظية والشعوذات البيانية ، بل اتخذ أدبه أداةً للتعبير عن شعور الشعب . وكانت كلماته ومقالاته صرخات مدوية مثيرة كثيراً ما هزت الوسنانين من بنى قومه ، وأقلقت الحكام الطغاة الذين كانوا يلجأون إلى أدنأ الوسائل لمحاربة فكرة الحرية التى دافع عنها بكل حرارة واندفاع [١] .

* * *

للسيد الكواكبى غير كتابيه المعروفين [٢] عدة كتب فقدت مع الظروف التى لابست حادثة وفاته . وأظهرها كتاب « صحائف قريش » و « العظمة لله » وقد حدثنى ابنه الدكتور أسعد أن الكتاب الأول كان معدًّا للطبع ، وأن الثانى

---

(١) وقد وصف العقاد أسلوبه بقوله :

« .. وقد اتسم أسلوبه بسمة الأسلوب الذى تكتب به التواريخ والرحلات ، وسلست عبارته فى نسق مرسل واضح يقرر الواقع ويتتبع المشاهدة ويتبسط فى ما يراه بالفكر كما يتبسط فى وصف ما يراه بالعيان .

ولا يخفى أن هؤلاء الكتاب ، كما قدمنا ، قد تخصصوا لتسجيل المشاهدات الاجتماعية والتاريخية ولم يتخصصوا لمباحث اللغة والبيان ، فليس من الغريب أن تتسرب إلى أقلامهم أخطاء الألسنة فى زمانهم ، وأن يتردد فى عباراتهم بعض السهو الذى يتحرز منه اللغويون وكتاب الأدب ، فى مدرسة ابن المقفع والبديع والجاحظ وعبدالحميد . وشأن الكواكبى فى ذلك قريب من شأن ابن خلدون وابن جبير ، بل من شأن الغزالى وابن مسكويه وسائر أصحاب الأقلام التى لم تتفرغ للأدب واللغة وشغلتها دقة التعبير عن دقة الإعراب.

نقرأ له — مثلا — فى تعريف الاستبداد : « إن الناظر فى أحوال الأمم يرى أن الأمراء يعيشون متلاصقين متراكبين . أما العشائر والأمم الحرة فيعيشون متفرقين » .

أو نقرأ مثل قوله : « الأزواج الحمقاء » . . و « لا يخرج قط » ، و « قوانين لكافة الشئون » .. و « حياة النائم المزعوج بالأحلام » و « على هذا النسق يوضع كتاب للمنهيات » « وإن هؤلاء الأئمة الأقدمين لا يقدروا أن يطلعوا على ما لا يقدر المتأخرون أن يطلعوا عليه » . . « ولا يتحقق فى الإنسان إلا فى فن واحد فقط يتولع فيه فيتقنه »... إلى أشباه هذه المآخذ التى كانت تشيع فى صحافة عصره ولم يكد يسلم منها كتاب الأدب والبيان ، وقد يعتبر الكواكبى من أقل زملائه ونظرائه تعرضاً لهذه المآخذ والهنات .

كتاب الرحالة كاف : عبد الرحمن الكواكبى للعقاد ص٥٥ .

(٢) طبائع الاستبداد وأم القرى .

أنجزه فى مصر وذكره محمد كرد على فى كتاب « المذكرات » . ويرجح أنهما صودرا مع أوراقه عقب وفاته . وثمة كتاب ثالث هو كتاب « الرحلة إلى زنجبار والحبشة وأواسط جزيرة العرب والهند » . وقد عرف أنه كان يدوّن خواطره على أوراق مبعثرة ، ولو أن هذه الخواطر جمعت فى كتاب لكان لنا اليوم أثمن كتاب عن تلك البلاد فى تلك الظروف بقلم رحالة عربى معروف .

ويتضمن كتاب « طبائع الاستبداد » فصولا فى مقاومة الروح الاستبدادية فى نفوس الحكام ، وصف فيها الداء والدواء ، وفى كتاب « أم القرى » بحث الخلل والضعف اللذين عمّا كافة المسلمين ، فى أسلوب مزج فيه الخيال بالواقع ، وهو رسم لرحلة من حلب إلى الإسكندرونة إلى بيروت فدمشق فالقدس ثم إلى الإسكندرية فمصر فالسويس . ومنها إلى الحديدة فصنعاء فعمان فالكويت فالبصرة فحائل فالمدينة فمكة ، وقد جعل الكلام على لسان أئمة هذه الأقطار للنهوض بالعالم الإسلامى من غفوته وإرجاع الخلافة إلى العرب توطئة لخلق الإمبراطورية العربية الكبرى .

الاشتراكية الإسلامية

وكان للكواكبى رأى صريح فى الاشتراكية ، واعتبره الدكتور أحمد السمان مدير جامعة دمشق أحد رواد الفكر الاشتراكى فى المشرق العربى [١] ، إذ وصف أسباب الاكتناز وعوامل الادخار ، وتكلم عن الطبقات وأثر الزكاة فى تحقيق الاشتراكية وقيود حق الملاك ، وتحديد الملكية الزراعية . وصلة الرأسمالية بالاستعمار .

الزكاة والاشتراكية :

بحث الكواكبى فى كتابه أم القرى مشكلة الغنى والفقر فى المجتمع ، والتمس لحلها الاشتراكية الإسلامية ، أو ما يدعوه « بالاشتراك العمومى المنظم » وقال :

---

(١) نشاط العرب فى العلوم الاجتماعية فى مائة سنة ص ٧٨ .

« لو عاش المسلمون مسلمين حقيقة لأمنوا الفقر وعاشوا عيشة الاشتراك العمومى المنتظم التى يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجى . وهم لم يهتدوا بعد لطريقة نيلها مع أنه تسعى وراء ذلك منهم جمعيات وعصبيات مكوّنة من ملايين باسم "كومون وفينان ونبهلست وسوسياليست" كلها تطلب التساوى أو التقارب فى الحقوق والحالة المعاشية ذلك التساوى والتقارب المقررين فى الإسلامية دينًا . بوسيلة أنواع الزكاة والكفارات . ولكن تعطيل إيتاء الزكاة وإيفاء الكفارات سبب بعض الفتور . كما سبب إهمال الزكاة فقد الثمرات العظيمة من معرفة ميزانية ثروته سنويًا فيوفق نفقاته على نسبة ثروته ودخله » .

وعرض فى كتابه « طبائع الاستبداد » لمشكلة الطبقات الاجتماعية فى الفصل المتعلّق « بالاستبداد بالمال » فوصف التفاوت الاجتماعى بين الفئات الممتازة وبين الجمهور ، وحلّل أسباب الاكتناز ، ووجه إليه حملة شديدة ، وطالب بإلغاء الفروق الكبيرة بين الفئات ، ثم تكلم عن الادخار وأطلق عليه اسم « التموّل » وعدد أسبابه .

ملكية الأرض فى الإسلام :

وبعد أن تكلم عن الزكاة وأنها سبيل للاشتراكية فى المعنى الذى سبق أن ذكره فى « أم القرى » أضاف أنه « لا يخفى على المدقق أن جزءاً من أربعين من رؤوس الأموال "الزكاة" يلحق فقراء الأمة بأغنيائها ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد المضرة بأخلاق الأفراد . وكذلك تركت الإسلامية معظم الأراضى الزراعية ملكاً لعامة الأمة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط ، وليس عليهم إلاّ العشر أو الخراج الذى لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال » .

مشروعية قيود حق الملك :

ثم بحث فى التمول المشروع فقال :

« إن التموّل فى الحاجات السالفة الذكر محمود بثلاثة شروط :

الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال . أى بإحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعاوضة أو فى مقابل عمل أو فى مقابل ضمان .

الشرط الثانى : أن لا يكون فى التمول تضييق على حاجات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها ممرحًا لكافة مخلوقاته وهى أمهم ترضعهم لبن جهاراتها فجاء المستبدون الأولون ووضعوا أصولاً لحمايتها من أبنائها ، فهذه أيرلندة مثلاً قد حماها ألف مستبد مالى من الإنكليز ليتمتعوا بثلثى أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تراب أيرلندة ، وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستفوقها مآلاً » .

وبعد أن طالب بتحديد الملكية الزراعية أسوة بالصين وبولونيا ذكر :

الشرط الثالث وهو : أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة ، لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة فى الإنسان ، فإنه « ليطغى أن رآه استغنى » .

الرأسمالية والاستعمار :

ويرى « أن الشرائع السماوية كلها . وكذلك الحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية ، حرّمت الربا بقصد حفظ التساوى والتقارب بين الناس فى القوة المالية » ورغم فوائد الإقراض التى لا ينكرها فإنه يقول :

« إن هذه الثروات يكنزها الأفراد تمكّن الاستبداد الداخلى فتجعل الناس صنفين : عبيداً وأسياداً ، وتقوّى الاستبداد الخارجى فتسهل التعدى على حرية واستقلال الأمم الضعيفة مالاً وعدة ، وإن تحصيل الثروة فى عهد الحكومة العادلة عسير جدًّا ، وقد لا يتأتى إلاّ عن طريق المراباة مع الأمم المنحطة أو التجارة الكبيرة التى فيها نوع احتكار أو الاستعمار فى البلاد البعيدة مع المخاطرات .

وإليك بعض نفثاته :

وطني

أيها الوطن المحبوب
أنت العزيز على النفوس ، المقدس فى القلوب
إليك تحن الأشباح . وعليك تئن الأرواح
أيها الوطن الباكى
عليك تبكى العيون ، وفيك يحلو المنون
إلى متى يعيث فى أرضك اللئام الطغام ، يظلمون بنيك ، ويذلون ذويك .
يطاردون أنجالك الأنجاب ، ويمسكون على المساكين الطرق والأبواب
يخربون العمران . ويقفرون الديار
أيها الوطن العزيز
هل ضاقت رحابك عن أولادك . . أم ضاقت أحضانك عن أفلاذك ،
كلا . . إنما فقدت الأباة ، وفقدت الحماة ، وفقدت الأحرار
أيها الوطن الملتهب فؤاده
أما رويت من سقى الدموع والدماء — دموع بناتك الثاكلات . . ودماء أبنائك الأبرار . . لا دموع النادمين . . ولا دموع الظالمين
ألا فاشرب هنيئاً ولا تأسف على البله الخاملين ، ولا تحزن فما هم كرائم ولا كرام .. لسن هن كرائم باكيات متحمسات .. وليسوا هم أعزة شهداء .. إنما هم ، غفر الله لهم ، مَنْ علمت
قلّ فيهم الحر الغيور
قلّ فيهم من يقول أنا لا أخاف الظالمين [1].

---

(١) هذه القطعة غير منشورة فى كتابه « طبائع الاستبداد » وقد حدثنى ابنه الدكتور أسعد أنه ، بعد طبعه الكتاب ، أضاف عليه الكثير من الفصول ،وكان يعتزم إعادة طبعه بعد أن يضم إليه الفصول التى تؤلف ثلث الكتاب ولكن المنية عاجلته ، فلم تتحقق الأمنية .

الاستبداد

الاستبداد داء
أشد وطأة من الوباء
أكثر هولا من الحريق
أعظم تخريباً من السيل
أذل للنفوس من السؤال

داء إذا نزل بقوم سمعت لرواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء ، والأرض تناجى ربها كشف البلاء . .

* * *

لو كان الاستبداد رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال :

أنا الشر ، وأبى الظلم ، وأمى الإساءة ، وأخى الغدر ، وأختى المسكنة ، وعمى الضر ، وخالى الذل ، وابنى الفقر ، وبنتى البطالة ، وعشيرتى الجهالة ، ووطنى الخراب .

* * *

الاستبداد يقلب الحقائق فى الأذهان حتى إنه قد مكن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييداً لاستبدادهم ، وقد وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة ، وقبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكى المتظلم مفسد ، والنبيه المدقق ملحد ، والخامل المسكين هو الصالح الأمين ، وقد اتبع الاستبداد فى تسميته النصح فضولاً ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتوًّا ، والحمية جنوناً ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضاً كما جاوره على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحيل كياسة ، والدناءة لطف ، والنذالة دماثة .

داء التقليد

يا قوم

هداكم الله . . ما هذا الشقاء المديد والناس فى نعيم مقيم وعزكريم . . أفلا تنظرون ؟

وما هذا التأخر وقد سبقتكم الأقوام ألوف المراحل أفلا تتبعون ؟

وما هذا الانخفاض والناس فى أوج الرفعة . . أفلا تغارون ؟

* * *

يا قوم

وقاكم الله من الشر . . أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية فى كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق . . فلماذا تقلدون أجدادكم فى الخرافات والأمور السافلات ولا تقلدونهم فى محامدهم .

أين الدين ؟ أين التربية ؟ أين الإحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المناعة ؟ أين الشهامة ؟ أين النخوة ؟ أين الفضيلة ؟ أين المواساة ؟

هل تسمعون . . أم أنتم نائمون ؟

صيحة مدوية

يا قوم

جعلكم الله من المهتدين . . كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعاً لله وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعّمين ولو بلقمة مغموسة بدم الإخوان ، وأجدادكم ينامون الآن فى قبورهم مستوين أعزاء وأنتم أحياء معوجّة رقابكم أذلاء .

البهائم تود أن تنتصب قامتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم . .

النبات يطلب العلو وأنتم تطلبون الانخفاض .

لفظتكم الأرض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أن تنغرسوا فى جوفها فإن كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلاً لتناموا طويلا .

* * *

يا قوم : ينازعنى والله الشعور هل موقفى هذا فى جمع حيّ فأحييه بالسلام ، أم أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة .

يا هؤلاء ! لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين ، بل أنتم بين بين فى برزخ يسمى السبت ، ويصح تشبيهه بالنوم .

يا رباه : إنى أرى أشباح أناس يشبهون ذوى الحياة وهم فى الحقيقة موتى لا يشعرون ، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون .

* * *

رعاك الله يا شرق ! ماذا أصابك فأخلّ نظامك . والدهر ذاك الدهر ، ما غيّر وضعك ولا بدّل شرعه فيك .

رعاك الله يا شرق : ماذا عراك وسكن منك الحراك ، ألم تزل أرضك واسعة خصبة ومعادنك وافية غنية ، وحيوانك رابياً متناسلاً ، وعمرانك قائماً متواصلاً ، وبنوك على ما ربيّتهم — أقرب للخير من الشر ، أليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفاً فى القلب ، وعندهم الحياء المسمى بالجبانة ، وعندهم الكرم المسمى بالإتلاف ، وعندهم القناعة المسماة بالعجز ، وعندهم العفة المسماة بالبلاهة ، وعندهم المجاملة المسماة بالذل ؟ نعم ، ما هم بالسالمين من الظلم ولكن فيما بينهم ، ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ، ولا من الإضرار ولكن مع الخوف من الله . .

أديب إسحق

١٨٥٦ — ١٨٨٥

صحفى ، أديب ، شاعر ، خطيب .

ولد فى دمشق فى ٢١ يناير (كانون الثانى) سنة ١٨٥٦ وتعلم فى إحدى مدارسها ، وانتقل إلى بيروت كاتباً فى ديوان المكس « الكمرك » ثم اعتزل العمل ، وتولى الإنشاء فى جريدة « ثمرات الفنون » فجريدة « التقدم » البيروتية .. وسافر إلى الإسكندرية فساعد سليمان النقاش فى تمثيل بعض الروايات العربية ، وانتقل إلى القاهرة فأصدر جريدة أسبوعية أسماها « مصر » سنة ١٨٧٧ ، وعاد إلى الإسكندرية فأصدر مشتركاً مع سليم النقاش جريدة يومية سماها « التجارة » وأقفلت الجريدتان فرحل إلى باريس سنة ١٨٨٠ فأصدر جريدة عربية سماها « مصر القاهرة » وأصيب بعلة الصدر فعاد إلى بيروت فمصر وعين ناظراً لديوان « الترجمة والإنشاء » بديوان المعارف فى القاهرة ، ثم كاتباً ثانياً لمجلس النواب ، ولم يلبث أن قفل راجعاً إلى بيروت . بعد نشوب الثورة العرابية ، فتوفى فى قرية الحدث بلبنان [١] .

كانت حياة أديب إسحق على قصرها مليئة بالأحداث الأدبية الفذة . قال الشعر وهو فى العاشرة ، وتعلم التركية والإفرنسية وحذقهما ولما يبلغ العقد الثانى من عمره ، وكان من الخطباء البارزين بل من أشهر خطباء عصره ، حتى إن الزعيم الخالد سعد زغلول قد ذكره فى جملة من تأثر بهم خطابياً [٢] .

يقول جرجى زيدان عن مقدرته الخطابية « اشتهر رحمه الله فى الخطابة والإنشاء ، فإذا خطب تدفق السيل ، يهتز المنبر وتنقاد إليه الكلمات آخذة بعضها برقاب بعض » ، ويقول عن إنشائه : « إذا كتب سحر الألباب بحسن البيان مع السلامة والبلاغة ، وكان قدوة المنشئين وعمدة الكتاب » [٣] .

---

(١) « الأعلام » للزركلى جـ ١ ص ٩٢ .

(٢) مارون عبود فى مجلة « الكتاب » سنة ٣ جـ ٢ ص ٢٨٠ .

(٣) « مشاهير الشرق » جـ ٢ ص ٧٩ .

وقد تتلمذ أديب إسحق على جمال الدين الأفغانى — لزم حلقته وأخذ عنه دروساً فى الفلسفة الأدبية والعقلية والمنطق ، وتكونت شخصيته الأدبية بعد رحلته إلى فرنسا حيث اتصل بأدبائها واطلع على أسلوب صحفها وسمع لأفذاذ الخطباء من نوابها فكان لهذا أثره فى نضوجه الفكرى وفى حياته الأدبية التى جعلت منه صحفيًّا بارزاً وخطيباً مفوهاً .. وفتحت له صحف باريس أعمدتها فدافع عن الشرق بحرارة ، ولفتت مقالاته أنظار الساسة والكتاب الإفرنسيين فأعجبوا بمقدرته . وروى عن فيكتور هوجو أنه قال بعد أن اجتمع به : « هذا نابغة الشرق » ولم يمكث طويلا فى باريس فقد ألحّ عليه المرض فعاد إلى مصر يتابع رسالته ولكنه لم يعش طويلا فقد مات وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ومع ذلك فقد استطاع فى هذه الفترة القصيرة أن يملأ حياته بالكثير من الأعمال الأدبية فألف وترجم . . فمن آثاره « نزهة الأحداق فى مصارع العشاق » و « تراجم مصر فى هذا العصر » وروايات ترجمها عن الإفرنسية منها « أندروماك » و « شارلمان » و « الباريسية الحسناء » وقد جمعت مقالاته ومنظوماته فى كتاب سمى « الدرر » .

وكان أديب إسحق ، فى كتاباته ، ثورى الروح ، يدافع عن الحرية ، ويهيب بالشرق أن ينهض وأن يتطور . . وهو فى طليعة الأدباء الذين عملوا على رفع مستوى الإنشاء الصحفى ، بأسلوب قوامه السجع ، إذ كان « يعتمد على تنسيق التعبير وترجيعه وتدبيجه ، ويحلّى عباراته بضروب الجناس والطباق والاستعارة ، ويراعى الموسيقى فى تراكيبه »(١) .

وقد وصف مارون عبود أسلوبه بقوله :

« يرسل عباراته فتئز أزيز السهم وقد فارق الوتر ، جمل كأنها مقطوعة على نمط واحد ، لا هى بالطويلة ولا هى بالقصيرة ، يشد بعضها بعضاً فتؤلف مقالته كتيبة جامحة ، إذا راعيتها منفردة لا تحس لها مفعولاً عظيماً ، ولكنها تؤلف كلاً تخرج منه النفس وقد ملأها هذا الكلام اندفاعاً واستبسالاً »(٢) .

---

(١) « تاريخ الأدب العربى » لحنا الفاخورى ص ١٠٣٨ .

(٢) مجلة « الكتاب » السنة ٣ الجزء ٢ ص ٢٧١ — ٢٧٣ .

ومن نثره :

دولة العرب

آمن أديب إسحق إيماناً قويًّا بأن لا جامعة تجمع بين أبناء الوطن الواحد غير اللغة وغير القومية ، فدعا إلى وحدة عربية شاملة . . ومتى ؟ .. قبل ثمانين سنة تقريباً ، فمن كلماته فى مقال عنوانه « دولة العرب » قوله :

« ما ضر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل ، بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا إلى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد ، كأنها من فم واحد .

قد جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة تليها العاصفة ، فذرت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، وألمت بنا القارعة ووقعت الواقعة ، فصرنا كأن لم نغن بالأمس ولم نكن شيئاً مذكوراً ، فهلم نشهد الضالّة ونطلب المنشود ، لا تقوم بأمر ذلك فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن فى الوطن إخوان ، تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وإن تعدد الأفراد إنسان .

أيحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد سدى ، أم لا يعلمون أن مثل ذلك الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً فى العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربية — يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذباً وإرهاباً ، فتعود للعرب الضالة التى ينشدون ، والحقوق التى يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا يحزنون » .

حبه لمصر

« . . ومصر — ولا حياء فى الحب — بلد تركت فيه زهرة أيام الشباب ، وخلفت باكورة غرس الآداب ، وهززت غصن الأمانى رطيباً ، ولبست ثوب الآمال قشيباً ، فما عدلت بى عن حبها النكبة ، ولا أنستنى عهدها الغربة ، ولست أول محب زاده البعد وجداً ، ولم ينكث على الصدّ عهداً ، فحذار أهل مصر إن العدو لكم بالمرصاد ، وإنكم لمحفوفون بالعيون والأرصاد » .

دفاعه عن السوريين المتمصرين حين هاجمهم كاتب أجنبي اسمه شارم غبريل:

« أتقول ، وأنت أكذب القائلين ، إن السوريين أرباب كذب ونفاق ، ودناءة أخلاق ، لا مروءة لهم ولا حياء ، ولا همة ولا خلاق ؟ ! كذبت ورب المروءة ، وما هي أول فرية منك ، فقد رميت من قبل نزالة اليونان فى مصر بهذا القول ، فجاءك النذر من الصديق جوسيو : "رد ما كذبت أو تكون من الخاسرين" فأبيت . فدعاك للنزال ، يحسب أن فى عروقك دم الرجال ، فتسترت بأذيال فواجر الغدر ، فعلم أن مثلك لا يعامل معاملة الشرفاء . فصفعك كما يصفع الأنذال . .

وتذكر بعض مخدراتنا بالسوء ابتهاراً . وتورد فى ذلك حكاية حال من سفر بحر وصحبة فتى ، وتزلف والد . . فهلا ذكرت يا ابن الطاهرة . مكارم الكرائم حين دببت ، وحيث شببت . وحيث تأدبت ، فلا تحرجنا فتخرجنا من الذود إلى الإقدام ، ومن الجواب إلى الخطاب . إنا نعرف منكم ما لا تنكرون ، ونعلم ما لا تجهلون .

ثم طبعت هذا القول الهراء يا سقيم الطبع . فأين تركت ماء الحياء ، ومن أين جلبت لوجهك جلد خنزير ؟

عفواً سادتى ، عما ترون بى من سورة الغضب ، ولكن هو الوطن والعرض والقوم ، ومن ذا الذى لا يغضب لقومه أن ينالهم لسان مبتذل ساقط لئيم . . قد عرفت هذا الرجل الذى جاءكم ضيفاً نزيلاً وأكرمتموه فجعل أعراضكم مناديل .

ويا مسيو غبريال شرم هذه أولى رسائلى إليك تنوب عن يد يقصرها بعد المسافة عنك ، فطب نفساً . إنك التمست الشهرة بين قومك بما افتريت على السوريين والمصريين من قبلهم . وإنى لأجعل لك بين قومى ذكراً ، يجدده المستقبحون عصراً فعصراً » .

ومن شعره :

الحق للقوة

قتــل امــرئٍ فى غــابــة ... جــريمــة لا تغتفــر
وقتــل شــعب آمــن ... مســألــة فيهــا نظــر
والحــق للقــوة لا ... يعطــاه إلا من ظفــر

المرأة

حسب المــرأة قوم آفــة ... من يدانيها من الناس هلك
ورآهــا غــيرهم أمنيــة ... ملك النعمة فيها مَنْ ملك
فتمنى معشر لو نبــذت ... وظــلام الليــل مشتد الحلك
وتمنى غــيرهم لو جعلت ... فى جبين الليث أو قلب الفلك
وصواب القــول لا يجهــله ... حاكم فى مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بهــا ... كل ما تنظره منك ولك
فهى شيطان إذا أفسدتهــا ... وإذا أصلحتهــا فهى ملك

نظم حرّ

ومما قاله فى سجنه من قصيدة بعث بها إلى محمد سلطان باشا وقد عارض فيها أبا فراس الحمدانى :

أمولاى هذا نظم حر ، وتلوه ... كلام سجين أوثقتــه المآثر
أتوه بنكر وهو للعرف مرتج ... وجازوه بالخذلان وهو مناصر
أيبعد ذو فضل ، ويدنى منافق ... ويسجن واف ، حين يطلق غادر
ويكرم جاسوس عن الصدق حائد ... ويظلم همّام على الحق ســائر
بذا قضت الأيام ما بين أهلها ... معائب قوم عنــد قوم مفاخر

سليم عنحورى

١٨٥٦ – ١٩٣٣

من رواد النهضة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .
شاعر ، ناثر ، صحفى . . .

عالج شئون الوطن بمقالات نشرها فى صحف مصروسورية . . واهتم بشئون الطباعة . . وكان أحد أدباء دمشق المستجيبين لتطورات العصر .

أصدر فى مصر سنة ١٨٧٨ مجلة « مرآة الشرق » وهى مجلة أسبوعية . .
ثم أنشأ مجلة « مرآة الأخلاق » وهى نصف شهرية . .

كما أصدر مجلة « الشتاء » فى رحلته الثانية إلى مصر . . وكانت تحتجب فى الصيف وتظهر فى الشتاء . . .

وإذ كان من رواد النهضة . . وممن يكتبون فى الصحف ، فقد نفى خلال الحرب إلى الأناضول مع مَنْ نفى من الأسر الشامية . .
وظلّ فى منفاه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .. ونظم هناك ثلاثة دواوين من الشعر . .

من مؤلفاته المطبوعة :

١ – كنز الناظم أو مصباح الهائم ، وهو معجم تطلب فيه المعنى فتجد الألفاظ ، ضمّنه المفردات والأشعار .

٢ – سحر هاروت – ديوان شعر –

٣ – بدائع ماروت أو شهر فى بيروت .

٤ – آية العصر – ديوان شعر –

٥ – حديقة السوسن .

٦ – رواية الانتقام العادل والجن .

ويوضح لنا مذهبه الشعرى بقوله :

« علم الله أننى لست بالشاعر المتكسب ، ولا بالمادح المستوهب ، بل أنا

شاعر فطرى أوجدته الطبيعة ، بغير صنيعة أستاذ ولا فضل مدرسة — نظاماً مكثراً مطبوعاً . فى عالم الخيال تيّاهاً ، وفى أودية الفكر هياماً ولوعاً . . أسرح مذ كنت يافعاً فى حدائق التصور هنيهة ، فأنسج القصيدة عفو الساعة وفيض القريحة . . لا مقتدياً بإفرنجى . . ولا مهتدياً بتركى ، لأن بيانى لا يشاكل بيانه »(١) .

ويقول يوسف داغر :

« نحا فى نظمه الشعر العصرى منحى خليل الخورى صاحب "حديقة الأخبار" وفرنسيس المراش ، فكان هو ثالثهما فى وصف مخترعات العصر والنظم ، وكان رائد تجديد فيما نظمه من مواضيع »(٢) .

ونقرأ شعره فإذا هو شعر طابعه التكلف — طابع الشعر فى القرن التاسع عشر ، حيث يخضع للمحسنات البديعية . . .

فديوانه « سحر هاروت » وقد نظمه أيام الشباب ، — وهو مقطوعات وقصائد فى الغزل والنسيب — ملىء بالمحسنات البديعية . .

يقول مثلاً وقد نظمت فى التشبيه والتورية :

بدت بعصابة ســوداء تحكى ... ظلاماً قد علا صبحاً منوّرْ
فأصبـــح عـــاذلى كلفاً معنًّى ... فقلت له اتئدْ : هذا مقدّرْ

ويقول فى الحقيقة والمجاز :

ياحسنها ظبية كافور وجنتها ... قد حلّه مسك خاليْها بتنزيل
حققت فيها مجازاً مرسلا فجلا ... كنايتى حسن استعاراتى وتمثيلى

ويقول فى الاقتباس :

أتى وهو يثنى عطفه متلفتاً ... فلم أدر هل غصن أتانى أم رشا
غدا ثغره الدرىّ للحسن آيـــة ... « وذلك فضل الله يؤتيه من يشا »

وهكذا فمن وصف لكحل العيون .. إلى العذار ، إلى الأقداح والأحداق .. إلى ما شئت من ألوان الطبيعة والجمال . . فشعر فى الجناس التام . . وشعر

---

(١) ديوان « آية العصر » ص ٥ .

(٢) « مصادر الدراسات الأدبية » ج ٢ ص ٦١٣ .

فى الجناس المركب . . وشعر فى الطباق مع التورية . . وشعر فى الاستعارة والتشبيه كقوله :

حللت فى غرف من تحت جنتها ... الأنهار تجرى على صوت النواعير
يطاف فيهـا بأكواب وآنيـة ... من فضة شبّهوهـا بالقـواريـر
كأن ياقوت ما نسقى بأكؤسـنا ... ذوب من النـار فى جام من النور
فى سندس خضر أو رفرف وضعت ... فيه الأرائك للولدان والحـور
قرأت إذ ذاك أحكام الهوى سـورًا ... فإن رويت يقول الناس « عنحور »

ويجرى أكثر شعره على هذا النسق . . .

ومن قصائده الشهيرة التى كان ينشدها المطربون فى الفرق التمثيلية بين فصول الروايات وخلال فترات الاستراحة قصيدة « لص الحب » :

عاينت أجنـاداً تسـو ... ق جمـاعة نحـو السجون
فسـألتهـم مـاذا جنـوا ... قالوا : « لصوص يسرقون »
سـلبوا دراهـم غـادة ... حسناء سـاحـرة العيـون
فأجبت مـا دام اللصـو ... ص لأجـل مال يسجنون
هيّـا اسجنوا هـذى الفتا ... ة مليـكة الحسن المصون
سـلبت نهـاى ومهجتى ... حتى الرقاد من الجفـون
ألصـوص مـال تمسكو ... ن ولص روح تتركون ؟
فتحـيّـروا وتشـاوروا ... سـرًّا وهم يتهـامسـون
وإذا زعيمهـم يصيـ ... ح كفى أأنتم فى جنـون
مَنْ ذا الذى جهـلا يرى ... أن المـلائك يُحبسون

وحين ضمّن شعره مسميات بعض الاختراعات كالبخار والميكرسكوب والقاطرة وغيرها قالوا إنه « شاعر عصرى » فمن ذلك قوله :

قد ذبت من وجدى فإن أحببت يا ... خـلّى تصافحنى فصافح ثوبى
هيهـات تقدر أن ترانى مقـلة ... ولو أنها نظرت « بمكرسـكوب »

ويقول فى البخار :

يا من يحيرها استماع تـكلمى ... وخفـاء شخصى إذ أتيت الدارا
وتظن أنى سـاحـر مستخدم ... تخـذ التكهن سيمة وشـعارا

لا تعجـبى ممـا ترين حبيبتى ... فالعلم يكشف هاته الأسرارا
بحـرارة الحب الشديد تمـددت ... أجـزاء جسمى فاستحال بخـارا

* * *

نعم ، حين وصفه معاصروه بأنه « شاعر عصرى » . . وحين نرى التكلف بادياً فى شعره . . والسجع فى نثره . . نرى أنه يمثّل واقع عصره تمام التمثيل . . وهو أدب موثوق الصلة بأدب عصر الانحطاط . . ولا نستطيع أن نعتبر هذا « الكلام الموزون المقفى » شعراً . . خذ مثلاً وصفه لشوارع مصر :

تلك الشوارع عرّضت أمتارا ... ســتا بست تدهش النظارا
يجرى الهواء بها رخاء مطلقا ... يمحو السقام ويذهب الأكدارا

ويصف طرقها بقوله :

قسمتْ فقسم أوسط خصّوا به الـ ... عجمــاء ثم عواجــلا وقطارا
وعلى جناحيه يسير بنو الورى ... قسمان قد رصفوهما أحجارا
رصفاً بإحكام يريح ذوى الضنى ... لا يختشى فيــه الضرير عثارا
خلصت من الأوحال والأرجاس لا ... يطأ المشاة بخطوهم أقــذارا

وقد يفيد هذا الشعر من يبحث مراحل أعمال التنظيم فى بلدية القاهرة . . أما أنه شعر . . فلا . .

ولا يهمنا هذا الأمر فنحن نؤرخ لون الشعر فى تلك الفترة من ذلك العصر .

وهذا لون من ألوانه !

* * *

ومن الغريب أن يسلكه مارون عبود بين الشعراء المطبوعين ويعتبره رائد تجديد فيقول :

« الشاعر مطبوع ، حسن الديباجة ، حاول أن يحوّل الشعر عن مجراه ، فقاله فى مواضيع علمية وأخلاقية وأدبية ، وفلسفية اجتماعية ، حتى تناول ما وراء القبر أيضاً ، فكان رائد تجديد فيما نظمه من مواضيع »[1] !

---

(١) « رواد النهضة الحديثة » ص ١٦٢ .

الشيخ بشير الغزى
١٨٥٧ — ١٩٢١ م

علم من أعلام اللغة والأدب.

ليست ثقافته الأدبية واللغوية دون ثقافة الشنقيطى أو المرصفى أوغيرهما من أعلام اللغة الذين استفاضت شهرتهم فى القرن التاسع عشر . . .

وعى صدره أسرار العربية فكان حجة يرجع إليه فى علومها ، فإذا أخذ فى تفسير آية من آيات الكتاب الحكيم ، أو قصيدة لشاعر جاهلى أو غيره من فحول شعراء العربية رأيته بحراً زاخراً فى الشرح والاستطراد والتفسير .

يصفه أخوه الشيخ كامل الغزى صاحب « نهر الذهب فى تاريخ حلب » بقوله:

عُرف منذ صغره بالذكاء وسرعة البديهة ، وقد حفظ ألفية ابن مالك ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى عشرين يوماً ، كما حفظ فى بدء نشأته جملةً وافرة فى أشعار العرب ونبذاً كثيرة من مختارات الأدب . . .

وكان محصوله من العلوم : التفسير والحديث ، وعلمى الفرائض والعروض والمنطق وأدب البحث والمناظرة ومصطلح الحديث ، وهى العلوم التى كانت تدرس فى المدارس الدينية ، وقد ألمّ إلماماً واسعاً بالعلوم الحديثة ، فدرس الفلسفة والطبيعيات وعلم الهيئة والفلك . . .

وبعد أن أكمل ثقافته الدينية والأدبية ، انصرف انصرافاً كلياً إلى اللغة وكتب الأدب ، ووصل به تعمقه إلى حفظ أكثر من كتاب واحد — حفظ أكثر النصوص ، فكان يُملى من حفظه كتاب « الأغانى » وشرح ديوان الحماسة وأمالى القالى ، وكامل المبرّد ، ومختارات الشعراء الثلاثة : الطائى والبحترى والمتنبى وشعر أبى العلاء فى سقط الزند واللزوميات . . . .

وكان المعرى من الشعراء المفضلين عنده . ولفرط حبه له آمن بمذهبه فلم يتزوج ، وكلما عرض عليه أخوه وأصدقاؤه فكرة الزواج ، كان ينشد قوله :

وما الدهر أهل أن يؤمن عنده حياة . . وأن يشتاق فيه إلى النسل

ثم يتبع هذا البيت بأبيات كثيرة فى هذا المعنى من اللزوميات .

وقد انقطع إلى الدرس فظلّ حتى الخمسين من عمره مجاوراً فى المدرسة الرضائية لا يشغل نفسه إلا بطلب العلم والتبحر فى فنونه . فلما ذاع فضله واشتهر ، توجهت الأنظار إليه للإفادة من فضله وعلمه فانتخب نائبًا عن حلب فى مجلس المبعوثين — مجلس النواب — . وشغل عدة وظائف فى القضاء المدنى والشرعى إلى أن عين فى أخريات أيامه قاضى قضاة حلب .

وبالرغم من تبحر الأستاذ الغزى فى علوم العربية وأسرارها لم يصنّف كتابًا فى الأدب أو اللغة يُرجع إليه . لأنه كان يعتقد . كأكثر علماء عصره . أن العلم مكنوز فى خزائن الكتب . وما على العلماء إلا الكشف عن هذه الكنوز بالبحث والدرس والصبر . فالعلم فى رأيه . إنما هو « فهم ما تركه السابقون » . . .

ومع ذلك ، فقد وضع كتابًا فى اللغة ضمنه ما فى « مختار الصحاح » من الكلمات اللغوية ، وجعله على أسلوب حكاية سائح يذكر فى حكايته الكلمة ويعطف عليها مرادفها تفسيراً لها ، ورسالة فى التجديد . وتفسيراً صغيراً مختصراً يمكن طبعه على حاشية المصحف .

وقد نظم الشمسية فى علم المنطق وهى فى مائتى بيت ونيّف . وهى قوية السبك لا يظهر فيها أثر التكلف الذى يظهر عادة فى منظومات المتون العلمية .

ونشر كتاب « أحكام القرآن » للإمام أبى بكر أحمد بن على الرازى المعروف بالجصاص ، وقد طبع فى الآستانة وصحح القسم الأكبر منه بنفسه .

ورائعته الشهيرة أرجوزة « حدائق الرند » .

فقد ترجم عن التركية قصيدة المرحوم ضيا باشا الفيلسوف التركى الشهير الموسومة بـ « ترجيح بند » ، وقد أجاد فى ترجمتها وأبدع حتى جاءت كأنها عربية الأصل . وقد لا تقل فى سبكها عن مقصورة ابن دريد . وحين ذاعت منع تداولها فى عهد السلطان عبد الحميد لأنها تضمنت البيتين الآتيين :

ظلم القوى للضعيف جار فى الأرض والهواء والبحـــار

كأنه لم يكفنا الأهــوال حتى تولى حكمنـــا الجهال

وصفه قسطاكي الحمصي بقوله :

« طود علم ووقار . وقطب أهل العلم فى هذه الأقطار . كان متبحراً فى علمى اللغة والأدب ، يحفظ ويروى من نوادرهما ما يورث العجب . وكان إماماً فى علوم الفقه والحديث والمنطق . فصيح العبارة بليغها . رخيم الصوت ، يرتل القرآن ترتيلاً ترتفع له حجب الأسماع »(١) .

* * *

وبهذه المناسبة ، أذكر وأنا صغير لما أتجاوز الرابعة من عمرى ، كنت أؤم الجامع الكبير فى السحر . وفى أيام رمضان المبارك . لا لأؤدى فريضة صلاة الصبح فحسب . بل لأنعم بجمال ترتيله لسور القرآن . وكان يأتم به أكثر من عشرة آلاف مصلّ ما من واحد منهم إلاّ وقد أخذ برخامة صوته وحسن أدائه فى خشوع وتبتل أشبه بذهول الصوفيين .

وكما كان من أفقه الأدباء فى فلسفة اللغة العربية كان إماماً بقراءات القرآن الأربع عشرة . . .

وقد أتيح لى ، وأنا فى بدء حياتى الأدبية ، أن أحضر مجالسه مع أبى فقيه حلب(٢) ومن أخلص أصدقائه ، فإذا بى إزاء جهبذ من كبار علماء الأدب واللغة ، يعبق مجلسه بالفصاحة والبلاغة ، ولا سيما حين يستشهد بشعر أبى العلاء ، ولو دوّن تلاميذه بعض دروسه فى الأدب والنقد لترك مجموعة زاخرة من آراء قيمة فى تفسير أدبنا القديم .

---

(١) أدباء حلب ص ٥ .

(٢) على الكيالى العالم ، خلف الغزى فى قضاء حلب ثم تولى إفتاءها وظل يشغل المركزين قرابة الثلاثين سنة ، وإلى تبحره فى الفقه الحنفى كان واسع الإحاطة بعلوم العربية ، وله شعر كأكثر شعر الفقهاء ، ومن كتبه غير المطبوعة : « إرشاد السائل إلى صحيح المسائل » وهو مجموعة نقول من فروع وأصول جمعها من أساطين الفقهاء ورتبها على أبواب ومقدمة وخاتمة مع شرح دقيق لها ، ولما اطلع عليه الأستاذ محمد أبو زهرة أوحى بطبعه وندب نفسه ليكتب مقدمة ضافية له تبين قيمته العلمية والمنهجية .

بعض مقاطع من « حدائق الرند »

المترجمة عن التركية

ذا معمل الصُّنع العجيب مكتب
نقوشــــه عن علم غيب تُعرب
وفلك طاحـــونه المصـــائب
والنـــاس فيها مثل حب ذائب
ملتقمـًا أفراخـــه كالعفْريَه[١]
وهو كوكر الطير واهى الأرويه[٢]
ومَنْ يحقق يجد الأشيـــاء
منامـًا أو خيـــالاً أو هباء
وكل شيء للتنـــاهى ينقلب
فانظر فصول العام كيف تنقلب
والمرء عن كسب اليقين عازب[٣]
والاعتقـــاد عن حجـــاه غائب
يا ربّ : ما هذا العناء واللدد[٤]
وحاجة المـــرء بكسرة تسـَـدّ
لا عاصم من قـــدر السمـــاء
بل كل شيء هـــدف القضاء
والأصـــل أن يظهر مقدور الأزل
والخـطء والصواب فى الناس عـلل
وكل تأثير من الرحمـــن

---

(١) العفرية : العفريت .

(٢) الأروية : الرباط الذى يربط به الشيء .

(٣) العازب : البعيد .

(٤) اللدد : الخصام . والكسرة : اللقمة .

لا حكم للأفلاك والأذهان

سبحان من قد حيّر العقولا بصُنعه ، وأعجز الفحولا

* * *

ومنها :

قد عزّ فى الدنيا الخسيس الجاهل
وعاش فى الذل الحسيب العاقل
ورب ذى جهل لدولةٍ ملك
ورب ذى عقل للقمةٍ هلك
قد قبل الناس اللئيم المفسدا
ونابذوا الشهم الفصيح المرشدا
كم فاضل لجاهل مسخّر
وكم أديب عنده محقّر
العارفون رزقهم فى هَبَطِ
والظالمون عيشهم فى غبط
سبحان مَنْ قد حيَّر العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

* * *

يا رب ما بال اللبيب فى الزمن
معذّب بعقله وممتحن
يا رب إنك ابتليت العارفا
بقدر ما أوليته معارفا
من كل وجه مبصر عناء
وفوق عقله يرى الأشياء
هل يمكن التحقيق والإيقان (١)
العقل بالظن له اتزان
وكيف بالعلم والاستيعاب

---

(١) الإيقان : التيقن .

لعـــاجز ناء عن الصـــواب
كأنه لم تكفنا الأهـــوال
حتى تولى حكمنـــا الجهـــال
ولست أدرى هل نظام العـــالم
يقضى لذى جهـــل بعـــز دائم
ولم يزل من سالف الأزمـــان
يستعبـــد الأحمق ذا العـــرفان
وفى بقـــاع العزّ يرقى الجاهـــل
وفى حضيض الذل يُلقى الفـــاضل
بالحظ قد صـــار الجهول نائلا
آماله — والشهم أضحى عائلا
ســـبحان من قد حيّر العقولا بصنعه وأعجـــز الفحـــولا

قسطاكى الحمصى

١٨٥٨ – ١٩٤١

أديب ، شاعر ، معنى بالدراسات اللغوية .

ولد فى حلب سنة ١٨٥٨ . وعاش مع آله وذويه فى وسط تجارى ، وهم من أعرق البيوتات الحلبية فى الوجاهة والغنى ، أصحاب مصرف كبير وتجارات واسعة .

وبالرغم من هذا الوسط المالى والحياة المترفة التى عاش فى ظلالها فقد تعلق بدراسة الأدب منذ صغره ، نظم الشعر وهو تلميذ فى المدرسة . وتعلم الإفرنسية والإيطالية ، وأتم دراسته الثانوية فى مدرسة الآباء « رهبان مار فرنسيس » ، ثم أكبّ على المطالعة فحذق النحو والصرف والعروض واللغة الإفرنسية والإيطالية .

فى سنة ١٨٧٥ سافر إلى فرنسا ومكث فيها قرابة سنة وتتلمذ على أستاذ إفرنسى لقنه دروس الفلسفة . وبعد أن عاد إلى وطنه تكررت رحلاته إلى فرنسا أكثر من مرة ، سافر إليها سنة ١٨٧٨ لزيارة معرضها ، ثم سنة ١٨٩٢ حين جاءه نعى أخيه ثم فى سنة ١٩١٣ لتجديد عهده بقصورها ومتاحفها ، بملاعبها ومعاهدها ، بجناتها وملاهيها ، وقد كان لهذه الرحلات أثرها فى نفسه وتفكيره وفى تمكنه من اللغة الإفرنسية فحذقها وأصبح يجيدها كالعربية سواء بسواء . وإذ نشأ وهو ذو ميل لقرض الشعر وتدبيج المقالات فما كاد يتخطى العقد الرابع من عمره حتى عرف بين أقرانه وبيئته كأديب وشاعر ، واجتذبته بحوث اللغة فغاص فى خضمها ، وكان وثيق الصلة بالشيخ إبراهيم اليازجى ، وجرت بينهما مراسلات تفيض بالحب والتقدير . ثم نصب نفسه بعد وفاة اليازجى مدافعاً عن كل من يتهجم على أدبه ولغته .

* * *

كان السفر بعض هواياته . ففى خلال رحلاته إلى الغرب سافر سنة ١٨٩٨

إلى إستانبول وسنة ١٩٠٥ إلى القاهرة . . وكان يغتنم فرصة سفره إلى عواصم الشرق والغرب ليزيد من ثقافته الأدبية ويتعرف إلى أكابر رجالات الفكر والأدب ، وبالرغم من أعماله المصرفية كان الأدب شغله الشاغل ، يكتب وينظم ويدوّن ، واستطاع خلال هذه الفترات أن يؤلف كتابه « منهل الوراد » فى جزأين وهو أول كتاب ظهر فى النقد الأدبى فى بدء النهضة الفكرية .

* * *

فى سنة ١٩١٩ انتخبه المجمع العلمى العربى بدمشق عضواً عاملاً ، وقد كتب فى مجلة المجمع الكثير من المباحث والفصول فى الأدب واللغة .

* * *

كان قسطاكى الحمصى غنيًّا بماله وغنيًّا بأدبه ، ولكنه كان يعتز بثروته الثانية أكثر من اعتزازه بالأولى ، لاعتقاده أن الأولى معرضة للزوال . أما الثانية فهى خالدة مع الأجيال . عاش حياته كلها فى جهاد ونضال — جهاد العالم الحريص على قديم اللغة وثمين تراثها وجمال بهائها ، ونضال الباحث فى سبيل تطورها ومجاراتها حياة العصر بجميع أغراضها وتباين مراميها .

وقد كان عربى القلب ، غربى التفكير ، وبذلك كان من أوفى رجالات اللغة المعاصرين الذين جمعوا بين القديم والحديث ، وإن كان من نهجه إلى القديم أقرب . .

كان ينظم الشعر فى كل مناسبة ، بل كان الشعر وسيلته للإفصاح عن نزواته السياسية ونزعاته الاجتماعية والكثير من أغراض الحياة الطارئة ، فما من حدث وطنى إلا وسجله بمنظومة من منظوماته التى تصور طابع الأدب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين [١] .

وهو صحيح الأسلوب فى نثره وشعره ، والقارئ يلمس فى مدوناته قوة السبك أكثر من روح الشاعرية ، ويرجع هذا إلى تمسكه بقوالب اللغة تمسكاً قد لا يلائم جو الشعر المنطلق ، يضاف إلى ذلك إقحامه الشعر فى الموضوعات ذات

---

(١) « الراحلون » للمؤلف ص ١٥٥ .

الصلة الوثيقة بالمناسبات السياسية والاجتماعية . ومن جهة ثانية ترجمته الكثير من الشعر الإفرنجى إلى الشعر العربى ، وهو دقيق فيما يترجمه شعراً ونثراً ، حريص أن تكون الترجمة بصيغها البيانية كالأصل .

* * *

وكان شديد الاعتزاز بالعربية وبالعرب ، وكثيراً ما أخذ على بعض اللبنانيين تفاخرهم بالفينيقية ، مع أن العروبة أقرب إليهم ، وهم منها وإليها ، ففى نقده لكتاب الجبابرة للأستاذ لبيب الرياشي يقول :

« ولا نجد بدًّا من البوح بما أنكرناه على المؤلف من صعوده بقومه إلى الفينيقيين وهم أمة هلكت ودرست آثارها وعلومها ولغتها على حين أنه يتكلم بلغة عربية فاشية فى بلاده منذ ألوف من السنين وهى أفصح لغات البشر وأوسعها ألفاظاً وأفسحها للأوضاع العصرية صدراً ، ولها ماض مجيد قد امتد إلى ما أنسى من ذكر الفينيقيين . وقد أنارت معارفها وعلومها أكثر جهات الأرض وصديقنا نفسه من عشاق هذه اللغة ، وعلى حين أن مدينته بيروت هى مدينة المدارس والمطابع العربية بل مدينة العلوم العربية والعلماء والشعراء والخطباء فما باله ينصرف عن الانتساب إلى هذا الأصل العربى الرفيع المجيد ويحاول الالتصاق بقوم لم يبق على وجه البسيطة من آثارهم سوى الاسم — نقول هذا له ولمن يرى رأيه من أصحابنا فى ذلك البلد العزيز ، أوَنحن أقرب نسباً إلى قس بن ساعدة وقوم الأخطل أم إلى الفينيقيين . . ألا ترضون بالغسانيين نسباً ؟ »[١] .

أظهر كتبه « منهل الوراد » وكان فى جزأين فضم عليه جزءاً ثالثاً تضمن عدة بحوث أهمها بحثه الواسع عن دانتى وأبى العلاء وتأثر شاعر الطليان بشاعر العرب . وكتاب « أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر » و « مختارات من شعره » ورسالة تعقب فيها أخطاء الأب أنستاس الكرملى بعث بها إلى مجلة « المجمع اللغوى فى مصر » ومجموعة رسائله ومقالاته ومحاضراته فى موضوعات تمتّ بصلة وثقى إلى الأدب واللغة والتاريخ وهى غير مطبوعة وتؤلف سفراً ضخماً .

---

(١) مجلة « منيرفا » — بيروت — الجزء ٧ السنة ٢ « ١٩٢٤ » .

ومن نفثاته الشعرية :

البدوية :

من قصيدة له يعرض فيها ببعض الشعوبيين ، ففى صيف سنة ١٩٢٠ قام نفر فى بيروت ولبنان يدعون الناس إلى الطلب من حكومتهم أن تجعل اللغة الإفرنسية رسمية فى سائر محاكمها ودوائرها ولكن أبى كرام القوم أن ينزلوا عند رأى هؤلاء الخوارج وقد ألهمه هذا الحديث المنكر موضوع هذه القصيدة فقال :

بالله يا نسمات الرند والبان ... من نجد جئتن أم من روض غسان
فإن فيكن ريحاً من ملابسها ... فطيب ليلى بأنفاس وأردان
وهل لثمتن من ليلى مباسمها ... إنى عليها غيور أى غيران
إنى أغار عليها من صواحبها ... والحاسدات ومن إنس ومن جان
فإن ليلى فتاة لا مثيل لها ... صيغت من الحسن شكلا ماله ثان
إلى البداوة منسوب منابتها ... وإن نميت فهل فخر كعدنان

إلى أن يقول — والبدوية التى يصفها هى اللغة العربية :

حروفها لمعان لا تطاولها ... فى حسنها بنت يونان ورومان
ألفاظها درر تركيبها سور ... آياتها غرر فى كل قرآن
غزيرة الفضل لم يجحد محاسنها ... إلا جهول بإيجاز وتبيان
لها الفصاحة تعزى أينما وجدت ... شهودها مثل قس أو كسحبان
وفى البلاغة هل خود تضارعها ... وأصلها صاعد يسمو لقحطان
والشعر محتدها من ذا ينازعها ... فيه ؟ وكم تيمت من ند حسان

إلى أن يقول :

وهل أمية صالت واستقام لها ... ملك وطرف لليلى غير يقظان
وهل سما عرش هارون الرشيد على ... ملك بناه على عدل وعمران
والأرض فى ظلمة للجهل حالكة ... وملكه مشرق من نور عرفان
إلا وأعلام ليلى غير خافية ... فى كل مأثرة تعلو ببرهان

وهل خليفته المـأمون ردّ لنـا ... علم الأوائل من أقوام يونـان
إلا بألفاظ ليـلى غير ملتمس ... فى حسن تعريبهـا ألفاظ أعوان

وبعد أن ألمع إلى ما قام به العرب فى الأندلس وبعد أن وصف أثرهم فى الحضارة وكيف أن اللغة لم تستعص على شتّى فنون المعرفة قال :

ما ضرّها أنها والحسن عابدها ... لها حواسـد من أهل وجيران
يا أهل لبنان ماذا العهد كان بكم ... يا أهل لبنان قد أصممت آذانى
أنكرتمو اليوم ناصيفاً وأسرته (١) ... نبشتم قبر شدياق (٢) وبستانى (٣)
أما سمعتم أبا إسحق (٤) ينشدكم ... يا بعض لبنان قد مزقت أكفانى

ثم يختم القصيدة بقوله :

نم يا أخا الود لا تغضب لما أثموا ... فليس لبنان ذا ، بل بعض لبنان
وذلك البعض جزء البعض من نفر ... فما لحزنك فينـا غير غضبان
ليلاك آمنـة ما دام من رهنوا ... عهودهم عندنا من خير أعوان

---

(١) الشيخ ناصيف اليازجى .
(٢) أحمد فارس الشدياق .
(٣) المعلم بطرس البستانى .
(٤) الشيخ إبراهيم اليازجى .

رفيق العظم
١٨٦٥ – ١٩٢٥

لمع فى دمشق ، فى أواخر القرن التاسع عشر ومع تباشير فجر النهضة الفكرية – اسم غير واحد من المفكرين الذين أرادوا للأمة العربية أن تسير منطلقة مع التيارات الفكرية الحديثة . .

وكان رفيق العظم المؤرخ ، الكاتب ، الشاعر كمحمد كرد على فى طليعة هؤلاء المفكرين . .

« ولد فى دمشق . . وفيها نشأ . . فأخذ العلم عن بعض شيوخ زمانه ومن ملازمة العلماء والأدباء وبعض المتصوفة ، ودأب على المطالعة فمال إلى العلم والجد . . ربطته والشيخ طاهر الجزائرى والشيخ سليم البخارى والشيخ توفيق الأيوبى وشائج متينة من الود الخالص »[١] .

« وقد نشأ مقبلاً على كتب التاريخ والأدب . . ورحل إلى مصر فى حدود سنة ١٣١٠ هـ فسكنها واشترك فى كثير من الأعمال والجمعيات الإصلاحية والسياسية والعلمية ، ونشر أبحاثاً قيمة فى كبريات الصحف والمجلات »[٢] – فى الأهرام ، والمقطم ، والمؤيد ، واللواء .. وفى المقتطف ، والهلال ، والمنار ..

وكانت مصر ، فى تلك الفترة ، ملتقى كبار رجالات الفكر الأحرار الذين وفدوا إليها هرباً من الجور الحميدى ، وكانت مقالاته دعوة صارخة إلى الإصلاح ومطالبة السلطان التركى باللامركزية الواسعة للوطن العربى . .

ومن مصر سافر إلى الآستانة . . ثم رجع إلى دمشق . . ولكنه لم يلبث فيها طويلاً . . فعاد إلى مصر عام ١٨٩٤ ورأى فى جوّها الحر جميع الوسائل التى تمهد له أن يحيا حياة فكرية هادئة . .

* * *

وكانت مباحث التاريخ قد اجتذبته إلى رحابها الواسعة . . فكتب كتابه

---

(١) « مصادر الدراسة الأدبية الحديثة » لداغر جـ ٢ ص ٦٠٥ .

(٢) « الأعلام » للزركلى ص ٣٢٤ .

« أشهر مشاهير الإسلام » وقد أراد من كتابه هذا لا أن يسرد الوقائع سرداً جافاً كما جاءت فى كتب من تقدمه من المؤرخين بل أن يحلل الوقائع والأحداث ، وأن يرسم للجيل الجديد سيرة أبطالنا الذين دوّخوا العالم بفتوحاتهم العظيمة . . وقد أشار إلى هذا فى مقدمة كتابه بقوله :

« ولعمرى إن رجال الأمم العظام لخليقون بمثل هذه العناية ، جديرون بإعظام الشأن . . وتخليد ذكرهم على صفحات الزمان . . ولما كان الإسلام قد أنجب كثيراً من أمثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكرهم مشتتاً فى بطون التاريخ ، متفرقاً فى ثنايا الكتب والسير ، فقد نهضت بى عزيمة النفس واستفزنى الولع برجال الإسلام إلى أن أستقصى أخبارهم ، وأتتبع آثارهم ، وأفرد لمشاهيرهم فى الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتى به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياستهم وأخلاقهم وكل ما يتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم على أسلوب مبتكر بديع الترتيب ، يسهل على المتناول ، جامع للأوصاف التى تمثل حقيقة المترجم تمثيلاً لا يدع حاجة فى النفس إلى المزيد ، ولا يحوج المطالع إلى الإمعان فى جمع مزيج الأفكار إلى مقر الذاكرة من دماغه ، والعقل من فؤاده ، للوقوف على أغراضها ، والتفريق بين جواهرها وأعراضها . .

هذا وقد أخذت على نفسى أن أطلق لها فى كل مجال عنان القول ، وأرمى بسهام الفكر إلى كل غرض يبدو للنظر ، عسانى أن ألمّ بشىء من الأدواء الاجتماعية التى طرأت على المسلمين ، وأستطيع من إسداء النصح ما أخدم به فى هذا العصر قومى الذين ما إخالهم يردون نصيحة الناصحين سيما إذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة ، معضدة بالتاريخ ، مستندة إلى الدين » .

ويقول : « فما هانيبال بطل قرطاجنة الشهير الذى ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم . . من موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين جاءا من أقصى العربية إلى أقصى المغرب فدوخا ممالك هانيبال القديمة فى أفريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل مضيق سبتة إلى القارة الأوربية ففتحا مملكة الأندلس وقضيا على دولة الغوط بالدمار . . بل أين هو من عبد الرحمن الغافقى الذى اقتحم ما وراء البرنية بجيشه القليل فى أحشاء المملكة الإفرنسية حتى بلغ بواتيه

وبورغونتيه على مسافة ألف ميل من جبل طارق فذعرت منه سكان الممالك الأوربية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنساوية والكوكسون والغوط والجرمان حتى تمكنوا من إرجاع جيشه وأوقفوا تياره الذى كاد يكتسح الممالك الأوربية ..

وأين نابليون الذى طبقت شهرته التاريخية الآفاق وعده الأوربيون من أشهر القواد فى العالم لحروب طويلة أصلاهم نارها — من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان . . ومن عبد الملك بن مروان الذى جابت جيوشه شطوط المحيطين مرفوعة أعلام الظفر ، واثقة من نصر الله »[١].

لقد كتب تاريخه للعظة . . وليرسم للجيل الجديد سيرة أبطالنا العظام الذين ضربوا أروع الأمثال فى تاريخ البطولات . . وعالج الحوادث بأسلوب واضح غير معقد ، وبروح منهجية . . فنهج — كما يقول — نهج مؤرخى الإفرنج الذين « اجتنبوا فى تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وإيراد الاستعارات والمجاز فى الوصف ، ورصّ الألقاب الكثيرة رصًّا تضيع معه صفات المترجم الفطرية وتغمض على الناقد أوصافه الحقيقية ، ليكون فى بساطة الترجمة وقصرها على إيراد الحقائق فى منشأ المترجم ومآثره فى حال ظهوره وإبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثله للمطالع فى قالب الوجود حتى كأنه هو يراه »[٢] .

بهذه الروح كتب كتابه « أشهر مشاهير الإسلام » ومع أنه كتب أكثر من كتاب واحد فيظل كتابه هذا فى طليعة مؤلفاته من حيث قيمته الفكرية . .

وقد تعددت مباحثه الإسلامية .. وهى مباحث خلت من طابع الجمود ، سمة رجال عصره . . تعكس أضواء مشرقة من هذه النزعات التى ترينا مسايرة الإسلام لروح التطور . . وربما كان لحضوره مجالس الإمام الشيخ محمد عبده أثرها فى تفكيره . .

ومن كتبه التى تناولت شئون الإسلام الاجتماعية :

١ — تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية فى الإسلام .

٢ — رسالة فى بيان كيفية انتشار الأديان وكون الدين الإسلامى

---

(١) « أشهر مشاهير الإسلام » ٣ — ٤ من المقدمة .

(٢) « أشهر مشاهير الإسلام » ص ٦ من المقدمة .

قام بالدعوة لا بالسيف .

٣ – الجامعة الإسلامية فى أوربا .

٤ – تاريخ السياسة الإسلامية .

٥ – البيان فى التمدن وأسباب العمران .

وظل يكتب ويدوّن حتى أخريات أيامه ، وقد عرف المجمع العلمى العربى فضله فانتخبه عضواً بين أعضائه البارزين .

وحين شعر بدنو أجله أهدى مكتبته إلى المجمع العلمى وهى تضم ذخائر نفيسة من الكتب وبعض المخطوطات . .

وكان ينظم الشعر . . وله ديوان مخطوط ، وأدبه ذو نهج إصلاحى . . يتسم بطابع القومية والدين .. وكان يدعو إلى نهوض العرب وأن تستعيد الأمم الإسلامية أمجادها القديمة يوم استطاعت أن تفرض سيادتها وتبسط حضارتها على الدنيا .

* * *

هذا ، وحين كان الدكتور طه حسين ينشر سنة ١٩٢٣ مقالاته الأدبية فى جريدة « السياسة » والتى انتظمها فيما بعد كتابه « حديث الأربعاء » عن العصر الثانى للهجرة وشعرائه الماجنين والذى انتهى فى بعض مقالاته إلى أن العصر كان عصر شك ومجون ، أخذ الأستاذ العظم على الدكتور طه أن يعتبر أبا نواس ومن فى طبقته أو على شاكلته من الشعراء مثالاً صادقاً للعصر الذى عاشوا فيه .. وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ فى ذلك العصر مذهب أبى نواس وأضرابه من شعراء المجون . .

وقد يكون من الفائدة أن نشير إلى ما جرى بين الأستاذين الجليلين من جدل حول موضوع تاريخى يمتّ إلى الحياة الأدبية فى تلك الفترة بصلة وثقى . .

فقد كتب الأستاذ العظم يقول :

إن الحقائق التاريخية ، ولا سيما تاريخ الإسلام ، تشبه الدّر الملقى بين أشواك ، يحتاج مريد استخراجه من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك ، وأنه لا يريد أن يذهب بعيداً فى مذاهب الشك التى ذهب إليها الدكتور طه ، فالحقيقة التى ينبغى أن تقال إن التنازع السياسى

بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخبار بين شوائب فى التاريخ الإسلامى ليست هى منه فى شىء ، وإنما هى من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك ، أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية والدينية ، وانتهى إلى ما يسميه الدكتور طه حسين عصر الشك والمجون ، ويتخذه دليلاً على حكمه على أهل العصر ، إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون . وإما سد نهمات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة .

على أنه لو صحّ شىء منه ، لما كان لنا أن نتخذه دليلاً على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر ، لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون . . وانتهى إلى القول : « بأن المجاهرة بالمجون والاستمتاع باللذات ، ثم رواية الحديث ، نقيضان لا يجتمعان ، وهذا ما يؤيد رأينا فى أن أكثر ما نقل عن أبى نواس وأضرابه من شعراء المجون ، إنما هو روايات قصصية بعيدة عن الصحة ، وأنه لا يصح أن تتخذ دليلاً على حالة الأمة الروحية والخلقية فى ذلك العصر » .

وقد ردّ عليه طه حسين بمقال أوضح فيه طريقته الجديدة فى فهم التاريخ ومما قاله :

« لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم ، وكثير من العلماء المعروفين فى الشرق ، يسبغون على التاريخ الإسلامى صفة من الجلال والتقديس الدينى ، أو الذى يشبه الدينى ، تحول بين العقل وبين النظر فيه ، نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح . . فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب ، وجلال خطرهم ، وتقديس مكانتهم ، وهم يضيفون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلائل الأعمال ، ويرفعونهم عن صغائرها ، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد ، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشىء صحيحاً إلا إذا كان فى نفسه خليقاً بالرشيد ، يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هى مكانته فى نفسها ، وإنما هى المكانة التى خلعها عليه القدم ، وبعد العهد ، وجلال الخلافة ، وكرامة

الدين ، وسطوة الأمة العربية .

فأما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى ، فأما النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات ، وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه . . »

وانتهى بعد استطرادات طويلة إلى تأكيد رأيه بأن العصر الثانى للهجرة كان عصر شك ومجون ، وبعد أن ضرب الكثير من الأمثلة قال : « إن الأستاذ العظم اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء .. أما أنا فلا أقدس القدماء . . وإنما أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسى ، وأعلم أنهم مثلك ومثلى يجدون ويمزحون ، يحسنون ويسيئون » .

وختمت المناقشة عند هذا الحد ، ونحن نحيل القارئ إلى الجزء الثانى من كتاب « حديث الأربعاء » حيث يجد النص الكامل لهذين البحثين القيمين .

جمال الدين القاسمى

١٨٦٦ – ١٩١٤

حين هممت بالكتابة عن جمال الدين القاسمى ، وهو أحد كبار رجال الدين الذين تفاعلوا مع الحياة الاجتماعية فى عصرهم ، وخرجوا على الكثير من التقاليد والبدع ، وقفت حائراً ، لأن المراجع عنه جد ضئيلة ، بل تكاد تكون معدومة ، ورأيت أن أتصل بابنه الأستاذ ظافر القاسمى ، وهو محام لامع وأديب أريب ، فتفضل مشكوراً وأمدّنى بالكثير من المعلومات عن هذا العالم المجدد الذى كان لا يختلف فى نهجه الإصلاحى عن نهج الشيخ محمد عبده .

وكما قلت فى غير موضع من هذا الكتاب ، إن الأدب كان الأداة المعبرة عن الكثير من الآراء والاتجاهات والمذاهب التى جهر بها غير واحد من المفكرين ورجالات الإصلاح ، وحتى لو لم يكونوا أدباء أو صناعتهم الأدب بمفهومه الدقيق . وكان القاسمى كالكواكبى ومحمد عبده ، فى معالجتهم الكثير من قضايا الفكر التى كان العالم الإسلامى يتخبط فيها خلال القرن المنصرم ، وما زال يتخبط بكثير منها فى هذا القرن ، وهو أحد حملة مشاعل النهضة فى الشام ومن رجال الإصلاح الدينى والفكرى والاجتماعى . . .

ولد جمال الدين فى سنة ١٢٨٣ ه وتلقى مبادئ العلوم العربية والشرعية على والده الشيخ محمد سعيد القاسمى الفقيه الأديب ، وانتسب إلى مكتب المدرسة الظاهرية ، ثم أخذ فى متابعة حلقات دروس مشايخ العصر كالشيخ سليم العطار والشيخ بكرى العطار والشيخ محمد الخانى وغيرهم . . .

وقد خالف سنة المشايخ فى عصره فدرس الجغرافيا على صديقه الشهيد عبد الوهاب الإنكليزى ، كما درس الهندسة على الأستاذ صادق النقشبندى . . .

وصحبه طائفة من الشباب أمثال رفيق العظم ومحمد كرد على وشكيب أرسلان وشكرى العسلى ، فانتفعوا بروحه وأفكاره ، كما كان لصحبتهم له تأثيرها فى حياته ، إذ نبهته إلى كثير من حاجات الأمة إلى الإصلاح المدنى والدينى .

أنفق الرجل حياته بين الدراسة والتدريس والتأليف ، ولم يكن له أى عمل آخر ، وإنما كان يعيش من رواتبه التى يتقاضاها من الإمامة والخطابة والتدريس .

كان التنظيم أساساً فى حياته ، ولهذا استطاع أن يكون ضخم الإنتاج بالرغم من عمره القصير . فقد توفى فى عام ١٣٣٢ ﻫ ولما يبلغ الخمسين .

عاش القاسمى ، فى فترة الاضطهاد والطغيان التى سبقت إعلان الدستور عام ١٩٠٨ . وكان يرى أن السياسة جزء من الدين ، ولهذا شارك فى جميع الحركات التى ترمى إلى تحرير العالم الإسلامى والعربى من الظلم والعسف ، وقد تعرض من جراء ذلك إلى كثير من صنوف التعذيب والحرمان .

وكانت صيحة الإصلاح التى انبعثت من ضميره تلاقى ، فى تلك الفترة ، معارضة شديدة من الحكام والمتزمتين — وهى فترة انتشرت خلالها البدع والأوهام والخرافات وابتعد الناس عن حقيقة الدين لخلو المجتمع من المصلحين . . .

كما انتشر الرياء والملق والخداع ، وكثر التباغض والتحاسد ، وأضحى سبيل الانتقام من الخصم الطعن فى دينه وسياسته .

فى هذا الجو الخلقى الموبوء عاش القاسمى يعمل على إصلاحه ما وسعه الإصلاح . . وقد لقى من معاصريه الشيوخ المتزمتين الكثير من النقد المر والهجوم العنيف . . ولكنه لم يعبأ به وسار فى طريقه .

وحين رأى أن البدع قد تفشت ، وأن الخرافات قد استولت على عقول المسلمين ، وأن الجمود كاد يقضى على الحياة الفكرية ، وأن الشريعة المطهرة لا تسمح بمثل هذه الحياة المتأخرة ، عالج كثيراً من هذه المواضيع بطريقة خاصة ، ألجمت ألسنة المنافسين والجامدين على السواء ، فقد أدرك أن أقواله سوف لا يكون لها من القيمة ما لأقوال الأئمة الأقدمين ، فكان يرتب الأفكار التى تجب معالجتها ، وينقل عن أمثال الغزالى وابن تيمية وابن حزم وابن الجوزى وابن القيم والشافعى وأبى حنيفة وأحمد ومالك وأمثالهم الأقوال الصحيحة التى تؤيد فكرته ، ولهذا ظهر قسم من مؤلفاته وليس فيه إلا المقدمة وبعض الأقوال القليلة النادرة ، ولم يكن ذلك عن عجز عن الكتابة . .

وإنما كان مقصوداً لنشر الفكرة الإصلاحية التى يسعى إليها وليحمل

الخصوم على قبولها والقناعة بها من أقوال أئمة لا يستطيعون أن يردّوا عليها ، لأنهم يعتبرونها جزءاً من الشريعة أو الشريعة بذاتها . .

وقد أخطأ فريق من النقاد حين زعموا أن الرجل لم يكن له رأى شخصى ، وأنه إنما كان يعتمد فى تآليفه على نقل آراء غيره — أخطأوا من ناحيتين :

١ — لأن النقل بحد ذاته رأى ، وقديماً قيل « اختيار المرء قطعة من عقله » . فما كانت الآثار والآراء والأقوال التى ينقلها ، إلا آراء ، ولو ارتأى أن يكتبها بنفسه ، لكتب مثلها أو خيراً منها ، ولكنه آثر أن يكتبها بقلم غيره للسبب الذى أشرت إليه .

٢ — لأن بعض تآليفه التى وضعها فى أخريات أيامه ، لم يكن فيها النقل إلا عرضًا ولتأييد فكرته بقول غيره . .

وقد كان ذلك فى الوقت الذى لم يعد فيه يبالى بالخصوم ، وأصبح اسمه علماً ضخماً فى العالم الإسلامى ، وكتبه تدرس وآثاره تتبع ، ولعل أوضح مثال على ذلك الكتاب الذى سماه « تاريخ الجهمية والمعتزلة » وأشار إليه المرحوم أحمد أمين على أنه أحد مصادر « كتاب فجر الإسلام » . .

وأما أسلوبه فى الكتابة فيمكن الحكم عليه من جملة مصادر :

١ — مقدمات كتبه التى وضعها بقلمه ، وقد نهج فيها على طريقة الأقدمين ، فهى على جملتها مسجعة ، وإن كان تغلب فى سجعها الطبع .

٢ — ترسله فى كتبه ، والواضح فيه أنه قد تأثر بطريقة ابن خلدون من الاعتماد على الحجج العقلية إلى جانب النقل .

٣ — رسائله إلى إخوانه فى العالم الإسلامى كالشيخ محمد عبده وغيره من أقطاب نهضة الفكر .

هذا وقد ترك هذا المصلح الدينى كثيراً من الكتب والرسائل بلغت قرابة المئة ، منها ما قد طبع فى دمشق والقاهرة ومنها ما لا يزال مخطوطاً . . .

فمن تآليفه :

١ — إصلاح المساجد من البدع والعوائد .

٢ — تاريخ الجهمية والمعتزلة .

٣ – جواب الشيخ السنانى فى مسألة العقل والنقل .
٤ – حياة البخارى .
٥ – دلائل التوحيد .
٦ – شذرة من السيرة المحمدية .
٧ – قواعد التحديث عن فن مصطلح الحديث .
٨ – مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام فى الجن .
٩ – موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين .
١٠ – الأنوار القدسية عن متن الشمسية فى المنطق .
١١ – إيضاح الفطرة فى أهل الفترة .
١٢ – شرح مختصر المستصفى لابن رشيق .
١٣ – محاسن التأويل . . وهو التفسير العظيم الذى يقع فى اثنى عشر مجلداً مع مقدمة كتبت فى مجلد حافل .

وقد بلغت رسائله وكتبه المطبوعة ٧٨ رسالة وكتاباً .

أما « محاسن التأويل » فقد طبع فى سبعة عشر مجلداً ، وقد أشار الأستاذ عبد الوهاب أزرق إلى التفسير فى صدد حديثه عن الكتاب الذى أصدره الأستاذ ظافر عن أبيه بقوله :

« . . لكن الشيء الذى لابدّ لى أن أنوّه به هو أننا لا نجد مثيلاً لهذا التفسير فى سلامة المنهج والوقوف على أسراره الشريفة وغاياتها ودقائقها والحرص على التماس اللباب ، والعزوف عن البهرج الكاذب ، مستمداً وثائقه وحججه من نصوص القرآن الكريم ومظان السنة الصحيحة وما اطمأن إليه من أقوال الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين على اختلاف مذاهبهم وتباين آرائهم ، فهو ينقل عن المحدثين وقدامى المفسرين نقله عن المعتزلة والزيدية والشيعة والظاهرية وغيرهم لا يتحرّج فى ذلك ولا يتأثم ، فالحقيقة ضالّته حيث وجدها التقطها ثم أذاعها فى الحال بمختلف وسائل الإعلام – إعلام عصره ، وكان له إعجاب كبير بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية ، ومن عجب أن داره التى أنفق عمره فيها تقوم إلى جوار مرقدى هذين الفقيهين العالمين ، أحدهما عن يمين الدار والثانى عن شمالها ، ولا أدرى إذا كان لهذا الجوار أثره فى النفس والإنتاج »[1] . .

---

(١) مجلة « المعرفة » العدد ٥٥ ص ١٦٠ .

عبد القادر المغربى

١٨٦٧ – ١٩٥٦

من بيت علم قديم فى طرابلس من أصل تونسى ، وقد ولد فى ٢٤ رمضان من سنة ١٢٨٤ هـ – ١٨٦٧ م فى اللاذقية حيث كان أبوه قاضياً فيها ، وبيته لا يزال معروفاً فى تونس باسم « درغوث » واشتهر فى الشام باسم المغربى ، وينتهى نسبه إلى المجاهد الكبير أمير البحر « طرغود باشا » المدفون فى طرابلس الغرب .

تلقى العلوم الدينية والعربية فى طرابلس وبيروت عن الشيخ حسين الجسر والشيخ إبراهيم الأحدب وغيرهما . وبعد أن حفظ القرآن وهو دون البلوغ ، أتم استظهار « حماسة أبى تمام » و « مقامات الحريرى » و « ألفية ابن مالك » ومتون مختلفة فى الفقه واللغة وفى المنظوم والمنثور . ثم رحل إلى الآستانة عام ١٣١٠ هـ وحضر مجالس علم على بعض شيوخها فأجازوه فى بعض العلوم ، وكان له اتصال وثيق فى أثناء إقامته فى فروق بالسيد جمال الدين الأفغانى فلازمه وأشرب روحه وأحب مجلسه ، وقد دوّن ذكرياته عن هذه الصلة بكتيب نشره فى العدد (٦٨) من سلسلة اقرأ .

أولع بدراسة آثار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والانطباع بطابع أفكاره وجرت بينهما مراسلات تدور حول الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى فتنكّر له رجال العهد الحميدى تنكراً أدى إلى اضطهاده واعتقاله أشهراً فى سراى بيروت ومصادرة القسم الكبير من مكتبته وأوراقه إلى أن أفرج عنه ، فدعاه الأستاذ الإمام إلى مصر لتولى بعض الأعمال العلمية فهبطها عام ١٩٠٥ ولكن المنية اخترمت الأستاذ الإمام فى تلك السنة . فعكف على التحرير فى جريدة « الظاهر » ثم فى جريدة « المؤيد » خلفاً للمرحوم السيد عبد الحميد الزهراوى وقد ظل يحرر فى المؤيد زهاء أربعة أعوام اتسع له خلالها نشر فكرة الإصلاح الدينى والاجتماعى ونقد أوضاع المؤسسات الدينية ومنها الأزهر على طريقة أستاذيه الأفغانى ومحمد عبده .

بعد إعلان الدستور العثمانى عاد إلى سورية فأصدر فى طرابلس الشام جريدة « البرهان » .

وفى عام ١٩١٤ أوفدته الحكومة العثمانية إلى المدينة مع الشيخ عبد العزيز شاويش والأمير شكيب أرسلان لتأسيس كلية إسلامية باسم دار الفنون فوضعوا أساسها ولكن الحوادث السياسية قضت على هذا المشروع ، وبعد نشوب الحرب العامة الأولى عهدت إليه وزارة الأوقاف العثمانية أن يساعد الشيخ عبد العزيز شاويش فى تأسيس كلية صلاح الدين الأيوبى فى القدس وهى كلية أسست لتخريج علماء دين عصريين ومبشرين بالدين الإسلامى ، وقد ظل مدة يدرس فيها علوم البلاغة والسيرة النبوية إلى أن أنشأت قيادة الجيش الرابع جريدة « الشرق » فى دمشق فولته عام ١٩١٦ إدارة التحرير فيها ، وكان من أركانها الأمير شكيب أرسلان . وللأستاذ فيها مقالات كثيرة فى اللغة وتاريخ الأدب العربى والإصلاح الإسلامى .

ولما أسست الحكومة العربية فى عام ١٩١٩ المجمع العلمى انتخب عضواً عاملاً فيه .

وفى عام ١٩٣٤ عين عضواً عاملا فى مجمع اللغة العربية فى مصر ، وفى أواخر السنة المذكورة عين رئيساً للمجمع العلمى العربى الدمشقى إلى أن توقفت الأعمال فى هذا المجمع عام ١٩٣٧ بسبب ضيق الموازنة ، ولما عاد المجمع إلى العمل عاد إليه نائباً للرئيس .

وفى عام ١٩٤٩ انتخب عضواً للمجمع العلمى العراقى فى بغداد ولا يزال إلى اليوم يمد هذه المجامع الثلاثة بنتاج أبحاثه العلمية واللغوية ويحضر دورات المجمع المصرى السنوية[١] .

* * *

للأستاذ المغربى تآليف كثيرة منها المطبوع وغير المطبوع . أما المطبوع فهو كتاب « الاشتقاق والتعريب » وقد أثبت فيه جواز التعريب وأن ذلك لا يخل بفصاحة الكلام كما أجاز فيه اقتباس الألفاظ الأعجمية ، وكتاب « الأخلاق

(١) كتبت هذه الترجمة قبل وفاته .

والواجبات » ألفه بناء على اقتراح الأستاذ ساطع الحصرى وقد اختير ذلك الكتاب للتدريس فى الأقطار الإسلامية لا سيما العراق ، وكتاب « البيّنات » وهو جزءان ضمنهما طائفة من رسائله فى الإصلاح الدينى والاجتماع واللغة والأدب والتاريخ طبع فى مصر أيضاً ، وكتاب « التسامح الدينى » طبعته جمعية تهذيب الشبيبة السورية فى بيروت سنة ١٩١٠ وكتاب « محمد والمرأة » و « تفسير جزء تبارك » و « على هامش التفسير » و « شرح تائية عامر البصرى » فى التصوف ، ومناقشة أدبية لغوية بينه وبين الأستاذين الشيخ عبد الله البستانى والأب أنستاس الكرملى و « عثرات اللسان » و « ذكريات عن جمال الدين الأفغانى » .

أما تآليفه التى لم تطبع فهى رسائله ومقالاته الكثيرة المتنوعة ومحاضراته التى ألقاها فى ردهة المجمع العلمى العربى بدمشق وفى أماكن أخرى خلال بضع عشرة سنة وهى زهاء مئة محاضرة فى الدين واللغة والأدب والاجتماع والتاريخ ، و « السيرة النبوية » و « شرح المقصورة الدريدية » و « معجم لغوى » رتبت فيه الألفاظ بحسب الفنون لم يكمله و « شرح متن الكنز » و « رسالة التوحيد » و « أصل الأخلاق والواجبات » وهو تفصيل للمسائل التى وردت فى كتاب « الأخلاق والواجبات » الذى تقدم ذكره ، و « النجم الآفل » وهى ترجمة عن الإفرنسية لرواية « لا دام أوكاميليا » لإسكندر دوماس كان قد مثلها المرحوم الشيخ سلامة حجازى لأول مرة ليلة ٣ أكتوبر عام ١٩٠٨ وهى أول ترجمة عربية لتلك الرواية ، وله رسائل وتصانيف أخرى لا يحضرنا اسمها .

* * *

يدور أدب الأستاذ المغربى حول ناحيتين : الإصلاح الذى يستمد جذوره من روح الدين ومن الشئون اللغوية ، وهو فى الأمرين أميلُ إلى الانطلاق منه إلى التزمت ، وإلى الحرية منه إلى الجمود ، تتمثّل فى أدبه الكثير من خصائص أستاذه الإمام محمد عبده ، ويعتبر فى الأوساط الشامية من العلماء المجددين ، ويتميز أسلوبه بالقوة والبساطة معاً ، سهل العبارة غزير المادة ، ما من مقال أو بحث إلا ويدعمه بآيات القرآن الكريم وبأحاديث نبوية وبآراء الأدباء والعلماء المعاصرين شرقيين وغربيين ، وتمتاز مباحثه اللغوية ، بالرغم من جفافها ، بالسهولة والطلاوة .

هذا ، وظل الأستاذ المغربى يوالى البحث والدرس والكتابة إلى آخر يوم من حياته — وبهمة لا تعرف الملل والكلل . . وقد وصف زميله المجمعى الدكتور منصور فهمى — يرحمهما الله — بعض ملامح من أدبه وخصائصه الذاتية بقوله :

« . . ولعلنا حين كنا نستمتع بما يكتب المغربى فى ذلك الماضى البعيد لم نكن من الإدراك والعلم فى منزلة تهيئ لنا تقدير الآراء ووزن الفكر وتقويمها ، ولم نكن من المعرفة بفنون النقد لأساليب الكتابة وثمرات القلم لكى نعين المكانة الأدبية التى تختار لأسلوب الشيخ فى منازل الكاتبين ، على أن شيئاً كان يجذبنا إلى قلمه جذباً ويدفعنا إلى تلمس قراءته دفعاً . ولعل ذلك الشيء كان فيما يفيض به قلم المغربى من إنتاج كان بالنسبة إلى مداركنا الغضة سهلاً ومهضوماً ومفهوماً ، وكان بالنسبة إلى عواطفنا المطاوعة محركاً وحافزاً ، فكانت كتابته الخالية من التعقيد والصرامة والعسر تبدو كأنها باسمة ومتهللة ، فتغرى بالإقبال عليها لما فيها من وضوح التفكير وحلاوة التعبير .

ومرّت السنون ، وكان للأيام ما كان مع الشيخ فى كفاحه وتغريبه ، وفيما لقيه من الإعنات ، إلى أن وقع عليه الاختيار ليكون عضواً فى هذا المجمع من نحو ثلاثة وعشرين عاماً . وتلاقينا فيه وقد بلغ من العمر نحو السبعين واشتعل رأسه شيباً ، وتوضح فيه بياض لحيته على وجهه المستدير المليح الأشقر — تحت عمامته الكبيرة المفخمة — وازدان بها وقاره ، ولم تكن السن ولا المشيب ليحولا دون نشاطه الدائب المألوف ، وفى دار المجمع بالجيزة وبالقاهرة ألقى الشيخ المحاضرات ، وأثار البحوث ، وكافح ، ونافح عن آرائه ووجهات نظره فى أسلوبه الخطابى السريع الدافق. وكان ، على الدوام ، فيما ألقاه ، وفى شتى محاوراته ومباسطاته — جذاباً وفياضاً ومتفكهاً ومستبشراً وجذلاً كأنه ذلك الفتى الذى جذبت مقالاته شبيبتنا من نحو نصف قرن أو يزيد »[١] .

* * *

(١) « مجلة مجمع اللغة العربية » الجزء ١٣ ص ٢٧٨ .

و بالرغم من شيخوخته — وقد بلغ التسعين — لم يتخلف عن السفر إلى القاهرة لحضور جلسات المجمع اللغوى .

وفى أمسية من أمسيات شهر كانون الثانى من عام ١٩٥٥ كان يسير بمفرده طلباً للنزهة والرياضة إذ أبصر إحدى السيارات الحوافل فبدا له أن يتقهقر مسرع الخطى لمفاداة لم تكن مستوجبة ، فسقط وأصيب بكسر فى عنق الفخذ وعولج فى مستشفى الجمهورية بإشراف زملائه أعضاء المجمع وفى جوّ من حنانهم . حتى إذا شفى عاد إلى دمشق ، وقبيل مغادرته القاهرة قال لزملائه وهم يودعونه . لعل مجيئى إلى مصر إنما كان للوداع . . وقد صدق حدسه وكان حقـًا للوداع . . إذ عاوده وهو فى دمشق شلل مفاجىء لم يمهله ففاضت روحه فى السابع من شهر حزيران سنة ١٩٥٦ .

ومن مقالاته :

الحرية العلمية فى الإسلام :

قرر الدين الإسلامى — فى جملة ما قرر من أصول الاجتماع وقواعد العمران — أصلاً عامـًا ، إليه ترجع الأصول كلها ، وعليه تبنى الأحكام دقها وجلها ، وذلك الأصل هو الجهر بالحق متى تبين للمرء أنه حق . قال تعالى « ويريد الله أن يحق الحق » ، « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ، « وقل الحق من ربكم » .

ولم يكتف الإسلام بهذا بل حضّ المسلمين على التعاون فى نصرة الحق ، وأن يصبروا على الأذى فى سبيله فقال : « وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » وقد أوجب هذا عليهم إلى حد أن الدليل إذا قام على أمر حق تخالفه نصوص الشريعة بظاهرها وجب تأويل النصوص والرجوع بها إلى ما قام عليه الدليل العقلى ، ونظن أنه لم يقم فى العالم دين رفع من شأن الحق واستخدم له العقل بأكثر مما فعل الدين الإسلامى المبين ، ولذلك كان الإسلام بطبيعته أسـًا للمدنية ومشرقاً للحقائق العلمية .

لا جرم أن التمدن مجموعة تجارب ومعلومات صحيحة ولو لم يعط المرء حق

الجهر بالحق لما أمكن الوصول إلى معرفة هذه التجارب والمعلومات. فنهوض الأمم وارتقاؤها فى سلم المدنية متوقف إذن على جهر أبناء كل أمة بما يعتقدون أنه الحق فى مسائل العلم، وهذا ما يسميه علماء الاجتماع اليوم (الحرية العلمية) . ويشهد التاريخ بأن هذه الحرية هى التى أنقذت أوربا من الجهالة ، وهدتها إلى هذا العمران العجيب . وكان رؤساء الدين فى القرون الوسطى قد احتكروا العلم وأقاموا أنفسهم مقام السدنة على حقائقه ، الحفظة لكنوزه وأسراره ، فكانوا لا يجيزون لأحد ما أن يصرح بشىء مما يعلم ولا أن يجهر بحقيقة اقتنع بها فكانت الحقائق العلمية والأسرار الكونية تموت بموت هؤلاء النوابغ . وكان الملوك يعضدون الرؤساء وينفذون ما يرسمونه لهم ، ويشيرون به عليهم ، كما فعلوا مع (غليليو) الذى صرح بما يعلم عن حركة الأرض . ولما قام (لوثر) وجهر برأيه قاسى من المتاعب والشدائد ضروباً وأهوالاً ، وكاد يفشل فى عمله لو لم يقم فريدريك (أمير سكسونيا) لحمايته والدفاع عنه ،وبذلك تمّ له النجاح ، ووضع فى أساس مدنية أوربا الحاضرة أول حجر أعنى به الحرية الفكرية العلمية . وقد قال لى السيد جمال الدين الأفغانى إن تقدم أوربا وارتقاءها نتيجة من نتائج الحرية الفكرية التى جاهد (لوثر) فى سبيلها .

العمران أثر من آثار سعى البشر ، وسعى البشر أثر من آثار علمهم واعتقادهم ، فما لم يكن للبشر حرية فى أن يجهروا بكل ما يعلمون أنه حق ونافع لا يتيسر أصلاً ظهور آثار العلم ، ومن ثم لا يكون سعى منهم ، ولا عمران لديهم ، والله تعالى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

والنبوغ العلمى موهبة أنعم الله بها على بعض أفراد الإنسان من أية طبقة أو صنف كانوا . فإذا لم يكن للأمة حق بالحرية العلمية . وخصصنا هذا الحق ببعض طبقاتها أو بعض أفرادها حرمت الأمة ثمار عقول كثيرين من أبنائها الأذكياء الذين يكونون قد صودروا فى حريتهم ، ومنعوا من استعمال مداركهم حتى إذا دفنوا دفنت معهم هذه المدارك والمواهب السماوية ، وبذلك تكون أمتهم فقدت قوة من أكبر قوى تقدمها ، وعاملاً من أعظم عوامل ارتقائها .

* * *

يبيح الإسلام لأى كان أن يقول الحقيقة التى يعتقدها ويصرح بالعلم الذى يعلمه بشرط الوثوق منه « ولا تقفُ ما ليس لك به علم » وبشرط الإخلاص فيه « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » أما فيما عدا ذلك فنهى عنه أشد النهى لأنه مجازفة فى العلم وفوضى تضر ولا تنفع .

بلغت الحرية الفكرية فى الأمة الإسلامية فى صدرها الأول حدًّا لم تبلغه فى أمة من الأمم . وقد كان العلماء من رجال النحل والمذاهب المختلفة يقعد كل واحد منهم فى جانب من جوانب مسجد البصرة أو الكوفة ويجلس إليه من يريد الاستفادة منه ، والتلقى عنه ، فيجهر العالم برأيه وتأييد نحلته ، والدفاع عن مذهبه من دون ما وجل أو خشية .

ظهور (الحرية العلمية) فى هذا المظهر وبلوغها هذا الطور فى صدر الإسلام هو الذى أظهر فى المسلمين الأئمة والنوابغ فى كل علم وفن .

لما كان المسلمون يراعون فى أمورهم أصول دينهم كانوا يعطون لعلمائهم الحرية أن يكتبوا فى تآليفهم ما يشاءون . ويصرحوا من الحق بما يعتقدون ، لا تأخذهم فيه لومة لائم . وبعد أن كر الجديدان عليهم ، وتركوا العمل بأصول قرآنهم ، وتمسكوا بأذيال التقليد وضربوا (الحرية العلمية) بيد من حديد — تأخرت الأمة فى العلم . وتأخر العلم فيها . وتنوسيت حقائقه رويداً رويداً . ولم يبق من مسائله أو مسائل الدين إلا التى تروج فى عقول عامة الناس ، وترتاح إليها نفوسهم [١] .

---

(١) من مقال فى كتاب « البينات » جـ ١ ص ١٣٢ — ١٣٥ .

حنا خباز
١٨٧١ – ١٩٥٥

من علماء اللاهوت ، عمل فى حقول الوعظ والتدريس والصحافة فكان له شأنه . . وهو من رجال الطليعة فى أواخر القرن التاسع عشر .

اجتذبته الدراسات الفلسفية فعكف عليها يعبّ من ينابيعها حتى أصبحت الحكمة تجرى على طرف لسانه . .

وكانت عظاته الدينية نفحات من الفلسفة الإشراقية .

ولد فى حمص ، وأمضى دراسته الأولى فى مدرسة الأمريكان فى صيدا ، ثم درس فى مدرسة اللاهوت فى سوق الغرب ، انتقل بعدها إلى مصر فقضى فيها شطراً طويلاً من حياته . . وما زال إلى أن عاد إلى دمشق راعياً للكنيسة الإنجيلية .

وبالرغم من ثوبه الكهنوتى ، ونزعته الدينية ، فقد كان حر الفكر . . اشتغل فى الصحافة ، وكتب فى المجلات الشهرية . .

مقالاته تتميز بالاتزان ، وصفاء الأسلوب ، ووضوح الفكرة . .

وهو خطيب ذرب اللسان .

ولعل مهمة الوعظ الدينى التى مارسها طوال حياته ، إلى ثقافته الدينية — هى التى جعلت منه خطيباً مبرزاً ، ومحاضراً يستهوى مستمعيه بقوة بيانه .

أشهر مؤلفاته « جمهورية أفلاطون » ، « الفلسفة فى كل العصور » ، « فلاسفة الأدهار » ، « مختارات المقتطف » ، « المعارك الفاصلة فى التاريخ » ، « حول الكرة الأرضية » ، « لطائف أخبارى فى متاحف أسفارى » ، « إسرائيل » ، « فرنسا وسورية » . . إلى كتب دينية وروايات بعضها موضوع ، وبعضها معرب .

وقد ترك مجموعة من المؤلفات لم تطبع أهمها :

فلاسفة العصر . تاريخ الفلسفة . الله والفضاء . ٣٧ مسرحية ملخصة من روايات شكسبير .

إلى الكثير من المباحث الدينية التى يسودها روح الوعظ ويخالطها تأملات فلسفية . .

فارس الخورى

١٨٧٣ – ١٩٦٢

. . . كان لابدّ ونحن نؤرخ للحياة الأدبية التى تبدأ من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين – كان لابدّ من الحديث عن فارس الخورى الشاعر الخطيب الذى طغتْ حياته السياسية على حياته الأدبية . .

والواقع ، أنه كان من أوائل مفكرى دمشق الذين عملوا فى سبيل النهضة العلمية فى تلك الفترات التى كانت بلاد الشام – وهى جزء من المملكة العثمانية – تغوص فى الجهالات . .

وقد كتب فارس الخورى المقال ونظم القصائد المطولة ، وهذا الذى يدعونا أن نؤرخ هذه الناحية من حياته وأن نسلكه فى عقد هذه السلسلة التى يعدّ رجالها من بناة النهضة .

ولد فارس الخورى فى ٢٠ تشرين الثانى سنة ١٨٧٣ فى قرية الكفير بمنطقة حاصبيا التابعة لولاية سورية فى العهد العثمانى ، وهى اليوم من الأراضى اللبنانية ، وكان فى الكفير مدرسة ابتدائية أنشأها المرسلون الأمريكيون فدخلها وبدأ يتلقى الدروس بجدّ وانتباه فكان من أنجب التلاميذ ، ثم انتقل إلى مدرسة صيدا . وفيها قسم داخلى ، فقبلته المدرسة مجاناً تقديراً لمواهبه المبكرة ، وما كاد يتمّ دراسته حتى عين معلماً فى مدرستهم الابتدائية فى زحلة عام ١٨٩٠ .

ولم تطل إقامته فى التعليم الابتدائى فكان يصبو إلى الازدياد من المعرفة لتكوين نفسه تكويناً علمياًّ فانتسب إلى الكلية الأمريكية فى بيروت وما هى إلا فترة لم تطل حتى فاز بشهادة البكالوريوس فى العلوم عام ١٨٩٧ وكانت هذه الشهادة فى ذلك الحين شهادة ثقافية عامة . .

وإذ كان من المتفوقين فى العلوم والآداب دعاه رئيس الجامعة الأمريكية الدكتور دانيال بليس للتدريس فى القسم الاستعدادى كمعلم للرياضيات واللغة العربية فوافق . .

وفى عام ١٨٩٩ استقال من وظيفته استجابة لدعوة الدكتور يعقوب صرّوف صاحب مجلة « المقتطف » الذى اختاره محرراً للمجلة براتب قدره خمسة عشر جنيهاً مصريـًّا. وتوجّه إلى دمشق من أجل تصفية قضية حقوقية لأسرته فى المحكمة قبل أن يذهب إلى أرض الكنانة . . ولكن تفشى داء الطاعون وفرض الحجر الصحى حالا دون سفره فبقى فى دمشق حيث سلك مهنة التعليم فتولى إدارة المدارس الأرثوذكسية وعمل ترجماناً فى القنصلية البريطانية حيث أكسبته وظيفته الجديدة نوعاً من الحماية ضدّ استبداد الحكم العثمانى . .

وأكبّ فى هذه الفترة على دراسة اللغتين الفرنسية والتركية بدون معلم فبرع فيهما . واستهوته كتب الحقوق فأخذ يدرسها من شتّى المراجع فما هى إلا سنة أو بعض سنة حتّى دخل عالم المحاماة متمرناً فى مكتب الأستاذ أمين زيدان ، وتقدم لفحص معادلة الليسانس بالحقوق فنالها وأخذ إجازة فى تعاطى المحاماة ولم يكن تعاطيها يحتاج لشهادة جامعية آنذاك .

* * *

بعد هذه المرحلة الدراسية التى نمّت على ذكائه وتفوّقه انطلق إلى الحياة العامة فانتسب عام ١٩٠٨ إلى جمعية « الاتحاد والترقى » — الحزب الحاكم آنئذ — ، وكان هذا أول عهده بالسياسة ، وبدأ يعبر عن آرائه فى الحرية والدستور ، وكان قد نشر فى مجلة « المقتبس » قصيدة عامرة الأبيات فى سقوط السلطان عبد الحميد بتوقيع « ف » جاء فى مطلعها :

الله أكبر فالظـــلاّم قد علموا ... لأى منقلب يقضى الأولى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت ... أركانه وتولت أهـــله النقم
وحصحص الحق فى عزّ وفى ظفر ... يحفّـــه خادماه : السيف والقـــلم
ثارت له عصبة كانت مشردة ... وقد تهددها الإرهاق والعـــدم
عبـــد الحميـــد استمع منهم مناقشة ... فطـــالما صبروا بل طالما كظمـــوا

ويقول :

خليفة الله قد خالفت ما أمـــرت ... به الشريعة والتنزيل والـــكلم
ركبت مركب جور ليس يقبـــله ... ممن يخلفـــه فى قومه الصنم

حشدت زمـــرة غدارين كم سفكوا ... واستنزفوا ثم لا قيـــدوا ولا غرموا
أسرفت فى نهب بيت المال فاستلبت ... منـــه الجواسيس ما شاءوا وما غنموا

إلى أن يقول :

تأبى الشريعة أن تبقيك حافظهـــا ... وأنت بالغـــدر والإغـــواء متّهمُ
فاليوم تعلم عقبى مَنْ يخون ومَنْ ... يطغى وتنـــدم إذ لا ينفع النـــدم

والقصيدة طويلة نيفت على الستين بيتاً ، وكان لها دوى فى حينها ، وتساءل الكثيرون عن ناظمها إلى أن باح محمد كرد على بالسرّ فعرف أنها لفارس الخورى ..

* * *

ومنذ تلك الفترة ، وبعد عام ١٩٠٩ ، التفتت إليه الأنظار تتحدث عن مواهبه ، وهو لا يزال فى غضارة العمر ، وسرعان ما أعطته دمشق ثقتها فانتخب نائباً عنها فى مجلس « المبعوثان » العثمانى (١) فى الآستانة فى عام ١٩١٤ ، وقام بواجب النيابة أوفى قيام ، وأخذ يدرس ويبحث حتى إذا احتدمت المناقشة جادل وصاول بلغة تركية رصينة وحجج قوية لفتت إليه أنظار زملائه البرلمانيين وكان موضع احترام كبار الساسة والوزراء . .

وبينما هو فى أوج مجده إذ بوشاية تلصق به فتهزّه هزّاً ، فقد طلبه السفاح جمال باشا للتحقيق معه بمدى علاقته بالشهداء الذين أعدمهم ، وكاد يلحق بهم لولا عناية الله .. وبعد أن حجزت حريته خلال تحقيق طويل نفى إلى إستانبول .. وظلّ فيها يمارس التجارة إلى أن جلا الأتراك عن سورية فعاد ليشهد رفع العَلَم العربى لأول مرة فى التاريخ على سارية دار الحكومة بدمشق فى ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨ فألقى كلمة بليغة عبر فيها أصدق تعبير عن الشعور العربى العارم . . ثم أخذ يعمل مع إخوانه على تأسيس الدولة العربية الأولى ، وانصرف ذهنه إلى ثلاث ظواهر رآها جديرة بالاهتمام وهى : مجلس الشورى ، ومعهد الحقوق ، والمجمع العلمى العربى ، وقد اقترح على الشريف فيصل تأسيس مجلس الشورى ليقوم بصلاحية التشريع ، وسعى مع إخوانه لتأسيس معهد الحقوق العربى الذى افتتح أبوابه فى شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٩ ، واشترك بتأسيس المجمع العلمى العربى .

---

(١) أى مجلس الأمة — النواب .

* * *

ثم دخل غمار السياسة ، ولن نسترسل فى تأريخ مراحل هذه الحياة فحسبنا القول إنه كان فى طليعة رجالات سورية الذين عملوا فى سبيل حريتها وسيادتها فسجن ونفى ووقف كالطود يدافع عن حق سورية وحق العرب فى حريتهم بجرأة وإيمان .

وقد اشترك فى أكثر من وزارة ، وألف أكثر من وزارة ، وانتخب رئيساً لمجلس النواب ، فكان فى جميع المراكز التى شغلها الرجل المتزن الذى يدير الأمور بحكمة ودراية إلى تفكير عميق وسداد رأى .

وبدت مواهبه أشد لمعاناً فى المحافل الدولية الكبرى التى ساهم فيها ممثلاً لسورية ، عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد ظل مدة طويلة يرأس وفد سورية فى الأمم المتحدة ويمثلها فى مجلس الأمن ، وقد عرضت فى هذه المحافل أثناء اشتراكه فيها قضايا عربية بالغة الخطورة ، تخص فلسطين ومصر وليبيا فضلاً عن سورية ولبنان ، وقد وجدت هذه القضايا جميعها فى فارس الخورى محاميها الأول ، ووفق فى الدفاع عنها توفيقاً كبيراً ، وكان لجهوده الصادقة فى سبيلها صدًى عميق فى الأوساط الدولية وفى أرجاء العالم العربى كافة . .

والواقع ، أن حياته مليئة بشتى الأحداث والمفارقات ، ولا مجال للتوسع فى مجالاتها فحسبنا هذا الإلماع لنشير إلى مقامه فى عالم الفكر . .

فقد كان خطيباً واضح الأسلوب ، يتميز بصفاء الذهن وقوة الحجة وطلاوة البيان ، يخطب الساعة والساعتين فلا يمل سامعوه . . وخطبه أقرب إلى المحاضرة لا يهيج الجمهور بل يثير تفكيره . . وربما كان أخطب منه إذا كتب ، على أن أسلوبه فى الكتابة يتميز بالدقة والوضوح . . كما يتميز شعره — وأكثره فى المناسبات — بقوة السبك وجلاء المعنى ، فهو يجارى القدماء فى نهجهم وأسلوبهم . . وقلد فى بدء حياته شعراء عصر الانحطاط وتهيب الفحول من الشعراء . .

ففى قصيدته التى رثى فيها أستاذه كرنيليوس فانديك مؤسس « الكلية الأمريكية » سنة ١٨٩٦ يذكر « جيرانه بذى سلم » .. و « بانات الحمى »

و « العنم » والكثير من الألفاظ التي ردّدها « البوصيرى »[١] فى « البردة » ، ويظهر أنه كان يحفظها كلها ويردّدها حتى إذا عارضها انثالت ألفاظها ومعانيها من ذاكرته على طرف لسانه .

يقول البوصيرى مثلاً :

أمن تذكر جيران بذى سَلَم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ويقول فارس الخورى :

فلم تهج فىّ بانات الحمى شجناً ولا تذكرتُ جيراناً بذى سلم

إنه لم يتذكر جيرانه فى ربوع لبنان أو فى غياض الشام بل ذكر جيرانه « بذى سَلَم ». و « ذو سلم » — كما يقول ياقوت — واد ينحدر عن الذنائب فى أرض بنى البكّاء على طريق البصرة إلى مكة !

والقصيدة فى ثمانين بيتاً عبر فيها عن حزنه وحزن رفاقه بفقدهم أستاذهم الذى كان « نبراساً فى كل داجية » و « أستاذاً فى كل مشكلة » و « سيد كل العارفين » :

طبيب علّتنا ، فراج كربتنا روّاء غلتنا ، جبار منثلم
فعّال خير إذا ما قلّ فاعله بغير كسب الثنا والحمد لم يهم

وقد ختمها بقوله :

مَنْ لا يشق الحشى عند النواح على مَنْ ذكره سائر فى سائر الأمم
نعم ، يليق بنا « شقّ القلوب » لمن فى الدهر أصبح نبراساً على علم
وإن قضى فله ذكر يخلد ما دامت ملائحه تتلى بكل فم
إليه جل مقالى ينتهى وكفى حسناً لمبتدئ فيه ومختتم

ولا مجال هنا للإسهاب فى قيمة القصيدة من الناحية الجمالية بل أردت أن أقول إنه عارضها ليثبت قدرته على النظم من جهة ، وليعبّر عن الأثر الذى تركه فقد أستاذه من جهة ثانية . وقد نظم هذه القصيدة وهو شاب فى الثالث والعشرين من عمره ، فى فترة كانت العربية لا تزال فى الأقماط !

---

(١) شاعر مصرى من شعراء العصر السابع توفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد عارض قصيدته شوقى وسماها « نهج البردة » كما عارضها قبلا محمود سامى البارودى وسماها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » .

هذا ، وقد ترك لنا أكثر من قصيدة مبثوثة فى الصحف والمجلات لو جمعت لألفت ديواناً فى أكثر من مائة صفحة .

فقد نشر سنة ١٩٠٦ قصيدة عامرة الأبيات خمس فيها « نونية » ابن زيدون ، ومما جاء فيها :

الطيف فى النوم يرضينا إذا عبرا   إن عزّت العين صرفا نطلب الأثرا
لا تعجبوا إن صبرنا نحمل القــدرا   « إنا قرأنا الأسى يوم النوى ســورا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا »

نرضى الهــوان بديل العــزّ أكمله   والجسم ينحــل سقماً من تحمّله
ونرتضى وشلاً عن فيض جــدوله   « أما هــواكِ فلم نبــدل بمنهــله
شرباً وإن كان يظمينا فيروينــا »

أعرضت عنــا وأعرضنا على وصب   نكتّم الناس ما فى القلب من لهب
فما اتخــذنا تجافينــا بلا سبب   « ولا اختيــاراً تجنبنــاك عن كثب
لكن عدتنا على كره أعادينا »

ضاقت على رحبهــا الدنيا فلا سعة   تحــوى فؤاداً وأحشاءً مقطعــة
نأسى إذا الشمس جازتنا مودعــة   « نأسى عليــك إذا حثت مشعشعة
فينا الشمول وغنانا مغنينــا »

لا شىء يسكن شيئاً من بلابلنــا   ولا نرجّى عــزاء من وســائلنــا
ظعائن الأنس شالت عن منــازلنا   « لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتيــاح ولا الأوتار تسلينا »

وتتالت قصائده فى المناسبات القومية ، ولا سيما قصيدته التى رثى فيها أحرار العرب — شهداء ٦ أيار سنة ١٩١٦ الذين أعدمهم السفاح أحمد جمال باشا ، وهى تصوير لألمه وللمأساة التى واجهتها الأمة العربية فى تلك الأيام الرهيبة ، مع تصوير لعنجهية الترك أحفاد هولاكو وتيمورلنك ، إلى غمز من قناة أصدقائه الذين كانوا لسان السفاح !

وقد بدأها بقوله :

كان التجــلّد فى البــلوى يؤاتينى   فــاله حين أدعــو لا يلبينى
ضــاق الفــؤاد بآلام تبرّحنى   وفاجعــات بنور الوجد تكوينى

وطارد الهمّ عن عيني الرقاد وهــل   تنــام مقــلة موتور ومغبــون
أين الصفاء الذي قد كنت أمنحــه   للنفس من خفرات الغيد والعين
من كل منّــاعة باتت تسامرني   من خمرة الحب أسقيها وتسقيني . .

وقد اعتاد أن يجاري الشعراء القدامى الذين يبدءون قصائدهم بالتشبيب ولكن الحزن على رفاقه الشهداء جعله يمرّ مروراً بهذه السجية فطغى الحزن على التغزل بمحبوبته التي كان يسقيها من خمرة الحب وتسقيه :

كيف السبيل إلى يوم تصحّ به   جروح قلب برمح الجــور مطعون
بل كيف يهنأ لي عيش ويسعدني   دهــري وتعبثني الدنيــا وترضيني
ومعشري بين مطــرود ومنتبــذٍ   عبر الفيــافي ، ومصلوب ومسجون

والقصيدة طويلة أثبتناها كاملة في باب المختار من شعره لأنها تصوّر صفحة من نضال الأمة العربية .

على أن نظمه للشعر لم ينقطع بالرغم من انغماسه في القضايا الوطنية الكبرى إلى أذنيه — وكان من أقوى أركان « الكتلة الوطنية » التي ظلت خلال أيام الانتداب الإفرنسي تقارع استعمارهم بضراوة . .

وحين زار شاعر النيل حافظ إبراهيم دمشق سنة ١٩٢٩ قرر « المجمع العلمي العربي » تكريمه وقرّر أن يكون المعبر عنه شعراً فارس الخوري .

وفي زحمةٍ من مشاغله نظم قصيدة عامرة الأبيات تختلف معنًى ومبنًى عن قصائده السابقة . .

وقد وصف الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي في مقال نشره في مجلة « الرسالة » القاهرية عام ١٩٤٧ أثر هذه القصيدة في نفسه وملامح من شخصية الخوري بعد أن سمعه وتعرّف عليه بقوله :

« أقيمت في ردهة المجمع العلمي العربي في دمشق من نحو عشرين سنة حفلة لتكريم حافظ إبراهيم[1] حضرتها أنا وأخي سعيد الأفغاني ، وكنا يومئذٍ في مطلع الشباب ، نقصد مثل هذه الحفلات لننقد الخطباء ، ونبتغي لهم المعايب ، فمن لم نعب فكرته عبنا أسلوبه ، ومن لم ننتقص إنشاءه انتقصنا إلقاءه . . وخطب

---

(١) سنة ١٩٢٩ .

كثيرون فى الحفلة ، وقال فيها حافظ إبراهيم بيتيه المعروفين :

شكرت جميل صنعكم بدمعى ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفنى على ما ذاقه طعم السرور

ولم يسلم من ألسنتنا . . .

وكان فيمن خطب رجل قصير القامة ، عظيم الهامة " جدًّا " ، أبيض الشعر ، ألقى قصيدة لا أزال أذكر أن مطلعها كان :

ليالى التصابى قد جفانى حبورها ولمّى السوداء أسفر نورها
ومَنْ لى بإنكار الحقيقة بعدما تجلّى على وجهى وفودى نذيرها
تذكرت أيام السرور التى مضت فيا ليت شعرى هل يعود سرورها
لدن لى مع الأصحاب سهم مسدّد وحظى من ريم الكناس غريرها
أسفت على عهد الشباب ولم تعد تثير فؤادى مقلة وفتورها
وأدنتنى الأيام من هوة الونى فأصبح منى قاب قوس شفيرها
وكادت حروف الدهر تطوى صحائفى وهل بعد هذا الطىّ يرجى نشورها

وتخلّص إلى لقاء حافظ . . وقال إنه جدّد عهد الشباب ، وهى قصيدة طويلة لا أرويها ، وكان صوته قويًّا على انخفاض ، مدوياً على وضوح ، كأن له عشرة أصداء تتكرر معه ، فتحسّ به يأخذك من أطرافك ، ويأتى عليك من الأقطار الأربعة فتسمعه بأذنيك ، وقلبك ، وجوارحك ، بل تكاد يدك تلمس فيه " شيئاً " ضخماً . . على صحة فى المخارج ، وضبط فى الأداء ، وقوة فى النبرات . . وثبات فى المحطّات ، واعتداد فى النفس عجيب ، تشعر به فى هذا الصوت الذى يكون له هذا الدوى كله ، وهو يخرج من فم صاحبه باسترسال واسترخاء . . لا يفتح له شدقه ، ولا يحرك لسانه ، ولا يمدّ نفسه ، ولا يجهد نفسه ، وأنسانا بهذا الصوت وهذا الإلقاء ، أن ننقد القصيدة أو نجد لها العيوب ، وملك به قلوبنا وقلوب الحاضرين . . فصفقنا له حتى احمرّت منا الأكف !

وقلت لسعيد : مَنْ هذا ؟ !

قال : هذا فارس الخورى . . »

ووصفه بعد أن تعرّف عليه بقوله :

« . . . وجدت فيه رجلاً وديعاً ظريفاً حليماً واسع الصدر ، ولكنه كان مع هذا كله هائلاً مخيفاً ، تراه أبداً كالجبل الوقور على ظهر الفلاة لا يهزه شيء ولا يغضبه ولا يميل به إلى الحدة والهياج ، يدخل أعنف المناقشات بوجه طلق وأعصاب هادئة فيسدّ على خصومه المسالك ويقيم السدود من المنطق المحكم ، والنكتة الحاضرة والسخرية النادرة والعلم الفياض والأمثال والحكم والشواهد ، ويرقب اللحظة المناسبة حتى إذا وجدها ضرب الضربة الماحقة وهو ضاحك . . ثم يمد يده يصافح الخصم الذى سقط لا يرفع صوته ولا يثور ولا يعبس ولا يغضب ولكنه كذلك لا يفرّ ولا يغلب ! !

. . وكنت أزور المجمع العلمى العربى وهو من كبار أعضائه فأراه أحياناً فى مناقشات أدبية أو لغوية . . فإذا هو فى مجال العلم والحفظ . . كما هو فى مجال الرأى والفكر . . وإذا هو متسلط غلاّب فى مصاولات الأدب كما كان الغلاّب المتسلط فى مصاولات السياسة ! »

* * *

ومن الأحاديث التى لن أنسى أثرها فى نفسى حديثه مع الدكتور هيكل فقد زرناه قبل وفاته بسنتين ودارت بين الرجلين العظيمين أحاديث طلية فى شتّى الشئون التى تشغل الأمة العربية فى وثبتها الجديدة سواء منها السياسى أو القومى أو الاجتماعى أو الفكرى ، وكانت الكتب التى كتبها الدكتور هيكل عن محمد وأبى بكر وعمر وكتاب « فى منزل الوحى » موضع حديث أطول ، ودهش الدكتور هيكل دهشاً عظيماً من وفرة اطلاعه العميق على الكثير من أدقّ الفترات الحاسمة فى تاريخ الإسلام ، وكانت دهشته أكثر حين كان يسرد النصوص التى يستشهد بها من آيات وأحاديث وقصص وشعر وكأنه يقرأها من كتاب . وقد قال لى الدكتور هيكل بعد أن ودعناه — وقد استمرّت الجلسة أكثر من ساعتين — قال لى : لم أكن أتوقع أن تمتدّ جذور ثقافته فى الإسلاميات إلى هذا الحد البعيد . . وأقول لاعجب فى ذلك فقد وعى صدره الكثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، إلى مجموعة كبيرة من الشعر العربى ، فلا يكاد يتحدث أو يحاضر حتى تكون الآيات والأحاديث والشعر والأمثال على طرف

لسانه . ويذكر تلامذته ـ وهم صفوة الرجال ـ الكثير من القصص عن قوة ذاكرته وسحر بيانه .

ويقول فى هذا الصدد : « إننى أعجب . . من هذه الكنوز الفكرية التى خلفها العرب . . فلأرتو وأشبع . إن هذه الحياة الفكرية العربية ليس لها مثيل فى الدنيا لأنها استمرّت أكثر من خمسة عشر قرناً دون انقطاع ، ولم يكتب لأية لغة من لغات الدنيا أن عاشت كما عاشت لغة العرب ، نقرأ اليوم الأدب الجاهلى ، أو الإسلامى ، أو الأموى ، أو العباسى ، وبيننا وبينه هذه المئات من السنين فنتذوقه ، وكأن بعضه قد قيل فى أيامنا هذه ، إنك لا تجد هذا عند الإنكليز ولا الإفرنسيين ولا الطليان ولا عند أية أمة أخرى . إن تاريخ الحياة العقلية أو اللغوية على الأقل لدى الأمم الأوربية لا يعدو مئات قليلة من السنين ، وقد لا يفهم الفرنسى المعاصر نصًّا كتب فى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر الميلادى ، أى قبل خمسمائة سنة . أما نحن فإننا نقرأ ما خلف العرب منذ أكثر من ألف وخمسمائة سنة فنرى فيه الكثير من صور حياتنا اليومية » .

وكان إلى سعة اطلاعه وعمق ثقافته وبليغ بيانه ، على جانب كبير من الاتزان والكياسة فى جدله ومناقشاته . فإذا احتدم الجدل ، دعم وجهة نظره بالنص إثر النص ، وبالسند إثر السند ، إلى أن يقنع خصمه مهما كانت شقة الخلاف واسعة . .

ومجمل القول فى شعره أنه يختلف فى أخريات أيامه عنه فى بدء حياته ، وليس لنا أن ننظر ، كما قلت ، إلى القصائد من الناحية الجمالية ، فهو فى أكثر قصائده يشرح قضايا ذات اتصال وثيق بقضايا الوطن ، فنرى الفكرة الموزونة والهاجسة القومية مصهورة فى قوالب موزونة تمت بصلة إلى شعراء البديع ولا سيما قصائده الأولى ، وقد رمز بذلك إلى موهبة من مواهبه العديدة فطغت الفكرة على العاطفة ، ونزعة رجل الحقوق المتزن على نزعة الشاعر المرهف الحس[١] . .

* * *

---

(١) سأله الصحفى محمد الفرحانى رأيه فى الشعر المنثور فأجاب بقوله : « لا أحبه ، فالشعر العربى قائم على قواعد ، وهو كلام موزون مقفى ، فإذا أخل بهاتين القاعدتين ـ الوزن والقافية ـ لم يعد الشعر شعراً عربيا ، بل يصبح كلاماً مخترعاً من قبل صاحبه لا ينسب إلى الشعر ولا يمت إليه =

وقد ظلّ حتى آخر لحظة من حياته هذا العنصر المبرّز فى الحياة الفكرية والقومية والسياسية ، وحتى فى المحافل الدولية . وهذا الذى جعل كبار الهيئات تكرمه وتهديه أرفع الأوسمة والجوائز ، فمنحته جامعة كاليفورنيا الدكتوراه الفخرية اعترافاً بمآثره العظيمة فى حقل العلاقات الدولية ، وقدّرت الجمهورية العربية المتحدة — بتوجيه من الرئيس جمال عبد الناصر — مركزه العلمى الكبير وجهوده الفذة فى ميدان القومية العربية فمنحه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية جائزته التقديرية لعام ١٩٦٠ فى العلوم الاجتماعية وقدرها ألفان وخمسمائة جنيه مصرى مع وشاح النيل .

هذا ، ولم يترك من الكتب غير كتاب « فى أصول المحاكمات الحقوقية » و « علم المالية العامية » وهما ثمرة محاضراته فى معهد الحقوق . والكتابان من المراجع القانونية القيمة . أما خطبه ومحاضراته وقصائده فما تزال مبثوثة فى الصحف والمجلات لو جمعت لألفت مجلدات ، ولعلّ أحد تلامذته — وما أكثرهم وجلهم مفكرون وأدباء — يقوم بهذا التراث الذى يؤرخ صفحات من جهاد سورية فى يقظتها الفكرية ونضالها القومى .

= بصلة . وسألته : ومن هو شاعر العرب المعاصر ؟ ! قال : كثيرون هم شعراؤنا المعاصرون لا أفضل أحداً على آخر . . واستطرد يقول : عندنا فى سورية على سبيل المثال لا الحصر . شفيق جبرى والمرحوم الشيخ فؤاد الخطيب ، ومحمد الفراتى شاعر دير الزور الذى يعجبنى فيه غزارته وصراحته الفطرية المنبثقة من بيئته البدوية . ومن شعراء لبنان سعيد عقل ، ومن شعراء العراق الزهاوى بفلسفته وسلاسة شعره وصراحته ، ومعروف الرصافى بطرقه لمواضيع ممتازة مثل « الحياة شعر » التى هى من قصائده الحسنة . . ولا أنسى خليل مطران الذى يعجبنى ببلاغته وإتقان لغته وضبط معانيه وسحرها حتى إنه يوم مات سعد زغلول ورثاه جميع الشعراء ومنهم مطران وشوقى وحافظ وكل شعراء مصر وسورية اجتمعنا ببعلبك ورحنا نقابل ونفاضل بين هذه القصائد ، ففضلنا عليها قصيدة خليل مطران ، وهذا حكم عدل عندما نقابل بين شاعرين فى موضوع واحد فى وقت واحد . . ومن شعراء المهجر رشيد سليم الخورى وإلياس فرحات وفوزى المعلوف ، كل منهم فيه شىء يعجبنى فيه وخصوصاً وطنيتهم وعروبتهم فهم شعراء المهجر الممتازون ، ولا ننسى الأستاذ « بدوى الجبل » المتميز بعبقريته الفذة ، وعلى ذكر الشعراء والأدباء جرى بحث فى المفاضلة بين مارى عجمى ومىّ زيادة فى أيتهما أفضل وأيتهما أطول باعاً فى الأدب ، فما كان منه إلا أن ارتجل هذين البيتين :

يا رجال الأريحيه سجلوا هذى الشهاده
إن مارى العجمية هى مىّ وزياده

ومن شعره :

فى ذكرى الشهداء الذين أعدمهم السفاح أحمد جمال باشا

كان التجـــلد فى البلوى يؤاتينى   فما له حين أدعـــو لا يلبينى
ضاق الفــؤاد بآلام تـــبرّحنى   وفاجعـــات بنار الوجـــد تكوينى
وطارد الهمّ عن عينى الرقاد وهل   تنـــام مقـــلة موتـــور ومغبون
أين الصفاء الذى قد كنت أمنحه   للنفس من خفرات الغيد والعين
من كل منّاعة باتت تسامرنى   من خمرة الحب أسقيها وتسقينى
قضى على صفو أيامى وبـــدّله   من أمره الأمر بين الكاف والنون
أصبو لكل كئيب فى الديـــار ولا   آوى إلى غير محروب ومحـــزون
أجيب دعـــوة مَنْ أدعو لمأتمـــه   وإن دعيت للهو ، قلت خلّونى
وكفكفوا لحظات النور عن بصرى   فنظرة من شعاع الشمس تؤذينى
فإننى حلف همّ لا يفـــارقنى   ورب قلب على الأحزان مرهون
كيف السبيل إلى يوم تصحّ بــه   جروح قلب برمح الجور مطعون
بل كيف يهنأ لى عيش ويسعدنى   دهرى وتعبثنى الدنيـــا وترضينى
ومعشرى بين مطـــرود ومنتبـــذ   عـــبر الفيافى ، ومصلوب ومسجون
أبـــكى ومعذرة عينى إذا ذرفت   على الغطاريف منها والأســـاطين
على النجـــوم الدرارىّ التى أفلت   وأطلعت من دموعى كل مخـــزون
على ظلال الأفانين التى قصفت   واطول شوقى إلى ظلّ الأفـــانين
على الشيوخ ، على رهط الفتوة بل   على الليوث ، على الغرّ الميـــامين
على مناهل فضل غاض كوثرهـــا   وخلّفت ورد زقّـــوم وغسلين
فياصل الحـــزم غراء شمائلهم   معـــالم للهـــدى ، شمّ العرانين
بيض الصحائف ما هانوا ولا غدروا   أنقى وأطهر من زهر البساتين
قـــد عابهم بقضـــاء الترك أنهم   أصحاب قلب بحب العرب مفتون
ضحّـــوا بهم وأسروهم إلى حفر   فى الرمـــل من غير تكفين وتلقين
فاستنطق الرمـــل عما ضمن حفرته   من كل ندب بقاع الرمل مدفون

ما كان أفجعه صبحاً طلعت به   يا يوم «بيروت» بل يا يوم «جيرون»
ما لاح نورك إلاّ بعد أن غربت   فينا شموس الهدى والعزم والدين
من كل أروع عنوان المضاء به   يمشي إلى الموت لا يمشي إلى الهون
كيف التأسي إذا طلّت دماؤهم   فالدمع مهما تجارى لا يؤاسيني (١)
وهل تجلد موتور بمدمعه   قبلي لأقنع منه اليوم بالدون
أريد قوماً مغاويراً لثأرهم   في معقل النسر أو في معقل النون
أبكي على أمة لجّ الشقاء بها   تجري إلى طالع بالبؤس مقرون
العزّ غادرها والذلّ جاورها   والدهر ساورها بعد ابن هارون
ولّى الزمان عليها كل معتسف   من طينة البغي والطغيان معجون
من معشر جعلوا جلّى مفاخرهم   منهاج جنكيز أو أنماط نيرون
مثل الزرازير في إدبار دولتهم   وعند إقبالها مثل الشواهين
بيارق في رقاع الشؤم رافعة   رءوسها فوق هامات الشواهين
قالوا سياستهم والغدر ديدنهم   سياسة العدل والإحسان واللين
يستدرجون بحلو القول مأربهم   وفي حلاقيمهم سمّ الثعابين
لاحت لهم فرصة في العرب سانحة   فنكلوا واستباحوا كل قانون
دسّوا لنا كل مغترّ يعيث بنا   نهباً ويرجع في أموال قارون
تحلّلوا السلب والتمثيل فانبعثوا   وخربوا كل معمور ومسكون
جاحوا البلاد بفعل ليس يقحمه   أضرى الوحوش ولا أطغى الشياطين
لم يكفهم برجال العرب ما فتكوا   حتى محا آية الزيتون والتين

* * *

يا ليت شعري أما سارت فضائحهم   لصاحب التاج في علياء برلين

---

(١) هؤلاء الرفاق الذين أعدمهم السفاح جمال باشا بعد محاكمة صورية في ديوان الحرب العرفي بعاليه هم الشهداء السادة شكري العسلي ، شفيق المؤيد العظم ، عبد الحميد الزهراوي ، محمد المحمصاني ، رفيق رزق سلوم ، رشدي الشمعة ، عبد الوهاب الإنكليزي ، باترو باولي ، جورجي حداد ، أمين لطفي الحافظ ، الشيخ أحمد طبارة ، محمود المحمصاني ، نايف تلو ، نور الدين القاضي ، محمود العجم ، عمر حامد ، عبد الغني العريسي ، على الأرمنازي ، عبد القادر الخرسا ، عارف الشهابي ، محمد الشنطي ، عبد الكريم الخليل ، سعيد عقل ، جلال البخاري ، توفيق البساط ، مصطفى الحميصي ، عبد الوهاب الزويني .

فكيف يرضى على دعواه من شرف | بأن يــكون حليفــاً للمجانين
ما كان حالفهم لو لم تكن ثبتت | له مناسب طوران وطوطون
عليــه نقمة أهل الأرض قاطبــة | ولعنــة الله من بين السلاطين

* * *

قل للألى عفــروا حر الوجــوه على | أقــدام طاغيــة دامى السكاكين
ومنهم الشاعر المطبــوع علمهم | حنى الرءوس لدى تمثال تنين
أتخفض الرأس إجــلالاً وتكرمة | لرسم مفترس دامى البراثين
قــل للشقيرى مفتيهم ورائــدهم | بل قل لــكرد علىّ والغــلاييني
وزمــرة مثــل مــلّاط ورفقته | من سوقة الشعر عبدان الدهاقين (١)
وكل من حملوا الأقــلام واندفعــوا | جرياً إلى السبق فى تلك الميــادين
مــاذا دهاكم وفيكم أهل منــزلة | حتى أشدتم بتمــداح المــلاعين
ما أحدثوا فى ديار العرب موبقــة | حتى صــدعتم بتحبيــذ وتحسين
هل سرّكم صلبهم أحرار أمتكم | أم راقكم هتك أعراض الحــواتين
أما سمعتم شهيق البــاكيات ولا | شــكوى السجين وأنات المساكين
ولا اطّلعتم على ما كان من عــبر | منشــورة بين بيروت وصنّين
سلوا فلسطين تنبئــكم حــوادثه | وما جرى فيه من « يافا » ل « حبرون »
الآمنــون به صارت مقــابرهم | حواصل الطير أو جوف السراحين
وما رثيتم لنا فى يــوم نــكبتنا | وقد رثى فــيه أهل الهنــد والصين
هى المنــافع قد أعمت بصائركم | وأنطقتــكم بقول غير موزون
حتى تركتم لكم فى قومكم صحفاً | مشئومة بين دفّات الدواوين
فــكلما ذكرت أسماؤكم لعنت | كرًّا على الدهر من حين إلى حين
فاستهدفوا لنبــال الــذم داميــة | وراقبــوا يوم تحــرير الموازين

وفى حفلة ذكرى الشهداء عام ١٩٢٥ أضاف إليها بعض الأبيات نقتطف منها ما يلى :

---

(١) الذين تولوا تحرير جريدة « الشرق » التى جعلها جمال باشا لسان حاله هم الشيخ أسعد الشقيرى ، وكان مفتياً للجيش العثمانى الرابع ، ومحمد كرد على ، وبدر الدين النعسانى والشيخ مصطفى الغلاييني صاحب مجلة « النبراس » البيروتية ، والشاعر شبلى ملاط .

بكيتكم وجــدار السجن يحدق بى　　وعين حافظه بالشزر ترمــينى
وصاحب الحــكم يمليــه لــكاتبه　　وناصب الحبل فى الميدان يدعونى
الحظ قدمهم عنى وأخــرنى　　حتى أرى دول التاميز والسين
تسدى العهــود بتحقيق الوعود لنــا　　عن كل حق بالاستقلال مضمون
لابدّ أن يرجعــوا للشام وحدتهــا　　من بعد ما فصلوها عن فلسطين
من الفرات إلى الأردن رابطــة　　مثــل الذى بين صنين وقسيون

عبد المسيح الأنطاكى

١٨٧٥ – ١٩٢٢

صحفى ، شاعر ، جوالة .

عبد المسيح بن فتح الله ، يونانى الأصل ، سكن أجداده أنطاكية ، وانتقلت عائلتهم إلى حلب سنة ١١٦٣ ﻫ فولد فيها صاحب الترجمة ، ساح فى بلاد العرب عدة سياحات فمدح أمراءها ولا سيما خزعل خان شيخ المحمرة وفاز بعطاياهم الوافرة .

وقد كتب بقلمه تاريخ نشأته فقال :

« نشأت فى حلب الشهباء فى وسط كله تعصب وجهل ، ومن حسن حظى أن بيتنا فى حلب كان فى شارع أكثر أهله عرب مسلمون يدعى " قسطل المشط " فكنت أجد من حسن معاملة العرب المسلمين لأهلى ورعايتهم لجوارنا غير ما كنت أسمع من النفرة منهم من أفواه عشرائى المسيحيين ،فشببت وأنا على غير رأيهم فى هذه الأمة الكريمة ، ثم عندما اتسعت مداركى صرت أعرف وأعتقد أن هؤلاء المسلمين العرب الذين يجاورونا ونجاورهم هم شركاؤنا فى الوطن ومشتركون معنا فى منافعه ومضاره ، وفوق هذا فإن بيننا وبينهم صلة قربى بلحم ودم ،لأن المسلمين عندما دخلوا سورية كان أهلها مسيحيين ويهوداً ومجوساً فأسلم منهم من أسلم وبقى على دينه من بقى ، وربما انقسمت العائلة الواحدة إلى مسلمين وغير مسلمين . . وهكذا أصبحت متعصباً للعرب أعدّ نفسى واحداً منهم ، يسرنى ما يسرهم ، ويسيئنى ما يسيئهم . وبصفتى واحداً منهم بات همى أن أعتنى بمصلحتهم ، وتوفقت إلى أصدقاء منهم أهل علم وسياسة متعصبين للعرب ، يرمون إلى استعادة مجدهم ،فتربيت على أيديهم وعلى رأسهم أستاذى المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى الشهير .

ولخدمة العرب أنشأت مجلتى " الشذور " فى حلب سنة ١٨٩٧ – ١٨٩٨ فحاربتنى الحكومة ، فهجرت وطنى وأتيت مصر وأنشأت جريدتى الشهباء ،

ثم حولتها إلى اسم "العمران" وتبعني إلى دار هجرتي أستاذي الفيلسوف الكواكبي سنة ١٨٩٩ فلذت به وقضيت في صحبته كل المدة التي أقامها في مصر إلى أن استأثرت رحمة الله تعالى بنفسه الطاهرة في سنة ١٩٠٢ فأخذت على عاتقي الضعيف استئناف الجهاد في سبيل العرب الذي كان يجاهده وأنا في خدمته »[١] .

ويشير قسطاكي الحمصي إلى نشأته الأدبية فيقول :

« درس مبادئ العربية في حلب وأقدم على صناعة القلم منذ حداثته ، وهو لا يملك منها غير الاسم ، وقرض الشعر وهو لا يعلم موازينه إلا ما تزنه أذنه ، وما هي إلا سنوات حتى دانت له صناعة القلم فكتب ونظم ، وأقبل على المطالعة حتى وقف على تاريخ العرب ومعتقداتهم في الجاهلية ، ووعى تاريخ الإسلام ومذاهبهم وما قاله علماؤهم وفقهاؤهم ، ثم حول صحيفة "العمران" إلى مجلة كان يبعث بها إلى أقاصي بلاد العرب والإسلام في الهند والصين وخليج العجم ، ومال فيها إلى رأي الشيعة »[٢] .

* * *

كان عبد المسيح الأنطاكي ذا طموح ، وقد ضاقت به بيئته فنزح إلى مصر ، وقد كانت حلب ، كأكثر المدن العثمانية تئن من الجور الحميدي ، وتتطلع إلى جو دستوري تشيع الحرية في آفاقه ، وكانت مصر تنعم ، إلى حد ما ، بجو حر ، فاجتذبت الكثيرين من السوريين واللبنانيين الذين عملوا في الصحافة — وكان قد بدأ بها حياته الأدبية في حلب حين أصدر « الشذور » — فحذا حذوهم ، وما هي إلا سنوات حتى استطاع أن يكوّن له مركزاً في المحيط الصحفي ، وقد حرص أن يكون أدبه وسيلة للارتزاق وجمع الثروة لاعتقاده أن المال هو الذي يضفي على الإنسان مكاناً مرموقاً في المجتمع ، ومن شعره في هذا الصدد :

ولذة جمع المال لا شيء مثلها ... لدى كل حر قبلُ قد عالج الفقرا
وإن الذي يجني النضار فإنه ... جنى معه الإعزاز والجاه والقدرا

وكأنه أراد أن ينهج نهج بعض الشعراء القدامى الذين عاشوا في ظل الخلفاء ،

(١) « القصيدة العلوية » ص ٣٧ .
(٢) « أدباء حلب » ص ١٠٠ .

ورأى فى الأمير خزعل ، هذه الصورة العربية التى تتمثل فيه صور خلفاء المسلمين ، فربط حياته بحياته وقصر أكثر شعره على نشر محامده وفضائله .

* * *

من آثاره عدا مجلة « الشذور » التى أصدر منها عشرة أجزاء ومجلة « العمران » التى أصدر منها اثنى عشر مجلداً ، كتاب « نيل الأمانى فى الدستور العثمانى » و « النهضة الشرقية » وهو كتاب لم يكمل(١) و « القصيدة العلوية المباركة » طبعت فى كتاب بلغت صفحاته السمائة صحيفة وعدد أبياتها ٥٥٩٥ بيتاً تناولت تاريخ حياة الإمام وما جرى له مع الخلفاء الراشدين ، وهى كما قال ناظمها : « أولى القصائد التى ظهرت فى الشعر العربى فكانت نسيجاً وحده . لأنى ما عرفت قصيدة عربية مثلها تناولت تاريخاً أو قصة فجاءت عليها من أولها إلى آخرها بقافية واحدة ووزن واحد . كما أنها أطول قصيدة فى لغة العرب على الإطلاق ، وقد قسمتها إلى فصول جعلت لكل فصل عنواناً يعين المطالع على إدراك مراميها واستقراء معانيها ، وهى تقسم إلى قسمين أولهما تاريخ أمير المؤمنين منذ ولادته إلى أن امتدت إليه يد الشقى ابن ملجم ، والثانى خصصته بمناقب وفضائل وحكم أمير المؤمنين . . »

إلى أن يقول :

« واتباعاً لأهل الغرب دعوتها " ملحمة " وهى أقرب الأسماء إليها . وذيلت هذه القصيدة المباركة بحواش كانت تاريخاً صميما لصدر الإسلام » .

ويحتفظ أحد أنسبائه فى حلب(٢) بهذه القصيدة الكبرى ، وقد اطلعت عليها وقرأت بعض مقاطعها ، وهى وإن لم تبلغ مبلغ الشعر الجيد إلا أنها تنم عن قريحة وقادة ، ولا سيما ، وقد كان الشعر فى زمنه لا يزال وثيق الصلة بشعر عصر الانحطاط ، وعلى كل فيمكن اعتبارها من الملاحم العربية فى عصرنا هذا .

ويفسر الأنطاكى معنى الملحمة بقوله :

أما لفظة « ملحمة » التى أطلقتها على هذه القصيدة المباركة اتباعاً

---

(١) جزيدة « العمران » ج ١٢ ص ٦٣٣ — ٦٥٧ .
(٢) السيد فيليب أنطاكى .

للمغاربة فمعناها اللغوى « الوقعة العظيمة » ولعلها مأخوذة من قولهم التحم القوم للقتال أى اشتبك بعضهم ببعض، أو ربما قصد المغاربة باسم « الملحمة » الذى أطلقوه على القصائد التى لا ذكر فيها للقتال أيضاً « الإحكام » من قولهم لحم الأمر أى أحكمه ،ومن هذين المعنيين أطلق القوم على المصطفى صلى الله عليه وسلم « نبى الملحمة » وقالوا فى تفسيره نبى القتال أو « نبى الإصلاح وتأليف الناس » ، ويصح أن نقول إن لفظة « الملحمة » مشتقة من قولهم ألحم فلان الشعر وحاكه أى نظمه وذلك لتشبيههم ببيت الشعر أو بالثوب المحوك ، ومن هذا اشتقت لفظة « الملحمات » التى أطلقوها على القصائد المعروفة المشهورة للفرزدق وجرير والأخطل وعبيد الراعى وذى الرمة والكميت والطرماح وأرادوا بها الإشارة إلى أن هذه القصائد كانت محكمة النظم، متآلفة الأجزاء ، حسنة السبك .

ومن شعره :

العرب

مقطع من ملحمته أو من القصيدة العلوية

سر فى الأعارب وانزل فى مغـــانيها   واشهدْ مــكارمَ باديهـــا وقاريهـــا
وصفْ فإن مجال الوصف ذو سعة   خـــلالها الزهر مع ســـامى مباديها

وبعد أن يصف جولته فى أرض الجزيرة من الشام إلى العراق إلى اليمن إلى تونس والجزائر ومراكش وما لقيه من إكرام وحسن وفادة يقول عن العرب :

وأمــــة خـــيرُ ما تسمى به عربٌ   إن رام تمجيدها يوما مسميهـــا
وأنفس حـــرة ما استعبدت وأبت   أن تستذل لغـــير الله باريهـــا
وهمـــة تنشدُ العليـــا وتطلبهـــا   ما الدهـــرُ يقعدها عنها ويُثنيها
وعيشة قد توختهـــا اشتراكيـــة   أجـــلى مظاهر أهليهـــا تآخيها

إلى أن يقول :

والعرب من قدم أسمى الورى حسباً   إذا رجعنـــا إلى تاريخ ماضيهـــا
ويَعربُ الجدّ من عليـــاه قد بدأت   تنمو وما زال رب العرش منميها

وفى الجزيرة قد كانت منازلها الـــ كبرى وطاب لهـــا قاسى تثويهـــا
مهامه أمحلت محـــلا وما خصبت إلا بمن قد أقاموا فى مواميهـــا
ما أنبتتْ شجراً ما أثمرت ثمـــراً لـــكن عقولا تناهت فى تساميهـــا
هى الجـــزيرة لا أرض تحاكيها إن كان مجد الأراضى فى أهاليها

وبعد أن يصف طبيعة الجزيرة العربية وصفاً دقيقاً يقول :

ومع خشونتها فى عيشها لطفتْ أخـــلاقها وسمت سمواً مباديهـــا
تنبيك آدابهـــا عنها وقد بقيت مرويـــة عبرةً كبرى لقاريهـــا
وتلك أشـــعارها فى جاهليتهـــا تطوى حضـــارتهـــا الغرا مطاويها
وإنمـــا الشعر تاريخ الأعارب قد أبقى لهـــا أبداً ذكرى معاليهـــا
منـــه عرفنـــا مغازيهـــا وهمتهـــا وكلّ ســـام عظيم من مآتيهـــا
كانت له دولةٌ فى العرب طائعهـــا قد استعزّ بها إذ ذلّ عاصيهـــا

* * *

أما شمائلهـــا الغـــرا التى بلغت بها الفخـــار فليس العد يحصيهـــا
فمن مـــكارم أخـــلاق إلى كرم إلى نفوس تناهت فى تعاليهـــا
إن عاهدت حفظتْ رغم الزمان عهو د الأصدقاء وبالأرواح تفديهـــا
أو إن أتتها العوافى فى حوائجها نالت كما تشتهى شتى أمانيهـــا
وضيفها لم يهبْ غـــدر الزمان به حتى ولو كان من أعدى أعاديهـــا
وعن شجاعتها حـــدث ولا حرجٌ إن الأســـود لتخشاها وتتقيهـــا
وحسبها أنهـــا للغـــير ما خضعت وطالما أخضعت قهراً مناويهـــا
وكم لها أحنت النـــاس الرقاب وما رقابهـــا قط للأغيـــار تحنيهـــا
سادت وصالت وأبقت من مفاخرها أوابدا ليس كرّ الدهر ماحيهـــا
كانت لعمرك تأبى أن تعيش على هون وأن تتصافى مع مهينيهـــا
يثـــور ثائرها إن نال واحـــدها ســـوءٌ وكان الذى يؤذيه يؤذيهـــا
فإن يصح « وانصيراه » رأى أســـداً سلّت لقهر أعاديـــه مواضيهـــا
تضامن بين أفـــراد القبيـــلة لا يبقى على الضيم فرداً من مواليهـــا
ومنـــذ نشأتهـــا امتـــازت معيشتها عن البرية وحشيها وحضريهـــا

بالاشتراكيـــة الـــكبرى فلا رتبٌ   تنبئ ذوى الجاه منها عن أدانيهـــا
ولا ضخـــامة ألقـــاب تميز من   بين الأعارب علويهـــا وسفليهـــا
وأن أحـــكامها شـــورى يصيخ لها   شـــيوخها إذ تنـــادى مستشاريها
شـــورى إليها انتهت من جاهليتها   تالله قد تخذتهـــا عن قريشيها
والله أنـــزل فى القرآن آيتهـــا الـــ   غرا لـــتردع عنهـــا مستبديهـــا

الأب جرجس منش

١٨٧٥ — ١٩٢٧

عرفت حلب غير واحد من أحبار المسيحيين انصرفوا إلى العربية يدرسونها ويقضون العمر فى قيد شواردها وحفظ مأثوراتها وروائعها إلى أن ملكوا قيادها فكتبوا ونظموا وألّفوا . . .

وكما عاشت العربية معززةً مكرمة فى الجوامع والمدارس ، فقد عاشت نفس هذا الإعزاز والتكريم ، فى الأديرة والكنائس . . . ولا سيما فى لبنان . . .

وكان حظ حلب غير قليل من هذا الولع والهيام فأنبتت غير واحد من الفطاحل كان رائدهم المطران جرمانوس فرحات الأديب ، الشاعر ، اللغوى صاحب كتاب « بحث المطالب » و « الأجوبة الجلية فى الأصول النحوية » وغيرهما من الكتب(١) . . . وظلّ ولا يزال الرائد الأول للكثيرين يحذون حذوه وينهجون نهجه فى دراسة العربية التى انتهت بهم إلى حبها وعشقها فكتبوا ونظموا وكان ممن عرفت فى الثلاثينات من هذا القرن الخور فسقفوس جرجس منش ، وهو شاعر أديب اجتذبته أبحاث التاريخ فكتب سلسلة من المقالات ، ولا سيما

---

(١) يقول مارون عبود فى كتابه رواد النهضة الحديثة ص ٣٤ :

« . . إن لهذا الأسقف المولود فى القرن السابع عشر ، فضل التأليف فى النحو ، فهو أول نصرانى ألف فيه . بعد ما أخذ هذا العلم عن الشيخ سليمان النحوى المسلم فى حلب . وله أيضاً فضل أكبر وأعم إذ صحح الترجمة العربية للمزامير والأناجيل ، وسائر كتب الموارنة الكنائسية ، فعرفت الكنيسة فصاحته العربية ، وحب المطران العربية حمله على تعريب الإنجيل مسجوعاً ، وهذا التعريب محفوظ حتى الآن بمكتبة حلب المارونية . ولم يقف المطران عند حد التأليف فى النحو بل تصدى ، قبل كل رجال النهضة الحاضرة ، إلى وضع معجم صغير ، ولكنه صحيح ، سماه "الإعراب على لسان الأعراب" .

له مائة وأربعة كتب ، بين مؤلف ومعرب ومصحح ومختصر ، بعضها أدبى ولغوى وشعرى ، وأكثرها دينى على هدى ذلك الزمان » .

ويقول عن شعره بعد أن يأخذ عليه الكثير من المآخذ : « إذا ما غفرنا له كل هذه الهفوات فما هذا بكثير منا ، فهو أول شاعر من ملة قيلت لأجلها هذه الكلمة : "أبت العربية أن تتنصر" ، ولكن شاعرنا الأول نصرها ، وجعلها سيدة فى الكنيسة ، أجلسها عن يمين مذبح البخور فحلت محل السريانية التى أجهز عليها سيادته » .

عن تاريخ حلب في عهد الآراميين والحيثيين والدولة السلوقية والرومان والعرب . وكانت الظواهر الأدبية ولغات هذه الأمم تثيره فيسهب الحديث عنها حديث العالم المتمكن من بحثه ، وإتقانه أكثر من لغة شرقية وغربية هي التي دفعته أن يدعم أبحاثه بالمستندات . . .

ففي حديثه عن غزو إسكندر المقدوني مدينة حلب وإقبال الحلبيين على اللغة اليونانية وهجرهم الآرامية ثم تغلب العربية عليهما يقول :

« . . . ما كاد إسكندر المقدوني الكبير يعبر بجيشه الظافر مضايق جبال طوروس ويجتاز سورية الشمالية فاتحاً غازياً حتى نزل على حلب طارئة يونانية ترجمت اسمها السامي "بخالب أو خالبون" ودعتها بلغتها أيضاً "بيريا أو بيروّ" لما بينها وبين بيريا أو بيرية التي في مقدونية ، وهي الآن " فارية " في ولاية سلانيك — من أوجه الشبه في الماء والهواء وشكل البناء والعمران ، وسمّت نهرها فويق "خايس" على ما رواه كزينوفون اليوناني ، وطفقت هذه الجالية تزاول فنون التجارة مزاحمة السكان الآراميين على مرافق الحياة وأسباب المعايش فسارت حلب شوطاً بعيداً من الرقي والحضارة ، مغالبة ما حولها من البلدان كإرفاد وفورش وقنسرين وهيرابولي "جرابلس" وسواها حتى غلبتها وانفردت هي بسعة تجارتها وكثرة مرافقها . . .

« ووطّدت تلك الطارئة قدمها وسلطتها بنشر لغتها ومدنيتها ومعبوداتها شأن الغزاة الفاتحين ، فأقبل الحلبيون على الآداب اليونانية بما طبعوا عليه من الذكاء وحدة الذهن تحبباً إلى الأسياد اليونان وتقرباً منهم لنيل وظائف الدولة أو لترويج أسباب التجارة أو الصناعة والفنون ، فكانت اليونانية لغة الأعيان ورجال الدولة وشاعت في المعاملات الرسمية وفي الألعاب وعلى مسارح التمثيل وعمّت عبادة معبوداتها كعبادة جوبيتر والمشترى أبي الآلهة وعطارد ، وهو إله اللصوص على ما في الخط الذي كان معلقاً على باب أنطاكية ، وما الطالع الوارد فيه : (الدر المنتخب ص ١٩) إلاّ إله البخت أو الحظ في الميثولوجيا اليونانية ، ولا يزال على حائط باب النصر إلى الآن كتابة يونانية مشوهة يذكر فيها "أرتميس وكاليكتي" والمراد بهما أرتاميذيوس وكالستي وكلاهما من معبودات حلب على عهد اليونان على

ما رواه كاروليدى أفندى فى كتابه " أصل الروم الأرثوذكس بسورية " » .

ثم يقول :

« ونشطت إذ ذاك الآداب والفنون اليونانية وراجت سوقها فى حلب حتى إن توادوريط العلامة الشهير الذى كان يكثر من الحركة والتنقل قد كان يتردد على أنطاكية وحلب ويؤثر أن يلقى فيهما خطبه المجمعة ومواعظه البليغة . أما أنطاكية فلأنها مسقط رأسه ، وأما حلب فلأن أهلها كانوا يقبلون على سماع خطبه ومراشده بسرور ولذة . وهو كان ، فيما حكاه فى "رسالته ٧٥" ، يجيد ما شاءت الإجادة فى فنون الخطابة إلقاءً وإيماءً فتجرى الفصاحة بين شفتيه ولهاته ، وتتدفق سيول الحكمة على لسانه وفؤاده ، وبالتالى إنه كان يرغب أن يخطب فى حلب وأنطاكية لاعتقاده الراسخ بأن سامعيه فى هاتين المدينتين كانوا يفهمون خطبه ومواعظه اليونانية ويقدرون ما كانت عليه من البلاغة السامية ، وهو كان لا يقل عن باسيليوس وفم الذهب علماً ومقاماً لولا مدافعته عن صديق نسطور ومقاومته القديس كيرلس بطل الإيمان وارتداده عن رأيه فى المجمع الخلقيدونى . ولما منع "الوليد" كتّاب النصارى من أن يكتبوا دفاتر دوائر الحكومة بالرومية لكن بالعربية (مختصر الدول ص ١٩٥) أصيبت الآداب اليونانية ، بضربة قاضية فى مطلع القرن الثامن للميلاد أخذت معها فى حلب بالتقهقر والانحطاط حتى إنه لم يبقَ فى القرن الحادى عشر من يحسن فهم اليونانية (مجلة الآثار ٣ : ٢٩٦) ولم تترك هذه اللغة من آثارها إلاّ بعض أسطر بل بعض كلمات لا شأن لها اليوم ولا تستعمل إلا فى طقس الروم الكاثوليك وطقس الروم الأرثوذكس ، وسبحان مبدّل الأحوال وإليه عاقبة الأمور »[١] .

وكتب عدة بحوث عن الدولة الحمدانية وعن الحياة الأدبية فى ظلال أميرها سيف الدولة وخصّ بطولته بكثير من الإطراء ، وقد تتابعت مقالاته فى المجلات الكبرى فكتب فى المشرق والآثار والزهور وكوكب البرية ورسالة السلام وفى مجلة المجمع العلمى العربى لاسيما بعد أن انتخب عضواً مراسلاً للمجمع . . . وخصّ طائفته بكثير من الأبحاث الدينية ، فمن آثاره :

« المستطرفات فى حياة جرمانوس فرحات » ، و « التحفة الأدبية فى مجامع

---

(١) مجلة الشعلة السنة ٢ ج ١ ص ٢٠ – ٢٢ .

الموازنة » و « الطرفة الشهية فى الرهبانية الفرنسية » و « تقويم المطبعة المارونية » ورسالة فى « رحلة إلى جرابلس عاصمة الحيثيين » .

واعتبر جرمانوس فرحات النور الأول الذى أضاء طريقه وهداه سواء المحجة . ووصفه قسطاكى الحمصى بقوله :

« فاضل له من العلم قسط معروف ، ومن فن التاريخ سهم موصوف ، واسع الاطلاع ، كثير التنقيب ، جيّد الحفظ ، جميل الرقعة ، منمق الخط ، ولنا به معرفة قديمة ، وبيننا صحبة عهودها غير ذميمة »[١] .

مختارات من نثره :

حلب

تتوسّد حلب بسيطًا من الأرض كأنها من جهة هرمة توالت عليها طوارئ الحدثان وثقلت وطأة السنين ، ومن جهة أخرى حدثة أدركها الكلال فى سيرها الشاقّ الطويل ، فطاب لها المقيل فى بسيطها الأفيح وقفرها الواسع .

فهى مضجعة فى جوفها المطمئن إلى غياض ورياض وسهول خصبة قد خلعت عليها الطبيعة أجمل حلّة فحكت البسط السندسية . ويحيط بها رواب وهضبات قاحلة جرداء كغالب جبال سوريا ، ويجرى إلى جانبها نهر قويق فيسقى جنّاتها وبساتينها العديدة المشهورة . . .

وأول ما يشاهده الوافد عليها قلعتها الفخمة ومآذن جوامعها ومناور مساجدها وقباب كنائسها العظيمة فلا تبدو له المدينة إلاّ عن كثب فيراها متراصة متلاحقة بعضها ببعض حتّى يظن سطوحها واحدة وهذا ما تنفرد به عن سائر بلاد سورية .

وهى واقعة فى أطراف البرية مثل خميلة غناء أو جنة ناضرة يأنس بها المسافر فيرغب فى تفيّئ ظلالها والنزول عليها وقد أنهكه ما أصابه فى رحلته من الجهد

---

(١) أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر لقسطاكى الحمصى ص ١٧٦ .

والعياء فى تلك الصحارى القاحلة والفدافد الموحشة القاتمة التى تكثر فى هذه الجهات .

وقد حسنت حلب فى عزلتها وطابت فى مقامها عن سائر المدن بما توفر فيها من مآتى الحياة وكثرة المرافق ووفرة الخيرات الطيبة التى تمكنها من الصبر على المجاعة زمناً طويلاً بما يذكو حولها من الغلال ويسرح فى مراعيها من المواشى والسائمة وينبع فى جنَّاتها وحدائقها من أصناف الخضر والبقول والأثمار .

ويزيدها خطورة قيامها على مفرق الطرق بين سواحل سورية ونواحى بين النهرين وأطراف بلاد الأناضول ، والذى يتأملها يدرك لأول وهلة أن بُناتها قد جعلوها من أول أمرها وسطاً بين البلاد تؤمها القوافل وتحط فيها الرحال ، فلا يعجب إذا وجدها مدة قرون متوالية سوقاً حافلاً لمرافق آسيا الغربية ، ورائداً خطيراً للتجارة المشرقية على اختلاف أنواعها ١٩٢١ .

سيف الدولة

أى سيف الدولة :

وليتَ حلب فكنت سيفها المشحوذ تذود عن حماها وتدرأ عن حيازتها عاديات الليالى ، فكان طالعك عليها ميموناً مسعوداً فاستطالت بك عزاً وزادت رقياً ونجاحاً .

إليك انتهت الإمارة ، وفى سمائها طلعت بدراً منيراً فكسفت أنوار البيت الحمدانى من قبلك ومن بعدك ، فكنت عماده الأكبر الذى تجمّعت فيه المحامد ، وبسطت له المعالى . وانقادت إليه أعنّة الأيام .

تحدّرت من بيت عز فما أبطرتك نعماه السابقة ، ولا أخذت لبّك زخارف الحياة الدنيا ، بل ربيت على أدب النفس ، ونشأت على أدب الدرس ، حتى جاء منك شاعر عالم يفاخر الشعر بأنك أميره وعماده العظيم .

بين يدك حطّت الآداب رحالها فاجتمعت إليك حملة ألويتها وأعلامها العلماء والأدباء والشعراء من أطراف البلاد فكان مجلسك عكاظ الأدب والبيان .

ومنتجع العلم والمساجلة يتردد صداه على تراخى الأجيال والأحقاب . . .

وكفى أن يكون مؤدبك ابن خالويه وشاعرك المتنبى المشهور وكاتبك الأمير كشاجم وخطيبك ابن نباتة وقائدك ابن عمك أبو فراس ، ومن جلسائك النامى والوأواء وأبو على الفارسى ، وشتان بين المقربين منك والمحيطين بأمثالك من من بعدك .

لقد غزوت فانتصرت ، وحاربت فقهرت عدوك ، حتى وصفت بمعتنق الفوارس والوغى ، فجمعت إلى مجد الأدب مجد السيف ، وإلى عز الدولة عز العلم . وقلما ائتلف المجدان ، واجتمع العزان المفترقان فى مجد واحد . . .

ولما فاجأك عداك فى قعر دارك قاتلت فى خفّ من غلمانك قتال المستميت المتهالك عن حوزة الوطن وعن ذمار الإمارة ، فكنت عظيماً فى انكسارك ، كما كنت عظيماً فى انتصارك وسائر أحوالك . . .

وكأنى أسمع ابن نباتة يحضّ الناس على نصرتك بقوله فى الموتى :

« . . . كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعدّوا فى الأحياء مرة . أسكتهم الله الذى أنطقهم ، وسيجددهم كما خلقهم يوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً » مما يلقى فى الروع أشدّ الحماسة والإقدام .

من غبار الجهاد أو غبار المعارك جمعت شيئاً كثيراً صيرته فيما قيل لبنة قدر راحة الكف ، وأوصيت أن توسّد إليها فى غيابة القبر، فتعيد عليك ثمة ذكرى غاراتك وغزواتك ومجد فتوحاتك وانتصاراتك على تعاقب الليالى والأيام .

أما قلت فى شعرك : إنك وهبت العلياء لأخيك ناصر الدولة ، ومالك عنها نكول ، وتجاوزت عن حقك فيها إليه ورضيت على قدرك أن تكون مصلياً وأن يكون الناصر مجلياً ، دلالة على ما عرفت به من حميد الأخلاق .

فلله أنت . . . ولله أخلاقك .

سلام على عصر نشأت به .

سلام على وطن محبوب عمّرته بآثارك وأمجادك .

سلام على لحد ضمّ رفاتك فى ميافارقين وهى عظام فى التراب — عظام إلى يوم البعث والدين » .

محمد كرد على

١٨٧٦ — ١٩٥٣

علاّمة الشام وباعث نهضتها ورئيس مجمعها العلمى .

صحفى ، أديب ، مؤرخ .

ولد فى دمشق عام ١٨٧٦ .

يرجع أصله إلى العرق الآرى ، يقول : « جاء جدى من مدينة السليمانية من بلاد الأكراد (شمالى العراق) وسكن دمشق قبل نحو ١٥٠ سنة ، وأمى شركسية ، فأنا على رغم من آمن وكفر من جنس آرى لا يقبل النزاع ، وليس للغربى ولا للشرقى مما يقول فى دمى »[1] .

وقد استطاعت دمشق الشام أن تصهره فى بيئتها العربية ، فنشأ على حب العرب والدفاع عن خصائصهم وحضارتهم والردّ على الشعوبيين الذين نالوا من العرب قديماً وحديثاً ، وله فى هذا المجال ، مقالات ومباحث كثيرة .

كوّن نفسه بنفسه عن طريق المطالعة والدرس ، وتتلمذ على الشيخ طاهر الجزائرى ، وهو من الأعلام ، فأفاد من علمه وفضله كثيراً .

* * *

حين بلغ العقد الثانى من عمره بدأ حياته الفكرية بمزاولة الصحافة ، وقد لقى المتاعب والأهوال من جراء نزعاته الإصلاحية ومقاومته استبداد الحاكمين ، فهرب من دمشق إلى مصر والتقى بمفكريها وأحرارها ، وحضر دروس الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وزاول مهنة الصحافة فاشترك فى تحرير مجلة « المقتطف » وفى جريدة « المؤيد » أكبر الجرائد المصرية آنذاك ، وفى جريدة « الظاهر » ، ثم أسس مجلة شهرية باسم « المقتبس » .

وفى عام ١٩٠٨ ، أى حين إعلان الدستور العثمانى ، عاد إلى دمشق ليستأنف جهاده الصحفى فأصدر ، بالإضافة إلى مجلة « المقتبس » ، جريدة

---

(١) « المذكرات » ج ١ ص ٥ .

يومية باسم « المقتبس » أيضاً ،وظلّ فترة طويلة يحررها ويكتب مقالها الرئيسى إلى قبيل الحرب العالمية الكبرى ، ثم تخلى عنها إلى أخيه أحمد كرد على .

وفى سنة ١٩١٦ تولى رياسة تحرير جريدة « الشرق » التى أصدرها السفّاح أحمد جمال باشا ، لتكون لسان حاله فى الحرب العالمية ، وشاركه فى تحريرها الأمير شكيب أرسلان ، والشيخ عبد القادر المغربى ، والشيخ بدر الدين النعسانى ،وظلت طوال الحرب حتى دخول الحلفاء أرض سورية سنة ١٩١٨ .

عقب نزوح الأتراك من سورية سافر إلى الآستانة ، ثم عاد إلى دمشق سنة ١٩١٩ . وفى هذه السنة ، أى فى عهد الملك فيصل تأسس المجمع العلمى العربى ، وكان الأستاذ كرد على فى طليعة الداعين إلى تأسيسه . فانتخب ، فى عام ١٩٢٠ ، رئيساً له ، وبقى فى رياسة المجمع حتى آخر يوم من حياته .

تقلّد منصب وزارة المعارف ، فى عهد الانتداب الإفرنسى ، أكثر من مرة ، وكان طوال عهد وزارته أداة لرفع مستوى التعليم وتعزيز دراسة اللغة العربية .

وفى عام ١٩٣٣ انتخب عضواً فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

* * *

عاش محمد كرد على فى محيط ران عليه الجمود ، وكان التعليم فى مرحلته الأولى ، والتركية هى لغة الدولة ، والسيطرة لآل عثمان ، وقد رأى ، بعد أن عبّ من الثقافة الإسلامية أصفى قطراتها وأشرب قلبه حب العرب والعربية — رأى أن لا مناص لكى تستعيد الأمة العربية سالف مجدها من أن تكب على التعليم ، فدعا إليه بحرارة ، وحارب الطغيان والفساد ، ولقى من ولاة الأتراك — الذين يكرهون العرب — لقى فى سبيل دعوته الكثير من العنت والأذى .

يقول فى مذكراته :

« وسياسة الترك مع العرب فى معظم أدوار التاريخ نمط واحد ، وهى أن لا يعترفوا للعرب بشىء من الحقوق ، لئلا يرفعوا رءوسهم أمام غالبيهم وسادتهم ، وكان كل إنسان يطلب إصلاحاً فى أرجاء هذا الملك الواسع ، سواء أكان تركيا أم من عنصر آخر من عناصر الدولة ، يعامل أسوأ معاملة ، ينفى ويسجن ،

ويصادر ويقتل هو ومن يقول قوله ، ويقوّلون عليه الأقاويل ، وأقل ما يتهمونه به أنه مارق من الدين ، يدّعي النبوة ، ويقول بإباحة النساء وشرب الخمر إلى آخر أكاذيبهم »[١] .

في هذا الجو المظلم المليء بالدس والجهل والفساد وكره العرب عاش محمد كرد علي . وبديهي ، وهو شاب متحمس لوطنه ولغته أن تثور في نفسه الأحاسيس وأن يجرد قلمه لمقاومة هذه التيارات التي جرّت عليه ، كما قلنا ، الكثير من المحن . وقد أفاد كل الإفادة من ألوان الحياة المريرة التي واجهها في فجر شبابه فتكوّنت شخصيته تكويناً قوياً ، ولا شيء ينضج الإنسان ، والأديب بصورة خاصة ، كالاضطهاد الذي يواجهه نتيجة لكفاحه في سبيل الحرية .

* *

بعد أن أدّى واجبه الصحفي نحو وطنه شعر من الأعماق أن عليه رسالة واجبة الأداء نحو العرب أجمع ، فانصرف ، بعد أن أصبح رئيساً للمجمع العلمي العربي — انصرف انصرافاً كلياً إلى الدراسات الأدبية والتاريخية ، وظفر العالم العربي بمجموعة ضخمة من الكتب في شتى نواحي المعرفة ، كتب « خطط الشام » وهو في ستة أجزاء و « الإسلام والحضارة العربية » و « أمراء البيان » و « أقوالنا وأفعالنا » و « القديم والحديث » و « غرائب الغرب » و « غوطة دمشق » و « دمشق مدينة السحر والشعر » و « كنوز الأجداد » عدا الكتب التي نشرها وحققها . . وأشهرها سيرة أحمد بن طولون للبلوى ، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ، والأشربة لابن قتيبة ، ورسائل البلغاء ، وترجم تاريخ الحضارة لشارل سنبوس . . .

ويشعر قارئ هذه الكتب أن الأستاذ كرد علي قد اضطلع بمهمة تأريخ الثقافة الإسلامية تأريخاً صادقاً ، وكان في تحقيقه مثال المؤرخ النزيه ، المتجرد ، وكان يدعم آراءه بنصوص لأكابر مؤرخي الغرب وعلمائه المنصفين الذين درسوا أزهى عصور الحضارة العربية فكتبوا عنها المطولات .

وقبيل وفاته كتب « المذكرات » وقد دوّن فيها الكثير من هواجسه وخواطره

---

(١) « المذكرات » ج ١ ص ٦٧ .

عمن عرفهم من الساسة والكتاب والشعراء ومختلف أنماط الرجال ، وعن الحياة بشتى ظواهرها ، فابتعد عن نهجه كمؤرخ ، وارتدى ثوب الأديب المنطلق . . وقد عبرّ عن هذا الانطلاق بقوله :

« أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرها ، وكرعت خمرها وخلها — أن أهزل أحياناً ، وأسخر أحياناً ، وأضحك أحياناً ، وأبكى أحياناً ، لأن نفسى سئمت التزام الجد ، وتبرّمت من الاضطراب فيه زمناً طويلا ، وطبيعتى تعصى علىّ العيش الرتيب »[١] .

* * *

عاش محمد كرد على حياته مع الكتب ، ومع مؤلفى الثقافة الإسلامية بصورة خاصة وقد وصف الأستاذ جبرى هذه الظاهرة من حياته بقوله :

« ليت الشباب من كتابنا رزقوا من الولع بالكتب والعكوف على المطالعة والانقطاع إلى التأليف شيئاً مما رزقه أستاذنا الرئيس السيد محمد كرد على . فهو إذا خلا إلى نفسه فإنما يخلو إلى كتبه ، وإذا اعتزل دمشق إلى ريفه فى الغوطة فإنما يعتزلها ليصغى إلى أحاديث كتاب يجالسه إصغاءه إلى حفيف شجره وزقزقة طيره وثغاء غنمه وخوار بقره ، فما عرفنا فى عصرنا من غلبت عليه محبة القراءة وشغله الميل إلى التأليف مثل الأستاذ الرئيس فقد فتن بالكتب فتنة الجاحظ بها فى القديم ، فأفضت به هذه الفتنة إلى الإكثار من التأليف ، حتى اشتهر بوفرة الإنتاج »[٢] .

* * *

تميز أدب كرد على بالصفاء والوضوح ، وهو أدب مادته ، على الأكثر ، التاريخ الإسلامى بشتى صوره ، والحضارة العربية بأزهى ألوانها ، وقد قرأ ما كتبه القدامى قراءة فهم وتبصر ، — قرأ لأئمة البلاغة وأعلام الشعر فى جميع العصور الأدبية ، وكان لممارسته الصحافة فترة طويلة وقراءة ما كتبه أعلام الغرب فى

---

(١) « المذكرات » ج ١ ص ٤ .

(٢) « مجلة المجمع العلمى العربى » ٢٦ ج ٢ ص ٢٢٨ .

الأدب والتاريخ والسياسة — كان لكل ذلك أثره فى مرونة أسلوبه وقوة بيانه . . فما من فكرة لكاتب قديم أو حديث ، عربى أو غربى ، إلا ناقشها ومحصها وبحثها حتى إذا هضمها عرضها على قرائه بعد أن يكون قد ألبسها ثوباً زاهياً من جمال أسلوبه .

* * *

لقد أشار شفيق جبرى إلى هذا الأسلوب بقوله(١) :

« . . لقد اختمرت فى صدره أساليب بلغاء العرب وأمراء الكلام ، فالأسلوب الذى صوّر به جملة من تاريخنا وأخلاقنا وعاداتنا وطبائعنا واجتماعنا وأدبنا إنما هو خلاصة أساليب عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وابن عبد ربه من أئمة الأدب ، والغزالى وابن خلدون وأضرابهما من رجال الفلسفة والاجتماع والعمران . اختمرت أساليب هذه الطبقة فى ذهنه بعد ممارسة طويلة لمذاهب بيانهم وبعد إعمال الرويّة فى محاسن بلاغتهم ، وملء الفكر من روائع فنهم ولغتهم ، فنشأ عن هذا الاختمار أسلوب خاص بكرد على فيه آثار كثيرة من روح هذه الطبقة من البلغاء الذين عاشرهم وخالطهم كل حياته . وقد تناسقت هذه الآثار تناسقاً بديعاً ، وانسجمت انسجاماً غريباً بحيث تكاد تضيع علينا مصادرها ، فقد تجتمع فى بعض الأحيان فى أسلوب كرد على بلاغة الجاحظ وطبع ابن المقفع وسهولة الغزالى وابن خلدون فتلتحم هذه الأمور كلها التحاماً محكماً متقناً فلا تجد فيها إلا السهولة والبساطة . ومثلها فى ذلك كمثل الشعاع من الشمس ، فإنا إذا نظرنا إلى هذا الشعاع فلا نرى إلا لونه الأبيض ولكنا إذا رددناه إلى أصوله وفككنا أجزاءه اهتدينا إلى مختلف الألوان التى تؤلف الطيف الشمسى .

ولكن هذا البيان الرائع فى أكثره قد عملت فيه عوامل ثابتة غير الذى ذكرناه فلسنا نشك فى أن عناية كرد على بمطالعة كثير من كتب الفرنجة كان لها أثر كبير فى أسلوبه ، فقد أعطته هذه الكتب فى كثير من مواطن كلامه دقةً فى التعبير ووضوحاً فى التصوير ، فأضيفت هذه الخصائص إلى خصائص أعطته إياها كتب البلغاء من العرب فازداد رونقها وعظمت روعتها » .

---

(١) محاضرات عن محمد كرد على لشفيق جبرى . مطبعة الرسالة ص ١٠١ .

وبالرغم من ذلك يقول جبرى : « إن كرد على يرتفع فى بعض مواطن من كتاباته إلى منازل البلغاء المتقدمين ، ثم ينخفض إلى مراتب دون مراتبهم ، ثم تراه فى بعض الأحيان يساير الإخباريين فى الصحف الذين همّهم رواية الأخبار على أى وجه كان ، فليس له نمط واحد فى الإنشاء ، ولكنه إذا ارتفع فى إنشائه بلغ من البلاغة كل مكان »[١] .

ومن نثره :

الشعوبيون والمدنية العربية

أنكر بعض الشعوبيين من أعداء العرب فضل المدنية العربية على العالم فى زمن العنجهيات القومية — أنكروا ذلك لما ضعف سلطان العرب فى الأرض ، وسخروا مما يقول به المنصفون منهم متى عدّ ما أورثته العرب للإنسانية ، وزعموا أن المدنية الغربية هى المدنية ، وما عداها فخطوط غير مرسومة على ما يجب ، وإن كان ثمة ما يسمى مدنية فهى مدنية الفراعنة والآشوريين والبابليين واليونانيين والرومانيين ، ذلك لأن المدنية العربية لم تنشأ فيها تماثيل ولا نصب ، ولم تثبت لها كفاءة عظيمة فى النقش والتصوير . . وهم على شىء من الحق فى دعواهم ، ذلك لأن العرب لم يولعوا كثيراً بالمحسوسات ، وليس فى حضارتهم من هذه ما يعتدّ به كثيراً بالقياس مثلاً إلى ما خلفه الرومان ، وذهب الغرض ببعضهم إلى أن قالوا إن المدنية العربية لم تأت بغير الضرر مع أن الغرب لم يعرف الرومان واليونان إلا من طريق العرب : كلام مَن يغترّ بالقوة القاهرة ، ويحكم بالظواهر . مَن يعميه الهوى الجنسى والنزعات السياسية . فما دام القائل لم يحس المدنية العربية ولم ترها عينه ، فهى إذاً غير موجودة ولا وجدت! ومن يقول هذا من العبث أن نناقشه لنقنعه .

العرب لم يخلفوا آثاراً عظيمة كأهرام الفراعنة ، ولا قلاعاً ولا طرقاً وهيا كل من النوع الذى خلّفه الرومان . ذلك لأن شريعتهم حظرت السخرة ، وما أباحت

---

(١) نفس المصدر ص ١١٢

إشقاء إنسان لسعادة غيره ، والرقيق الذى قام بيده معظم ما تراه من مصانع الأمم البائدة ، كان يعامل فى الإسلام معاملة الحر برحمة وشفقة ، حتى كان المولى يعد من أهل البيت الذى استرقه ؛ ودولة العرب لم تطل أيامها كما طالت أيام الفراعنة والعمالقة وعاد وثمود ويونان ؛ ولو عرف الناقدون هذا ، وقدروا الأمور فى موازين القسط ، لما وسعهم إلا الإعجاب بما تم فى زمن قليل من نهضة العرب ، ومن لا يقيس الأمور بمقياس الماديات لا يتحرّج من الاعتراف بأن العرب تجافوا كل التجافى عن إرهاق أحد ؛ فكانت مدنيتّهم شعبية ديموقراطية ؛ بعيدة ما أمكن عن منازع الزعامات الأرستوقراطية ، وكان من نتائج تعاليمها ؛ ومنها إكراه الأغنياء على إخراج زكاة أموالهم للفقراء ، إذا لم ينزلوا عن جزء منها برضاهم ، أن لم يعهد فى العرب اشتراكية ولا فوضوية ولا عدمية ، ولا ممولون كممولى الغرب يعملون الحرب ويعقدون الصلح ؛ ولا احتكارات كاحتكارات الغرب فى الصنائع والتجارة ، ولا هذا الشقاء الذى عم وطم ؛ وأهلك الحرث والنسل ، وقصاراه إفقار جماعات وإغناء أفراد[1] ؛

الأسلوب العربى فى هذا العصر

قضت هذه اللغة فى الإسلام نحو نصف حياتها فى استعمال الأسجاع والجناسات فأوشكت أن تضيع رشاقتها بهذه البدعة فى نسج كلامها ، وما زالت تهوى فتفسد ملكتها وتخرج عن طبيعتها حتى قيض لها آخر القرن الماضى من نشلها من سقطتها وعاد بها سيرتها الأولى من ترك التكلف والرجوع إلى الطبع . ورحنا نشهد كتابتها أشبه بكتابة القرن الرابع ، ونرى شعراءها ينحون مناحى شعراء الحضارة فى العصر العباسى الأول والثانى ، ومن قرأ مقالة مما تنشره الصحف والمجلات أو فصلاً من تأليف حديث صدر من قلم رجل درس العربية دراسة نظامية أو قصيدة من قصائد المعاصرين ، يدرك بأدنى تأمل كيف أخذ الكتاب والشعراء يحسنون رصف البليغ ويقدّرون الألفاظ بقدر المعانى ، وكانوا

(١) « مصادر الثقافة العربية وتأثيرها فى الحضارة الحديثة » ص ٩٨ — ٩٩ .

إلى عهد قريب يصفون الألفاظ صفاً لا ينم عن ذوق ، ويكثرون من المترادفات ليتألف معهم السجع والازدواج وتستقيم القافية والوزن . أى أن اللغة أضحت فى النصف الثانى من القرن الأخير ورأس مالها ألفاظ لا يعرف مالكوها كيف يتصرفون بها . والألفاظ مهما تنوق فى اختيارها لا تبرز فى قالب مقبول إلا بجودة التركيب ، فالبلاغة فى التركيب والفصاحة فى تخير الألفاظ . ومهما حاول الكاتب إحكام القوالب لا يكون إلا إلى التفاهة إذا كان المعنى فى ذاته مبتذلاً مطروقاً . والمعانى كما قال العارفون صوت العقل ، واللفظ صوغ اللسان[1] .

يا نفس

يا نفس لا تغضبى ولا تعتبى ، فقد عمرت طويلاً ومتعت كثيراً ، وفتنت بجمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخلاّن والمعارف ، وسعدت إذ كنت أقرب إلى التفاؤل من التشاؤم ، وإلى الرجاء أدنى من القنوط ، وإلى السرور أكثر من الغم ، وعشت فى سلطان الرضا طيبة الطعمة لا يد لأحد عندك .

* * *

هان عليك ما أنفقت فى الضئيل من المعرفة التى كتب لك تحصيلها ، وكان استغراقك ساعة واحدة فيما ولعت به ، يوازى فى نظرك أكثر المسرات والشهوات .

* * *

درجت على بغض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الأفكار على ثورة السلاح ، ودققت فى حساب يومك وغدك ، وأيقنت ألا مجد إلا من طريق المعرفة فأحرزت لك شهرة سعيت وراءها لأول أمرك ، فلما بلغت ما أربى على رجائك رحت تزهدين فيما صرت إليه ، وتندمين على فترات ضاعت سدى وإن أكسبتك مرانة ومعرفة ، وأفادتك عبرة وتجربة .

* * *

(١) من مقال عنوانه « فى الخدمة العربية » المذكرات ج ٤ ص ١٠٨٩ — ١٠٩٠ .

كان يلذك ما ينهال عليك من الضربات فى تأييد حق وتقويم مائل ، حتى صار ذلك فيك خلقاً وجبلة ، وما عبأت بمن كانوا يحاولون التسلق إلى الشهرة بالحطّ منك ، وكنت تفرحين بما يتم إذا أسفر عن تحقيق شيء مما تتوهمين غناءه .

* * *

علّمتك الأيام التحلم وما كنت حليمة ، وزيّنت لك اللين وكنت جامحة ، وأخذت من حوادث الدهر دروساً فى الصبر والأناة بقدر ما سمح به مزاجك ، وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم فيه ، وما كلفت الأيام ضد طباعها ، وما أحببت أن يستثمرك أحد ، وقلما أتيت شيئاً وندمت عليه ، وما حزنت لرزية فى مال ولا جاه بقدر حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ، وبخاصة إذا كان ممن خدموا العقل بعقلهم ، وشادوا للفضل قصور العز من فضلهم ، وكنت تتخلّين عن أصحابك فى أفراحهم ولا تتركينهم فى أتراحهم كأنك من إخوان الضراء لا إخوان السراء ، إذا أقبلت الدنيا على الصاحب تبتعدين عنه ، وإن أدبرت تكثّرين من مؤاساته .

* * *

سخرت من المتّجرين بالوطنية ، وأنحيت على المتأكلين بالدين ، وعبثت بالواغلين على الأدب ، وعبت المدجلين بالعلم ، وعند نفسك أنك لم تتحاملى ولم تجاملى ، وأنك أنصفت من انتقدت . وما تعمدت أذى من زيفت كلامه ، وخالفك فى آرائه .

* * *

ومن يحاول تهجين المعتقدات ، والقضاء على الخرافات والترهات لا يطرب صوته كل سامع . أنت أردت أن يجرى طليقاً من القيود الثقيلة ، وأصحاب الأهواء حبيب إليهم الجمود على قديمهم ، والاكتفاء بما ورثوه من آبائهم وجدودهم وما خطر ببالهم أن يعملوا أفكارهم فى اقتباس الأصلح ، ولا أن يتعبوا أنفسهم فى إدراك ما لم يسبق لهم معاناته .

* * *

كرهت يا نفس التعصب والعصبية ، وحاربت الجهل والأمية ، وفضحت مذاهب الصوفية والباطنية ، ومقت الحزبية والجمعيات السرية ، وتفانيت فى الدعوة إلى الاستقلال وحب القومية ، ودعوت جهرة للعرب والعربية ، وللإسلام والمدنية الغربية . خطة واسعة لو اقتصرت فيها لخف ما حملته ، ولجاءت الثمرة أكثر جنًى وألذّ طعماً ؛ ولكن من الأمور ما لا تتجلى للبصائر أسراره لأول نظرة ، وللأيام والبيئات حكمها ، والغيب عنك مستور [1] .

---

(١) من مقال « فى عشر الثمانين » المذكرات — ٢ ص ٦٤٩ .

سليم الجندى

١٨٨٠ — ١٩٥٥

علم من أعلام اللغة العربية وجهبذ من جهابذتها ، قضى شطراً كبيراً من حياته فى تدريس الأدب العربى فأفاد منه تلامذته . وهم كثر . وبعضهم أدباء وشعراء — أفادوا جميعهم من معين ثقافته اللغوية فوائد جمة ، وحين يتحدثون عنه يتحدثون عن إمام مبرّز فى ميدان اللغة وفنون الأدب .

ولد سنة ١٢٩٨ هـ « ١٨٨٠ م » فى معرة النعمان . بلد أبى العلاء ، وقد عاش طفولته يستمع من أبيه وذويه أقاصيص عجيبة عن ذكاء الشاعر الفيلسوف ، فنشأ وفى نفسه حب الأدب . وحب هذا الإنسان الموهوب الذى ملأ الدنيا بفيض أدبه وشعاع عبقريته .

بعد أن أخذ بقسط وافر من علوم العربية انتقل مع أبيه من المعرة إلى دمشق فتوطّنها ، وهو فى أول العقد الثالث من عمره . . وفى دمشق اجتذبته حلقات علمائها الأعلام وشيوخها الأجلاء فتتلمذ عليهم ثم انصرف إلى نفسه يعيش بين كتب الأدب واللغة والمعاجم وما زال حتى ملك قياد اللغة وأصبح من المرموقين .

فى هذه الفترة — أى عقب الحرب العالمية الكبرى حين تأسست الحكومة العربية فى العهد الفيصلى — كانت لغة أكثر الموظفين الذين عاشوا فى العهد التركى ضعيفة تغلب عليها الركاكة والعجمة ، فأخذت الحكومة تبحث عن كتّاب يحسنون التعبير بلغة سليمة ليتولوا كتابة الرسائل الديوانية ، فوقع اختيارها على غير واحد من الأدباء الشباب كان بينهم سليم الجندى فشغل وظيفة منشئ فى ديوان الحاكم العام سنة ١٩١٨ ، وهى أولى الوظائف الحكومية التى عيّن فيها ، فجعل وكده تنقية لغة الديوان من العجمة وتقريبها ، إلى حد ما ، من لغة الدواوين فى العصر العباسى . وقد نيط به ، فى نفس الوقت ، التدريس فى « مدرسة الكتّاب والمنشئين » ، وهى مدرسة أحدثت لموظفى الحكومة بغية إصلاح لغتهم فقام بالمهمة خير قيام .

وصدرت ، بعد تقلّص الحكم العثمانى ، جرائد كثيرة أخذت تعبّر عن الأحاسيس العربية والشعور القومى ، وكان بعض الكتاب ما زالوا يستعملون تعابير واصطلاحات تنأى عن الأساليب العربية الصحيحة ، فأخذ يقوّم المعوجّ ويصحح الفاسد من لغة الجرائد بسلسلة مقالات جمعت فى كتيب ، وقد خالف فيها آراء كل من الجهبذين اللغويين الشيخ إبراهيم اليازجى وقسطاكى الحمصى .

وإذ ظهر فضله بما كان ينشره فى الصحف وعرف بشدة حرصه على لغة القرآن انتخب فى سنة ١٩٢٢ عضواً فى المجمع العلمى العربى ، وكانت تحيته لهذا التقدير خطاباً ألقاه فى الحفل الذى أقيم لاستقباله عنوانه « إنعاش اللغة » فرأى « أن خير وسيلة تضمن إنعاشها وسيرها مع مدنية العصر الحاضر أن تنتخ من شائبة العجمة والركاكة ، وألا يصار إلى الدخيل والعامى إلا عند العجز عما يرادفهما من الفصيح ، لأن التسامح فى استعمالها يفضى إلى إفساد اللغة»[١] . وكان الأستاذ محمد كرد على رئيس المجمع قد قدمه بخطاب مسهب ترجم فيه أطوار حياته . وأشار فى هذا الخطاب إلى تتلمذه على أبى العلاء فقال :

« . . إن صاحبنا لم يتخرّج فى الأدب إلاّ بأبى العلاء ، تدارس شعره منذ كان طفلاً ، إلى أن صار الآن فى الكهولة ، فأثر فيه أسلوبه ، وكانت مادته اللغوية مستمدة من تلك المادة المعرّية المنقحة ، وكان فى أكثر أيامه إذا اسودّت الدنيا فى عينه قلب صفحتين من كلامه فتعزّى وتأسى » [٢] .

وقد أشار هو إلى هذا بقوله : « إذ يجمع بيننا وحدة الدين والوطن والجنس . وقد نتّحد فى الهوى والنزعات كثيراً ، وقد تخرّجت به فى الشعر » .

وقد أصبح ، بعد انتخابه لعضوية المجمع — من الأعضاء العاملين فى إنجاح أغراضه . وبدأ يكتب فى مجلته خواطر نقدية تتعلق بصميم اللغة ، ثم عيّن مدرساً للعربية فى بعض المدارس الثانوية بدمشق ، وفى مدرسة الآداب العليا التى كانت نواة لكلية الآداب فألقى دروساً فى النحو « على مستوًى عالٍ من التعمق والتوسع » . ثم اقتصر على تدريس العربية فى تجهيز دمشق فأفادً منه

---

(١) « مجلة المجمع العلمى العربى » مجلد ٨ ج ١٢ ص ٧٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٧١٣ .

طلابه ، فوائد جمة . وما زال حتى سنة ١٩٤٠ حيث أحيل على التقاعد ، فعهد إليه بإدارة الكلية الشرعية وظلّ قائماً بها حتّى سنة ١٩٤٨ .

وصفه محام أديب تتلمذ عليه بقوله[١] :

« لم أدرك شيخنا سليم الجندى رحمه الله ، بعمامته ولحيته ، فقد قيل إنه اعتمر بالعمامة أول نشأته وكانت له لحية خفيفة ، ثم استغنى عنها . وإنما أدركته (أفنديًّا) يلبس الطربوش والبزة الإفرنجية ، ولقد بقى سليم الجندى شيخاً ، بكل المعانى التى عرفناها ، اللغوية والاصطلاحية ، فهذا اللقب عرفه العرب للجلة من العلماء الذين نشروا نور العلم ، فقالوا فى كتبهم : ومن مشايخنا ، وعرف عن مشايخنا ، وأخذنا عن مشايخنا . . . »

* * *

كان ربعة بين الرجال ، لا إلى الطويل ولا إلى القصير ، يمشى الهوينى ، خافت الصوت ، كثير الحذر ، يخاف الليل ، والبرد .

ولقد كان تاريخ آداب اللغة العربية المادة التى اختص فى تدريسها ، لقنها للطلاب أجيالاً متعاقبة ، بأسلوب رتيب ، لا يكاد يتغير ، ينضح منه العلم الغزير ، والحفظ الوفير ، والإحاطة بالغريب ، والعمق فى البحث ، واتساع الاطلاع ، فقد كان من أعلم علماء عصره بالكتب والرجال ، ولهذا كانت خاتمة درسه حافلة دوماً بثبت من الكتب ، يرشد الطلاب إليها ليرجعوا إلى ما فيها ، وليوسعوا دراساتهم فى البحث الذى كان يقرره .

ووصف أحد زملائه المجمعيين سجاياه الخلقية وآثاره الأدبية بقوله :

« كان لطيف المعاشرة ، ظريف التهكم ، حاضر النكتة ، بارع الحديث ، قوى الحجة ، جم التواضع ، نبيل الخلق ، وكان إلى ذلك نقادة للمجتمع والكتب ، لا يجيب سائله إلاّ بثبت ومراجعة ، فلا يلقى الكلام على عواهنه ، وهذا شأن العلماء المحققين » .

وقد تخرج عليه كثير من أدباء الشام وعلمائها ، وأحيا الكثير من شوارد

---

(١) الأستاذ ظافر القاسمى جريدة الأيام عدد ٢٩/١٠/١٩٦٢ .

ألفاظ العربية ، واستحدث مصطلحات فصيحة تشتدّ حاجة العصر الحاضر إليها . وكتب لكثير منها الذيوع والانتشار .

وأولع بأبي العلاء المعري وعكف على دراسة آثاره المعروفة كلها ، حتى أصبح حجة في فهم تصانيفه ، ولما أقام المجمع العلمي العربي مهرجان المعري لمناسبة مرور ألف سنة على مولده قام بتحقيق « رسالة الملائكة » لأبي العلاء عن مخطوطة وحيدة في العالم موجودة في دار الكتب الظاهرية ، وهذه الرسالة ثمينة جداً لا تقلّ عن « رسالة الغفران » في الكثير من خصائصها وشواردها .

ونشر كثيراً من الكتب التي قام بتأليفها وتحقيقها .

فمن الكتب التي حققها وصححها مع بعض إخوانه كتاب « معاني الشعر » لأبي عثمان الأشناندانى . .

وألّف عدة رسائل قيمة عن « النابغة الذبياني » و « امرئ القيس » و « علي ابن أبي طالب » و « ابن المقفع » . وعن « الكرم » و « الطرق » وكتاب « عدة الأديب » كما اشترك مع بعض أدباء الشام في تأليف سلاسل من الكتب اختاروها من عيون تراثنا الأدبي ككتب « الطرف » و « المستظهر » ، على أن كتبه التي لم تزل مخطوطة أكثر من التي نشرت ، ومن أجلّها كتابه في تاريخ المعرة[١] .

ونهجه في التأليف عدم الخروج عما كتبه القدماء وما أبدوه من آراء ، فإذا عرض إلى أديب أو شاعر بالدرس رجع إلى ما جاء في كتبنا القديمة فحشد كل ما كتب عنهما . وقد يفاضل بين رأي ورأي ، وقد ينقد ما جاء به عالم قديم ، فما يكاد ينقض رأيه حتى يعززه برأي آخر يأنس به ذوقه وتأنس به ثقافته اللغوية .

لقد مرّ الأدب العربي خلال الفترات التي أعقبت الحرب العالمية الكبرى بأطوار مختلفة ، وظهرت دراسات على جانب خطير من التحليل لأدبنا القديم ، فكان الأستاذ الجندي ينظر إليها نظرة الحذر غير المطمئن ، ويرى في المواد التي انتثرت في كتبنا القديمة المواد الأساسية لمن يريد أن يكتب أو يؤلف ، ووصل به التزمت والتمسك بالمنقول إلى درجة أنه « كان لا يستسيغ لنفسه أن يستعمل كلمة

---

(١) « مجلة المجمع العلمي العربي » المجلد ٣١ عدد ١ ص ٤٤ج .

« التطور » مثلاً أو « الفنان » أو « الإنتاج » الأدبي أو « التحليل » العلمي لأن مثل هذه الألفاظ في رأيه غير مروية عن العرب وفي غيرها غنية عنها(١) .

بهذا النهج كتب رسائله وكتبه ، وهي بمضمونها تصوره لنا شيخاً من شيوخ اللغة وأديباً واسع الاطلاع على أدبنا القديم ، عاش مع أئمة البلاغة وأساطين النحو طوال حياته فبلغ به الحب درجة الهوس . وقد أراد من تلامذته أن يسيروا سيره وأن ينهجوا نهجه فأفادوا من علمه وشذّ كثيرون عما ارتضاه لنفسه ففتحوا أذهانهم لثقافة الغرب ومناهجه يروون ظمأهم منها ويعبون من معينها فجاروا النزعات الجديدة وزاوجوا بين الطريقتين فلم يقفوا حيث أراد لهم أن يقفوا عند تخوم العربية دون أن يتخطّوها ، فإذا ذكروه ذكروا أستاذاً جليلاً ربط بينهم وبين لغتهم المقدسة التي أحبوها وأصبحوا أداة نشر روائعها — فكان فضله عليهم غير منكور . .

لقد كان سليم الجندى — في بداية نهضتنا الأدبية — لبنةً ضخمة في جدار الفصحى ، ومَنْ يقرأه يعش معه في أجواء عربية خالصة تبدأ من العصر الجاهلي وتنتهي بالعصر العباسي ، فهو أقرب إلى القدامى ، في أسلوبه ونهجه ، منه إلى الأدباء المحدثين .

* * *

وقد ترك بعد وفاته عدة كتب ورسائل لم تنشر ، أهمّها كتابه الضخم عن أبي العلاء وآخر عن معرة النعمان ، وقد نشرهما المجمع العلمي العربي بدمشق . أما كتابه عن أبي العلاء الذي تولى الدكتور عبد الهادي هاشم التعليق عليه والإشراف على طبعه فيعتبر أصدق مرجع لحياة أبي العلاء ، وكتبه ونزعاته وما كتب عنه في القديم والحديث . وهو وإن لم يكن دراسة منهجية فهو أشبه بموسوعة ضمّت كل ما يتصل به وبالآراء المتباينة حوله من محبيه وخصومه . .

ففي إلماعه إلى دراسة طه حسين امتدح نهجه ثم أخذ عليه بعض المآخذ ، فمن قوله بهذا الصدد :

« كتاب "ذكرى أبي العلاء" هو أفضل ما رأيته من الكتب التي تشتمل على

---

(١) « مجلة المجمع » محمد المبارك — المجلد ٣٧ ج ٢ ص ٣٥٢ .

دراسة أبي العلاء ، وأحسنها تقسيماً وترتيباً للمباحث ، وأجمعها للنواحي التي تجب دراستها من آثار الأديب ، وأكثرها استنباطاً للأحكام من كلام الشاعر والناثر . وقد جعل درس أبي العلاء في هذا الكتاب درساً لعصره ، واستنبط حياته مما أحاط به من المؤثرات ، واتخذ شخصية أبي العلاء مصدراً من مصادر البحث ، بعد أن وصل إلى تحقيقها وتعيينها .

والكتاب لا يخلو من أمور تنتقد على صاحبه منها : استنباطه من كلام أبي العلاء أحكاماً لا يدلّ عليها هذا الكلام ، ومنها بناؤه أحكاماً على شُبه واهية ، ومنها أنه إذا اعتقد في أبي العلاء شيئاً حاول أن يوجّه كلامه إلى ذلك الشيء ، وقد يظهر أثر التكلّف في ذلك . ونحو هذا من الأمور ، وقد بينا طرفاً منها في كتابنا هذا كما رأيت وكما سترى »[١] .

* * *

وليس بدعاً أن تختلف وجهة نظره عن وجهة نظر طه حسين في تفسير بعض شعر أبي العلاء ولكل واحد ثقافته ونهجه — نهج قديم متزّمت ونهج حديث منطلق — وبرغم هذا الاختلاف فقد اعتمد كل الاعتماد على آراء طه حسين وبحوثه التي اعتبرها أوفى ما كتب عن أبي العلاء . . — وهو الذي فتح أمام الباحثين الدراسات العلائية على منهج جديد .

وكتاب الجندي « الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره » — وهو في ألفي صفحة تقريباً أشبه بموسوعة عن حياة أبي العلاء ، وكتبه وشعره ونثره وفلسفته بحيث لم يترك كتاباً قديماً أو حديثاً إلا قرأه ولخصه وأبدى رأيه فيه فكان بحق من أوفى محبّي ابن بلدته الذي يعتبر بحق معجزة من مفاخر العقل العربي المتحرر .

---

(١) جـ ١ ص ٥٣٣ .

من بحوث الجندى :

نثر أبى العلاء

الشاعر أو الكاتب يستمدّ معانيه وأخيلته من فيض خاطره ، ومن وحى الطبيعة والبيئة التى تكتنفه ، ويحتذى أسلوبه على مثال الزمن الذى يُظلّه ، وإذا رزق حظًّا من العبقرية والنبوغ ، شقّ لنفسه طريقاً جديداً ، ولكنه لا يستطيع أن يتجرد من هذه المؤثرات ، ولا أن يبتعد عنها كل البعد ، مهما حاول ذلك .

وقد ترك أبو العلاء لنا آثاراً نثرية ، وآثاراً شعرية ، طبع فى كل منهما على غرار عصره ، واتخذ لنفسه فى كل منهما طريقاً طريفاً ، ومنهجاً مبتكراً . ولكنه لم يستطع أن يتجرّد عن تأثير البيئة والزمن ، فجاء أسلوبه جامعاً بين القديم المتّبع ، والحديث المبتدع ، وقد أردنا أن نبيّن طريقته ، ونذكر خصائصها . ونواحى التجديد فيها ، وما يتوقف على ذلك ، وما يتوقف ذلك عليه ، ليسهل على الدارس معرفتها بوضوح واختصار . ولما كان النثر مقدماً فى الوجود على النظم ، قدمنا الكلام فيه كما ترى .

* * *

ظهر أبو العلاء بعد منتصف القرن الرابع للهجرة ، وهو الزمن الذى انتهت فيه ترجمة علوم اليونان ، وحكم الهند ، وآداب الفرس ، ونضج فيه العقل العربى ، واستيقظت فيه أفكار الأمة ، وزخرت بحور العلم والأدب ، ونزع الكتاب والشعراء إلى الترف الأدبى ، والتنافس فى التأنق والزخرفة . حتى يكاد الإنسان يظن أن كل كتاب أو قصيدة معرض يبين فيه صاحبه ما لديه من براعة وقدرة ، ويظهر ما عنده من حذق ولباقة .

وكانت جمهرة الكتّاب فيه تسير فى صناعة الإنشاء على الطريقة التى ارتضاها أعلام الكتاب فى ذلك العهد كابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، وأبى بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، والصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وبديع الزمان أحمد بن الحسين الهمدانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

وأشباههم ، وإنما استعذبوا هذه الطريقة لما فيها من الطرافة والوشى والتنميق والأخيلة ، ولأنها كما قيل : شعر لا ينقصه إلاّ الوزن .

وقد حاول أبو العلاء أن يقتفى أثر هؤلاء ، ولكن غزارة علمه وحدّة ذهنه ، وسعة خياله ، اضطرته أن لا يتقيّد بهذه الطريقة من كل وجه ، وقد جشّم نفسه عناءً كبيراً ، وألزمها ما لا يلزمها من جراء ذلك .

وإليك بيان أسلوبه فى نثره ، وخصائصه، وما اشتمل عليه من الأغراض والمقاصد ، وما تضمّنه من الصناعات البديعية والمسائل العلمية وغيرها[١] . .

* * *

الخلاصة :

يسوغ لنا بعد ما تقدم أن نقول : إن أبا العلاء لم يقلد ابن المقفع ، ولا الجاحظ ، ولا ابن العميد فى نثره ، ولم يتقيّد بطريقة واحدة ، وإنما اختار طريقة تخيّر لها من كل طريقة ما أحب ، فطريقته جامعة لمعظم ما فى تلك الطرائق وقد تزيد عليها ، ويسوغ لنا أن نقول : إنه مجدّد فى نثره فى نواح متعددة ، كما ذكرنا ذلك فى مواضعه . .

عيوب نثره :

لا يكاد يجد الباحث فى نثره ما يعاب به ، إلا تكلف السجع ، واستعمال كثير من الكلمات التى يقل تداولها ، على أن السجع كان مرغوباً فيه فى ذلك العصر ، وإن كثيراً من الألفاظ التى نعدها اليوم غريبة بالنسبة إلينا لم يكن غريباً فى عصره ، ولو قدّر لنا الاطلاع على جميع نثره لرأينا فيه صنوفاً من الأدب الساحر ، والعلم الزاخر ، والبراعة الرائعة ، والخيال الخصيب .

---

(١) لم نثبت الشواهد التى أوردها الأستاذ الجندى ، وهى بحث مطول بلغت صفحاته قرابة المائة صفحة من كتابه « الجامع فى أخبار أبى العلاء وآثاره » ج ٢ ص ٨٠٦ ويمكن لمن يريد متابعة الموضوع الرجوع إليها .

الشيخ بدر الدين النعسانى

١٨٨١ — ١٩٤٣م

١٢٩٨ — ١٣٦٢ هـ

أديب زاخر المعرفة ، متمكن من أسرار اللغة العربية والغوص على دقائقها ..

ولد فى حلب سنة ١٢٩٨هـ — ١٨٨١ م ونشأ فى محيط لم يتسع لما آتاه الله من ذكاء وألمعية . فما كاد يبلغ العقد الثالث من عمره حتى سافر إلى مصر ينشد علوم اللغة والدين من الأزهر ، فأقام ثمانى سنين « ١٣١٠ — ١٣١٩هـ » انضمّ خلالها إلى حلقة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم قام برحلة إلى الهند سنة ١٣١٩هـ لم يلبث فيها ، فبعد أن مكث سنة ونصف سنة عاد إلى مصر ... وما كاد يتمّ دراسته فى الأزهر الشريف حتى التفت إلى تصحيح الكتب القديمة ، وإذ عرف بين أقرانه بقوة البيان وقدرته على التعبير عن النزعات الإصلاحية التفت إليه الشيخ على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » فضمه إلى أسرة التحرير . وكان من محرريها غير واحد من بلغاء الكتّاب فى طليعتهم الأساتذة أحمد حافظ عوض ، محمد مسعود ، محمد كرد على ، الشيخ عبد القادر المغربى ، سليم سركيس وغيرهم وغيرهم.

وكانت مقالاته فى النقد الاجتماعى تقوم على تطهير المجتمع من الأدران والأوشاب ، كما كان صاحب رسالة فى تنقية جوهر الدين من ضلالات الحشويين محتذياً فى نهجه رسالة الأستاذ الإمام .

وظلّ ، إلى عمله الصحفى ، يصحح الكتب القديمة ، وقد تهافت عليه الناشرون يعتمدونه فى تصحيح بعض الكتب قبل نشرها . وقد مكّنته هذه المهمة أن يقرأ الكثير من الذخائر وأن يعيد قراءتها أكثر من مرة حتى أصبح ، إلى ثقافته الأدبية ، من المبرزين فى فهم النصوص القديمة وشرحها . ومما صححه ونشره بعد أن شرح غريبه ديوان زهير ، وشواهد المفصّل للزمخشرى وذيله ، والمعلقات العشر ، والحيوان للجاحظ . وساعد فى تأليف « منجم العمران » وهو ذيل « معجم البلدان » . كما شرح مفضليات الضبى .

بعد أن مكث فى مصر بضع سنوات سافر إلى تونس والجزائر وطرابلس الغرب سنة ١٣٢٦ ﻫ وقد أحب تونس وظلّ مدة يدرّس ويكتب ، وكان موضع حفاوة التونسيين . . . وما زال حتى قبيل الحرب العالمية الكبرى حيث عاد إلى حلب وقد كلّف بتدريس الأدب العربى فى المدرسة السلطانية – التجهيز . ثم ناطت به الحكومة العثمانية تحرير جريدة « الشرق » التى كانت تنطق بلسان السفاح أحمد جمال باشا فاشترك مع محمد كرد على والأمير شكيب أرسلان والشيخ عبد القادر المغربى فى تحريرها ، ثم انتدب من قبل السفاح أيضاً لرياسة تحرير جريدة « الحجاز » التى أمر بإصدارها فى المدينة المنورة لتبرير سياسة الدولة العثمانية ضد الملك حسين ، وكانت افتتاحيات الجريدة تجريحاً لسياسته بعد ثورته الكبرى على الترك .

وكان النعسانى « عثمانى الهوى » ، وكان يرى فى ثورة الحسين مؤامرة إنكليزية للقضاء على الخلافة الإسلامية والسيطرة على البلاد العربية .

ومن قصيدة له فى مدح جمال باشا قوله :

لئن أكثر المدّاح فيك القصائدا فما بلغوا فى الألف من ذاك واحدا

ومنها :

رمى الله منك الإنكليز بصارم صقيل يقدّ الهندوانى عامدا
عثوا وأبوا إلا لقاءك فى الوغى أراهم بما راموه منك حصائدا
أقاموا على شطّ القنال معاقلاً ستبقى لهم يوم اللقاء مصائدا
قطعت إليهم بالجيوش مفاوزاً بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
لقد عزّ جيش كنت فيه رئيسه وعزّت جموع كنت فيهن رائدا
فلم أر مثل اليوم أرفع همـــة وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا
رأطهر أخلاقاً وأصفى سريرة وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفتُ على علياك فيض يراعتى ونفسى وفكرى والقوافى الشواردا

وبعد أن مكث ستة أشهر فى المدينة المنورة رجع إلى دمشق ليتابع عمله فى

تحرير جريدة « الشرق » وما زال إلى أن وضعت الحرب أوزارها وجلا الأتراك عن سورية فعاد إلى حلب ملتزماً بيته .

وحين تأسس « المجمع العلمى العربى » فى دمشق ، رشحه الأستاذ كرد على لعضويته فكان من أوائل الأدباء الذين أجمع الرأى على انتخابهم . . وتابع عمله فى تجهيز حلب وفى مدرسة « اللايبك » يدرس الأدب العربى ، يكتب فى الصحف مقالات لاذعة بتوقيع « أبى فراس » طابعها النقد الاجتماعى ونقد السياسة المحلية . .

من كتبه : الجزء الأول من كتاب « التعليم والإرشاد » ، و« شرح أسماء أهل بدر وأحد » و « القواعد الجلية فى دروس اللغة العربية » . وهو فى جزأين ، و « نهاية الأرب فى شرح معلقات العرب » .

وله شعر قليل لم يجمع ، وشعره قوى السبك رصين . . .

فمن شعره قصيدة نظمها سنة ١٩٢٧ فى أمير الشعراء أحمد شوقى حين احتفلت الأقطار العربية بتكريمه ، وهذه بعض مقاطع منها :

بنى مصر فديتكم بنفسى ... وذلك كل ما تحوى اليدان
غبرت بأرضكم زمناً طويلا ... قليل البث ، موفور الأمانى
أروح وأغتدى طلق المحيّا ... كأنى من زمانى فى أمان
وفوق مهادكم نشزت عظامى ... وتحت سمائكم طالت بنانى
ومنكم كل ما أوعى فؤادى ... وعنكم كل ما أحصى لسانى

ومنها :

زعيمكم(١) له الأرواح ملك ... وشاعركم له ملك المعانى
أتاه عصيّها يسعى إليه ... ذلول الرأس ، منقاد العنان
تخيّر خيرها شرفاً وقدراً ... وأودعها ثنيات المبانى
رأيت بعينه البوسفور حقّاً ... بما يحويه من آى حسان
ومذ أبصرته بعيون نفسى ... إذ البوسفور كان كما أرانى
فما أبصرت وصافاً كشوقى ... ولا بصرت بذلك مقلتان

---

(١) يريد سعد زغلول .

إذا وصف الجنان نعمت فيها وضقت من الشقاء بما تعانى
فما المرآة أصدق منه نعتاً ولا أقوى على حفظ الكيان
تريك ظواهراً ويريك عيناً بواطن ليس تدرك بالعيان
فإن باهت به مصر سواها فقد باهت به لغة القران
وإن طعنوا عليه فغير بدع فقد طعنوا على السبع المثانى
وتلك طبيعة الإنسان قدماً طعون باللسان وبالسنان

وكان النعسانى ، الأديب الناقد ، فى طليعة الطاعنين باللسان والقلم . والقلم أحدّ طعناً من السنان .

ساطع الحصرى

١٨٨٠

من الأمانة لتاريخنا الأدبى المعاصر أن نؤرخ لهذا الرجل . . وقد يقول قائل : ما لك تسلكه فى عداد الأدباء وهو غير أديب ، وغير شاعر . . .

نعم ، قد لا يكون ساطع الحصرى أديباً من الأدباء الذين عرفوا بإشراق البيان وجزالة الأسلوب ، ولا سيما وقد عاش حياته العلمية الأولى فى بيئة تركية . .

وأكثر من هذا أنه حين تقلص حكم الأتراك عن الديار العربية ، وجاء إلى سورية سنة ١٩١٩ كان لا يحسن العربية ويكتبها بصعوبة فعكف على دراستها بجد واهتمام . وما زال حتى استطاع أن يعبر عن آرائه بلغة تسودها العجمة والركاكة أحياناً إلى أن حسن بيانه ، وأصبح يعبر عن آرائه بكثير من السهولة والوضوح — هذا الباحث الذى تجاوبت حياته ، مع حياتنا الفكرية بشتى ظواهرها قد لا تنطبق عليه صفة الأديب بمدلولها العميق . . ولا أنكر أنى ترددت فى أن أسلكه معهم . . ثم قلت إن الرجل قد ساهم مساهمة فعالة فى حركاتنا الفكرية ، ولا سيما التى لها صلة بالناحية القومية : وتاريخنا الأدبى ، كما هو معروف ، ذو ارتباط وثيق بتاريخنا القومى . . وكلاهما يتمم بعضهما بعضاً . . ثم إنه أوسع من كتب فى القومية العربية بل يكاد يكون مؤرخها ، وفيلسوفها الذى لم يشغله شىء ، بقدر ما شغلته هذه القومية التى كتب عنها أكثر من مائة بحث اشتملها أكثر من كتاب واحد من كتبه . .

وهو إلى كل ذلك من بناة النهضة التعليمية الكبرى فى سورية .

لكل هذا . . كان من الواجب بل من الأمانة لتاريخنا الأدبى أن نسلكه فى عداد من نترجم لهم .

* * *

إنه حلبى الأصل ، يمنى المولد . .

كان أبوه السيد محمد هلال الحصرى من رجال العلم ، درس فى الأزهر ونال

إجازته العلمية . . وعقب عودته إلى حلب عين قاضياً فى الباب ، ثم فى دير الزور ، ثم فى حماة . . ثم عين رئيساً لمحكمة الاستئناف فى اليمن . .

وفى صنعاء اليمن ولد ساطع الحصرى . .

وقد تنقل مع أبيه ، وهو طفل من صنعاء إلى آطنة ، إلى أنقرة ، ثم إلى طرابلس الغرب ، ثم عاد إلى اليمن ثانية ، ومنها إلى قونية فطرابلس الغرب حيث عيّن فيها رئيساً لمحكمة استئناف الجزاء . .

كان ساطع الحصرى قد ترعرع ونما خلال هذه الفترات التى تقاذفت طفولته فدخل القسم الإعدادى فى المدرسة الملكية فى الآستانة وانقطع عن التجوال مع والده .

وفى سنة ١٣١٦ هـ « ١٩٠٠ م » تخرج من المدرسة الملكية وقد اختار سلك التعليم فعين معلماً لتدريس العلوم الطبيعية فى « يانيا » التى أصبحت جزءاً من بلاد اليونان . . وقد بقى هناك خمس سنوات ، ثم انتقل من التعليم إلى الإدارة ، فعين قائمقاماً على قضاء راويشنة التابع لولاية قوصوه ، وهى اليوم جزء من بلغاريا ، ومن هناك إلى قائمقامية فلورينا التابعة لولاية مناستر . . وهى بالقرب من الحدود الفاصلة بين يوغوسلافيا واليونان . .

وقد عمل ، وهو فى سلك الإدارة مع الشباب الذين أعلنوا نزعاتهم الثورية ضد السلطان عبد الحميد ، فكتب وخطب ، وكانت مناستر مركز الحركة الفعلية لثورة سنة ١٩٠٨ .

بعد إعلان الدستور ترك السلك الإدارى وانتقل إلى سلك التعليم فعين فى المدرسة الملكية التى تخرج منها لتدريس « علم الأقوام » وتدريس « فن التربية » فى دار الفنون وفى مدرسة « دار الخلافة العلمية » . كما تولى مديرية دار المعلمين عقب إخماد الحركة الرجعية وخلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ . . .

* * *

ثم تولى تنسيق وإصلاح « دار الشفقة » . .

وفى بداية الحرب العالمية الأولى أسس مدرسة خاصة أسماها « المدرسة الحديثة » أنشأ فيها فرعاً للأطفال ، سماه « عش الطفولة » وفرعاً آخر لتخريج معلمات لرياض الأطفال سماه « دار المربيات » . .

عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وجلاء الأتراك عن البلاد العربية ترك الآستانة وجاء إلى سورية ليساهم فى خدمة وطنه ، فعين فى مديرية المعارف ، ثم وزيراً للمعارف فى عهد الملك فيصل . . ولما تقلّص الحكم العربى بدخول الإفرنسيين سافر مع الملك فيصل إلى أوربا . . .

وحين تولى عرش العراق استدعاه فشغل عدة مناصب فى سلك التعليم وعمل على النهوض بمعارف العراق . . ثم تولى رياسة كلية الحقوق ، فمديرية الآثار القديمة حيث عنى بآثار العراق والآثار العربية بصورة خاصة . . وظل فيها مدة عشرين عاماً . . .

ثم جاء سورية فعين مستشاراً فنيًّا لوزارة المعارف مدة ثلاث سنوات أدخل خلالها تغييراً كبيراً فى مناهج التعليم . .

ومن سورية إلى مصر حيث عين أستاذاً محاضراً فى معهد التربية العالى للمعلمين . . ثم عهد إليه بمستشارية الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، وكان ذلك حتى سنة ١٩٥١ ، ثم مديراً لمعهد الدراسات العربية العالية فى مصر — وهو من مؤسسيه — وقد ترك مديرية هذا المعهد واكتفى بالتدريس وإلقاء المحاضرات .

كانت نشأته الدراسية ذات اتصال بالعلوم الطبيعية ، وقد اشتغل عدة سنوات بتحنيط الحيوانات وبتيبيس النباتات . . ثم مال إلى دراسة الفسلجة ولا سيما الأبحاث المتعلقة بأفاعيل الجهاز العصبى . . وهذه الدراسات هى التى أوصلته إلى الاهتمام بعلم النفس ، وهذا بدوره أوصله إلى فن التربية الذى أصبح شغله الشاغل فيما بعد . . .

واهتمامه بعلم التربية هو الذى حمله أيضاً على الاهتمام بعلم الاجتماع وبالنقد التاريخى . .

عمل فى الصحافة العلمية فأصدر وهو فى إستانبول مجلة باسم « أنوار العلوم » وعندما تولى شئون التربية والتعليم أسس مجلة « التدريسات الابتدائية » . . ثم أصدر مجلة « التربية » .

زار أوربا أكثر من مرة . . وقضى فترات من حياته فى سويسرة وفرنسا

وإنكلترا وبلجيكا وألمانيا والنمسا ورومانيا وإيطالياوهولندا للاستطلاع تارة ولدرس أحدث مناهج التربية تارة أخرى . . وحضور المؤتمرات الدولية أحياناً . .

وقد سافر إلى إسبانيا لزيارة معالم الأندلس ، وكان ذلك سنة ١٩٢٦ . .

ومن هناك إلى شمالى إفريقيا فزار مراكش والجزائر وتونس ، ثم صقلية لدرس الآثار العربية وكان ذلك سنة ١٩٣٩ . . .

* * *

هذه خطوات سريعة عن ساطع الحصرى ، العربى المفكر الباحث الذى تأرجحت حياته بين سلك الإدارة وسلك التعليم .كان فى جميع مراحل حياته ينزع نزعات جديدة حرة لتهيئة عقول النشء وصبّها فى قوالب جديدة لتساير التطور فى أوسع معانيه . وقد اقتصرت جهوده فى وطنه العربى على النهوض بالمستوى التعليمى وربط أجزاء البلاد العربية عن طريق مناهج التدريس فى وحدة شاملة . . ووفق فى ذلك بعض التوفيق ، وله تلامذة ينهجون نهجه ويرون فى تحقيق تعاليمه ما يمهد لخلق إمبراطورية عربية كبرى .

* * *

أصدر خلال حياته الفكرية أكثر من عشرين كتاباً تدور كلها حول اتجاهات التعليم وتوحيد المناهج فى البلاد العربية ، إلى قضايا القومية بمفهومها الشامل . ولا سيما « القومية العربية » التى أولاها الكثير من اهتمامه ودراساته .

وفيما يلى إلماع إلى هذه الكتب :

١ — دراسات عن مقدمة ابن خلدون . . وهو فى جزأين نيفت صفحاته على الخمسمائة صفحة ، عرض فيه عرضاً شاملاً نظريات ابن خلدون فى علم الاجتماع وفلسفة التاريخ على ضوء أحدث نظريات رجالات الفكر الأوربى وفلاسفته . ويتميز كتابه هذا بجدة البحث وعمق التفكير ، وربما كانت دراساته هذه أوفى دراسة علمية صدرت فى العربية عن هذا المفكر العربى الكبير .

٢ — نقد تقرير لجنة مونرو « عن معارف العراق » .

٣ — الإحصاء « محاضرات عن علم الإحصاء » .

٤ — تقارير عن إصلاح المعارف فى سورية .

٥ — تقارير عن أحوال المعارف فى سورية .

٦ — يوم ميسلون .

٧ — صفحات من الماضى القريب .

٨ — أصول التدريس — تدريس اللغة العربية .

٩ — أصول التدريس — الأصول العامة .

١٠ — حولية الثقافة العربية « خمس سنوات » وهى أصدق مرجع عن شئون التربية والتعليم فى جميع البلدان العربية .

١١ — محاضرات نشوء الفكرة القومية — وقد ألقيت فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة بدعوة من كلية الآداب بجامعة القاهرة .

١٢ — آراء وأحاديث فى التربية والتعليم .

١٣ — آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية .

١٤ — آراء وأحاديث فى العلم والأخلاق والثقافة .

١٥ — آراء فى التاريخ والاجتماع .

١٦ — آراء فى القومية العربية .

١٧ — العروبة أولاً .

١٨ — البلاد العربية والدولة العثمانية .

١٩ — دفاع عن العروبة .

٢٠ — آراء وأحاديث فى اللغة والأدب .

٢١ — العروبة بين دعاتها ومعارضيها .

٢٢ — ما هى القومية ؟

٢٣ — حول القومية العربية .

٢٤ — ثقافتنا فى جامعة الدول العربية .

٢٥ — أبحاث مختارة فى القومية العربية .

٢٦ — المذكرات .

إلى كتب غيرها فى طريقها إلى المطبعة وأكثرها يدور حول القومية العربية — الموضوع الذى شغله ، بعد شئون التعليم ، أكثر من كل موضوع آخر ، فكتب فيه المطولات حتى اعتبر فى نظر الكثيرين فيلسوف القومية العربية ومؤرخها الكبير .

محمد البزم

١٨٨٧ — ١٩٥٥

عرفت سورية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الكبرى طائفة من الشعراء يمثلون مدرسة خاصة في قول الشعر — المدرسة التي تعنى عناية بالغة بالمبنى ، أى بالصياغة ، ورأيهم أن المعنى مهما كان حسناً لا يأخذ بالقلب ولا يهزّ النفس ولا يثير الشعور إذا لم يفرغه صاحبه في قالب حسن . وإذا قالوا بالخروج على المتقدمين في معانيهم فلا يقولون بالخروج عليهم في أساليبهم . . وشعراء هذه المدرسة هم محمد البزم ، شفيق جبرى ، خليل مردم بك ، خير الدين الزركلىّ ، بدوى الجبل . وقد ساروا على نفس النهج الذى سار عليه البارودى وشوقى وحافظ إبراهيم وعلى الجارم . .

الصياغة أولاً . .

ثم تأتى الفكرة في تضاعيف الكلام .

وربما كان محمد البزم أكثر زملائه عناية بالصياغة . .

ومرد ذلك أن ثقافته عربية لا تمتّ إلى ثقافة الغرب بصلة . .

فهو ينهل من معين العربية الصافى ، وهو بدوى العاطفة ، جاهلى الخيال — إن صح هذا التعبير ، وإنه ليحلو له ، على ما يعتقد البعض ، أن يسمع هذه الصفات يرددها الأدباء والنقاد عنه ، وكأن ذلك توكيد لعروبته التى تغنّى بها أجمل غناء . وهو أطول شعراء دمشق نفساً ، فأقل قصائده الكبرى تقارب المائة بيت . وهو حريص على لغته كل الحرص . وكثيراً ما يلجأ إلى غريب الألفاظ حتى لتحسب أنك تقرأ لشاعر مخضرم . . وهو في قصائده الحماسية أشبه بفارس قد استلّ رمحه في قلب الصحراء وأخذ ينشد شعراً فيه فتوة العرب الأقدمين . . فإذا دعا الأمة العربية أن تنهض وتتحد ، وأن تكون قوية متماسكة جاءها بأمثلة عربية من الوقائع القبلية الجاهلية — من جديس وطسم ، من عاد وجرهم ، من غسان وحمير .

ومحمد البزم كأحمد محرم الشاعر المصرى . . فهما صنوان فى النهج والطريقة والأسلوب ، فإن اختلفا فنى الميل والهوى . . فشعر أحمد محرم مصرى إسلامى ، ومحمد البزم عربى شامى . . والعربية والإسلام شيئان يتمم بعضهما بعضاً فى ميدان العربية الفسيح .

ولد شاعرنا فى أواخر عام ١٣٠٦هـ الموافق لسنة ١٨٨٧م فى دمشق . . وكان والده يحترف التجارة وعليها شبّ ثم هجرها حتى إذا قاربت سنه العشرين لم يعرف من القراءة إلا بعض سور قصار من القرآن ونزراً من الآى التى يكثر جريها على الألسنة مما لقنه عند « الخوجة » معلمة الأطفال .

أول كتاب أدبى عرفه — غير أقاصيص وسير كان يسمر بها ليالى الشتاء — كتاب المستطرف للأبشيهى ، فأكب عليه بالمطالعة وكان باكورة عدته الأدبية .

وظل هكذا إلى أن قرر دراسة العربية وفنونها فبدأ هو وخير الدين الزركلى ينتابان حلقات شيوخ الفيحاء وعلمائها فقرآ على العلامة الشيخ عبد القادر بدران شيئاً من ديوان المتنبى ونحواً من مغنى اللبيب لابن هشام وصوراً من دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى وكتباً فى الأصول ثم اتصلا بنابغة علماء دمشق العاملين وأحد أفذاذها المشهورين السيد جمال الدين القاسمى فقرآ عليه كتباً فى العربية والبلاغة والمنطق كما قرآ كتباً فى علمى الكلام والمنطق وأخرى فى العربية والأصول على أحد علماء تونس وكان قد هبط دمشق وهو المفوه اللسن السيد صالح التونسى . . .

ثم انصرف إلى المطالعة بنفسه ، ويحدثنا البزم عن نشأته الشعرية بقوله :
« أول ما نظمت من الشعر الموزون بيتان وصفت بهما نفسى وقد أغرانى أحد الرفاق فجرعت من الخمر ما قدّرته بعشرين درهماً فخيل إلىّ أن الأرض تهوى بى صُعداً فقلت :

شربت من الصهباء عشرين درهماً ... فخيـــل لى أنى صعدت إلى السما
وصافحنى المريخ والبـــدر قال لى ... ألاعم صبـــاحاً أيها الخـــدن واسلما

ومن ثمة أخذت أرمى الصحف بقصائد ومقطوعات قومية من حض العرب

على النهوض من إغفاءتهم والمطالبة بحقوقهم المغصوبة بيد الترك ما لم أزل أقرع وتره وأجرى على نغمته حتى اليوم ، وإلى أن تقدر لى الرحلة إلى عالم التحول المعبر عنها بالموت والفناء . .

شجعنى على متابعة النشر ما كانت تلقاه تلك القصائد من الحظوة عند ذوى الخبرة بالأدب والشعر ، غير أن أمد ذلك لم يطل كثيراً حتى شهر الترك النفير العام فكممت الأفواه ، واشتدت الرقبة ، وأصلت السيف فوق أعناق الأحرار من العرب ، ومشت الخشية فى النفوس ، ودب الذعر فى أشد القلوب وأقوى الأفئدة ، ولم يعد أحد يجرؤ على القول فى جهر ولا سر لكثرة ما بث من العيون وانتشر من الجواسيس فكنت كلما قرضت شيئاً فيه ذكر العرب وما يقاسونه من إرهاق الترك وخشونتهم دسسته إلى والدتى ورجوتها أن تبالغ فى إخفائه والحرص عليه حتى اجتمع لديها من ذلك طائفة صالحة . . .

وعندما جلا الترك وطلبتها منها فتشت ولكن تفتيشها ذهب سدى وبقى لدى من الحسرة عليها ما يجده من أضاع ما قرضه فى سنين ثلاث فى ثانية واحدة .

قصارى ما يقال عن حياتى العامة أن حرفة الأدب قد أدركتنى قبل أن أدركها أو أسمع بها ، فقد لقيت منذ الصغر من إلحاح المصائب ، وولع بنات الدهر بى ما ولد فى نفسى كرهاً للحياة ونفرة من أكثر أبنائها فلم تبد لى إلا شمطاء جهمة الطلعة ، عبوس الوجه ، مكروهة الشم والتقبيل .

فمن لى بأرض رحبـــة لا يحلها سـوای تضاهى دارة المتقارب »

* * *

وقد امتهن البزم خلال حياته تدريس اللغة العربية فى مدارس دمشق الثانوية فظهر فضله وتضلعه فى النحو وفنون الأدب .

واستفاد منه تلاميذه الكثيرون مدة طويلة تزيد على عشرين سنة .

ونظم فى أغراض متعددة أهمها قصائده القومية ، وقد يلتزم فى شعره ما لا يلزم جرياً على طريقة أبى العلاء المعرى فى اللزوميات . وله شعر فى معان طريفة منها قصيدة فى الشطرنج وأخرى فى الشتاء .

وكان واسع المعرفة فى اللغة ، حسن التحقيق ، صحيح الذوق ، تستهويه

الجزالة ، وتعجبه الرصانة ، وهو واسع الرواية ، كثير المحفوظ من الشعر والنثر والحكم والأمثال والأجوبة المسكتة وأخبار العرب — شعرائهم وخطبائهم ، ونصائحهم ، فإذا تحدّث فى هذا الشأن أسهب وأطال وأتى بالمفيد الممتع ، وقد حبب إليه النحو فتعمق فى درسه واطلع على مذاهبه ، وكان له رأى فى نصرة بعض المذاهب وترجيح بعض الأقوال كما كان له رأى خاص فى طريقة تدريسه .

وكان يتّهم الفيروزابادى بالشعوبية فى اللغة ويتعصب لابن منظور ؛ من كتبه « كلمات فى شعراء دمشق » وهى رسالة نشرها متتابعة فى جريدة « الميزان » الدمشقية (أغسطس ، سبتمبر ١٩٢٥) وكتاب على نسق « رسالة الغفران » لم يبيضه ولم ينته سماه « الجحيم » يقول صديقه الأستاذ خير الدين الزركلى صاحب الأعلام إنه فى نقد أئمة من النحاة واللغويين .

انتخبه المجمع عضواً عاملا سنة ١٩٤٢ وعهد إليه فى بعض الشئون اللغوية كالنظر فى بعض المعاجم والمصطلحات التى عرضت على المجمع ؛

وقد ألحت عليه الأمراض منذ أكثر من ثلاث سنوات فانقطع عن العمل وأقام فى المستشفى العسكرى بالمزة حتّى وافاه الأجل صبيحة يوم الاثنين الثانى عشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥ وهو فى عشر السبعين من عمره[١]

وتولّى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية طبع ديوانه بعد وفاته ، فصدر فى جزأين جاوزت صفحاتهما الخمسمائة صفحة ، وتضمن الجزء الأول قصائد فى شئون الوطن العربى والإلهيات والرثاء والأدب والقوميات أما الثانى فضمّ مقطوعات متفرقة وأغاريد .

---

(١) « مجلة المجمع العلمى العربى » ج ٤ مجلد ٣٠ .

ومن شعره :

قوارع الصدر

دع الدهر تنمو بالرزايا مصائبه　　وتمطر أصناف البلايا سحائبه
فما الدهر إلا مرّ يوم وليلة　　تروح بسعد أو بنحس كواكبه
تطاردنا خيل الزمان بلا ونى　　ويعدو علينا صرفه فنوائبه
تقارعنا الأيام حتى كأننا　　بقايا خميس أسلمته كتائبه
وتحبو إلينا الحادثات كأنها　　مواخر يمّ طاميات غواربه
وتسعى خطوب لا مرد لوقعها　　فيلهو بنا فى ذمة الدهر عائبه
نعاتبه فى السر جهلا وإن أتت　　لياليه بالنعماء لسنا نعاتبه

ومنها :

تقوض عز العرب فيها فجمعت　　عليها من الذل المشين عناكبه
على عدن فليندب العرب ما بكى　　على العرب صب واجف القلب واجبه
ولو شاهدت عينا نزار بنيّه　　على الصم أجت فى الفؤاد حباحبه
ولو شام ما قد حل بالعرب يعرب　　لأعول والتفّت عليه نوادبه

ومنها :

أقومى ، لا ترضوا المذلة منزلا　　تمشى إليكم بالسموم عقاربه
ولا تيأسوا إن أظهر الغرب غدره　　فأدمت بنا فى النائبات مخالبه
ففينا وإن طال المدى وعدا الردى　　بقية عزم لم تبدها نوائبه
فهبوا هبوب الليث للمجد وانتضوا　　من الحزم عضباً لا تفل مضاربه
دعوا الظلم وانضوا مطرف البغى واخلعوا　　ثياب جهول باديات مثالبه
ألا فانهضوا والدهر ساه ولا تنوا　　بسعى إلى أن يدرك المجد خاطبه
متى ندرك الشأو القصى ونعتلى　　متون العلى والجهل تسمو غياهبه
ألا إن شعباً نام عن نيل مجده　　فلا هطلت إلا بذل سواكبه

وطنى

وطنى الذى سحر العقولَ ، فسحرُه حسنٌ لدىَّ حرامهُ وحلالهُ
فجمالهُ حَمَلَ العُداة لساحه والشىء قد يجنى عليه جمالهُ
نزلتْ به آى المحاسن فاستوتْ أوقاته ، فبكوره آصـــاله
جلْ فى مسارحِه وعُج برياضه متمتعاً تحنو عليك ظلاله
فتريكَ سرَّ السحر أعينُ غيده ويُريكَ قدَّ السَّمهرِى غزالهُ

خداع العدو

ألا يا لَقومى والعدى تُضمرُ الرّدى وتمزج بالأدواء فيكم لبانهـــا
يدبّ إليكم بالرّدى أفعوانها ألا فاحذروا ما اسْطَعْتُمُ أفعوانها
وقد يلجأ الخصمُ الألدّ لخدعة إذا لم يطق يومَ النزال طعانها
فهلاّ أبيتم للهوان احتمالهُ جهاراً ، فقد تأبى الرجال هوانهـــا
وهذى لعمر الحق والسيف فرصة فلا تتركوا للسانحات أوانهـــا

* * *

سماعاً بنى أمى ، وسمعاً بنى أبى وقد تحمدُ الحسناء من كان شانها
ألا فاغضبوا للحق والسيف ، وليكن شعارُكم يوم الوغى أرجوانها
ألا نهضة تنكى العـــداةَ وفتكة تزعزعُ أركان العدى وكيانها
ألا نزوة ينسى الفتى عندها الردى تخفف فى هذا الأسى خفقانهـــا
ألا غضبة جياشة يعربيّة فتعرف أهلُ الأرض طرًّا مكانها

ماري عجمي (١)

١٨٨٨ — ١٩٦٥

أول رائدة من رائدات الأدب فى دمشق الشام .

حموية الأصل نزح جدها إلى الشام منذ مائتى سنة .

تعلّمت فى المدرستين الروسية والإرلندية . وأنهت دراستها وعمرها خمسة عشر عاماً .

كانت تحبّ المطالعة والكتابة والخطابة منذ طفولتها .. وما زالت إلى أن حققت الكثير من أمنياتها .

لم تكد تشعر بقدرتها على التعبير حتى فكّرت فى إصدار مجلة نسائية تكون لسان حال المرأة ، وسرعان ما حقّقت الفكرة ، فأصدرت فى عام ١٩١٠ مجلة « العروس » . ومجلتها ثانى مجلة تصدر فى دمشق بعد مجلة « المقتبس » لمحمد كرد على ، وإن دلّ هذا على شىء فعلى ثقتها بنفسها .

وصدرت المجلة مدبجة بقلمها وبأقلام بعض الكتاب الذين جندتهم لمعالجة معضلات المرأة العربية .

وكان فى طليعة مَنْ اعتمدت عليه الأستاذ فليكس فارس صاحب جريدة « لسان الاتحاد » (٢) للصلة الروحية التى تربطها بهذا الأديب الخطيب ، وكان لزمنه من أشهر الخطباء ، وحين ترجمت رواية « المجدلية الحسناء » عن الإنكليزية أهدتها إليه واعتبرته القائد الذى بثّ فيها روح الشجاعة الأدبية (٣) .

---

(١) ترجع نسبة العجمى إلى أن الجد يوسف كان يتاجر بالحلى والسجاد والتنباك فى بلاد العجم وكان حين يأتى إلى دمشق يرتدى ثياباً أعجمية فأطلق الناس عليه اسم « العجمى » .

(٢) فليكس فارس : أديب لبنانى ، كان يدرس اللغة الإفرنسية فى المدرسة السلطانية فى حلب وكان من خطباء جمعية الاتحاد والترقى لسان حال الاتحاديين ، وقد أشاد كغيره من الخطباء بعظمة جمال السفاح .

(٣) تضمن الإهداء الفقرات التالية :

هدية إلى أخى فليكس فارس

إلى الكاتب الرقيق الروح والقلم =

وظلّت تصدر المجلة باستمرار حتى بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

ولم يقف نشاطها خلال الحرب بل انصرفت إلى التدريس وإلى المشاركة بشئون المجتمع ، وقد سئلت عما كانت تعمله خلال هذه الفترة فأجابت :

« . . . أربع سنوات مضت كنا فيها لا نغفل هنيهة عن مراقبة ما يجرى ، فمن السجون إلى مدافن الأحياء – أعنى المستشفيات – إلى أكواخ البؤساء ، إلى ضحايا الجوع فى الأزقة ، فجمعنا ما جمعناه عبرة للظالمين وتسجيلاً لصحائف الأتراك السوداء » (١) .

وإلى واجبها الإنسانى لم تهمل واجبها القومى ، فقد اتخذت من نشاطها الاجتماعى ذريعة لتواجه الطاغية أحمد جمال ، وتطلب إليه العفو عن أحرار البلاد الذين زجّهم فى السجون وعلّق مشانقهم بعد محاكمة صورية – فلم يجد استشفاعها . . .

وعادت إلى منزلها تكتب وتنظم الشعر الحزين الذى يصوّر مأساة الوطن .

وما كادت تنقشع الظلمات وتضع الحرب أوزارها عن كاهل الشعوب حتى استأنفت إصدار المجلة فى سنة ١٩١٨ وبدأت تؤدى رسالتها بنشاط أوسع وبأدب أغزر (٢) .

وكانت مواهبها خلال هذه الفترات قد نمت ، وثقافتها قد نضجت فعرفها عالم الفكر أديبة شاعرة ، تجمع بين الصناعتين .

كتبت المقال ، ونظمت الشعر ، وترجمت عن الإنكليزية ، وحاضرت ، ودرّست الأدب .

= والقائد الذى بث فى روح الشجاعة الأدبية

والأخ الذى رفع ستار الشقاء ، وأرانى سبيل الواجب ، ودعانى إلى الجهر بما فى جسد الاجتماع البائس من السوس الناخر

أهدى روايتى هذه عربون شكر وولاء

ماري

(١) « العروس » ، العدد العاشر ، المجلد الرابع سنة ١٩١٨ صفحة ٣٣٤ .

(٢) توقفت المجلة بعد صدور العددين العاشر والحادى عشر لشهرى كانون الثانى وشباط (يناير وفبراير) سنة ١٩٢٦ ، من المجلد ١١ بسبب سوء المواصلات وقلة الورق على أثر نشوب الثورة السورية ضد الحكم الإفرنسى .

وكما عاشت مع الأحداث خلال العهد العثمانى عاشت مع الأحداث خلال الانتداب الإفرنسى ، فكانت جريئة فى الإفصاح عن آرائها ، تعتزّ بالنزعة القومية ، وبرسالة العرب التى لها شأن وأى شأن فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

كان بيتها ندوة من ندوات الأدب ، يهرع إليها أدباء الشباب الذين يؤمنون بالتجديد إيمانهم بالحفاظ على التراث القديم .

وكان من رواد الندوة خليل مردم بك ، محمد البزم ، أحمد شاكر الكرمى ، — يرحمهم الله — وشفيق جبرى والدكتور كاظم الداغستانى وكثيرون ممن حملوا راية الأدب الدمشقى فى تلك الفترات ، وما زالوا به إلى أن أصبح أناشيد عذبة على لسان الكثيرين .

كانت تعقد جلسات ممتعة يعبق أريجها بالشعر والموسيقى والشراب ، وبقصص الأدب وأحاديث وحكايات تتصل بماضى العرب وبنهضة العرب وبما يهز ويثير ضمير العرب .

وكانت تسمعهم شعرها فيطربون ، ولاسيما الشعر الوصفى والعاطفى والقومى .. وهى مجوّدة فى مختلف ألوانه ولا سيما الشعر الوصفى الذى يتناول الطبيعة ومباهجها فمن تحية للربيع إلى وصف لأفانين الزهر : من الورد ، إلى البنفسج إلى الياسمين ، إلى ظلال الأدواح ، إلى غوطة دمشق ، إلى ذرا لبنان ، وقد تتخذ من وصفها للطبيعة مادة للتعبير عن « ذاتها » ولتهزّ الوسنانين من بنى قومها :

يا قوم أين ربيعكم   أين الروائع والغرر
أين الصفاء وأين مجـ   ـدكم القديم وما بهر
لبست رياضكم الحدا   د أسًى على حظ عثر
لم لا تعود مع الربيـ   ـع حياة شعب محتضر
يخضرّ فيه رجاؤه   بمضـــاء فتيان سمر
يا من تهلّل للربيـ   ـع ومنْ بروضته خطر
أين الربيع من القلو   ب خفقن فى يوم الظفر

وفى تحيتها للصباح تقول :

هلّل الروض للصباح وكبّر   ياله شاعراً تغنى فأسكر

هبّ والزهر فى الغلالة يشدو ما أحيلى الصباح !.. ألله أكبر

وبعد أن تصف يقظة الفجر والزهور التى تفتّحت عن أقمار ونجوم تخاطب النهر بقولها :

ما ترى الأزرق الخضّم يلين يعتريه عند الصباح السكون

صاح : طالت يد الزمان علينا فمتى ياصبح الأمانى تبين

وإذ كان التعبير عن الخوالج القومية ، فى العهدين العثمانى والإفرنسى ، جريمة تعرّض الشعراء للأذى أخذوا يرمزون ، وهذا ما لجأت إليه الشاعرة ، فى قصيدتها « إلى البنفسجة » — بعد أن تصف تجهّم الشتاء برعده وبرقه وأشلاء أغصانه وصفاً دقيق التعبير تقول :

بنفسجة لولا اخضرار وشاحها لما شمت فى الفيحاء أخضر زاهيا

تجيل عيوناً قد تكحلن بالدجى يطوف بهن الدمع رائح غاديا

لا شك أنها ترمز إلى ما كانت تقاسيه سورية من نكبات

وتقول :

بنفسجتى صبراً على الجور والقلى فإن جميل الذكر ما كان باقيا

لقد وصفت الطبيعة أدق وصف . ولا أريد أن أقول إنها تأثرت بالصنوبرى شاعر الطبيعة المبرّز ، بل كادت تجاريه فى بعض مقطوعاتها ، وقد عقدت مع الرياض ألفة موثقة :

عقدتُ لزهر الرياض الإخاء وعشت أشيد بإحسانه

فأهدى إليه عقود الولاء ويمنحنى فـــوح أردانه

عزائى إذا ساورتنى الهموم يرفّه عن كبد نازيه

فى ظلمتى من سناه النجوم تشعّ على طرفى الخافيه

* * *

وما الزهر إلاّ بيان جميل يعبرّ عن خلجات الثرى

تراه إلى جانبينا يميل ويهمس شيئاً بسمع الورى

لا مجال للإلماع إلى الكثير مما نظمته فى شتى المناسبات من شعر وصفى إلى عاطفى إلى قومى ، بل أردت الإشارة إلى موهبتها المبكرة كشاعرة جارت فحول الشعراء فى زمنها ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ أمين نخلة ، وكان من رواد

ندوتها حين كان يدرس فى كلية الحقوق .

بقوله : « . . . أما الشعر فإن مارى لم تجنح إلى نظمه إلا فى بعض ما كانت تتحرك نفسها فى الأحيان من حب للإيقاع وطرب النغمة . . أو فى بعض المخايل السامية التى يلوح فيها لطائفة من عيون البشر النادر العزيز من ملامح الاتصال بين الأرض والسماء . . وهى فى النظم ما عرفت احتفالا ولا تعملا . . فإنما شعرها أشبه شىء بالزهر الزكى فى جبالنا اللبنانية أمام الربيع يخرج إذ يخرج فلا يدرى أحد كيف طلع من قلب الأرض » .

ويقول : « وليس عجيباً أن تكون العلاقة شديدة بين القليل الذى نظمته والكثير الذى كتبته . فإنهما سقيا من غمام واحد ، هو الطبع وهو الذوق وهو رونق الفصاحة » .

وفى كلام عن شعرها المنثور يقول :

« ولقد عنيت مارى فوق ذلك بالشعر المنثور أى النثر الشعرى ، فكانت فى جملة كتّاب مهدوا من نحو خمسين سنة لهذا النوع من الكلام وهو الذى صار يقال له : " الشعر الحديث " والذى انحطّ سويُّه فى هذه الأيام الأخيرة . وإن لمارى فى الشعر المنثور قطعاً بلغت الغاية بها فى التحجّب للمعانى ، ومسح اللفظ بمحجباتها مسحات ينفح بها نفحة اللمس لمداهن المسك » (١) .

* * *

لقد تركت مارى عجمى قطعاً كثيرة من الشعر المنثور تنبض بروح الشاعرية الحقة ، وهى تعبير صادق عن روحها المتوثبة ، فى حفلة تكريم دمشق لخليل مطران ألقت قصيدة منثورة لم تتحدث فيها عن شعره بل عن رسالة « الشاعر » الذى نعتته بابن الليل :

يا ابن الليل : وما كل شاعر بابن الليل
إن للأدب دولة . أنت سلطانها
وللفن جسم ، الشعر روحه

---

(١) مجلة « المعرفة » العدد ٥١ ص ١٦٠ من خطابه فى ذكرى أربعينها .

يظلّ الجمال طيّ الإبهام حتى تذيعه
ويبقى الحزن ملء النفوس حتى تجلوه ..

* * *

يا محيي الليل حتى مطلع الأسحار
أمن هزيم الرعود ، وانقضاض الصواعق ، واشتعال الهشيم
تخرج أنشودة الحماسة
النافخة النار ، المقوّضة عروش الظالمين
الكاتبة اللعنة على الخانعين

ثم تقول :

يبصر الأعمى روعة الجمال بعينيك
ويسمع الأصمّ تهاليل الطرب بأذنيك
وتتفتت كبد الصخر بنجوى حنينك
ويشتاق من لا حبيب له طيف حبيبك

وفى ذكرى ٦ أيار (مايو) سنة ١٩١٦ – يوم الشهداء الذين أعدمهم الطاغية أحمد جمال السفاح التركى – أهابت بتلك الأرواح القدسية أن تعود لتهزّ ضمير الأمة التى كادت تنساهم بعد أن اتخذت لها أحباباً أخذوا يهزءون بمقدراتها ويراوغونها مراوغة الثعالب :

أما تبرحون غارقين فى رقادكم أيها النائمون ؟
أما تعبتْ أجنابكم ، وملّت من اللصوق بالرمال ؟
قوموا ، فقد نمتم طويلاً !
إن نفحات الربيع مالئة الفضاء
والأطيار تتسابق على الأفنان
والجداول تناديكم « أن هيًّا عودوا إلينا »
فقد كفى القلوب وجداً وأنيناً
لا نستطيع أن نرحّب بالربيع وأنتم بعيدون عنا !
ولا يطيب لنا فوح الأزهار ، وفى الأرواح نفحات دمائكم البريئة

قوموا ... فإن الأمة التى تعرفتموها ، لا تريد أن تتعرفكم
لقد اتخذت لنفسها أحباباً من بعدكم ، يراوغونها مراوغة الثعالب
لقد غدت تطرد أبناءها وتبيع حق حياتها للغريب رخيصاً
وتجد لذة فى امتصاصه دمها
عودوا ... فقد عادت الورود الحمراء — إلى مآقينا .

* * *

كان صوتها يرتفع فى كل مناسبة ولا سيما فى المناسبات القومية والاجتماعية ذات الاتصال الوثيق بثقافة الفتاة السورية لتأخذ مكانتها المرموقة فى حياة المجتمع .

وكانت الفتاة السورية ، لعهدها ، لا تزال على مقاعد الدرس ، بينا كانت هى ، بين لداتها ، فى طليعة المثقفات : أديبة مرموقة وشاعرة مبدعة ..

ولئن غصّت دمشق فى يومنا هذا ، بالأديبات والشاعرات والطبيبات والمهندسات نتيجة لتطور حياتنا الفكرية ، فقد كانت مارى عجمى ، فى زمنها وبين لداتها ، هى النجمة الملتمعة والرائدة التى تقود بنات جنسها إلى حياة العلم والأدب .

وقد وصفت وداد سكاكينى . وهى فى طليعة أديبات سورية المبرزات وأرسخهن قدماً فى صناعة الأدب — وصفت مارى بقولها :

« كان الفرزدق إذا سمع شعراً للخنساء قال : تلك أنثى غلبت الفحول .. وفى زماننا هذا لو يُسأل فحول الأدب عن " مارى عجمى " لأعادوا قول الفرزدق فى الخنساء .

عرفت أديبة الشام وأنا طالبة أتشوّف إلى مطالع الأدب النسوى المعاصر ، فتمثّلت من خلال آثارها روحاً جبارة نفذت إلى دقائق الحياة فتحسستها فى حقائقها وتلمستها فى مظانها ، وخيّل إلىّ أن وراء آثار الأديبة عبقرية طلعت قبل الأوان ، وفى بلد لم يتعهد مغارس الفكر والبيان ، وحين جمعنى إلى الآنسة مارى عجمى وداد ووفاء وجدت أن الخيال الذى كنت أراها من خلاله غاب

عنى خجلا لقصوره فى تصويرها ، فلقد رأيت منها ما وراء النظر ، وسمعت ما فوق الكلام » .

وبعد أن استعرضت ملامح حياتها أشارت إلى تولّيها تدريس الأدب فقالت :

« . . . ويدور الزمان بالناس ، فإذا الآنسة مارى عجمى أستاذة الأدب العربى فى معهد الفرنسيسكان تعلّم الطالبات الشابات أدب العربية على أحكم دراسة وأقوم طريقة ، ولو أنك سمعتها تحاضر تلميذاتها عن المعرى أو الجاحظ ، وضرب بينك وبينها بحجاب لقلت : ثمة أستاذ كبير يحسن الخوض فى تاريخ الأدب ، ويردّ صدور البحث إلى أعجازه ، ويجيد المقارنة والموازنة بين الشعراء أو بين الخطباء والباحثين ، وقد يهزك العجب والإعجاب لندرة الأساتيذ الذين أوتوا مواهب الأدباء ، وأحاطوا علماً بمواهب النقد الحديثة ومناهج البحث والتحليل . ولئن زحزح عنك الستار أو الحجاب ، ورأيت المحاضر أو المدرس من بنات حواء لشدهت ودهشت ، وظننت فى التناسخ الظنون ، ولا بدع إن أخذك العجب فإن تدريس الأدب العربى لا يزال فى شرقنا العزيز وقفاً على الرجال ، وقليل ما هن اللواتى اضطلعن بهذه المهمة الكبرى ، فتعمقن العربية ، وألممن بلغة غربية كما أوتين المزايا والمواهب المنشودة فى معلّم الأدب »[١] .

* * *

وكانت ذات قلم لاذع ونكتة مبطّنة بالوخز ، لا تتردد أن توجّه سهام نقدها ، فى إطار من نكاتها ، إلى أعزّ أصدقائها ، ففى مقالها « أدباء سورية فى العهد الجمالى »[٢] أى جمال باشا السفاح — وصفت فليكس فارس بقولها :

« . . كانت الحرب موالية لخطته السياسية فكان رنين النقود فى جيبه أطرب أغنية غنّاها له الزمن ، وختم أفراحه بزيجته عسى أن يرزقه الله منها بنين وبنات » .

---

(١) مارى عجمى فى مختارات من النثر والشعر : الرابطة الثقافية النسائية فى دمشق ص ٦٠٤ .

(٢) « العروس » العدد العاشر المجلد الرابع .

ووصفت شبلي ملاّط بقوله :

« . . مشى شعره مع السياسة وتغنى بها فى المحافل فنال من ثمارها نصيباً وافراً أعاد له جوائز عصر المخضرمين والمولدين ، وفى شعره المنظوم زمن الحرب شىء كثير من تاريخ كبراء الترك فى سورية » .

ووصفت بشارة الخورى — الأخطل الصغير — بقولها :

« . . لم يكن الجوّ ملائماً لـ " برقه " فانزوى فى قريته يصطاد العصافير التى كان يتغزل بزقزقتها ، ثم انخرط فى سلك محتكرى الحبوب فنال النصيب الوافر ، على أنه عاد فانزوى ثانية ، ولعلّ " برقه " ينمّ عن مقره الآن » .

ولم تهمل نفسها فكتبت تقول :

« . . . حجبت " العروس " فى خدرها . وأودعت نقودها فى البنوك . فلم تهرم العروس ولكن نقودها تحوّلت أوراقاً لا بدّ أن تخيط منها ثوباً لعروسها التى برزت من خدرها الآن ! » . .

وحين أقيم لها يوبيل فضى فى بيروت سنة ١٩٢٦ وصفته بقولها « . . كان أشبه بحفلة مأتم (على البارد) لروح لا تزال حائرة » !

* * *

وظلّت فى صراع مع الحياة تكتب وتنظم وتحضر الندوات وتخطب .

يقول الأب إميل مرقده :

« كانت تلقى الخطب والمحاضرات بوفرة ، وليس هناك ناد فى سورية أو لبنان أو فلسطين إلا وألقت فيه كلمة ، وإذا ما وُجدت فى حلقة أدبية أو سمر كانت سيدة الكلام ، فكلامها الكثير — ثرثرة حسب رأيها — ولكنه فى مسمع الناس صوت العندليب »(١) .

نعم ، ظلّت فى صراع مع الحياة إلى أن آثرت العزلة على حياة اضطربت ، فى نظرها ، موازينها ومثالياتها ، وقد أصابها فى أخريات أيامها ما يصيب كل فتاة عانس ولا سيما إذا كانت أديبة ذات إحساس متقد وشعور دافق — ما أصاب « مىّ » ، وقبلها مريانا المراش ، فلزمتْ بيتها تتأكلها الهواجس والآلام ،

---

(١) مجلة « المعرفة » العدد ٤٨ ص ١٣٠ .

وظلّت تجترّ ذكرياتها ، الحلوة منها والمرة ، إلى أن فاضت روحها فى مساء الخامس والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٦٥ بعد أن تركت أحد عشر مجلداً من مجلتها ، إلى روايتين ترجمتهما عن الإنكليزية وهما «المجدلية الحسناء» و « أمجد الغايات » وديوان شعر ، إلى مقالات متفرقة لم يطبع منها غير مختارات نشرتها « الرابطة الثقافية النسائية » فى دمشق :

ومن شعرها :

أمل الفلاح

مَن الفارس المغوار فى ساحة الوغى ... مَن السهم لا يثنيه ردّ الجحافل
مَن النهر يجرى بين كفّيه صاغراً ... يُغيّر مجراه برغم الحوائل
مَن الغصن يهتز انشراحاً للمسه ... ومَن ذا كسا الجرداء أبهى الغلائل

• • •

هو الزارع الفلاح لولا جهاده ... لما شمت بالريحان حسن المخايل
هو الطود للعبء الثقيل وقد بدا ... على وجهه منه اتقاد المشاعل
نبيّ فقد أوحى إلى الفقر بالشذا ... وعلّق أقراط الغصون الحوامل
رسالته طيب وجنى ونشوة ... وكعبته الخضراء حجّ القوافل
فنى جدّه عين الحياة تفتّحت ... على غرر من كل صوب حوافل
بها موكب الأرواح والكرم والمنى ... يرفّ حواليه جناح البلابل
يلين لطلع ناعم النسج غضّه ... له صور الأحلام فى عين آمل
كأنى به أم تلين لطفلها ... وترعاه فى عطف على الدهر شامل
شغوف بحسن الأرض يهوى خيالها ... ولو حال دون الملتقى ألفُ شاغل
وقد بات مطبوعاً على لوح قلبه ... بصورة روض ناضر الزهر مائل
تغنّى له فى كل فجر حمامة ... وتحنو عليه دوحه فى الأصائل
فتسرع أسراب الطيور مطيعة ... يُعدن ، ولا يدرين معنى التكاسل
وكلب حمول للرزايا محبّب ... رقيب وفىّ العهد ، ليس بخاذل

يبيت وقطعان النعاج ببـــابه ... فلست ترى فى أهله غير باذل
وماذا عليه إن تقوّس ظهره ... على كونه فى الرقص حور الحمائل
لئن ضاق بالكوخ الصغير مقامه ... فإن له رحب الفضاء المقابل
خلا جيبه أما الفؤاد فملؤه ... حنان يفيض الدهر فيض الجداول
تغلغل فى صُمّ الجنادل روحه ... ففجّـر بالإلهام أصفى المناهل
يشعّ من المحراث ما فى فؤاده ... من النار يستحيي بها كلّ ماحل
فهل عجب إن بث روحاً فرددت ... شفاه الأقاحى مدحه بالهيا كل
لئن خشنت منه اليدان فكفّه ... سماح وإن الجود بسط الأنامل
يتيه عليه المترفون بمـــالهم ... وليس لهم مثل ابتسامة عامل
فإن أرقوا لم تعرف السهد عينه ... وإن بطروا أثنى على خير واصل
وإن ركبوا أسرى فجلّى عليهم ... وإن سكروا لم يدر معنى التغافل
وأحلى نشيد فى الليـــالى سماعه ... نشيد غيوم الأفق تهمى بوابل
يُذلّ عقاب الشمّ بأساً وقـــوة ... وينزل فى الغابات أعلى المنازل
هو الساعد المفتول لا يعرف الونى ... هو العزة الشماء دون تطاول
فما الزهر إلاّ الشكر حقّ لجاهد ... وما الخصب إلا من جزاء المناضل

عز الدين التنوخى

١٨٨٩ – ١٩٦٦

من أعلام اللغة ، عاش حياته مع المعاجم والكتب ، ولا سيما كتب الأدب والبلاغة والمخطوطات التى تتصل بعلوم العربية ، وقد حقق ونشر أكثر من كتاب واحد .

ولد فى عام ١٨٨٩ بدمشق . وبدأ حياته بتعلم القرآن فى المدرسة الابتدائية السباهية . ثم درس مبادئ اللغات : العربية والتركية والفارسية والفرنسية فى المدرسة الرشيدية الابتدائية والعالية ، ثم انتقل إلى مدرسة الفرير الإفرنسية ومنها إلى مصر لطلب العلم فى الأزهر . . وعاد بعد الأزهر إلى فرنسة مع البعثة العلمية الأولى الدمشقية ليدرس الزراعة فى إحدى مدارسها فمكث ثلاث سنوات . ولم يكد يرجع ليتولى التدريس فى المركز الزراعى فى بيروت حتى تنشب الحرب العالمية الأولى ويُدعى لخدمة العَلَم . . .

وإذ كان كالكثيرين من شباب العرب يضطرم قلبهم بحب العروبة وببغض الأتراك الذين أضمروا السوء للعرب ، فقد فرّ من الجيش التركى بحلب والتحق بثورة الملك حسين ، ولم تكد تنتهى الحرب العالمية ويدخل الجيش العربى سورية حتى عاد إلى دمشق ليساهم مع إخوانه الشباب ، وإذ كان ممن يملكون ناصية العربية فى تلك الفترة التى كانت اللغة التركية هى الطاغية على لغة الدواوين عين عضواً فى « مجلس المعارف » الذى ألفته الوزارة والذى تحوّل فيما بعد إلى « المجمع العلمى العربى » .

ولم يمكث طويلا فى دمشق ، فبعد العدوان الإفرنسى عليها واحتلالهم سورية — هاجر إلى العراق فعين أستاذاً للأدب العربى فى دار المعلمين ثم دار المعلمين العالية ببغداد . وظل سنوات إلى جانب ساطع الحصرى عاد بعدها إلى دمشق . ليعيّن أميناً لسرّ المجمع العلمى العربى وليتولّى التدريس فى المدارس الثانوية وفى كلية الآداب . . وظلّ فى البيئة التدريسية إلى أن أحيل

على التعاقد فعين نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية . وظل يشغل هذا المركز الذى يوائم ثقافته ونفسيته إلى آخر يوم من حياته . .

« . . لم يكن الأستاذ التنوخى مرجعاً فى كتبه ومؤلفاته التى أنشأها وحققها وترجمها فحسب . بل كان فى حياته فى المجمع موئلا لأعضائه وموظفيه وزواره يرجعون إلى ذاكرته فيما يستعصى عليهم معرفته من كلمة لغوية أو نادرة نحوية أو قضية فقهية أو مشكلة تفسيرية ، فكان أسرع فى الإجابة إلى كل ذلك من الكتاب نفسه . وكانت إجابته لا يأتيها الباطل أبداً لشدة تثبّته مما يقول ، وتأكده مما يروى .

وكان كل عالم عنده معرضا للخطأ لأنه إنسان يخطئ ويصيب . كما كان كل كتاب فى رأيه غير خال من العيب لأن الكمال لله وحده . وأذكر شاهداً على هذا أنى شاهدته يراجع الجزء الأول من المعجم الكبير «تاج العروس » للزبيدى ، وقد ملأ حواشيه بملاحظاته القيمة وتعليقاته الرائعة ، وبعد أن قرأ علىّ شيئاً من هذا قال : « إن الزبيدى ذاته لم يسلم من الخطأ فى هذا المعجم الرائع » ردلنى على عثرة تاريخية تورط بها هذا العالم الكبير. وقد كان رحمه الله يقرأ لى ثم التفت إلىّ يقول : « لا تستغرب أن يقع الزبيدى فى الخطأ فقبله وقع فى الأخطاء ابن منظور ، وابن سيده ، والفيروزابادى والجوهرى ، والفيومى إلى آخر هذه الأسماء التى خلدت بمجهودها اللغوى وبحثها العلمى والنحوى » [1] .

* * *

كان ينظم الشعر ويخطب فى المناسبات ، وهو يملك ناصية القول : وقد شهدته فى أكثر من مناسبة قومية وفكرية ، فكان يعتلى المنبر لفترة محددة ، فلا يكاد يبدأ حتى يسترسل ويسهب إسهاباً يُدخل الملل إلى نفوس المستمعين . . وقد يُنبه ، فلا يسمع ، ويظلّ يتكلم ، ويتكلم إلى أن ينقلب الملل ، لدى المستمعين ، سأماً وضجراً .

---

(١) « المعرفة » العدد ٥٤ آب (أغسطس) سنة ١٩٦٦ ص ١٢٣ – ١٢٤ الأستاذ أحمد الجندى .

ومن النكات التى تروى أن ظريفاً دمشقياً شكره عقب حفلة عامة لم يخطب فيها . وفوجئ هو بهذه العاطفة الندية تخرج من هذا الإنسان الذى لا يفلت أحد من نكاته اللاذعة ، وسرعان ما استدرك وقال له : لكنى لم أخطب أيها الأخ ، فى هذا الحفل ! وأجابه ظريف دمشق على الفور : جئت أشكرك لأنك لم تخطب !! .

* * *

على أن هذه النكتة اللاذعة التى يرددها أدباءدمشق لا تنقص من فضل الرجل الذى يعد من أعلام اللغة التى صان ذمارها ، وقد ترك الكثير من الآثار المطبوعة تأليفاً وترجمة وتحقيقاً أثبتها فيما يلى :

١ — الفتح المبين فى شرح عينية ابن سينا الرئيس

٢ — دروس فى صناعة الإنشاء

٣ — مبادئ الفيزياء ، جزءان

٤ — قلب الطفل

٥ — تحقيق كتاب . المنتقى من أخبار الأصمعى للإمام الربعى

٦ — تحقيق « تكملة إصلاح ما تغلط به العامة ».

٧ — تحقيق « بحر العوّام فى ما أصاب فيه العوام »

٨ — شرح « الإيضاح » للقزوينى .

٩ — إحياء العروض

١٠ — تحقيق كتاب « الإبدال » لأبى الطيب اللغوى — جزءان

١١ — تحقيق كتاب « المثنى » لأبى الطبيب اللغوى

١٢ — تحقيق كتاب « الإتباع » « « «

١٣ — تحقيق كتاب « مقدمة فى النحو » لخلف الأحمر . . .

١٤ — شارك فى وضع « المعجم العسكرى » بقسميه « الفرنسى — العربى والإنكليزى — العربى »

وأكثرها مراجع وثيقة للكثيرين من الأدباء وطلاب الأدب .

من شعره :

أكابرنا

أكابرنا ما المجد ؟ ما تطعمونه وجاركم من جوعه ، البطن يابس
أكابرنا ما المجد ؟ ما تكتسونه وهذى اليتامى أعوزتها الملابس
أكابرنا ما المجد ؟ أما فطنتم تُراث أتاكم فجأة ومغـــارس
وأن تبتنى تلك القصور شوامخًا وأن تقتنى للفخر فيها الملابس
وأن تنهبوا الفلاح أرض جدوده وأن تسلبوه غرسه وهو غارس
وأن تأكلوا مال اليتيم وصـــايةً كما فعلت طلس الذئاب النواهس
وأن ترقدوا والحادثات يواقظ وأن تضحكوا والكارثات عوابس
وأن تركبوا للسبق خيلاً سوابقًا وخيلكم فى المكرمات شوامس
لعمر العلى ما المجد زقًّا وقينة ولا هو دور تقتنى وعرائس
فما المجد إلا العلم يحيي مواتكم ولا المجد كل المجد إلاّ المدارس

محمد الفراتى

١٨٩٠

شاعر أديب من منطقة الفرات ، ومن مواليد دير الزور ، نشأ فى أحضان الفقر وعاش طوال حياته فى جوّ من الشقاء والبؤس ، وفى رحاب المطالعة والدرس .

لم يكد يعى ذاته ، ويخطو الخطوة الأولى فى ميدان المعرفة حتى أحسّ بظمإ شديد للاستزادة منها والعبّ من مواردها ، فاتجه إلى الأزهر . .

وهناك ، فى تلك البيئة الدينية العارمة عاش محمد الفراتى فى الرواق الشامى يدرس ويحضر دروس أساتذته فى الفقه والمنطق وعلوم العربية ، وكان قبل سفره إلى مصر يهجس بالشعر ، ويحفظ منه الكثير الكثير .

فى تلك الفترة من أيام دراسته ، ونحددها بقبيل الحرب العالمية الكبرى ، كان العالم الإسلامى يغطّ فى نوم عميق . وكانت رسالة الكتاب والشعراء تقوم على تنبيه الغافلين وإيقاظ الوسنانين للسير فى الطريق الشائكة الطويلة التى سلكتها شعوب الغرب . . .

وكانت أصوات الكاظمى وشوقى والرصافى والزهاوى وحافظ وغيرهم من شعراء الأقطار العربية تعلو فى المناسبات القومية والظاهرات الاجتماعية . وعاش الفراتى فى هذه الفترة ، فارتفع صوته أيضاً ، وهو فى العقد الرابع من عمره :

ترقّت شعوب الغرب من حيث إننا ... من العلم لا قشراً أصبنا ولا لبّا
فهم أعلنوا حرباً على كل جاهل ... ونحن على أوطاننا نعلن الحربا
وهم أوضحوا بالعلم كل خفية ... وبتنا نقاسى من جهالتنا الكربا

ويقول :

بنى وطنى هبّوا جميعاً إلى العلا ... فما خاب قبل اليوم مَن للعلا هبا
دعوت إلى الإصلاح قومى وكم فتًى ... إليه دعا قبلى وما أحد لبّى
ولما رأيت القوم عنى أعرضوا ... ولم يقبلوا نصحى ولم يد ركوا العقبى

أخذت على نفسى المواثيق أننى سأجعل شعرى ما حييت لهم عتبا

وبالرغم من هذه النبرات التى رددها طويلا فقد ظلّ صوته خافتاً لا ينصت إليه الجمهور إذ ليست له شهرة عمالقة الشعر ، ولاسيما ، ومثله فى أروقة الأزهر كثيرون ، فانزوى فى محيطه يعبّر عن ذاته ، ويصف مجتمعه ، ويشكو ظلم القدر وعنت الدهر . .

وتطول سنوات الحرب ، وينقطع عن أهله وذويه ، ويزداد بؤسه وشقاؤه ، ويحاول أن يهجر مصر ويعود إلى وطنه ولكن هيهات والحرب فى أشدّ أيامها ، والاتصال بين القطرين منبتّ ، فيندب سوء حظه ويقول :

بلدة لم ترع حقّى حق لى عنهـا الشخوص
كل غالٍ فهو عندى غير آدابى رخيص
أقسمت أن لا ترانى أعين فى مصر خوص
جحدونى غير بدعٍ جحدت قبلى النصوص
فاعجبى يا دولة الشـ ـعر إذا قال الرهيص
أنا فى مصر مقيم ما على جسمى قميص

ويشعر غيره من الطلاب السوريين بالفاقة والعوز بعد أن انقطعت عنهم موارد أهلهم وذويهم ، ويقام حفل فى دار الأوبرا تحت رعاية السلطان حسين كامل إعانة لطلبة الأزهر السوريين ، ويشارك الأثرياء والأدباء والشعراء فى هذا الاحتفال ، وينشد الفراتى قصيدة تثير الشجن :

حليف سهاد نازح الدار معدم ومالى سوى حسن اصطبارى مغنم
أبيت ومن دمعى بحـار زواخر وفى باطنى جمر الغضا يتضرم
أروح وأغدو لا أرى لى مسعفاً وأرعى نجوم الليل والناس نوّم
لعمرك ما أدرى وإنى لصابر متى ينجلى هذا الشقاء المحتّمُ
وإنى لأخفى الهمّ عن كل شامتٍ ولكن لسان الحال عنى يترجم
ثلاثة أعوام أقاسى بها الأسى أجرع كأس الصبر والصبر علقم

ويقول :

أأبقى بليل البؤس حيران تائهاً　　وفيكم بدور آل مصر وأنجم [١]

وكل أيامه فى مصر شكوى وألم وأنين . يتجلى فيها البؤس من جهة ، والحنين إلى الأهل والوطن من جهة أخرى . .

ويترك مصر إلى الحجاز إثر إعلان الثورة العربية ، ثورة الشريف حسين على الأتراك — أمل العرب آنذاك — ويعيش فترات هناك ، وينظم أكثر من قصيدة . من مدح إلى إشادة بالنهضة العربية ، إلى وصف حياة البادية وشظف عيشها ، إلى حنين إلى مسقط رأسه :

هبت من « الزور » ريح نشرها عبق　　فى طى أردافها المنشور عن وطنى

ريح بها الراح ممزوج بقرقفها　　والزنجبيل وذوب الشهد فى المزن

ولا يكاد يستقرّ فى الحجاز حتى يضيق بجوّها الذى يحدّ من حرية الفكر ولا سيما بعد أن نثرت حوله الوشايات التى كادت تزجه فى غيابة السجن فيعود إلى مصر منتظراً الفرج .

ويجلو الأتراك عن سورية ويرفرف العلم العربى على ربوعها فيعبّر عن فرح الملايين بقصيدة أشار فيها إلى عنجهية الأتراك وازدرائهم لحقوق العرب :

إن فتح الشآم أعظم فتح　　ترتقى مجدها به الإسلام

أبنى الترك فاعلموا اليوم أنا　　أسد فى اللقاء صيد كرام

* * *

يا بنى العرب هبة من رقاد　　إن ذاك الرقاد عار وذام

فلأجدى الأمرين إما ممات　　أو حياة ما بعدها إرغام

قل فسحقاً إذن لأبناء جنكيـ　　ـز فأمن من بعدهم وسلام

---

(١) أنشد فى هذه الحفلة حافظ إبراهيم قصيدته الشهيرة « أيها الوسمى زر بنت الربى » والتى اختتمها بقوله :

إن فى الأزهر قوماً نالهم　　من لظى نيرانها بعض الشرر

أصبحوا — لا قدر الله لنا —　　فى عناء وشقاء وضجر

نزلاء بيننـــا إن يرهقوا　　أو يضاموا إنها إحدى الكبر

فأعينوهم فهم إخـــوانكم　　مسهم ضر ونابتهم غـــبر

أقرضوا الله يضاعف أجركم　　إن خير الأجر أجر مدخر

ويعود الشاعر إلى « دير الزور »فلا يكاد يستقر بها حتى تتقاذفه الأيام فيسافر إلى العراق ثم إلى البحرين . . ثم يعود إلى سورية ، ولم ينقطع خلال هذه الفترات عن النظم من شعر قومى إلى شعر اجتماعى ، إلى ما يهز ضمير الأمة العربية فى صراعها مع مغتصبى أوطانها .

فاجتمع لديه ثمانية دواوين لم يطبع منها غير الجزء الأول سنة ١٩٣١ بعنوان « ديوان الفراتى » ، أما البقية فحبيسة خزانته وهى : « النفحات الأولى » . « العواصف » ، « الهواجس » ، « صدى الفرات » ، « النفحات الثانية » ، « أروع القصص » ، « سبحات الخيال » .

هذا ، وإلى اهتمامه بالأدب والشعر . فقد درس علم الفلك على بعض علماء الهيئة القدماء ، وهذا الذى دفعه أن يكون على اتصال بالآراء العلمية الحديثة ، وحين تأرجح بين قديم هذا العلم وحديثه قفز إلى المريخ على جناح الشعر فكتب كوميدية فى بضع مئات من الأبيات بعنوان « إلى عالم المريخ » حذا فيها حذو الزهاوى فى « رحلته إلى جهنم » وإن اختلف الشاعران فى الاتجاه والنزعات . فالفراتى ، إلى فلسفته الشكوكية ، مؤمن كل الإيمان ، بخلاف الزهاوى الذى طغت نزعته الشكوكية على إيمانه ويقينه .

وتشتمل هذه الكوميديا السماوية على :

١ — حلم مريع أو ليلة فى عالم المريخ

٢ — الكوميديا السماوية : مَنْ أنا ؟ ومن أين جئت إلى هذا الوجود ؟

٣ — الساحر

٤ — غرور الشباب

٥ — فى حانة إبليس

٦ — إلى أين مصيرى بعد الموت ؟

وقد قصّ فى هذه الرحلة الحياة الأولى فى كوكب « هيدا » وهو سيّار يتبع إحدى شموس المجرة فى طرفها الشمالى من وراء القطب . وكيف تجردت روحه عن جسده فى دنيا ذلك الكوكب وانطلاقها فى السدم إلى أعماق الكون البعيدة حيث رأت نوراً ليس من جنس نور العوالم ، فتوهمت أن ذلك النور هو نور الله ،

جلّ جلاله ، وهنا صادفت روحه روحاً أخرى أخبرتها بأنه سبحانه تعالى تنزه عن أن تراه الأرواح المجردة . وأن ذلك النور هو نور النبي محمد ، وحينما اتصلت روح الشاعر بذلك النور الأقدس صعقت ولم تحسّ إلا وهي إنسان على هذا الكوكب .

يقول :

خرجت عن المجرّة مستحثاً قوى روحي لتسرع فى المسير
فجدّت بى وقد لمحت سديماً يرى كالغيم من «ذات الشعور»
وطارت ألف عام وهي برق وأعياها مدى ذاك العبور
رأت مالا ترى عين ابن أنثى وإن جهدت على كرّ العصور
رأت ماليس يحصى من شموسٍ تحرك كالرحا بيدى مدير
تدحرج كالكرات بصولجان خفى فى يد الملك القدير
وقد تبدو توابعها فتحكى فراشاً حام حول كرات نور
غريب أمر هذا الكون إنى ليعجز عن تصوره شعورى
فلو أعطيت قوة ألف روح وطرت هناك آلاف الدهور
لما أدركت كم فى الكون يلقى سديم وانكفأت على غرورى
وعن ذاك السديم خرجت أهوى إلى سدم كأمواج البحور
تدوّم بالفضاء مبعثرات هنا وهناك تبعث بالحرور
ولولا النور يدفئ كنه روحى إذن جمدت ببرد الزمهرير
بعدت عن السديم أشدّ بعد إلى أن جزت أمواج الأثير
فلم أبصر من الأكوان شيئاً يعد من الطبيعة كالنقير
سوى نور ولا كالنور يلفى تراءى لى فضاعف من سرورى
يلوح على مدى بعد سحيق كومض البرق فى الليل المطير
فقلت لعل هذا نور ربى وذى سبحانه من قدس طورى
فزدت له اشتياقاً واعترانى ذهول كاد يفقدنى شعورى
فرحت له كمثل البرق تحدو بى الأشواق كالطفل الغرير
إلى أن صرت عنه قاب قوس ولا تسأل هنالك عن حبورى

إذا صوت يرنّ بسمع روحى غريب الجرس أشبه بالصفير
تعالى الله ليس تراه روح مجردة ولا عينا بصير
ولا تجهل فذلك نور طه حبيب الله ذى الجاه الكبير
تقرّب واغترف من فيض نور يحفّ الكون كالبحر الغزير
ولما أن قربت نشقت عرفاً ذكيًّا فانتشيت من العبير
محيت من الوجود فلا وجود يعبّر عن مفاتنه شعورى
ولا أدرى بنفسى أين أضحت فهل محقت إلى أخرى الدهور
إذا بى فوق هذى الأرض أحيا وتحت لوائه يحيا ضميرى

والقصيدة طويلة — أزيد هذا المقطع من الكوميدية التى تضمنت أيضاً جولته مع كوكب الزنادقة وكواكب الشعراء وكواكب العباقرة — عباقرة العلم — الذين يصفهم بقوله :

أهابت بالطبيعة فاستجابت عناصرها لما تهوى قواها
تحيل إذا تشاء الترب تبراً وحر لظى تقطّره مياهـــا
وما غير الأثير لهـــا وسيطاً وكاد يكون فى نظرى إلها
ويكفى أن تموجه عقول بفكرتها فيبلغها مناها
متى رامت عويصاً ذاّلته وكم من مشكل حلت نهاها
لها فى كل فن عبقرى تمارسه طرائق لا تناهى
وتشعر بالثوانى حين تمضى ولم تكحل بغمض مقلتاها
ويبنى كل فرد فى أوان صروحاً يعجز الدنيا بناها
عباقر تخلق الأشياء خلقاً ولم تنكر خوارقها الإلها

والكوميديا فى نيف وستمائة بيت .

ولا شك أن لشعراء الفرس القدامى أثرهم فى هذا الاتجاه .

ونحن نعلم أن الأستاذ الفراتى يحسن الفارسية كالعربية وقد وضع فيها عدة كتب وترجم عن أكابر شعرائها .

وضع ثلاثة كتب فى قواعد اللغة الفارسية وتعليمها باللغة العربية ، وهى فى ٧٠٠ صفحة ، إلى قاموس فارسى عربى ، وآخر للكتابات الفارسية .

وقد ترجم رائعة سعدى الشيرازى — نهلستان — « روضة الورد » وهى من

أشهر مؤلفاته التى تضمنت كثيراً من الحكايات الطريفة والمفارقات التى مرّت بحياته إلى ملح وحكم ونكات وأفكار ترمز إلى التوجيه والإصلاح . .

كما ترجم روائع من شعر ثلاثة من أعلام شعراء الفرس وهم جلال الدين الرومى وسعدى الشيرازى وحافظ الشيرازى — ترجم شعرهم شعراً فجاءت الترجمة كما اعترف كبار أدباء الفرس المعاصرين الذين يحسنون اللغتين — جاءت الترجمة كالأصل .

* * *

لقد اجتمعت للفراتى ثقافة دينية وثقافة أدبية « أزهرية الطابع » ، وانطلاق فى جواء الأدب الفارسى الكلاسيكى ، ومطالعة لما تقذفه ثقافة العصر من نزعات تجمع بين روحانية الدين ومادية العلم ، فإذا تفلسف فى أسرار الكون والحياة كان مشدوداً إلى تلك الينابيع الثرة ، وهذا ما يلمسه القارئ فى كوميديته « الحلم المريع » أو « ليلة فى عالم المريخ »(١) .

ولكتاب الله الكريم أثره البالغ فى ثقافته الدينية والأدبية التى بدت واضحة فى كتابه « إعجاز القرآن » فى الآيات الكونية وتطبيقها على أحدث نظريات الفلك.

وما يزال ، وقد جاوز التسعين(٢) يعيش ، بعد أن احتضنت وزارة الثقافة والإرشاد القومى شيخوخته — يعيش فى جوّ من التأليف والترجمة والنظم ، وكان آخر إنتاجه ترجمته لراوئع الأدب الفارسى القديم كما أشرنا آنفاً .

---

(١) ارجع إلى مجلة « الحديث » المجلد ٣١ الأعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ سنة ١٩٥٧ .

(٢) لا عبرة لما جاء فى سجل النفوس من أنه من مواليد سنة ١٨٩٠ ، فالواقع ، أنه جاوز التسعين — مد الله فى عمره — وقد أشار إلى ذلك فى قصيدة « غرور الشباب » التى نظمها قبل سنوات فى مداعبة شيخوخته على ضوء نظرية فورنوف بقوله :

شاب رأسى من الزمان وشابت ... مع رأسى جوامح اللذات
أترانى وقد بلغت من العمـ ... ـر عتيا وجفّ ماء قناتى
وأرانى وقد أنفت على التسـ ... ـعين حتى حسبت فى الأموات
أتمنى بأن يعود شباب ... لى طالت فى إثره حسراتى
قال : هذا علىّ غير عسير ... فأطعنى أجئك بالبينات
فبتلقيح خصيتيك ستمسى ... بنشاط النسناس فى الغابات
قادراً ما حييت مثلى على فتـ ... ـح حصون الأوانس الخفرات

من شعره :

الصواعق المحرقة

وهى القصيدة التى وصف فيها ذاته قبل خمسين سنة . .

أخى ليس ما بى من جنون ولا مس ... ولكن صرف الدهر أفقدنى حسى
هو الدهر لم يخلص من اللؤم طبعه ... فليس على من لم يساعده من بأس
سقانى من الأوصاب نهلاً وعلنى ... ثلاثاً فلم أسكر فأترع لى كأسى
فلو كنت مداحاً «كشوقى» لما سفت ... على السوافى من شقائى ومن تعسى
إذن كنت أكتال المديح لعاهلى ... فأصبح من نعمى الحياة كما أمسى
ولو كنت رساماً رسمت بريشتى ... زميلى «جان فاجان» فى ظلمة الحبس (١)
وأعملت فكرى كى أمثل بؤسه ... كما يقتضيه الفن منى على الطرس
ولو كنت مثالا لما كنت ناحتاً ... مثال «إمام العبد» إلا من الجبس (٢)
ويكفيه منى أن أبيض وجهه ... فلون بياض الجبس رمز إلى النفس
فقد كان مثلى خامل الذكر معدماً ... وقد كان مجهول المكان أخا بؤس
يريد له فلساً فيخطب وده ... وأين مكان النابهين من الفلس
ولو كنت بناءً بنيت كما أشا ... قصورى بالآجر والطين والكلس
فأسكنت أطفالى ببيت يكنهم ... وما أعولت أمى لا شقيت عرسى (٣)
ولو كنت نجاراً لأتعبت ساعدى ... بكدحى بالمنشار طوراً وبالفأس
وأحضرت أخشابى لأرضى زبائنى ... من الساج والصفصاف والجوز والبقس
وحددت منقارى وأرهقت مسجحى ... وأجلست من يأوى لبيتى على كرسى
ولو كنت حلاقاً «لزينت» لحية ... بدت فى أديم الذقن من مطلع نحس
فطالت كليل البائسين فمن لها ... بموسى إذن تأتى عليها من الأس
لقد نسجت فيها العناكب فاغتدت ... من العدم والإملاق صفراء كالورس

---

(١) جان فالجان هو بطل رواية « البؤساء » التى وضعها فيكتور هوغو .
(٢) إمام العبد هو ، كما يقول الشاعر ، إمام البؤساء .
(٣) العرس بكسر العين : الزوجة .

ولو كنت جناناً غرست بجنتى نخيلا وأعناباً فأثمر لى غرسى
ولو كنت كناس الشوارع ساعة نهضت فعاقبت المسيئين بالكنس
ولوكنت « عزرا » أو «صيون» وجدت لى مكاناً بيافا أو بحيفا أو القدس
ولو كنت زنجيًّا لعشت منعماً هنالك فى السودان بين بنى جنسى
ولو كنت عفريتاً من الجن لاحتفت بى الجن فاستغنيت عن صحبة الأنس

ثم يخاطب شيطانه بقوله :

فما أنت ممن يبدل الغى بالهدى ولا أنا ممن يبدل الطهر بالرجس
فكيف اتفقنا يا خبيث وإنمـا هو الدهر مطبوع على الغبن والوكس
فلا تعترض رأياً أراه فإننى عهدتك يا «ملحوب» ذا خلق شرس (١)
همست بأذنيه فراح مولياً كما يخرج السهم المريش عن القوس

وبعد أن يذكر أيامه فى بغداد وما امتاز به العراقيون من مروءة وشمم ودفاع عن وحدة العرب يقول :

فلست بناس ما حييت ولاءهم على أنها الآلام من طبعها تنسى
عذيرى من الأيام هل أنت منصفى فقد أخلفت ظنى وقد غيرت حدسى
فهل نافعى أنى أديب ومركبى على ساحل الآلام من شقوتى مرسى
أبى الله إلا أن أعيش مشرداً قريباً من البلوى ، بعيداً عن الأنس
صواعق نار من فؤادى قذفتها فروحت عن قلبى ورفهت عن نفسى

---

(١) ملحوب اسم شيطان الشاعر .

معروف الأرناؤوط

١٨٩٢ — ١٩٤٨

صحفى ، أديب ، روائى .

ولد فى بيروت سنة ١٨٩٢

من خريجى الكلية العثمانية الإسلامية التى أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهرى .

كان منذ عهد التلمذة ميالا إلى الأدب ، وقد عكف على دراسة العربية والإفرنسية فتفوق فيهما على أقرانه ، بدأ يكتب ويترجم وينشر مقالاته فى جرائد « البلاغ » و « الرأى العام » و « الإقبال » فلفت إليه الأنظار .

اجتذبه الفن الروائى فعكف على مطالعة القصص الإفرنسية وأفاد منها كثيراً .

كان أسلوبه الإنشائى وخياله الجامح من العوامل التى مهّدت له أن يلج ميدان القصة ، فكتب وترجم أكثر من قصة واحدة ، وهى قصص كانت تدور فصولها على المغامرة والبطولة وتستمد وقائعها من هذه الأحداث التى تشغل بال المواطنين العثمانيين .

فى سنة ١٩١٦ طلب إلى الجندية ، ويشير إلى ذلك بقوله :

« فى صيف سنة ست عشرة وتسعمائة وألف . ألقت بى حظوظى إلى مغانى إستانبول ، وأرادنى القدر جندياً من جنود الحرب الكبرى التى روعت القصىّ والدنىّ ، فارتضيت ما لا يرتضيه العمر الطرى الجنى » .

وقد ظل طوال مدة الحرب فى الآستانة ينعم بجمال طبيعتها فاستيقظت فى نفسه الكثير من الهواجس الأدبية فسجلها بأسلوبه الرائع الجميل .

لم تكد تنتهى الحرب حتى عاد إلى دمشق ليعمل فى الصحافة ، فأصدر فى عام ١٩١٨ جريدة « الاستقلال العربى » بالاشتراك مع عثمان قاسم ورشدى ملحس لم تدم طويلا . وإذ كان من هواة الصحافة فقد أنشأ فى عام ١٩١٩ مجلة أدبية باسم « العَلَم العربى » لم تكتب لها الحياة أيضاً فتركها وأصدر عام

١٩٢٠ جريدة « فتى العرب » فاستمرت تصدر باستمرار مدة ربع قرن وظل يحررها ويكتب مقالها الافتتاحي إلى آخر يوم من أيام مرضه الوبيل . وقد كان للمقال الرئيسي الذي يكتبه صداه القوي في نفوس الساسة والأدباء معاً ، لأنه كان يصوغ الفكرات السياسية والاتجاهات القومية في قوالب من الأدب الرفيع غاية في الجزالة والإيقاع الموسيقي . مع أنه كان ينهج في سياسة جريدته نهجاً حرًّا يخالف أحياناً نهج الساسة ، ومع ذلك فقد كانوا يجمعون على تقديره وحبه وعلى إكبار أدبه لإيمانهم بإخلاصه للقضية العربية ولكل مايتصل بتاريخ العرب.

وقد كان إلى عمله الصحفي ، يغذي جريدته بالدراسات والبحوث : يكتب الفصول الأدبية والبحوث التاريخية ، ويترجم المقالات السياسية عن الإفرنسية ، وظل سنوات يتولى وحده تحرير الجريدة كلها .

ومع مشاغل الصحافة المتعبة المرهقة فقد انصرف إلى التأليف الروائي الذي بدأ به حياته الأدبية .

وكتابة الرواية هي الظاهرة التي انسجمت مع نفسيته وأدبه ، فقد امتلأت نفسه بأمجاد العرب وتاريخهم المجيد ،ولا سيما تاريخ النبي محمد ، فعكف سنوات يعدّ العدة لهذه الرواية التاريخية فما انبثق عام ١٩٢٩ حتى كان بين يدي قراء العربية روايته الكبرى « سيد قريش » وهي في ثلاثة أجزاء قاربت صفحاتها الألف صفحة . فكان لصدورها دوي كبير في عالم الأدب ، وسرعان ما كافأه المجمع العلمي العربي على إنتاجه فانتخبه في سنة ١٩٣٠ عضواً بين أعضائه العاملين ، واستمر إنتاجه الأدبي فأصدر سنة ١٩٣٦ رواية كبيرة عن « عمر بن الخطاب » في أربعة أجزاء تناولت بأسلوب روائي شائق حياة العرب الاجتماعية والسياسية وكفاحهم في سبيل حرية الشام والعراق من زمن محمد سيد قريش إلى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ومن المؤسف أن لا يصدر منها غير جزأين فقط بلغت صفحاتهما السبعمائة . ثم أصدر في عام ١٩٤١ رواية ثالثة عن « طارق بن زياد » وأعقبها برواية رابعة عن « فاطمة البتول » [١] ثم هدّه المرض

(١) وكانت أولى محاولاته في كتابة الرواية التمثيلية رواية « أبو عبد الله الصغير » آخر ملوك العرب في الأندلس ، وهي مأساة تاريخية ذات خمسة فصول طبعت سنة ١٩٢٩ على نفقة الكلية الفاروقية بحلب .

فتوقف إنتاجه وهو فى اكتمال كهولته ، فلم يكد يتم العقد السادس من حياته حتى وافاه الأجل فى اليوم الثلاثين من شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٨ . وكأنه كان ينتظر مصيره العاجل ، ففى مقدمة إحدى رواياته يقول :

« ولئن بقى فى الأمل طول ، وفى الأجل فسحة ، فسأكتب كثيراً ، وأصور كثيراً ، وأغنى كثيراً . . »

ولكن القدر لم يرأف بهذا الأديب ليكتب كثيراً ، ويصور كثيراً ويغنى كثيراً . . ولو مد الله فى أجله وعمّر طويلا لترك للأدب العربى ثروة ضخمة ولكتب تاريخ أبطال العرب بأسلوبه الرائع وبيانه المشرق الذى تترقرق الحياة فى كل كلمة من كلماته .

* * *

هذا ، وقد كان معروف الأرناؤوط من المؤمنين بفكرة الإمبراطورية العربية فكتب فى الدعوة إلى هذه الفكرة مئات المقالات ، وقد برزت هذه الفكرة صوراً حية حتى فى رواياته . . ففى رواية « سيد قريش » — والمفروض أن تكون ذات إطار دينى — كانت الفكرات القومية أغلب ، وما رأيت كاتباً استطاع أن يقرب بين وجهة نظر المسلمين والمسيحيين فى القومية العربية ويحببها إليهم بل يجعلها عقيدة من العقائد كما فعل معروف الأرناؤوط ، ومن يقرأ روايته هذه ، ورواية « عمر بن الخطاب » فإنه ينساق إلى هذه الآراء بدون تردد . فقد أبدع أيما إبداع فى تصوير الشمائل العربية والنخوة العربية والبطولة العربية والكرامة العربية والاعتزاز بالقومية العربية — كل ذلك بتدليل منطقى وأسلوب شعرى أخاذ ينفذ إلى أعماق النفوس — وقد وصف الدكتور سامى الدهان أسلوبه بقوله : « يكتب على الورق كما ينسكب الربيع على الطبيعة فيورق ويزهو ويعطر ويسحر ويضحك ويبتسم ويغنى وينشد ، وتشرق من خلال ذلك ألوان زاهية وأنوار مشرقة ، فتقع على حلو اللفظ وضاحك المعنى وعاطر الصور ومجنح الخيال ، تتسابق الألفاظ المدوية ، والعبارات الضخمة ، والكلمات المختارة بين السطور كما تستبق الفتيات إلى عرس فتزغرد وتصفق وترقص وتنتشى وتسكر ، ثم تخلف هذه الموسيقى التى تبدو للسامع عنيفة حيناً

هادئة حيناً آخر كالطبيعة نفسها ، أو كالموصوفات عينها . يصف المعركة فتسمع القعقعة والدوى . ويرسم الليل الساجى فترى الأشباح تسبح فى الظلام ، ويصور المحبين فتحس الثغور والصدور والقدود تلتقى وتنفصل ، كأن عصاً سحرية قد حركت المشهد وقادت المنظر فاتصل سحر السماء بالحديث ، وانتقل عطر الزهر إلى المرأة . وحملت الملائكة إلى المحبوب فضائل الرجال وخصال الأبطال .

كل ذلك فى كلمات جمعت للكاتب وجعلت طوع يديه ، يصففها ويرصفها فى المحل المناسب ، وتقع فى الموقع الرضى ، فلا تكاد تنبو لفظة إلا فى القليل . فكأنه يقول الشعر من غير قواف ، وكأنه يرصف الدر فى السطور من غير أن تحس له تصنيعاً كثيراً أو تكلفاً ممجوجاً ، والغريب أنك لا ترى عليه آثار التعب والإرهاق فهو يكتب الصفحات كما يكتب السطور ، يسيل قلمه بالكتب هداراً كشلال يرغى ويزبد عند مسقطه ، فإذا سار صفا وسكن ، وتقلبت على وجهه صور السماء وظلال الأحياء ، ولذلك كتب فنال فى الأدباء مرتبة الكاتب المحلّق والأديب المسترسل ، وقد امتدحه لذلك شاعر القطرين خليل مطران ، وقال فيه العالم الأديب الدكتور منير العجلانى يصف « روعة إنشائه المشحون بالعطر والصدى واللون » وكتب فيه صفيه الأستاذ الكبير شفيق جبرى عميد الأدب فى الشام يرسم ذكرى ثلاثين عاماً معه يقول فيها : « كان يجب فى فنه الألفاظ الحلوة المرحة الضاحكة ، ويحرص على هذا الشكل من اللغة ، وما أعرف كاتباً اجتمع له من حلاوة الألفاظ ومرح اللغة وبشاشتّها ما اجتمع لمعروف الأرناؤوط » (١) .

قال يصف جزيرة العرب :

---

(١) « مجلة المجمع العلمى العربى » المجلد ٢٩ ج ٢ ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

جزيرة العرب

تمتد مصر إلى الشمال الشرقى من أفريقية ، فهى بلاد النهر الأزرق والسهل الأخضر ولكن الصحراء الغلفاء تغمر هذا وذاك ، ثم يربط مصر بالعالم الآسيوى شسع من أرض كدراء ، وتمنعها أن تقرب من دجلة والفرات شواهق الرمال وبواسق التلال .

تتالى على مصر فى عمرها المديد فراعنة وقياصرة . وتعاقب على العراق أمتان عظيمتان : بابل وآشور ، ثم طلعت مصر على العالم بالروائع الفواتن ، فطلعت بابل وآشور على العالم بالروائع الفواتن ، ونزعت مصر إلى الفتح فى بابل وآشور فمنعتها الصحراء هذه الأمنية ، ثم نزعت بابل وآشور إلى الفتح فى مصر فحاربتها الصحراء فى أقدس شهواتها القومية .

ولم يلبث أسياد الدنيا القديمة فى دجلة والفرات والنيل أن فطنوا إلى خطر البيد التى تصاقب بلدانهم فنزعوا إلى إذلالها وترويعها ، ورموها بالجيوش والكتائب فجنبت أرضها الذل والروع . وقهرت الجيوش والكتائب . فجنح أسياد الدنيا إلى أسلوب جديد فى التضييق على الصحارى فأقاموا على أطرافها الحواجز وخلقوا فى هذه الأطراف الفيح طوائف من الممالك وولوا أمرها صنائعهم وعبدانهم من ملوك وأمراء فأمعن هؤلاء الملوك والأمراء فى طوافهم بالصحراء يريدونها على أن تلين فلا تقهرهم على الملاينة لأنها تحب الحرية ولأنها المهد الأول للحرية .

ثم طويت مصر القديمة وأدرج الفراعنة فى رمال العفاء ، وامحّى رسم بابل وآشور . وتتالت على شواطئ النيل ثم على شواطئ دجلة والفرات أمم وشعوب ودول ، وشرع هؤلاء الذين ورثوا دنيا المصريين ودنيا الآشوريين والبابليين فى إنشاء الحياط والأسوار والحصون ، ثم جهزوا الجيوش والكتائب ورموا بها إلى الصحراء فعبثت بكبرياء الجيوش ، ولم يرعها زهو الكتائب . وذلك لأنها تحب الحرية وتحرص على أن تظل مهدها الأول !

وهكذا ظلت شواطئ النيل وشواطئ دجلة والفرات ميداناً واسعاً لمصارع الدول والأمم فى أفريقية وآسيا ، فشهد التاريخ فى متباين عصوره عبقرية هذه

الأمم فى الإعمار والإنشاء ثم شهد عجزها عن الصمود أمام بواعث الفناء .

حدث هذا فى عالمين اثنين يختلفان فى السلائق ويتباينان فى الشيم ، بينما الصحراء الغلفاء تقبس نشاطها وزهوها من بريق الشمس على الرمال . وبينما أبناؤها يبتسمون للحياة وهم شخوص إلى مصارع الأمم ! وذلك لأن الصحراء تحب الحرية ولأنها تحرص على أن تظل مهد الحرية الأول !

اسم هذه الصحراء « جزيرة العرب » وما بهذا الاسم سرف ولا إغراق وكيف يكون فى هذا الاسم سرف وإغراق ورمال جزيرة العرب تحتدم وتضطرم كما تحتدم البحار وتضطرم ، ثم تفور وتثور كما تفور البحار وتثور ! ثم هى إلى ذلك ليل مديد ينشر ظله المحرق فى بطحاء غبراء تبلغ رقعتها ثلاثة ملايين كيلومتر يفصلها عن بلاد الأكاسرة خليج فارس وعن الهند الإقيانوس الهندى وعن أفريقية البحر الأحمر وقناة السويس . وتحول بادية الشام بينها وبين بحر الروم وتمنعها رمال العراق من دجلة والفرات .

يتألف هذا العالم السحيق من تهامة على السواحل ومن نجد فى السهول وتنحرف هذه السهول العليا من الغرب إلى الشرق مبتدئة بتلك القمم الرفيعة التى تحدق بالبحر الأحمر ومنتهية عند الهضاب والتلال فى الخليج الفارسى . ثم تبلغ هذه الجبال أوسع مدى فى السمو والارتفاع فى إقليم مواب ، ولاتلبث أن تنحدر حتى تبلغ فى انحدارها صعيد اليمن من غير أن تكون لها صفة الجبال المتقاربة المتشابكة لأن أودية عظيمة تفصل بين أجزائها ، وأعظم من هذا كله وأجل أن تتفاوح شطآن الجزيرة على البحر الأحمر فى أماكن واعرة لا يجرؤ أجنبى على وطئها ولا تقربها السفن .

فأى خارقة من الخوارق هذه الدنيا الغارقة فى الرمال ؟

* * *

إلى أن يقول :

فى أساطير القدماء أحاديث لذة وبارعة عن المهد الأول لحرية الإنسان الأول. ومن هذه الأحاديث اللذة البارعة . أن سيد العالم حينما خلق الأرض وأترعها بالصخور والمياه والمروج والأودية وخلع عليها بدائعه وروائعه لم يمنع

جزيرة العرب من نعمه السوابغ ففجر فى بطحائها الأنهار وأخصب مراعيها ، ثم أحب أن يهب لكل مصر من أمصار الدنيا حظه القليل من الرمال وفى ذلك نفع كبير للناس فابتعث جبريل رئيس الملائكة على توزيع الرمل فلذعت الغيرة إبليس رئيس الشياطين وهو فى مستقره فأقسم ليكيدن لجبريل ، فلما حلق سيد الملائكة فى سماء جزيرة العرب تهافت إبليس عليه وأحدث فى الكيس المليء بالرمل ثقوباً فاستفاض على الجزيرة وطغى على الأودية والأنهار والبحيرات فأصحرت الأرض وجفت المياه واستحال البلد الذى حباه الله بضحك الربيع المونق إلى فلوات جاهمة شديدة التعبيس .

ولكن الله الذى أحب جزيرة العرب لم يرقه هذا الذى فعله زعيم الشياطين فقال : « لأكسونها حلة من ضياء وبهاء » ثم أفاض على ترابها الذهب وأترع آفاقها بضياء الشمس وملأ نفوس ناسها بنشيد الحرية الرقيق فأشجى إبليس أن تغمر هذه الأرض الكابية سيول من الضياء وروعه أن يلطف نشيد الحرية الرقيق صدرها — الجائش الثائر ، فأحاط أفقها بالغيوم وطفق يقهقه ، ولكن الله كان يحب هذه الجزيرة العاربة فلم يشأ أن يتمادى إبليس فى طغيانه فابتعث ملائكته على تبديد تلك الغيوم ففعلن وأترعن سماء الجزيرة بالنجوم الزواهر فإذا خطف هذا الذهب الإلهى فى المساء بهرت بروقه أعرابى الصحراء وتسرب من هذه البروق قبس جميل إلى خيمته فضوأها فرق وافتتن ووضع يده على صدره فإذا هو يمور بذلك النشيد العلوى فيلذ صليله ويفتح فمه لا ليقول ما يقوله الناس بلغة الناس بل ليقول الشعر المهذب الصريح فى الحرية التى صقلت كبرياءه ولطفت أهواءه وجعلت منه وهو الذى يعيش عيشته الجافة الخشنة فى وطنه الجاف الخشن سيد دنياه فى صفاء فضائله ورقة شمائله . ثم ليجعل منه الشاعر الذى يكرم الحرية والنبى الذى يؤثل هذه الحرية !

ثم يختم هذا الفصل الطويل الذى عرض فيه إلى أحداث جزيرة العرب ونشأة سيد قريش بقوله :

وفى يثرب التى فتحت ذراعيها لليتم والفقر والألم والاغتراب أصبح يتيم قريش سيد هذه الدنيا القديمة التى روعها الفرس وأذلها الرومان ، وفى يثرب طفق محمد

ابن عبد الله النبي يرسل الرسل إلى أرض الشام والعراق ليبشر هؤلاء بدنيا جديدة لا تدين لكسرى ولا تخضع لقيصر ، وفى يثرب ارتفع صوت الطفل الذى لم يعرف فى طفولته المتواضعة أباً يهدهد أوجاعه وأمـاً تغنيه أغانيها الرقيقة العذبة ، فسمعته جبال الشآم فرقت له ووعته سهول العراق فصبت إلى جرسه . بلى : فى يثرب لا فى فارس ولا فى بزنطية كان مصدر هذه الشعلة المقدسة التى ضوأت صحارى جزيرة العرب وجعلت منها سيدة الأنهار والبحار من شواطئ عدن إلى شواطئ البوسفور (١) !

بغداد (٢)

كانت بغداد سيدة الشرق ، ومهوى أفئدة الناس فى العالم العربى يوم كان الخليفة القرشى سيد الدنيا بلا منازع .

وكانت بغداد طول عصورها مبثق الفجر الذى ضوأ الصحارى والمدن والبحار النائية والخلجان البعيدة ، لأن الخليفة القرشى سيد الدنيا أبى أن تكون هذه الدرارى الضاحكة على تاج حصاد الفتوح وحدها فوضع على مفرقه حصاد بغداد من العلم والمعرفة والحضارة فهاب العالم بأسها وعنفوانها ، وطأطأ رأسه أمام ذكائها وعبقريتها وتجلى فيها الحامية الراعية الساهرة على ميراث العقل والألمعية .

إننا لا نحاول أن نفتح أمام القارئ كنوز العصر العباسى ، فذلك أمر لا نستطيعه ولا نبلغ إليه ، وليس فى وسع أحد أن يفتح هذه الكنوز . ويرى نفائسها وتحاسينها وزخارفها لأن فى أشعتها ذلك الحريق الذى لا تطيقه عيون المبصرين ، وإنما أردنا أن نفهم الناس أن بغداد فى العصر الحاضر لم تقطع صلاتها بعصورها الماضية ، فهى لا تزال برغم هذه الصحارى التى تفصلها عن العالم الذى كانت ترعاه وتحميه سيدة الشرق ، ومهوى أفئدة الناس ، والنهر الذى تتدفق منه سيول العلم والمعرفة والحرية ، ولا غلو فى ذلك ولا إسراف .

(١) من رواية « عمر بن الخطاب » ج ٢ ص ١٢٠

(٢) مجلة الحديث . المجلد ١٣ العدد ٦ ص ٥١٠ .

خير الدين الزركلى
١٨٩٣

أربعة من شباب دمشق ألّف حب الأدب بين قلوبهم منذ بداية النهضة الفكرية فى سورية ، وقبيل الحرب العالمية الكبرى ببضع سنوات إذا أردنا الدقة. فنظموا وكتبوا ، وكانوا لسورية – كما كان شوقى وحافظ والمطران لمصر – الروّاد الأول لديباجة الشعر العربى بعد هجعته الطويلة ،وكانوا صدى هذه الأحاسيس التى تختلج فى صدور الأمة العربية ، وما زالوا ينظمون ويعبّرون أصدق تعبير عن أحاسيسهم الوجدية ، ومشاعرهم القومية إلى أن أصبحوا حملة لواء الشعر فى دمشق ، أريد بهم محمد البزم وخير الدين الزركلى وخليل مردم وشفيق جبرى..

وخير الدين الزركلى من أسرة دمشقية ، ولد سنة ١٨٩٣ ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية ، انتسب إلى مدرسة اللاييك فى بيروت ، وكان قد درس العربية على مشايخ دمشق – على الشيخ عبد القادر بدران والشيخ جمال الدين القاسمى وغيرهم من الأعلام ، وتتلمذ على مدرسة محمد كرد على الفكرية التى كانت تنزع نزعات حرة فى توجيه الأمة نحو الإصلاح .

« فقد كان محمد كرد على أكبر مشجع لشباب الشام على مدارسة كنوز الأجداد الأدبية وعلى التزود بزاد العلوم العصرية . ولم تكن محاربة الجهل فى الشام من الأمور السهلة فى أوائل هذا القرن ، فلقد كانت حجب الجهل على العقول مسدولة ، وكانت المدارس التى تعلم العلوم العصرية جد قليلة ، فحارب الأستاذ الجهل والحجاب والبدع والخرافات »[١] .

وإذ تتلمذ الشعراء الأربعة على مدرسة كرد على ، فقد نهجوا نهجه وساروا على طريقته وكانت اجتماعاتهم غير المنقطعة تتناول مدارسة الأدب ورواية الشعر والتحدث فى شئون الوطن العربى . . .

---

(١) « مجلة المجمع العلمى العربى » المجلد ٣٠ ص ٣٢٩ الأمير مصطفى الشهابى .

وكانوا يتسابقون فى تصوير خوالج الأمة العربية وإثارة شعور أبنائها لاستعادة المجد الذاهب .

وكان لكل شاعر نهجه فى التعبير عن ذاته ، وإن تلاقوا جميعاً عند هدف واحد : وهو التعبير عن الذات العربية ، والتغنى بأمجاد العرب ، وإثارة الشعور القومى ، مع حرصهم على نصاعة الديباجة وإشراقة الأسلوب . . .

وحين جلا الأتراك عن سورية سنة ١٩١٨ وتأسست الحكومة العربية فى عهد الملك فيصل ، زاول خير الدين الصحافة ولما يبلغ الثلاثين من عمره ، فأصدر مع يوسف حيدر جريدة « المفيد » للدفاع عن الفكرة العربية ، وكان لمقالاته أثرها فى التوجيه القومى ، وفى نقد سياسة الحلفاء الذين تنكّروا للعرب ، بعد الوعود التى قطعوها للملك حسين .

وفى صبيحة اليوم الذى دخل فيه الإفرنسيون دمشق ، ليقوضوا عرش فيصل ويقضوا على ما كان لسورية من استقلال ، غادرها الزركلى إلى فلسطين ، ومنها إلى مصر حيث تلقى دعوة من الملك حسين لزيارة الحجاز ، وتوجه إلى مكة ثم عاد إلى مصر فعمان قبل أن يصل إليها عبد الله بن الحسين .

وكان المجلس العسكرى الإفرنسى قد أصدر حكمه غيابيًّا فى ١١ آب (أغسطس) ١٩٢٠ بإعدام جمهرة من رجال السياسة الأحرار ، وبينهم خير الدين ، ولما بلغه الخبر ، ابتسم ابتسامة الهزء المرير وأنشد :

نذروا دمى حقًّا علىّ ، وفاتهم أن الشقى ، بما لقيت ، سعيد
الله شاء لى الحياة وحاولوا ما لم يشأ ، ولحكمه التأييد

ومن عمان أخذ يكتب قصائده الحماسية ضد الغاصبين . . .

وكان الناس ، فى سورية ، يتلقفون هذه القصائد سرًّا ، وسرعان ما يستظهرها الشباب والشيوخ ، ويرددونها فى مجتمعاتهم الخاصة كنفثة من نفثات شاعر حر ، نزح عن وطنه فى أقسى الظروف ، وحكم عليه بالإعدام بعد أن احتل الإفرنسى بلاده ، وكانت نفثاته الحرى تعبيراً صادقاً عن شعورهم الوطنى المكبوت .

وفى عمان عيّن عضواً فى مجلس المعارف ، فرئيساً لديوان رياسة الحكومة ، وكان . يأمل كالكثيرين ، أن تكون عمان مركز الانطلاقة الكبرى لإعادة الحكم العربى إلى سورية ، ولكن خاب أملهم ، لأن التفاهم بين الإنكليز والإفرنسيين كان على أتمه . . فغادر عمان إلى مصر . .

وفى مصر أسس مطبعة تجارية للتغلب على مصاعب الحياة .

ورأى أن يملأ فراغ وقته بما يعود على قومه بالخير . . .

وإذ كانت الخزانة العربية فى حاجة إلى كتاب يضم شتات ما فيها من كتب التراجم . مخطوطها ومطبوعها ، قديمها وحديثها ، يعرّف قراءها بمن اجتازوا مرحلة الحياة وخلفوا أثراً يذكر لهم أو خبراً يروى عنهم من أصول الأمة العربية وفروعها . وإذ كان العصر الذى نعيش فى خضمه يقتضى أن يكون بين أيدى القارئ العربى قاموس يغنيه عن مطولات السير وضخام أسفارها ، فقد اضطلع بهذا العمل الخطير وحده ، وما زال يعمل بصمت ودأب وصبر وهو منفى فى دار غربته تتقاذفه الأسفار — إلى أن أتم وضع قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين فى الجاهلية والإسلام وسماه « الأعلام » فصدر سنة ١٩٢٧ فى ثلاثة أجزاء بلغت صفحاته الألف صفحة [١] .

---

(١) إن قاموس الأعلام قد تم طبعه الآن فى عشرة مجلدات ، وقد أضاف إليه الكثير ممن لم تدون سيرهم . . وعكف خلال هذه الفترة الطويلة من عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٥٧ يجمع وينسق ويعيش مع المخطوطات القديمة إلى أن اجتمعت لديه ذخيرة كبيرة من التراجم فغربلها ونسقها وما زال إلى أن بلغ قاموسه الكمال ، وهو أوثق مرجع لأعلام الأمة العربية خلال تاريخها الطويل ، ومن ميزاته أنه يضم خطوط الكثيرين من الأعلام الذين وردت أسماؤهم فى هذا القاموس الفريد .

هذا وقد استطاع الأستاذ الزركلى خلال سفارته فى المغرب التى امتدت ثلاث سنوات أن يعيش ساعات فراغه مع مخطوطات مكتباتها فى الرباط وفاس ومكناس ومراكش وكان كلما عثر على سيرة لم يدوّنها فى أعلامه سجلّها فى كناشة ، وما زال إلى أن تجمع لديه مادة تؤلف معجماً جديداً ، وسيصدر قريباً بعنوان « الإعلام بمن ليس فى الأعلام» . ويكون المستدرك الثانى . ويضم هذا المعجم تراجم لشخصيات فذة لهم تآليف قيمة كنا نعتقد أنها مفقودة ، وقد اطلع على أكثرها وصورها وصور نماذج من خطوط أصحابها . . وهى سجل صادق عن التراث العربى فى المغرب .

ويعمل على جمع ما تفرق من شعره لطبعه وقد يؤلف هذا الديوان ثلاثة أجزاء كبيرة ، وأكثره فى الأحداث التى مرت بالأمة العربية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى يومنا هذا ، إلى طرائف فى الوصف والإخوانيات .

هذا ، وقد اصطفى خير الدين الزركلي ، وهو فى مصر ، غير واحد من الأدباء فى طليعتهم إبراهيم عبد القادر المازنى — كانوا يجتمعون ويتحدثون فى الأدب والحياة والسياسة العربية ، وكان المازنى أقرب أدباء مصر إلى نفسه فتحابا وتصافيا ، وكان لا يمرّ يوم دون أن يلتقيا .

ومن مصر عاد إلى القدس حيث أصدر جريدة « الحياة » وكانت مقالاته تعبيراً صارخاً عن شعور العرب فى شتى قضاياهم ، ونقداً لاذعاً للإنكليز وللإفرنسيين الذين أعلنوا الحرب جهاراً على حقوق العرب . . .

ومرة ثانية ترك العمل فى فلسطين نتيجة الضغط الذى كان يلقاه من الإنكليز ومن حكومة عمان ، وكان نهجه يختلف عن نهجها كل الاختلاف .

وخلال الأيام التى قضاها فى عمان كان قد سجل الكثير من الخواطر والأسرار عن المملكة الهاشمية فأصدر كتاباً عنوانه « عامان فى عمان » كما أصدر كتاباً آخر عنوانه « ما رأيت وما سمعت » وصف فيه وصفاً شيقاً ما أصاب وطنه عقب معركة ميسلون .

وفى عام ١٩٣٤ التحق بالملك عبد العزيز بن سعود فنزل من نفسه أكرم منزلة . . ونيط به الكثير من الأعمال الدبلوماسية فمثل المملكة العربية فى المؤتمرات التى شهدها وفى سفاراته خير تمثيل .

وكان فى جميع مواقفه العربى الزاخر الشعور ، والأديب العف اللسان . وما زال ينتقل من الرياض إلى جدة إلى القاهرة ، ومن الشرق إلى الغرب ، ومن منصب إلى آخر إلى أن استقر به المقام سفيراً للمملكة العربية السعودية فى المغرب « الرباط » .

وحين كان فى الرياض كتب كتاباً عن الملك عبد العزيز بن سعود ، ضمنه وثائق ومعلومات وانطباعات ذاتية عن الجزيرة العربية لها قيمتها لصدورها عن أديب شاعر تختلف نظرته عن نظرة الكثيرين ممن كتبوا عن تلك البقاع التى لا تزال تطوى فى صدرها الكثير من الأسرار . وما يزال الكتاب فى خزانته يعيد النظر فيه ويضيف عليه ما تختزنه ذاكرته عن أيام عاشها واصطبغت أحداثها بالكثير من الملابسات التى ظلّت خافية ، وربما قدمه للطبع أخيراً .

وبالرغم من اضطلاعه بالأعمال الرسمية والمهام الحكومية فيظل الأدب شغله الشاغل . .

فنشأته التى قامت على دراسته علوم العربية من منابعها ، ثم بديهته الأدبية ، ومطالعاته غير المنقطعة لكتب الأدب ، إلى حفظه الكثير لشعراء العرب الأقدمين ، ومواجهته أحداث الحياة بشتى ألوانها — المتجهمة تارة والباسمة تارة أخرى . إلى ملكته الشعرية ، إلى شعوره الدافق وإحساسه العارم بالنزعة العربية ، ثم رحلاته إلى الشرق والغرب ، ومكوثه سنوات طويلة فى قلب الجزيرة العربية يدرس بيئتها وأحوالها ، ماضيها وحاضرها ، وخلق أبنائها وطباع ناسها ، ونثرها وشعرها — كل ذلك جعل منه شاعراً من كبار شعراء العربية ، وأديباً زاخر المعرفة ، وباحثاً فى تراجم الأعلام يكاد يكون فريداً بين معاصريه .

وشعره الوطنى والعاطفى يؤلف أكثر من ديوان واحد ، وإن كانت العربية لا تعرف غير ديوانه المطبوع سنة ١٩٢٥ باسم «ديوان خير الدين الزركلى» وهو يضم قصائد وطنية ومقاطع وجدية وتأملات ذاتية ، أكثرها فى الحنين والألم — الحنين إلى غربة الوطن الجريح — والألم لما قاساه وطنه من محن وكوارث . .

وفى جو هذين العاملين كتب شعوره وأناته فى قصائد قوية تصور شعور إنسان يحس إحساس قومه ، وتثيره آلامهم ، وتفزعه مصائبهم ، فتستحيل الكلمة عاطفة ملتهبة تؤرخ أحداثاً جساماً . .

« وقد نحا فى شعره منحى المتقدمين من حيث الجزالة والمتانة والأسلوب . وجمع إليه النمط المرغوب عند المتأخرين من حيث الوزن والوضع ، فجاء شعره آية فى الإجادة وغاية فى الإبداع والبراعة ، وهو لكثرة ما يحفظ من شعر المتقدمين وأقوالهم قد يدمج شيئاً من كلامهم فى شعره حتى يخيل إلى الإنسان أنه تعمد الإغارة على معنى سبق إليه ولفظ أحكم حوكه غيره كقوله :

وما الموت إلا سبات عميق ففيم البكاء على الهاجع

وهو مأخوذ من قول أبى العلاء المعرى :

الموت نوم طويل لا هبوب له والنوم موت قصير بعثه أمم

وقوله :

إنمـــا الشعر سلسبيل زلال كيف يدرى الزلال من مرّ فوه

وهو مأخوذ من قول المتنبى :

ومن يلك ذا فم مرّ مريض يجد مرًّا به الماء الزلالا

غير أن من عرف ما أوتيه خير الدين من غزارة المادة وجودة القريحة يستبعد منه أن يتعمد مثل ذلك ، على أن بين المعانى التى استعمل فيها هذه الكلمات والتى استعملها غيره فيها — فرقاً بيناً وخلافاً جليًّا » [١] .

هذا ما أخذه عليه الأستاذ سليم الجندى فى مجلة المجمع العلمى العربى حين صدر ديوانه قبل نصف قرن ، وقد وصف طريقته فى نظم الشعر بقوله :

« لخير الدين الزركلى جولة فى الشعر يقصر عن لحاقه كثير ممن عنى »
« بالشعر وجعله شغله الشاغل ، وله عناية شديدة بتنقية شعره »
« وتهذيبه ، وربما نظم خمسين بيتاً ثم عاد عليها بالتمحيص والاختيار »
« حتى أبقى منها عشرين أو ما دون ذلك فيأتى شعره وقد خلص من »
« الركاكة والوهن ، وسلم من التكلف الممل » .

* * *

وقد نظم خير الدين ، خلال هذه الفترات أى منذ أربعين سنة ، الكثير من القصائد ،وهى تؤلف ، كما قلت ، أكثر من ديوان واحد ، لما تطبع بعد ، ولعله يطبع جميع ما لديه من كتب ورسائل ودواوين بعد أن فرغ من طبع معجمه الكبير — قاموس الأعلام — الذى استنفد منه كل وقته وشغله عن الكثير من مدوناته . . .

ونثره كشعره فيه طلاوة وجزالة وصفاء . . والشعر عنده شعور ينبض به قلبه حين تثيره الأحداث الكبرى ، وحين تدغدغه ذكريات الوطن أو ذكريات الأمجاد العربية . وحين يبهجه منظر من جمال الطبيعة أو سر من أسرار الحياة الغامضة .

---

(١) « مجلة المجمع العلمى العربى » المجلد ٥ ص ٥٠٥ .

وشعره سهل ، واضح ، بعيد عن الكلام المتعاظل ، وهو إلى سهولته ووضوحه جزل ، مشرق ، يمتّ إلى عمود الشعر العربى الأصيل بنسب وثيق ، وهذا الذى يجعله على لسان الكثيرين من شباب الشام حين يرددون ذكريات الوطن الحزين خلال محنته الرهيبة على عهد الإفرنسيين . .

ومن شعره القومى :

وطنى

مضى على نظم هذه المقطوعة الشعرية أكثر من ربع قرن وهى تعكس حنين الشاعر إلى وطنه الأول ، وكانت سورية عند ما نظم الشاعر هذه القصيدة ترزح تحت نير الاستعمار الإفرنسى :

العين بعـــد فراقها الوطنـــا ... لا ساكناً ألفتْ ولا سكنا
ريانة بالدمـــع أقلقهـــا ... ألا تحسّ كرى ولا وسنـــا
كانت ترى فى كل سانحة ... حسناً فباتت لا ترى حسنا
والقلب لولا أنة صعدت ... أنكرته وشككت فيـــه أنا
ليت الذين أحبهم علموا ... وهمو هنالك ما لقيت هنا
ما كنت أحسبنى مفارقهم ... حتى تفارق روحى البدنا
يا موطناً عبث الزمان به ... من ذا الذى أغرى بك الزمنا
قد كان لى بك عن سواك غنى ... لا كان لى بسواك عنك غنى
ما كنت إلا روضـــة أنفا ... كرمت وطابت مغرساً وجنى
عطفوا عليك فأوسعوك أذى ... وهمو يسمّون الأذى مننـــا
وحنوْا عليك فجردوا قضبا ... مسنونة وتقـــدموا بقنا
يا طائراً غنى على غصن ... والنيل يسقى ذلك الغصنا
زدنى وهج ما شئت من شجنى ... إن كنت مثلى تعرف الشجنا
أذكرتنى ما لست ناسيه ... ولرب ذكرى جددت حزنا
أذكرتنى بردى وواديه ... والطير آحاداً به وثنى

كم ذا أغالبه ويغلبنى ... دمع إذا كفكفته هتنا
لى ذكريات فى ربوعهمو ... هن الحياة تألقاً وسنى
إن الغريب معذب أبدا ... إن حل لم ينعم وإن ظعنا
لو مثّلوا لى موطنى وثنا ... لهممت أعبد ذلك الوثنا

سورية الشهيدة

الأهلُ أهلى ، والديارُ ديارى ... وشعار « وادى النيرين » شعارى
ما كان من ألم بجلقَ نازل ... وارى الزناد ، فزندهُ بىَ وارى
إن الدم المهراقَ فى جنباتها ... لدمى ، وإن شفارها لشفارى
دمعى لما منيت به جار هنا ... ودمى هناك على ثراها جارى

* * *

يا وامض البرق اطمئن وناجنى ... إن كنت مطلعاً على الأسرار
ماذا هناك ؟ فإن صوتاً راعنى ... والصوت فيه جفوةُ الإذعار
النار محدقةٌ بجلقَ بعد ما ... تركت «حماة » على شفير هار
تنساب فى الأحياء مسرعة الخطى ... تأتى على الأطمار والأعمار
والقوم منغمسون فى حمآتها ... فتكاً بكل مبرإ صبار
الطفل فى يد أمه غرَضُ الأذَى ... يرمى ، وليس بخائض لغمار
والشيخ متكئاً على عكازه ... يرمى ، وما للشيخ من أوزار
صبرت دمشقُ على النكال لياليا ... حرُمَ الرُّقادُ بها على الأشفار
لهفى على المتخلفين برحبها ... كيف القرارُ ولاتَ حينَ قرار
يترقبون الموت فى غدواتهم ... وإذا نجوا فالموتُ فى الأسحار
لا يعلمون : أفى سواد دُجنة ... هم سُهدٌ ، أم فى بياض نهار
الوابل المدْرارُ من حمم اللظى ... متواصلٌ ، كالوابل المدرار
والظلم منطلق اليدين محكمٌ ... يا ليت كل الخطب خطبُ النار
أمجالسَ السُّمار ضاحكة بهم ... ضحكَ الهوى ما حل بالسُّمار ؟

أمعاهدَ الأدب الطريف ثكلته غضّ الصبا كتفتح الأزهار
أمّ القصور نواعماً رَباتها ما للقصور دَوائر الآثار؟
أمّ الجنان الكاسيات رياضُها حللَ السنا، ما للرياض عوارى؟
أمّ الحياة، وللحياة نعيمها هل فى ديارك بعدُ من ديّار
زهوُ الحضارة أنت مطلعُ شمسه أفتغتدين وأنت دارُ بوار؟
ويحَ الحضارة كيف يمتهن اسمها متكالبون على الضعاف ضَوارى
هم أوردوك وأصدروك على صدًى فشقيت فى الإيراد والإصدار
هم أحرجوك فأخرجوك مهيجةً فصرخت فيهم صرخةَ الجبار
طالتْ لياليك الثلاثُ، وإنما فى مثلهنّ يلوحُ نهجُ السارى
وإذا الظلام عنا تبلجَ فجرُه: ظلمُ الحوادث مطلعُ الأنوار
ما انهار قصرٌ فى حماك ممردٌ إلا ليرفعَ فيكَ قصرَ فخار
ما دمروك هم، ولكن دمّروا ما كان فيك لهم من «استعمار»
حملوا عليك مواثبين وما لهم ثار، وثرت وأنت ربةُ ثار
ما ينقمون عليك إلا أنهم شهدوك غيرَ مقودة لصغار
فإذا المنازلُ وهى شامخةُ الذرَى منهارُ أطلال على منهار
وإذا المدينة «تدْمرٌ» أو «نينوى» أنقاضُ عُمران ورسمُ دَمار

* * *

قم سائل الأجيال يا ابن نسيجها واستوح غامض سرها المتوارى
فلعلّ عبرةَ مجتلى صفحاتها فى ما محاهُ الدهرُ من أسطار
إن الشعوب لَتستفيقُ إن انتشتْ والصحوُ غايةُ نشوة الإسكار
أرأيتَ كيف طغى الفرنج وأوغروا صدرَ الأسنة أيمـــا إيغار؟
أرأيت كيف استهتروا بمطامع فيها المصارعُ، أيما استهتار؟
الشرقُ بين قويهم وضعيفهم متداول الأنجاد والأغوار
وبنوه بين وَعيدهم ووعودهم شتّى المذاهب شردُ الأفكار
لا تأمنن فأنتَ بين مكافح منهم، وبين مخادع غرّار
وانظرْ إلى الآلاف من بسلائهم يغزوهمُ مائة من «الثوار»

من كل مغوار صَليب عودُه ... يقتادُ كلَّ مدجج مغوار
الواثبين إذا يقال « تأهبوا » ... والقاحمين إذا يقال « بدار ! »
إنْ أنصفت أيامُ «ذى قار» لنا ... سلفا ، فنحن اليوم فى «ذى قار»
طارتْ بألباب الفرنجة صيحةٌ ... فى الشام فاندفعوا إلى الأسوار
واستهدفوا الأطفالَ فى حجراتها ... والمطفلات وهن فى الأخدار
عموا بمضْطرب القذائف كل ذى ... ضَعف ، وخصّوا كل ذات إزار
ستروا بضرب الآمنين فرارَهم ... فاعجبْ لعار ستّروه بعار

* * *

غضبتْ لسورية الشهيدة أمةٌ ... فى مصر تطفئ غلة الأمصار
ورعت لها ذمم الوفاء فلم يضعْ ... عهدٌ تسلسلَ فى دم الأعصار
لله والتاريخ والدم واللغى ... حقٌ ، وللآمال والأوطار
تأبى الجماعةُ أن تهون لغاصب ... والفردُ موقوفٌ على الأقدار
وإذا العرى انفصمت تولى أهلها ... ضيمُ المغير بخطبه الكبار

جورج صيدح

١٨٩٣

شاعر دمشقى تقاذفته الأسفار منذ نعومة أظفاره فلم يكد يشبّ عن الطوق حتى انتقل من مقاعد الدراسة فى عينطورا — لبنان — إلى القاهرة ، ومنها إلى فنزويلا ، فالأرجنتين ثم عودة إلى الوطن فمقام فى باريس .

هذه السنوات الطوال التى قضاها فى الأسفار بعيداً عن الأهل والوطن لم تنسه مرابع طفولته ، فكلما اشتدّ به النوى ونأت به الدار حنّ إلى دمشق التى لا يكاد يذكرها حتى تفيض عيناه بالدمع — ذكرتها نائياً والدمع هتان — :

دمشق : إن قلت شعراً فيك ردده ... قلبى كأن خفوق القلب أوزان
أنا وليدكِ يا أماه كم ملكت ... ذكراكِ نفسى ، وكم ناجاك وجدان

* * *

دمشق إن أشجت الأوطان مغترباً ... إنى لأوجع من أشجته أوطان

* * *

يا مسقط الرأس والأرحام تجمعنا ... حاشا تغيّرنى فى حبكِ الغير
أنسى يمينى ولا أنساك يا وطناً ... فيك ابتدا — ليته فيك انتهى — العمر

هذا الشاعر الدمشقى الذى طوّحت به الأقدار ، وعاش فجر شبابه وزهو كهولته فى الاغتراب هل يعتبر من شعراء المهجر أم من شعراء سورية . فالواقع ، أنه لم يستقر فى مهجر من المهاجر الأمريكية كما استقرّ الكثيرون ، وإذ خلا كتابه « أدبنا وأدباؤنا » الذى أرّخ فيه لمائة شاعر وأديب مهجرى من سيرة ذاتية له وهو لا يقلّ عن الكثيرين منهم — رأيت من الواجب بحق الأدب المعاصر أن أسلكه بين أدباء سورية وهو منهم فى الصميم ، ولا سيما وما من مناسبة قومية أو ظاهرة من ظواهر الحياة فى الوطن السورى إلا وصفها أدق وصف ، وخصّ دمشق ، الحبيبة إلى نفسه ، بشعرٍ يفيض بالحب المزيج باللوعة والشوق والحنين :

هجرت ربوع الشام والقلب مثخن ... جريح سهام كان أقتلها الهجر
إذا البلبل الغرّيد فارق روضه ... فكل رياض الكون فى عينه قفر

سقى الله جنات سقتنى حنانها | كأم على أحضانها الولد الغرّ
سكرت بهـــا فى فجر عمرى وها أنا | صحوتُ ولا فجر هناك ولا سكر

هذه الظواهر فى حياته هى التى دفعتنى أن أسلكه بين أدباء سورية فكتبت إليه أطلب بعض المعلومات عن نشأته والسنوات التى عاشها فى غربته فلم يبخل بالجواب وسرعان ما وافانى برسالة غاية فى الرقة والتواضع . وإذا هى ، على إيجازها ، تؤرخ الفترات المتباينة التى عاشها ، وها أنا ذا أثبت الكثير من فقراتها لاحتوائها على الكثير من المفارقات فى حياة هذا الشاعر الذى ظلّ فى بؤسه ونعيمه وفيًّا لرسالة الأدب(١) . وكان الشعر أداته للتعبير

---

(١) باريس ١٥/٤/١٩٦٥

أخى . . . سامى الكيالى

. . . رسالتك الكريمة أربكتنى بما نقلته إلى من سمو الشعور وكرم النفس فضلا عن عطور الثناء على مجهودى الأدبى فى التأليف ، وهو لا يمثل جزءاً من مجهودك الكبير المثمر . . . .

. . . .

. . . تاريخ حياتى يؤلمنى نبش تذكاراته وعرضها على الأنظار لأنه سلسلة هفوات وزلات كانت كل واحدة منها جناية على نفسى وعلى موهبتى وعلى مستقبلى ، ولا أستطيع فهم اليد الخفية . يد العناية الإلهية، التى سمحت بأن أبقى على قيد الحياة وعلى حال بسيط من النعمة المادية برغم تصرفاتى الطائشة وانصرافى عن الأدب والثقافة والعلم .

ولدت فى حى إسلامى من أحياء دمشق اسمه « زقاق الصوّاف » قرب مكتب عنبر عام ١٨٩٣ وكنت سادس المواليد فى العائلة قبل اثنين تبعانى ، وكان إخوتى الأطفال يرتادون مدرسة ابتدائية فى حارة الكنيسة الأرثوذكسية البعيدة عن منزلنا ، وتلافياً لهذه المشقة اشترى والدى « كان قاضياً فى محكمة استئناف الحقوق مدة ٣٠ عاماً » منزلا بجوار المدرسة تجاه الدار البطريركية فانتقلنا إليه ولزمت هذه المدرسة عاماً واحداً ١٨٩٩ ومنها انتقلت إلى المدرسة الآسية وأنهيت العلوم الابتدائية فى عام ١٩٠٩ وكنت مبرزاً فى العربية مقاطعاً للدروس باللغات الأجنبية فعاقبنى أهلى بسجنى فى كلية عينطورا بعيداً عنهم لكى أتعلم الفرنسية ، فدرست فيها عامين ونلت الشهادة الممتازة عام ١٩١١ وكان ذلك آخر عهدى بالدرس والتحصيل إذ أكرهت على ممارسة العمل الذى أمقته وهو التجارة ، فانتقلت توا عن عنطورا إلى المتجر فى القاهرة ، وصرت صدفة غنياً من أغنياء الحرب ، ولكن خسرت مالى ومركزى بعد سنين معدودة . حملنى الإفلاس على الهجرة إلى أوربا عام ١٩٢٥ فى طلب الرزق ، ولما تعذر وجوده هناك هاجرت إلى فنزويلا وتاجرت ٢٠ عاماً متوالية . وفى سن الخمسين انسحبت من ميدان الأعمال وفقاً لعهدة بينى وبين نفسى وانصرفت إلى المطالعة وإلى السياحة فى أنحاء العالم إلى اليوم ، حاملا فى قلبى جرح الاغتراب على جبينى آثار الجهاد المرهق .

آثارى هى المذكورة فى الدراسات المنشورة عنى . لم أقف على طبع أثر واحد منها لسوء الحظ =

عن خوالجه الذاتية . ففى مصر لم تصرفه أعماله التجارية الضخمة عن حياة

= فكانت جميعها مشوهة بالأخطاء المطبعية. الديوان الأول : « النوافل » طبعه محرر جريدة فى بونس إيرس بينما كنت مقيما فى فنزويلا عام ١٩٤٧ . ولولا أنى أرصدته للجان الدفاع عن فلسطين لأحرقته اشمئزازاً منه . تلاه مجموعة صغيرة باسم « النبضات » أصدرها كبيرة الحجم فنان عراقى ادعى المقدرة والعبقرية فى الإخراج فكانت الطبعة نكبة ثانية ، لا تخلو صفحة من خطأ مطبعى ، وبعد إهداء بعض نسخ مصححة بخطى تعبت ومللت فألقيت بما بقى إلى مستودع الزبالة . . ثم على أثر زيارتى الأولى للأوطان قادماً من الأرجنتين تطوع صحافى لبنانى على تسجيل ماجريات رحلتى فى كتاب طريف جمعه وطبعه بعد سفرى من بيروت فلما عدت إلى بيروت نهائياً من الأرجنتين وجدت ألف نسخة « ألف خدعة » ، معنونة باسم « السفارة الأدبية » ناديت خدام الفندق فحملوها إلى المطبخ وألقوها فى الأتون !
وفى عام ١٩٥٦ نشرت جامعة الدول العربية محاضراتى فى معهد الدراسات فى طبعة سقيمة أخجلتنى وأثناء وجودى فى باريس طبعت دار العلم للملايين الطبعة الثانية ١٩٥٧ والطبعة الثالثة مؤخراً عام ١٩٦٤ وأنا بعيد . .

أما ما لم يطبع وينشر فهى حكايات حداثتى ونكبات تجارتى ومشقات غربتى وانحرافات سيرتى وخيانات أصدقائى . لما بدأت بتدوين الصفحات الأولى وأرسلتها إلى الصديق فريدجحا ندمت على تسرعى وانقطعت عن التدوين ولم أحتفظ بنسخة مما كتبت إليه . ذكرت فيها كيف نظمت الشعر قبل أن أحسن كتابته فى عهد الطفولة ، وكان أول مانشرت منه عام ١٩١٠ فى جريدة « البرق » لبشارة الخورى ثم توالت قصائدى على مجلة « سركيس » أثناء إقامتى فى القاهرة فلم تخل مجموعة منها ، مع العلم أنى كنت غارقاً فى بحر التجارة ، لم أتعلم العروض فى المدرسة ولم أقتن معجماً عربياً إلا فى الأرجنتين بعد التقاعد ن الأعمال التجارية .

وفى صدد الحديث عن أصل تسمية العائلة « بصيدح » وهل لهذه التسمية علاقة بعذوبة الصوت قال :
بحثت مرة عن شجرة أسرتنا وعن أصل التسمية « صيدح » فعثرت فى خزانة جدى لوالدى «[كان تاجر أقمشة فى خان قريب من الجامع الأموى فى دمشق » على مجلد ضخم متين يضم صفحات التوراة والأناجيل ، مع صفحات بيضا مضافة إليها ، وعلى هذه الصفحات كان جدى يخط تاريخ العائلة أباً عن جد ويسجل حوادث الميلاد والوفاة والعهاد والزواج . . وياللأسف ، إن هذا الأثر الثمين فقد لما بيعت مفروشات بيتنا مع جميع محتوياته بعد ما قررت العائلة الاستقرار فى القاهرة . . ولم يفطن أحد لسحب التوراة من الخزانة المذكورة . ويروى جدى تسلسل البطون والأفخاذ من قبيلة عربية زحفت من حوران إلى دمشق . أما عن التسمية فيقول إنها لقب غلب على الكنية الأصيلة لما اشتهر أحد أجدادى برخامة صوته فى قبيلته ، يؤكد أن الأجيال المتعاقبة لم تخل من صاحب صوت رخيم يبرر اسم « صيدح» . ويذكر أطرف حادثة جرت له سنة الستين ، أى سنة المذابح والفتنة الدينية فقال ما معناه :
« لما هاجم بيتنا الرعاع بسكاكين وخناجر مصبوغة بدم الجيران عرفنى واحد منهم كان استضافنى مراراً وسمع غنائى فمنع رفاقه من الفتك بى على شرط أن أجود على مسامعهم ببعض الآيات القرآنية ففعلت ونجحت فى التأثير عليهم ، فما كان منهم إلا أن ألبسونى عمامة بيضاء وجرونى إلى مئذنة الخراب وطلبوا منى أن أؤذن . فأذنت واشتريت حياتى وحياة عائلتى بهذا الثمن . .
وقد سمع بالحادثة الأمير عبد القادر الجزائرى فأرسل قبل المغرب رجالا من حاشيته نقلونى مع عيالى إلى قصره حيث بقينا فى حمايته إلى نهاية الاضطراب » .

الأدب وقول الشعر ، فما يكاد يخلو إلى نفسه أو يعيش تلك اللحظات الحالمة التى تثور فيها العواطف حتى ينطلق لسانه بالشعر . يصف هذه وتلك ، ويتحدث إلى جارته التى لم تشعر بألمه وبالأسى الذى يعصف بفؤاده من جراء وحدته :

أنت لو كنت سمعتِ أنَّـةً من جانبيّـا
ربما كنت رفعتِ نظراً منك إليّا

* * *

أنت لو كنت فهمتِ سرّ قلبى من عيونى
ربما كنت ابتسمتِ بسمة الأخت الحنون

ويزداد حبه لجارته ، ويزداد صدودها . وتخطر على الشرفة فيزداد أوار حبه ، ويكون حديث وهمس وعتاب :

أسرفتِ فى قطع العهود وبخلتِ . . إلاّ بالصدود

* * *

أنسيت ما عاهدتنى فى حضرة البدر الشهيد
لما التقينا بين أشـ ـجار « الجزيرة » والورود
فى ليلة نام الوشا ة بها عن الحب الهجود

* * *

رحماك أطيار الجزيـ ـرة ردّدى ذاك النشيد
فلقد سمعتِ حديثها فى ذلك الليل السعيد
قالت — أما قالت — غداً ألقاك فى «باب الحديد »؟
ويدى على يدها أردّد ما تقول وأستعيد
عبثت ، أعامدة تُرى فى ذمة الجار العميد
أم كلما وعد الحبيـ ـب تنصّت الدهر العنيد
وجنى جنايته على الـ ـقلبين والحب الوليد
سامحته لو كان يسـ ـمح مرة فيما أريد
لولاه لم أعكف على رصد النوافذ من جديد

هذه نفحة من نفحات خليل مطران ، ولا عجب — وهو صادق فى تعبيره عن هواجسه — أن يهج نهجه فى هذه المعابثات التى تكررت فى أكثر من قصيدة مع « سائقة السيارة فى القاهرة » ، و « ليلة البحيرة » فى سويسرا :

جذّفى « جانين » قد طاب السُّرى ونسيم البحرة الشافى سرى
فإذا أذبل جفنيك الكرى فاتركى المجذاف للماء الأمين
وتعالىْ ، ننزوى فى معطفى

و « العاصفة فى غابة بولون » وهى قصة من أروع قصص الحب التى يمتزج فيها الإثم بالطهر — قصة الشاعر مع التلميذة الباريسية « ليدى » :

جاءت إلى الموعد ذاتُ التقى فى يدها سبحتها والكتاب
تقول لى : صدّقنى والدى أنى إلى القداس أبغى الذهاب
أتكتفى مثلى بقداسها والقلب قلبى والشباب الشباب؟
حوصرت فى مدرستى طيلة الأسبوع أدعو الأحد المستطاب
صليت فيها كل يوم ولى فى سابع الأيام حق الثواب

وقضيا يوماً مشرق الأسارير يتساقيان كئوس الحب ، ولكن الطبيعة لم تتركهما ينعمان بهذا اللقاء فسرعان ما تجهم الجو وحجبت الشمس وهطلت الأمطار فلجآ إلى أيكة كثيرة الأفنان بين الشعاب :

إذا التصقنا نتّقى رعدة للبرد زدنا رعدة واضطراب
بتنـــا سجينين بتلك الربى ورب سجنٍ للمحبين طاب

وتندب « ليدى » حظها ، وترتعد فرائصها وتثور فى نفسها العاطفة الدينية ، فتقول هذا عقاب إلهى لأنى أثمت :

أخطأت بالكذب أمام السما فأرسلت يقتصّ منى السحاب
واخيفتى حين يرى والدى على ثيابى لطخات التراب
ويلى إذا أبتُ وذى حالتى والويل أدهى إن أبيت الإياب

ويطمئنها الشاعر :

لا تجزعى « ليدى » ولا تيأسى أخوك ذو رأى يفلّ الصعاب
هيا إلى الفندق فى المنحنى صاحبه شهمٌ رقيق الجناب

نعطيه في الغرفة أثوابنا ونصطلى فيها ونحسو الشراب
يردّها بعد قليل لنـــا مغسولة مكويـّةً لا تعاب

ويتهلل وجه الفتاة ، ويزايلها الخوف وتنزع ثيابها ، وينزع ثيابه ، ويختليان . . . ويشاهد الشاعر الحسن مستكملا :

أشهى ثمار الروض مقشورها يغرى بمجناه وضوح اللباب

والقصيدة — وهى من الأدب المكشوف — غاية فى براعة التصوير ودقة الوصف .

* * *

وقد كثرت مقطوعاته وقصائده التى تروى مغامرات الصبا وغراميات الشباب ، وحين دلف إلى الشيخوخة ظلّ قلبه المشبوب يعيش فى الذكريات الحلوة :

ونذرت الزهد لا أفشى به نكبة الشيب ، ولا أسلو هواك

ويقول :

لا تعذلى بعد الكهولة صبوتى عذرى شباب النفس والإحساس

* * *

ويترك مصر إثر نكبة مالية نزلت به عام ١٩٢٥ ، فيخرج مقهوراً من معركة دامت ثلاثة عشر عاماً ، ويركب البحر ، وتجثم على صدره الهموم . ولا يلبث أن ينفس عن صدره بقصيدة عنوانها «التاجر الخاسر» الذى عثر به الجد وهوى نجمه فنزح يحمل فى طوايا صدره عزة النفس والألم :

صابراً ليس يشتكى غير ما فيه من سقم
ما أزالت إباءه عند ما زالت النعمْ
دونكم ماله فــلا تذكروا عرضه بذم

ولا يكاد يصل كاراكاس عاصمة فنزويلا وتطأ قدماه أرضها حتى يشعر بالوحشة فيحنّ إلى الوطن :

وطنى : ما زلت أدعوك أبى وجراحُ اليـُتم فى قلب الولد
ما رضيتُ البين لولا شدّةٌ وجدتنى ساعة البين أشدّ

فتجشمت العنا نحو المنى وتقاضانى الغنى عمراً نفد

* * *

وطنى : طوّحت بى فى مهجر يُرهق الحر بأنواع النكد
شاعرٌ يُرجى ولا يرجو وفى مسجد الأصنام يوماً ما سجد
تتحداه البغاث استنسرت كلما زاد أناة وجلد
وتمنى الموت حتى لا يرى غارة الهرّ على ذيل الأسد

شاعر امتلأ صدره بالعزة والأنفة والكبرياء ، فلم ييأس مما نزل به بل جدّد العزم ودخل المعترك التجارى فوافاه الحظ وعادت بوارق النعمة والثراء تختلج بين جوانحه . . ولم يصرفه هذا عن رسالة الأدب ، فظل قلبه يفيض بالشعر ويصف شتى ألوان الحياة ، ويخوض مع شعراء « العصبة الأندلسية » ميدان المعركة القومية التى شغلت العرب ، ولا سيما بعد نكبة فلسطين ، ويصُب جام غضبه على الصهاينة . . وعلى الذين خلقوا إسرائيل وأخذوا يمدونها بالمال والسلاح :

لا خير فى شعب تصهين قلبهُ فغدا يُرائى فى الورى ويحابى
سلب العروبة قدسها وأباحه للفاجرين ، كناهب وهّاب
إن شام فى السنجاب ذيلا مُذهباً أفتى بنحر الليث للسنجاب

* * *

بنو فلسطين قطعان مشردة عن الحياة ، ملاكُ الموت راعيها
وكفّ صهيون بالأقداس عابثة كأنما الله أمرٌ ليس يعنيها
أما الملوك فلا حسّ ولا بصر ولا حديثٌ سوى الأسلاب تُحصيها

وفى الأرجنتين ، على أثر مذبحة دير ياسين ، تنادى أبناء الجالية إلى الاجتماع ، وخطب الخطباء وألقى موشحاً جاء فيه :

تحت ستر الليل ، ستر المجرمين طرق الفجّار بيت المقدس
يا فلسطين : على مَنْ تعتبين إن تكن نامت عيون الحرس

* * *

ديرياسين على الدنيا العفاء   إن تكن دنيا الزنيم الأجنبى
ثأرك الصارخ فى سمع السماء   جمرة تكوى قلوب العرب
قسماً ما هُدرت تلك الدماء   وهى فى ذمة عيسى والنبى

* * *

قد هززنا عرش رب العالمين   بدعاء من قرار الأنفس
ربِّ هب أبطالنا النصر المبين .   وقنا ثانية الأندلس

وديوانه « حكاية مغترب » يروى قصصه الذاتية وقصص نضال أمته . فبينا نعيش معه فى واحة من الأنس والنعيم ، نطرب للنغم وتسكرنا الكلمة الشاعرية التى تدغدغ أحاسيسنا ، إذ بكلماته تنفلت فى بعض المواقف إلى شواظ من نار على رأس المستعمرين وعلى الذين كانوا سبب نكبة فلسطين — حكايات طويلة يرويها عن اغترابه ، عن الوجد والحنين ، عن الألم والأنين . حكاية النفس الثائرة والروح الحائرة المحلقة فى الآفاق . فوفاؤه لإخوانه ، ومعابثاته مع خلانه ، ونوازع الجمال التى تثير وجدانه ، وليالى الصفو التى تهزّ مشاعره وترقص كيانه ، والأحداث التى تنزل بقومه فتثير أشجانه — كل هذه الألوان المتباينة بآفاقها وأشواقها وأصدائها وأهوائها انتظمت شعراً سهلا حلو النغم — « شعر الديباجة الأنيقة ، والنغم المرح الطروب والعاطفة الصادقةالمرهفة »[١] .

* * *

وتجلت موهبة جورج صيدح كباحث أديب حين طلب إليه ساطع الحصرى أن يحاضر طلاب معهد الدراسات العربية العالية عن أدب المهجر ، فزجه فى تجربة الدراسة الأدبية ، وإذا به يهادن عالم الشعر وينصرف لعالم الدراسة والبحث فيعيش من جديد مع أدباء المهجر وشعرائه ومفكريه — يدرس أدبهم وشعرهم دراسة أديب عايش أكثرهم وعرف الكثير من حياتهم الأدبية ، الخاصّة منها والعامة ، ما ظهر منها وما خفى فاشتملت المحاضرات تاريخ الهجرة وبواعثها وتياراتها وحظ الأدباء منها ونشأة الأدب المهجرى ومراحل نموه وأثره فى الأدب العربى العام وخصائصه ورسالاته ونواحى نشاطه ، إلى مآخذ

---

(١) بدوى الجبل .

خصومه عليه . وصدرت هذه المحاضرات فى كتاب سنة ١٩٥٦ فى القاهرة بعنوان « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية . » . ثم أعيد طبعه فى بيروت سنة ١٩٥٧ كما أعيد طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩٦٤ وقد أضاف إليه دراسات جديدة عن أدباء أغفلهم فى الطبعة السابقة ولم يعط عنهم معلومات شافية ، إلى دراسات أخرى استطاع أن يتوسع فى معالجتها بفضل الاتصالات والتحريات والمطالعات التى أتيحت له خلال سبع سنوات مرّت على كتابة الطبعة السابقة ، وقد برزت مواهبه كأديب محقق وباحث منصف ، وناقد لا تفوته الغمزة التى تهدى القارئ إلى الهفوات التى وقع فيها الشعراء أو انزلق إليها الأدباء ، وإلى نقده الموضوعى اللاذع . كان المحامى البارع المتحمس لرسالة الأدب المهجرى ، فأصبح كتابه — على كثرة ما صدر من الكتب والرسائل عن الأدب المهجرى — أصبح من أصدق وأوسع وأوثق المراجع له ، فهو بحق موسوعة كاملة ..

ومن شعره :

محمد

قصيدة نظمها بمناسبة المولد النبوى

١

وجه أطلّ على الزمان ... لألاؤه شقّ العنان
فيه شعاع النيرا ... ت وفيه أنفاس الجنان
ضاقت قريشُ به ، أما ... يكفى قريش الأزهران ؟
مَنْ ذا رأى طفلا يُنا ... غى الله بالسبع المثان
نبذ التمائم وهو فى ... مهد الرضاعة والختان
يا صاحبىّ بأى آ ... لاء السماء تكذبان ؟

٢

لا يعجز الله الذى ... إن قال كن للشىء كان
أمرَ الرمالَ فأطلعت ... صحراءُ يثربَ أقحوان

للرسل آيات ، وهـ ـذا الطفل آيته البيان
الروح يملى ما يترجمه ، ونعم التـرجمان
بالضـاد آذن ربـّه فتخلـدت لغـة الأذان
يا صاحبى : بأى آلاء الرسول تكذبان ؟

٣

شرفاً حـراء الغار : هل كحراء فى الدنيا مكان ؟
أخذ الشهادة من شفاه المصطفى أخذ البنان
فى صدره طم النجىّ وصـان معجزة الزمان
وتنزّلت أمّ الكتاب على اليتيم مع اللبان
فهدى الأعارب ذلك الأمىّ بالسور الحسان
أضحوا وفى الدنيا لهم شأن وعند الله شان
يا صاحبىّ : بأى آلاء النبى تكذبان ؟

٤

الوحى سطّر شرعةً من لا يدين بها يدان
ورسـالة الإيمان تنشر بالسواعد واللسان
والعرب أخـلاق تثور على الضلالة والهوان
فتحوا البـلاد فذمّةٌ تقضى وأرواحٌ تصان
يوفـون بالنذر الذى كتب الكتابُ له الضمان
وضعوا الندى فى وضعه ووراءه حدّ السنان
يا صاحبىّ : بأى آلاء الرسول تكذبان

٥

زهت العروبة وابتنت للمجـد ما لم يبن بان
تغزو ، ولكن حربها باسم ابن آمنة أمان
العدل حـائط ملكها وأساسه تقـوى الجنان

فرضُ الزكاة محتّمٌ لا مَنّ فيه ولا امتنان
والأمر شورى ، والخلا فة بيعة للديدبان
هذا كيان الشرق ، هل في الغرب يفضله كيان ؟
يا صاحبيّ : بأيّ آ لاء الرسول تكذبان ؟

٦

يا مَنْ سريت على البرا ق وجزت أشواط العنان
آن الأوان لأن تجدّد ليلة المعراج . . . آن
عرّج على القدس الشري ف ففيه أقداسٌ تهان
ضجّ الحجيج به وري ع ضريحه والمسجدان
والقوم ألسنة مبلـ بلةُ كأن الحشر حان
هذى سدوم تصاعدُ الـ نيران فيها والدخان
والذعر يحدو الشاردي ن كأنهم قطعان ضان
ماذا دهاهم ؟ هل عصو ك فأصبح الغازى جبان ؟
أنت الذى علمتهم دفع المهانة بالسنان
ونذرت للشهداء جنا ت وخـيرات حسان
يا صاحبي : بأى آ لاء النبي تكذبـان ؟

٧

سمعاً رسول الحق ، ضا ع الحق واختلّ الوزان
أم تنازعنا البقـا ء كأنها خيل الرّهان
باسم السلام تسلحت وتآمرت باسم الحنان
عملت على خنق الشعو ب بمـا تجود به اليدان
وتأنقت ، فالنير فى عنق الأعارب أفعوان
لا حرمة الإنسان تر دعها ولا قدس المكان
لأنل من هذا مشى الـ عربى للحرب العوان
فاشفع له ، وأعنه يا نعم الشفيع المستعان

٨

بارك جهاد المؤمنين النافرين إلى الطعان
الضارعين إليك ، باسم الآل والصحب الغران
وبيوم مولدك السنى وبحق موحيك القران
أن لا تصون دماءهم وامنح فلسطين الصيان

خليل مردم بك
١٨٩٥ — ١٩٥٩

شاعر ، أديب ، من أركان النهضة الأدبية فى الشام ، خلف محمد كرد على بعد وفاته فى رياسة المجمع العلمى العربى بدمشق .

خطّ سيرة حياته بقلمه فقال :

« ولدت فى دمشق سنة ١٨٩٥ وقبل أن أبلغ السنة السابعة من عمرى جعلت أذهب إلى الكتاب . ولما تجاوزت العاشرة دخلت مدرسة الملك الظاهر الابتدائية الرسمية . وكنت منذ عقلت على نفسى وصرت أقرأ وأكتب أجدنى ميالاً للشعر وقراءته وحفظه ، وفى هذه المدرسة وجدتنى أقول الشعر دون أن يكون لى إلمام بشىء من علوم العربية . وانتقلت من تلك المدرسة بعد ثلاث سنوات إلى المدرسة الإعدادية الرسمية ولم أمكث بها إلا سنة وبعض السنة . وشرعت أتلقى دروساً خاصة فى العربية وآلاتها كما أخذت مع النحو طرفاً من الفقه عن الشيخ عطا الكسم وطرفاً من الحديث عن الشيخ بدر الدين الحسنى . وكنت مع رفاق لى فى الطلب نجتمع فى أوقات معينة لمراجعة الدروس ومطالعة بعض كتب الأدب . وكان أكثر اعتمادى فى الأدب على دراستى الشخصية .

ولما جلا الأتراك عن دمشق فى أواخر سنة ١٩١٨ وقامت الحكومة العربية عينت مميزاً لديوان الرسائل العامة . وفى سنة ١٩١٩ عينت مدرساً للإنشاء فى مدرسة الكتاب والمنشئين التى جعلتها الحكومة لموظفيها خاصة ، ولما أعلن استقلال سورية الأول وبويع الملك فيصل ملكاً عليها وتألفت أول وزارة سورية نقلت من ديوان الرسائل العامة وسميت معاوناً لمدير ديوان الوزراء . وبعد أن دخل الجيش الإفرنسى دمشق وبرحها الملك فيصل صرفت من عمل الحكومة .

وفى سنة ١٩٢١ أسس فريق من الأدباء فى دمشق جمعية " الرابطة الأدبية " فانتخبت رئيساً لها وكان من أعمال هذه الجمعية أن أصدرت مجلة الرابطة الأدبية ونشرت كتاب معانى الشعر للأشناندانى ، وكان لى فيهما عمل .

ولم يطل عمر هذه الجمعية لأن السلطة الإفرنسية أمرت بإلغائها .

وفى سنة ١٩٢٥ انتخبت عضواً فى " المجمع العلمى العربى " وكانت أطروحتى كتيب شعراء الشام فى القرن الثالث .

وكنت درست بدمشق اللغة الإنكليزية مدة يسيرة ثم ذهبت سنة ١٩٢٦ إلى لندن لأتمم دراستها بين أهلها فمكثت فى لندن ثلاث سنوات حضرت فى أثنائها محاضرات فى اللغة الإنكليزية وآدابها بجامعة لندن فضلاً عن الدروس الخاصة التى كنت أتلقاها هناك .

وفى سنة ١٩٢٩ درّست الأدب العربى فى الكلية العلمية الوطنية بدمشق واستمر عملى بها تسع سنوات ألفت فى أثنائها سلسلة " أئمة الأدب العربى " طبع منها خمسة أجزاء وهى : الجاحظ ، ابن المقفع ، ابن العميد ، الصاحب بن عباد ، الفرزدق .

وفى سنة ١٩٣٢ أصدرت مع الدكاترة جميل صليبا وكامل عياد وكاظم الداغستانى مجلة « الثقافة » فعاشت سنة واحدة .

وفى سنة ١٩٤١ انتخبت أمين سر عامًّا للمجمع العلمى العربى .

وفى سنة ١٩٤٢ عهد إلىّ بوزارة المعارف .

وفى سنة ١٩٤٨ أعيد انتخابى لأمانة سر المجمع العلمى العربى . وفى هذه السنة انتخبت عضواً مراسلا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وفى سنة ١٩٤٩ عهد إلىّ بوزارة المعارف ووزارة الصحة العامة ، وفى السنة نفسها انتخبت عضواً مراسلا للمجمع العلمى العراقى .

وفى سنة ١٩٥١ رجعت إلى أمانة سر المجمع العلمى العربى .

وفى سنة ١٩٥٢ عهد إلىّ بوزارتى المعارف والخارجية .

وفى سنة ١٩٥٣ انتخبت رئيساً للمجمع العلمى العربى . »

* * *

خليل مردم بك من بيوتات دمشق القديمة ، ومن عائلة عرفت بالجاه والثراء ، عاش فترات حياته فى العهدين التركى والإفرنسى إلى أن شهد عهد السيادة والاستقلال . أى عاش فى محيط تثور فيه النفوس على الغاصب ،

فقد كانت سورية ، بعد الحرب العالمية الكبرى تحت الانتداب الإفرنسي ، وكان للنضال الإفرنسي أثره فى نفوس الشعب السورى بجميع طبقاته ، وفى نفوس الأدباء بصورة خاصة . فنشأ وهو يكره كل الكره الأوضاع التى اقترفها العهدان فى بلاد الشام ، وكانت البلاد فى بدء تطورها ، والفكرة العربية فى نموٍّ مطرد ، فنما شعوره على حب كل ما هو عربى وكل ما يعود على العرب بالخير . . ولما احتدم الكفاح فى عهد الإفرنسيين كان شعره من الأصوات المعبِّرة عن أحاسيس الأمة وشعورها ، عن آلامها وآمالها ، عن كفاحها ونضالها ، وليس للشاعر الذى يعيش فى محيطه إلا أن يتأثر بجوّ هذا المحيط ، وقد تأثر خليل مردم بك بجوّ دمشق المحموم أيام الإفرنسيين ، أى منذ تقلّص حكم فيصل سنة ١٩٢٠ إلى أن جلا الإفرنسيون عن سورية فى عهد شكرى القوتلى سنة ١٩٤٦ فكتب عشرات القصائد يصور هواجس فؤاده وهواجس قومه معاً .

* * *

وهو شاعر دقيق اللفظ ، زاخر المعنى ، غلب شعره الوصفى على الكثير من أغراض الشعر . وهزّته أحداث سورية ، أيام الانتداب الإفرنسى ، فوصفها وصفاً بليغاً أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال ، وكان لا يجنح إلى الخيال إلا حيث تقسره ضرورات السياسة خوفاً من بطش الغاصبين . وشعره القومى من المراجع الثبتة لمؤرخ يحاول أن يستقرى نفسية الأمة فى الفترة التى مرّت بها سورية خلال الحربين العالميتين حيث كانت مغلوبة على أمرها . . على أنه ، كشاعر منطلق ، لم يفته أن يصف أدق مظاهر الحياة العصرية ، فقصيدة « الرقص » تعتبر من أروع قصائد الشعر المعاصر ، فقد وصف هذه الظاهرة الغربية فى محيط الشباب الذين اندفعوا وراء فنون الغرب وبدعه ، وهى ذات جرس منغم تتمشى والإيقاع الموسيقى الذى ينقل خطوات الراقصين فى حلبة الرقص . .

غلب الشعر على حياة خليل مردم بك الأدبية فى بدء نشأته ، وما زال حتى نهاية كهولته حيث انصرف إلى الدراسات الأدبية وإلى تحقيق الشعر القديم ونشر المخطوط منه ، فقد حقق ديوان « ابن عنين » الدمشقى سنة ١٩٤٦ ،

وديوان عليّ بن الجهم سنة ١٩٤٩ وديوان ابن حيوس سنة ١٩٥١ ثم ديوان ابن الخياط سنة ١٩٥٨ ، وقد طبعها كلها المجمع العلمى بدمشق ، نشر هذه الدواوين الأربعة بعد أن قدم لها ببحوث واسعة عن حياة هؤلاء الشعراء وعلمهم وأدبهم ولغتهم وعصرهم ومكانتهم من عالم الشعر ومآخذ النقاد على شعرهم .

وطريقته فى البحث أن يحشد الكثير من أقوال المتقدمين حتى ليكاد أسلوبه يضيع بين وفرة النصوص . غلب على طبعه التحقيق أكثر من التعبير . وقد لا تجد أى تنافر بين ما تخطه يراعته وما يورده من نصوص لغيره ، ومردّ ذلك كثرة قراءته للأدب العربى القديم وللأدب العباسى الذى تترقرق الكثير من صوره على نثره الذى يماشى أسلوب الفحول من الأدباء المتقدمين .

* * *

هذا ، وقد نشر المجمع العلمى العربى بدمشق ديوانه بعد وفاته [١] فاشتمل على الوصف والوطنيات والنسيب والاجتماعيات والإخوانيات والمراثى والإسلاميات وهو فى نيّف وأربعمائة صفحة أشرف على طبعه وعلق عليه ولده الشاعر عدنانُ مردم بك وقدّمه الدكتور جميل صليبا بدراسة مستفيضة عن خصائص شخصيته وشعره فاعتبره وجه دمشق الحق وشاعر الغوطة الملهم وعالم الشام الفاضل ، تتمثلّ فيه طبائع أهل الشام على أحسن وجه وأتمّ صورة .

يقول : « لم أجد بين شعرائنا المعاصرين شاعراً وصف غوطة دمشق كما وصفها خليل مردم بك ، فهو يصوّر رياض الغوطة وأزاهيرها وجداولها وخمائلها وأطيارها تصويراً دقيقاً مفعماً بحنان القلب وأحاسيس النفس ، وهو يحنّ إليها حنين العاشق إلى معشوقه ، يلقاها بوجه باسم ونفس متعطشة إلى شذى رياحينها فيشجيه عبق الزهر ، وساجع الطير ، وانسياب الغدير ، وتعانق الغصون فيقف أمام الطبيعة وقفة المسحور ، يعاطيها أحاسيسه وتعاطيه صورها ، ولا يصورها إلا بعد أن يغمس ريشته فى مداد قلبه ، ولا ينثر فى سمائها أحلام نفسه وهوى فؤاده إلا ليتحد بها اتحاد الصوفى بمعبوده ، فكأن نفسه مرآة

---

(١) توفى رحمه الله . صبيحة يوم الثلاثاء الواقع فى ١٥ محرم سنة ١٣٧٩ الموافق ٢١ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٩ .

تعكس أسرار الطبيعة ، وكأن الطبيعة صورة من صور نفسه . والدليل على ذلك أنه يشبه صور الطبيعة بآثار النفس الإنسانية : فللزهر مقلة وسنى ، وخدّ ناضر ، وثغر باسم ، وجفن حائر ، وجبين يعرق ويرشح كما يرشح جبين البكر حياءً ، وللغصون أذرع ممدودة للتعانق ، وللرياح تأوّه ، وللأطيار حركات تحكى حركات القيان الراقصة ، وتغريد يشبه ألحان المغنين ، كأن الطبيعة التى يصفها كائن حىّ له قلب يدقّ ، وعرق ينبض ، وأنفاس تتدفق .

« وأبواب شعره على كثرته قليلة طغى عليها باب الوصف فى الطبيعة والفن ، فليس له فى الحكمة والرثاء والاجتماع إلا قصائد معدودة ، وليس له فى المدح والفخر إلا أبيات قليلة أتت ضمن قصائده المختلفة ، على أن له قصائد كثيرة فى الحماسة الوطنية والنسيب وأخرى فى الحنين إلى دمشق والتفجع على فراقها ذكر فيها مسارح صباه ومعاهد أنسه .

« وقد خلا شعره من الهجاء إلا فى مواطن القدح على المستعمرين والإنحاء باللائمة على المتصاغرين أمامهم . وكما خلا شعره من الهجاء فكذلك خلا من ذكر المجون والعبث واللهو ووصف اللذات الحسية ، فهو لا يتفنن فى وصف الرقص إلا ليقول إن الرقص لهو ولعب ، يهون به كل صعب ، ويتيسر كل عسير ، ولا يصف مجالس الشراب إلا ليطلب من الله أن يغفر له زلات الصبى ، ويتقبل منه التوبة » .

وكما خصّ جميل صليبا الشاعر وشعره بدراسة مستفيضة ، خصه الدكتور سامى الدهان بدراسة عن حياته . ونشر له المجمع عقب وفاته كتاب « جمهرة المغنين » ، ألفه وهو فى فجر حياته الأدبية ولم تناهز سنه الثامنة عشرة ، والكتاب « تاريخ موجز عن المغنين المسلمين وسيرهم فى أزهى عصور الخلافة الإسلامية أيام بنى أمية وبنى العباس إلى زمن الراضى ، وبه بحث ممتع عن تاريخ الغناء والمغنين وتأثير الغناء وآلاته ومن دوّنت له صنعة فى الغناء من الخلفاء وأولادهم مع ترجمة لابن النقيب » .

ومن شعره :

الحلف والجار (١)

أجارك الله ، هذا الحلف والجــارُ ... عليك – لا لك – أعوانٌ وأنصارُ
هم حكّموا فإذا التحكيم عندهم ... تحكم ، وإذا التخيير إجبار
قضيةٌ عجب تُبكى وتضحك سل ... عن خطبها الوفد(٢) واستشهد لها (غارو)(٣)
لا يستقيم قياس فى تناقضهــا ... ولا يصح على ما تمّ معيار
الخصم يحكم والقاضى بها همَــلٌ ... والحق يصرع والبهتان سوّار(٤)
إذا المحامى أعان الخصم فى ترة ... فليت شعرى ممن يدرك الثار

* * *

قل للحليفِ وخير القول أصدقُه ... ما بال جيشٍ توارى وهو جــرار
من بعد عشرين عاماً بين أظهرنا ... لم يحم ثغراً ولم تمنع به دارُ
عهدى به يستثير الطفلُ غضبته ... ما باله اليوم رحب الصدر صبّار
أعيذه أن يقولوا عنه جبّــار ... على الضعيف وعند البأس خوار

* * *

يا لابس الثوب مزهوًّا بجدته ... انظر فقد علقت فى ذيله النار
عساك تزعم أن الأمر بتّ به ... من دون علمك ، هلى فى ذاك إعذار
يقضى على حقنا بغياً وليس لنا ... علم ، لعمرك هذا الهون والعار
ويل الضعيف وأفٍّ للقوى إذا ... لم يبق للعدل إيراد وإصدار
إذا الممالك لم ترفع قواعدها ... على الأسنة فالبنيان منهار

* * *

قالوا « الجزيرة » لا ترضى بحكمكم ... ما فى « الجزيرة » إلا النفط والقار

---

(١) قيلت بمناسبة حوادث الإسكندرونة التى اغتصبها الأتراك من سورية .
(٢) اللجنة الدولية التى أرسلتها عصبة الأمم إلى الإسكندرونة للإشراف على الاستفتاء .
(٣) المندوب الإفرنسى فى الإسكندرونة .
(٤) السوار الذى يواثب نديمه إذا شرب والسوار من الكلاب الذى يأخذ بالرأس .

ديار عمرو بن كلثوم يعيث بها ... بهزل دهرك إسكافٌ وخمار
من لاجئٌ ودخيل وابن سابلة ... فى ظهره من سياط الترك آثار
(طيٌّ) و(تغلبُ) هل نامت فوارسها ... فصال يُرهج فى الميدان حمّار ؟
روايةٌ سمجةٌ صوتُ الملقن من ... وراء قترته (١) كالرعد هدار

* * *

بنى « العروبة » كم من صيحة ذهبت ... لو يستثار بها الموتى إذن ثاروا
إن الحوادث لو أدركتمُ عــبرٌ ... فأين – لا أين – ألباب وأبصار ؟
الرحم واشجةٌ والدار جامعــةٌ ... فلمْ تُقَطّع أرحام وأقطار ؟
هنتم على كل شعب من تخاذلكم ... شأنَ العبيد ، وباقى الناس أحرار
لم تغن كثرتكم عنكم كأنكمُ ... على المزيد – ولا أرقام – أصفار ..
تخرّبون بأيديكم بيوتكمُ ... جهلاً أكلكمُ يا عرب أغمار (٢)
يا ليت شعرى ماذا يستفزكم ؟ ... حمى مباحٌ وإذلالٌ وإفقار
أرى الحجارة أحمى من أنوفكمُ ... كم أرسلت شرراً بالقدح أحجار
إخوانكم فى « فلسطين » تناهمُ ... بالسوء والعسف أنياب وأظفار
« مهد المسيح »و«معراج النبى » « وأو ... لى القبلتين » بها لم يأمن الجار
كم ريع سربٌ بها بغياً وكم هتكت ... من حرمة « الحرم القدسى » أستار
أين السوابق للجلى إذا نزلت ... إن الحوازب والأحداث مضمار

١١ ربيع الآخر ١٣٥٧ هـ
١٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٨ م

---

(١) القترة : الكوة أو النافذة – المخبأ .
(٢) أغمار جمع غمر وهو المجهول الخامل الذكر .

على الناصر

١٨٩٦

وصفه أمين الريحانى حين أصدر ديوانه « الظمأ» سنة ١٩٣١ بقوله :

« . . إن أفق شعره ليحيط بنزعات متعددة ، متباينة ، وبأساليب هى عنفوان الفتوة ، متنوعة البذور . . منها زاهر ، ومنها ما يزال فى البراعم والأكمام . وله نهمات فظيعة[١] ، ونفحات شذاها من البنفسج والياسمين . .

ومن العجيب أن الذئب والغزال يرعيان فى قلبه ، ولا يتعدى الواحد غابه وحماه » .

وهو وصف فى غاية الدقة ، والواقع أن على الناصر ، الذى جمع بين الطب والشعر ، إنسان غريب الأطوار ، فيه شذوذ الموهوبين ، كوّن نفسه تكويناً غريباً . كثير المطالعة . نهمٌ لا حدود لنهمه فى كل ما يتجه إليه قلبه وعقله . . إذا أحبّ تراءت الدنيا فى نظره أغرودة من الأغاريد ، وإذا بغض انقلب ثورة هائجة . .

لا يقبل الجدل فيما انتهى إليه من رأى ، وقد يجادل الساعة دون ملل ليقنع مجادله بوجهة نظره . .

عرفته منذ أربعين سنه يهجس بالشعر فما انقطع عنه وما زال وهو فى السبعين من عمره .

ولد فى حماة سنة ١٨٩٦

وأتمّ دراسته الرشدية فيها . والإعدادية فى دمشق ، والطب فى إستانبول — الطبية الشاهانية — ، ثم سافر إلى باريس للتخصص فى الأمراض الجلدية فمكث فيها بين سنتى ١٩٢٣ — ١٩٢٤ عاد بعد ذلك إلى الإقامة فى حلب لمزاولة مهنته وما يزال .

هوايته المفضلة الأدب ، يقرأ التركية والإفرنسية والإنكليزية والفارسية وقد

---

(١) يشير إلى قصيدة الاحتراس .

حذق الأخيرتين وهو فى سن الأربعين . .

سألته مرة عن منهجه الأدبى فقال :

« إنى أومن بأن الشاعر الحقيقى يخلق فنه بوحى من روحه ، وإن نسب الباحثون إبداعه إلى المدارس والمناهج الفنية ، فالفن المسخر بتصميم سابق — فن زائف لا أصالة له . . فهل يغرد الهزار وأمامه " نوطة النغم " . . !

وعلى الناصر شاعر له عالمه الخاص — عالم الطبيعة والكتاب والمرأة — . فمن هذه الينابيع الثرّة ، ومن « ذاته » — يستمد مادة شعره .

وهو صادق الوصف فى تصوير هواجسه وحالاته . . لا يعرف الكذب ، ولا اللعب بالألفاظ . .

وفى شعره دائماً هذه الألوان المتباينة من نفسيته المتشائمة تارة ، والمبتهجة تارة أخرى ، والتشاؤم فى نفسه أغلب وإن ظهر بمظهر الهازئ بالأحداث التى تداعب ذاته وبالموت حين يفتح شدقيه وينشب أظفاره .

يقول فى قصيدته « تلاقيت والموت » .

تلاقيت والموت وجهاً لوجه   فكان ابتسام وكان ازدراء
ظواهر فيها الوداد الأكيد   وأخرى يتمتم فيها الرياء

* * *

تلاقيت والموت فى حانة   يهلهل فى زائريها الرجاء
تلاقيت والموت فى معبد   يتمتم فى مؤمنيه النقاء
تلاقيت والموت فى غارة   يرى الغدر فيها شقيق الوفاء
تلاقيت والموت طى الربيع   وطى الخريف وطى الشتاء
تلاقيت والموت . . لكننى   وإياه دوماً نجيد الدهاء
فلا هو يظهر عارى الجبين   ولا أنا أهتك ستر الخفاء
كأنى وإياه منذ البدايـ   ـة تربا ولاء وخلا صفاء

* * *

تلاقيت والموت وجهاً لوجه   فكان ابتسام . . وكان ازدراء . .

وقد قاده حبه . وهو شاب ، أن يكتب قصيدة « الاحتراص » التى أشار

إليها الريحاني – قاده هذا الحب أن ينبش قبر حبيبته ليطفئ جذوة حبه !

فبعد أن خطف الموت محبوبته انتابه حزن شديد حتّى كاد يرتمي فوق نعشها . . ولا غرابة فى ذلك . . فهذا شيء طبيعي فى النفس البشرية . . ولكن الغريب أن يطفأ لاعج لا بزيارة القبر والبكاء كما يفعل العاشقون . . ولكن لوعة حب على الناصر لا تطفأ إلا بنزوة صارخة تمثّل بعض شذوذه :

أقبل الليل باتئاد ممضّ   واشتياقى لها قليل الأناة
ظلمة الليل ! أسرعى وتمطىّ   واستريني بأقتم الظلمات
ظلمة الليل ! أنت نوري المفدّى   ودليلي إلى حمى اللذات ...

إنه فى المقبرة . . يناجي القبور والصلبان والأشباح والأكفان وينبعث من أعماقه هذا النداء :

أى عطر يفوح منك أيتها المدافن ؟
ما هذا العبير الذى يسكرنى . .

ويعتريه الذهول فيخاطب البوم أن يقف عن نعيقه وأن لا يعكر أحلامه ! وينهال على القبر فيحطمه فلا يكاد يرى وجه حبيبته حتّى يشيد بقدسية الموت :

أيها الموت : أنت تحيي البرايا   باختطاف الأرواح ملْ أجسام
أيها الموت أنت رب جليل   تنقذ الناس من قذى الآثام

ثم يخاطب محبوبته :

لاتراعى عذراء روحى ، تعالى   واظمئى من ثغرك المكتام
إنك الآن طوع فرط احتراصي   إنك الآن طوع كل مرامى

وهجم على الفتاة ، وهى موسدة فى قبرها ، يفترسها كوحش ضار :

افترست الفتاة كالنمر أضرى   وبهصرى غدت تئن العظام
وبنابى مزّقت ثغراً تولى   عنه فى حفرة الردى الإبهام
ونهشت النهدين نهشاً مريعاً   يتوانى عن وصفه الإلهام
برهة كنت فى حماها سعيداً   أنصفتنى من شؤمها الأيام

ويختم القصيدة بقوله :

أوخ خ . . فيها طمأنت بعض احتراصى

* * *

إن تأثره ببودلير هو الذى قاده إلى هذا اللون من الأدب القاتم ، والواقع أنه أغرم ببودلير فى بدء حياته الأدبية كما أغرم بادكار ألن بو فقرأهما كثيراً ، وشعر بتجاوب نفسى بينه وبينهما .

هذا الطبيب الشاعر ، الغريب الأطوار ، المؤمن « بذاته » إيماناً مفرطاً جعله يعتقد أنه ما من شاعر فى الشرق أو فى الغرب ، فى القديم ، أو فى الحديث بلغ مرتبته !

ولا يتردد أن يتحدث بزهو عن شعره وعن « أنانيته » . . هى عنجهية عرف بها الشعراء — إلا أن على الناصر أصرحهم فى هذا المضمار !

يقول فى صدد الحديث عن « ذاته » :

« مرّت الأيام وأنا أنظم من الأحلام والابتسامات والأخيلة والزهور والأضواء — تيجاناً مغرية لأقدمها إلى " أنانيتى " .

هذا دأبى ، وهذا ما حبب لى الحياة .

مرّت الأيام وأنا أجمع من الشره والطموح والبغض والانتقام والغيرة والشهوة — أشواكاً تصمى قلبى . .

هذا دأبى وهذا ما حبب لى الحياة . . .

مدّ وجزر فى خضم الحياة . . »

كتب هذا وهو فى بداية كهولته . .

وقد ختم هذه المقطوعة النثرية التى عنونها بـ « أنا » بهذه النفحة الغريبة التى تصور ملامح من ذاته . .

يقول :

« أما الآن ، فأنا كأرملة غجرية تجرّ بجانبها مسخين ، شعثاء ، تعصف الريح العاتية بأطمارها البالية وتهزها كبقايا علَم بعد معركة دامية. ولكن عينيها

الملتهبتين فى وكرى جبينها العالى – معلقتان بالأفق البعيد ، تنظران إلى الأمام ، إلى الأمام » [١] .

أكثر شعره يدور حول «ذاته » وهواجسه وأحلامه ، حول ضيقه وبرمه . وشكوكه ويقينه ، عن حبه والأزمات التى تدغدغ عاطفته ، عن آرائه فى الطبيعة والبشر .

وقد أصدر عدة دواوين تتحدث كلها عن هذه الألوان – ويظلّ اللون الذى يرمز إلى « ذاته » وإلى « شذوذه » هو أوضح الألوان – أريد شذوذ الشعراء الذين يعيشون مع شياطينهم فى عالم ملىء بالرؤى والأسرار .

يكتب النثر كما يكتب الشعر .

وقد لا تجد فى نثره ، ولا فى شعره إشراقة الأسلوب ، ولكن تلمس حرارة الشعر ووهج العاطفة ودفق الإحساس . .

وربما كان فى طليعة الشعراء المحدثين الذين ثاروا على الوزن وعلى القافية ودعوا إلى تحرير الشعر من هذه القيود ، وإلى إرسال الكلام إرسالا لا يتوخون فيه إلا أن يكون منبعثاً عن الشعور ، ذا وقع فى الأذن . وذا جرس على الأسماع ! . . .

قال هذا يوم كان يقرزم الشعر فى بدء شبابه وبالرغم من هذا الاتجاه الذى دعا إليه لم يستطع أن يحرر نفسه من قيود الوزن ، ومن عبودية القافية فى الكثير من قصائده .

من دواوينه المطبوعة :

١ – « قصة قلب » . . . وهى مقطوعات شعرية ، ومنها أوبريت فى فصل واحد عنوانها « الشاعر وآلهة الحب » سنة ١٩٢٨

٢ – الظمأ – سنة ١٩٣١

٣ – البلدة المسحورة « قصة » سنة ١٩٢٥ [٢] .

---

(١) ديوان « الظمأ » ص ١ .

(٢) وقد وصفها الريحانى بقوله : إن فى كتابك هذا عبقرية مبدعة ، ولكنها لا تزال تتعثر فى مدارج الفن .فأنت لا تكبح المخيلة منك ،ولا ترعى دائماً وحدة الأسلوب ،ولا التناسق فى الفكر والروح ، فتجىء بالتافه فى بعض المواقف الرائعة ، وتقطع على القارئ الرعشة بضحكة فضفاضة ، ومع ذلك فقد جئتنا بالمبتكر وهذا شىء يذكر فيكبر . فأهنئك وأدعو لك بالمزيد « المشذب » من هذا الأدب الجديد فى روحه « الألفليلى » فى قالبه .

٤ — السريال : سنة ١٩٤٧

٥ — دنّ الدموع : سنة ١٩٥٤ وهى أشبه بقصة صوّر فيها الهجسات الإنسانية التى يحسها المفكرون فى مصطرع الأهواء — أريد الصراع بين المادية والمثالية ... بين موقدى نار الحروب ودعاة السلم، فجعل من الإنسان هذا الشيطان المارد الذى لا يعرف فى سبيل أمجاده الكاذبة وأنانيته الصارخة سوى إثارة الأحقاد وخلق الضغائن . والركض وراء المطامع التى تنتهى به إلى زجّ البشرية فى أتون النار ، وبالرغم من روح التشاؤم التى تسود عناصر هذه القصة التى اعتبرها ملحمة من ملاحم الأدب الرمزى — ولا يصدق عليها هذا الوصف — فنزعة الخير تطغى فى نهايتها على روح الشر . وهذا ما يتخيله الشعراء الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية تتأكلهم الوحدة المضنية التى تلهمهم مختلف الهواجس والصور .

٦ — وأما «السريال» فهو مقطوعات من الشعر السريالى قدّم لها صديقه أورخان ميسّر الذى ضمّ هو أيضاً إلى الديوان بعض مقطوعات من شعره السريالى ثم ختمها بتوضيح للسريالية مع شرح بعض النماذج .

ونقرأ هذه المقطوعات فلا نفهم منها شيئاً، لا هى رمزية ، ولا سريالية. وجل ما فى الأمر . . أنها كلمات متقطعة لا يربط بينها أى رابط ولا ترمز إلى شىء وإن اعتقدا أنها هى الشعر الذى يضمّ فى كل حرف من حروف الكلمات عوالم مرّت فى ضمير الشاعر . . .

وقد أعدت قراءة هذه المقطوعات أكثر من مرة . وكنت ألتمس كل مرة أن أجد المتعة التى تجعلنى أحسّ مع الشاعر رعشته وجوّه السحرى ولكن عبثاً . ومهما اتهمت فهمى فلن يفوتنى قصد الشاعر ، أى شاعر كان قديماً أو حديثاً ، من شعراء الغرب أو الشرق — نعم . مهما اتهمت فهمى فلن تفوتنى روح الشاعر مهما هجس به خافقه ، وما انطوت عليه نفسه .

ولا بأس أن يشاركنى القارئ فى تلاوة مقطوعة ، لا أعمد إلى الاختيار بل أفتح الديوان كيفما اتفق ، وأنقل ما تقع عليه العين ، فقد يكون أحد القراء أوسع فهماً منى فيرى فيها ما لم أره وما لم أتذوقه .

ثلاث دقات :

دقة !
عرف
سكر
قبر شفاف
حياة . . .

ومقطوعة ثانية لأورخان ميسر :

تيار
لا طاقة للتدفق
زهور على الضفة
عين حولاء . .
ولادة
ضمة عدم
تيار يتدفق .

ويفسّر أورخان ميسر السريالية بأنها تشبه من وجوه عديدة ما يحاول تحقيقه اليوم رجال العلم فى طرق تغذية الإنسان . إنهم يحاولون ، وقد نجحوا فى ذلك إلى حد بعيد ، أن يجعلوا حبة فى حجم الحمصة أن تعطى الفرد العادى ما يحتاجه جسمه من الحيوى « ج » مثلا دون أن يضطر إلى إرهاق جهازه الهضمى بتناول ثلاث أو أربع برتقالات وأن تمتعه الحبة ذاتها بذات الإحساس الذوقى الذى يولّده طعم البرتقال المعروف .

ثم ينتهى من هذا التعليل إلى القول :

« كان الدكتور على الناصر ، حتى زمن قريب ، فى جملة الذين يأكلون البرتقال بكميات كبيرة بدافع العادة والاستمتاع الآلى ، غير أنه كان سريع الاستجابة لتطور الفكر الإنسانى ، وكان عقله سريع التحوّل من الشكل التكعيبى إلى الشكل الانسيابى ، فاستذوق الحبوب المدسمة وعاف كميات الألياف التى ترهق أجهزة الجسم المختلفة ، فاستطاع أن يقول فى كلمات

قليلة ما كان يقوله بالأمس فى سطور كثيرة . . .

نظم الدكتور المقطوعة التالية المؤلفة من ٧٦ كلمة فى عام ١٩٣٧ :

قال لى القلب ساخراً فى المساء قم نضع زهرة على قبر حزنك
ذاك حق الوفاء . . . إيه لماذا حجبت بالضياء آفاق عينك ؟
لم أجبه . . فقادنى مذهولاً ودرجنا على الرفات طويلا
أضللناه ؟ لست أدرى ولكن تحت هذى الألواح إنى دفنته
هاهى السروة التى غرستها أنملى فى التراب حين لحدته
انحنينا على الضريح لنلقى زهرة من ولائد الأضواء
فتعالى من جانبيه فحيح بارد كارتعاشة استهزاء
نشر الحزن وهلة فى المساء

هذا والحالة الشعورية العابرة انحدرت إلى اللاشعور الذى جهزه وتبناه وقذفه فى عام ١٩٤٧ كما هو فى قطعته السريالية المؤلفة من ١٦ كلمة :

شفه .
أشلاء من زهرة ممزقة
مشوهة لم يبق من تناسقها
إلا قطرة دم
ترنو إلى عين .

ثم ساق مثلا آخر من قصيدة نظمها عام ١٩٣٩ والمؤلفة من ١١٣ كلمة والتى استحالت بعد عشر سنوات مقطوعة سريالية من ١٢ كلمة !

وكأنى بالأستاذ ميسّر — رحمه الله — أراد ، وهو ذو نزعة علمية ، أن نزجّ عالم الشعر وواحاته الظليلة ونغماته المطربة فى مختبر كيماوى ، ونحمد الله أن الطبيب الشاعر قد ترك هذا الهذر ، وشفاه الله من هذه اللوثة فعاد إلى سجيته الأولى ، وكان لسهام كوبيد ، وهو فى فجر شيخوخته وأب لولدين وقد أصبح جدا — كان لسهام كوبيد أثرهـــا فى دغدغة أحاسيسه فنظم الكثير من الشعر العاطفى والفلسفى الذى انتظمه ديوان لم يطبع باسم « قصة أيـــام » قصـــة حب فتاة فى رونق الصـــبا — وللشيوخ ظواهر غريبة فى الحب —

عاش على الناصر يقتات من البسمات واللحظات وربما من القبلات والخلوات — هذه النشوة أعادته شابًّا فى فجر صباه :

قسراً أعدتِ لى الحيا ة أعدتِ لى فجر الحياة
أنت الربيع دم الإلـ ـه انساب فى الأرض الموات
نعم الحياة إذا نعمـ ـت بغيها نعم الحياة

* * *

أريدك . . وإن كنت فى القلب والعين ، فى كل جارحة من كيانى
مشوق إليك كشوق اليتيم إلى الأم فى غفوة من حنان
وأصبو إلى الصوت فيه العجيب من اللغو يسبي صميم جنانى

هذا الشاعر الذى عاش حياته مع كتب الطب ودواوين الشعر ، وألزم نفسه بوحدة قاسية سرعان ما يجن جنونه وتثور عاطفته حين تدغدغ أحلامه فتاة تهتف إليه فيتنفس الصعداء بعد أن عاش سبعين عاماً فى ضباب واكتئاب :

أتنفّس الصعداء لما فجأة تتكلمين
يا ضحكة خضراء فى أذنى كالروح الأمين
أتنفّس الصعداء لكنى أعود إلى الجنون !

وهو يسجل سحب تلك الأيام المظلمة بقوله :

سبعون عـــاماً عشتها سبعون عاماً فى ضباب
غمزات أضواء كذا ب أشبعتنى باكتئاب
يمتهـــا كالظامئ المبهـ ـهور يخدع بالسراب
روحى الملحة فى الجما ل وفى الكمال وفى الشراب
لم تجن غير مرارة الخذ لان منهـــا والعذاب
يا للمفاجأة الغـــريـ ـبة بعد يأس واضطراب
عانقت بالحب الصدو ق هنا : الطفولة والشباب

لقد ذاق طعم الحب فأضناه . وكان فى بعض حالاته أشبه بمجنون ليلى ، أو بأراغون مجنون إيلزا . . وهو لم يصف فتاته السمراء التى بادلته الحب والتى لم تبلغ الثلاثين ربيعاً من عمرها الغض — لم يصف عيونها وشعرها وقدها

وغنجها وملاحتها – لم يصف جمالها الطاغي بقدر ما وصف « ذاته » المعذبة ، فكان الشعر وسيلة للتنفيس عن ألمه ولا سيما بعد أن حم الفراق وطوحت بها الأقدار ، فهو يذكرها بألم وحنين :

آه بلا جدوى فليت مرارة الآهات تجدى
بيني و بينك هوّة فوق التمرد والتحدّى
أ إذا رجعنا هل يطيق عظيم ما عاناه وجدى ؟
يا قصة ألحدت فى قلبى .. أنا أبكيك وحدى !

لم يستطع أن ينام ليلة العشرين من شهر أيار سنة ١٩٦٦ وكانت هجساته هذه المقطوعة التى أتبعها بمقطوعة ثانية بعد شهور .. فما تكاد تثيره الذكرى حتى يهدهد ثائرته بهذه النفحات :

تُطل لتشجى النفس بعد هدوئهـــا أمور تقضّت تستثير ولا تُجدى
فلم تخمد الأيام مشبوب نارها وتذكو ضراماً حين أهذى بها وحدى
ضلالةٌ وهم غادرتها لشؤمها فلم يبق فيها غير حشرجة الصدر
فياليت أنى فى الحياة فراشة لأحفر فى صدر التى ذهبت – قبرى

وستظل « قصة أيام » هى أجمل وأعمق ما نظمه من الشعر . وهذه القصة غير منشورة وهى وديوانه « الأغوار » فى جزأين غير منشورين ، ويضم الأغوار قصائد ومقطوعات عن الفترات التى مرّت من حياته بين الشباب والشيخوخة – حتى فى كهولته هو هذا الإنسان الغريب ، الثائر ، المتمرد ، الصاخب – وصخبه هو صدى أغوار نفسه التى تعيش بين « الواقع » و « الأوهام ».ولعلّ أبلغ تصوير لهذه الحالة قوله :

ما زلتُ أوقن أن سُخف الوهم يغنى
دعنى أهدهد عمق مأساتى بفنى
طوبى لمن فى مأثم الدنيا يُغنى
ويلوّنُ الأحداث بالُحلم المفنّ
إنى لأعلم كيف أن العيش يثنى
وتباطؤ الأعمـــار ما يوحى ويعنى

لكننى ، ولقد نعمت بصحوة فوق التمنى . . .]

. . . يا صحوة : قد كنت فوق طلاب روحى والتمنى !

وقد ضم « الأغوار » إلى جانب القصائد نفحات نثرية سماها أساطير ، منها أسطورة الغوطة ، وأسطورة الأرز ، وقصص واقعية فى سطور .

* * *

لقد عاش على الناصر ، الطبيب الشاعر فى قوقعة من « ذاته » ، فلم يواجه الجمهور قط ، وطالما دعى للكلام فاعتذر ، وكان قد ألح عليه صديقه أورخان ميسر ، الأديب السريالى – إن صح التعبير – ألح عليه أن يلقى بعض مقطوعات من شعره فى أحد الأندية الدمشقية . . وقبل بعد إصرار طويل ، وأراد قبل أن يلقى قصائده أن يقدم نفسه للجمهور ، أو لصفوة من محبى الأدب والشعر ، بهذه الكلمة التى لم تلق أيضاً . .

وإنى أثبتها لأعطى صورة من حياته التى عاش أيامها ، مع كتب الأدب والفن والطب ، مع الكأس والمرأة – فى نطاق وحدة قاسية وأحلام مضمخة تارة بالعطور وتارة بتراب القبور !

قال :

لا أدرى كيف يمكن للشاعر أن يعرى نفسه أمام الجمهور ولا يكلل عرق الخجل جبينه .

إنه يتحرك فى أجواء نفسه ، والنفس البشرية إذا زال عنها كابوس الوعى تأتى بما يأتى به الأطفال ، فلو درى الطفل بأن العيون تتفحصه لتعثر فى طفولته .

إن « اللاشعور » نفسه لا ينجو من الواعية إلا إذا اضطر أن ينفجر كبركان ، وقد يسبب هذا الانفجار الخراب فيدمر ولا يبنى . .

إن الشعر الصادق يحلل ولا ينقد .

والشاعر الحقيقى جدير بالرثاء والعطف فى حياة يكفى أنها تؤول إلى ذلك النوم الأبدى الأبله .

إن شعلة الوعى التى منحها الإنسان ، والتى يسعى إلى ازدياد توقدها

هى « بؤس الشاعر » و « علة اضطرابه » . وهى العامل الأكبر لئلا يرى الحياة إلا بمنظاره ، ذى الزجاج ، جمّ الألوان .

إنه ينظر إلى الحياة كما ينظر الأطفال من عدسة صندوق العجائب »

هكذا قدّم نفسه حين اضطر أن يلقى مقطوعات من شعره أمام الجمهور فقال :

« وها أنا أعرض لكم ، فى هذه الأمسية ، نماذج ما رأيته بمنظارى المخدوع » .

* * *

من عزلته ، وقد أنس بها وضاق ، أعطى الشعر المعاصر ألواناً متباينة من شعر عاطفى وفلسفى ، يمثله ، فى شتى حالاته أصدق تمثيل .

الأمير مصطفى الشهابى

١٨٩٧ – ١٩٦٨

من أعلام النهضة الفكرية فى سورية .

خلف محمد كرد على ، بعد خليل مردم بك ، فى رياسة المجمع العلمى العربى وإن اختلف نهجه عن نهج سلفيه .

كان محمد كرد على موسوعة فى تاريخ الأمة العربية والحضارة الإسلامية إلى إلمام واسع بالسير والأعلام ، وكان خليل مردم بك شاعراً وله مشاركة فى الأدب والشعر ، أما الشهابى فبالرغم من امتداد أفق ثقافته ، فقد قصر جهده على ظواهر الحياة العلمية ومصطلحاتها فى اللغة العربية ولا سيما التى لها علاقة بعلوم الزراعة وعلوم المواليد الثلاثة من نبات وحيوان وجماد .

ويرجع هذا الميل إلى دراسته الأولى منذ دخل مدرسة غرينيون الزراعية العلمية فى فرنسا والتى حصل منها عام ١٩١٤ على شهادة مهندس زراعى ، فلم يكد يرجع إلى سورية ، وبعد أن انحسر ظلال الحكم العثمانى عنها ، حتى قدّم إلى أبناء وطنه ثمرة من ثمرات علمه وفنه – أريد بعض كتب ألفها لها علاقة بالزراعة . فأصدر كتاب « الزراعة العلمية الحديثة » وكتاب « الأشجار والأنجم المثمرة » وكتاب « البقول » ورابعاً عن « الدواجن » – وكانت الزراعة فى سورية لا تزال فى طورها البدائى ، فكتب هذه الكتب وهو مدير الزراعة والحراج ، وهى مصلحة ذات ارتباط وثيق باختصاصه . .

ومن مديرية الزراعة انتقل إلى مديرية أملاك الدولة . وأكثر أملاكها مناطق زراعية ، ثم إلى مديرية الاقتصاد الوطنى ولكن مهامّ هذه المصالح الحكومية لم تشغله عن نهجه العلمى وعن نزعاته الفكرية ، فكتب المقال الأدبى ، وألقى المحاضرة العلمية ، ونظم الشعر . . وظلت المصطلحات العلمية فى اللغة العربية ، قديماً وحديثاً ، شغله الشاغل ، فأعطاها الكثير من جهده وفنه ، وعاش أنضر أيام عمره ، مع المعاجم العربية والإفرنسية ، وهل عمل

شاق . ومرهق فكان يجد فيه لذته ولا سيما حين يحيي كلمة مهجورة لاتنأى فى مدلولها عن روح العصر . وكان حصيلة هذا العمل « معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » وهو أول معجم يصدر فى هذا الموضوع حتى أصبح مرجع الكثيرين المشتغلين بهذا العلم . طبع أول مرة سنة ١٩٤٣ ثم أعيد طبعه طبعة ثانية منقحة ومزيدة سنة ١٩٥٧ وهو يضم أكثر من عشرة آلاف لفظة عربية أو معربة ، وضعها قبالة الألفاظ الفرنسية والأسماء العلمية .

من وظائف المديريات العامة إلى المناصب الكبيرة — من محافظ إلى وزير إلى سفير [1] — إن أعباء هذه الوظائف لم تشغله عن الحياة الثقافية . كما قلت ، فظل وفيًّا لرسالة الفكر ، وكانت مقالاته وأبحاثه غير منقطعة عن المجلات الأدبية ولا سيما « المقتطف » و « الهلال » و « مجلة المجمع العلمى العربى » و « الثقافة » وتؤلف هذه المقالات والأبحاث مادة كتاب نشر أخيراً بعنوان « الشذرات » وصفه الأستاذ أحمد الجندى أحد سكرتيرى المجمع بقوله :

« . . إن القارئ يجد فيه ناحية جديدة كل الجدة . . طريفة كل الطرافة ، وهى ناحية الكتابة الأدبيةالصرفة التى تصور أخلاق بعض الناس ، وترسم لك بعض المواقف والهواجس عند الكثير ممن عرفهم الأستاذ الكبير ، مما يمكن أن يدخل فى عداد الكتابات الأدبية التى سميت فى المصطلح الحديث " الفن للفن " ، فهى كتابة فنية حقًّا تعنى بتصوير الآراء ورسم الأفكار ،

---

(١) تقلب الأمير مصطفى فى مناصب الدولة العالية وتسلم منصب وزير فى أربع وزارات وشغل على التتابع منذ عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٩ مديرية الزراعة والخراج ، مديرية أملاك الدولة ، مديرية الاقتصاد الوطنى ، وزارة المعارف ، محافظة حلب ، وزارة المالية ، وزارة المالية والاقتصاد الوطنى والإعاشة ، محافظة اللاذقية ، الأمانة العامة لرياسة مجلس الوزراء ، محافظة حلب للمرة الثانية ، محافظة اللاذقية للمرة الثانية ، وزارة العدل . وهو من قدماء العاملين للقضية العربية ، وكان عضواً فى جمعية « العربية الفتاة » وجمعية « العهد » وبقى فى الحكومة السورية طوال عهد الانتداب بقرار من إخوانه لتقريب وجهات النظر بينهم وبين السلطة الإفرنسية بغية الحصول على الاستقلال ، وكان أحد أعضاء وفد المعاهدة سنة ١٩٣٦ . وعين وزيراً مفوضاً لسورية فى المملكة المصرية فى ٢٨ حزيران سنة ١٩٥١ ثم رفع إلى رتبة سفير عند ما رفع التمثيل بين مصر وسورية إلى درجة سفارة .

— هذه المعلومات مستقاة من كتاب خاص عنه —

ولا ترمى إلى إثبات نظرية أو تحقيق مفهوم غامض .

« هذا اللون من الأدب يعتبره النقاد أرفع ألوان الأدب لأنه أقرب إلى الشعر الذى يـُلتفت فيه إلى الصورة والنغمة واللمحة الخاطفة الأخاذة يتخلل كل ذلك ظرف ظاهر ، ونقد سافر ، فيه كل المتعة والجمال . »(١)

وظلت النواحى المعجمية أغلب فى أدبه وإن لم تصرفه عن النواحى الفكرية فى مختلف مجالاتها .

فقد دعاه معهد الدراسات العربية العلمية لإلقاء محاضرات على طلبة الدراسات الأدبية واللغوية فكانت « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية » موضوعه المفضل ، وألقى سلسلة محاضرات انتظمت بعدئذ فى كتاب طبعه سنة ١٩٥٥ثم أعيد طبعه ١٩٦٦ بيد أنه أضاف إليه الكثير من الخواطر ، وهى نتيجة دراسات واختبارات دامت سنين عديدة ، ولا يتمسك برأيه بل يترك للعلماء مجال البحث والنقاش فقال : « إن لبعض علمائنا وأدبائنا آراء مختلفة فى معالجة المصطلحات العلمية إجمالا وتفصيلا ، فعسى أن يحدوهم هذا الكتيب على نشر النضيج من آرائهم وبحوثهم ، فى المناظرة ، بأسلوب علمى مهذّب ، فوائد يستفيدها المتأدبون »

وبعد سنة ألقى فى المعهد أيضاً سلسلة محاضرات عن الاستعمار . . تكلم عن الدول وصنوفها ، والاستعمار وتاريخه ، والتسلط وأشكاله . وعلى ما يسميه المستعمرون حقوق الاستعمار ، وهى الذرائع التى يتذرعون بها تسويغاً للاستعمار فى نظرهم ، كحق القوة وحق العنصرية وحق الاحتلال وحق الحياة وحق الاستعمار لأجل نشر المدنية إلخ . . وقد دحض هذه الحقوق المزعومة دحضاً علميًّا وفلسفيًّا وخلقيًّا ودينيًّا ، وأثبت حق الثورة فى سبيل الاستقلال ، ثم تناول بالبحث أساليب الدول الاستعمارية فى إدارة شؤون المستعمرات والمحميات والطرائق التى تتبعها فى التسلط على مختلف مرافقها . .

وقد صدرت هذه المحاضرات فى كتاب اعتبره الجزء الأول عن « الاستعمار » وإذ رأى أنه لم يستوف الموضوع بكامله أتبعه بسلسلة محاضرات انتظمها الجزء

(١) « مجلة مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣١ ج ٣ ص ٥٣١ .

الثانى من الكتاب وهو مؤلف من قسمين : القسم الأول تكلم فيه عن بلاد العرب وسكانها ، والقضية العربية وماهيتها ، ويقظة العرب الحديثة ومبعثها ، والقضية الشرقية وأهدافها . والحرب العالمية الأولى وتأثيراتها . والثورة العربية الكبرى ومسوغاتها ، وظهور فكرة الانتداب بدلا من الاستعمار أو الحماية واستيلاء فرنسة على لبنان ثم على سورية سنة ١٩٢٠ م . أما القسم الثانى فجعله خاصًّا بأساليب الحكم والإدارة التى اتخذها الفرنسيون فى سورية ولبنان منذ سنة ١٩٢٠ حتى جلائهم عنها سنة ١٩٤٦ م . وبحثه فى الجزء الثانى مبنى على خبرة شخصية عاشها فدونها ثم جمعها فى هذا الكتاب .

وتابع محاضراته فى المعهد عن «القومية العربية : تاريخها وقوامها ومراميها» جمعها فى كتاب صدر سنة ١٩٥٩ وحاول فى هذه المحاضرات أن يفصح عن رأيه فى كنه عقيدتنا القومية وتاريخها الحديث والعوامل المكونة لها والأهداف التى ترمى إليها والفلسفة المثالية التى تحدد أغراضها وعلاقتها بالقوميات السائرة وبالبشرية جميعاً ، والكثير من المعلومات التى اشتملت عليها المحاضرات مقتبسة من مذكراته واعترف بقصوره عن توفية الموضوع حقه إذ لا يستطيع الرجل الواحد أن يضطلع بتأريخ الحركات القومية الحديثة فى بلادنا العربية ، فهذا التأريخ يحتاج إلى جهد مشترك تقوم به جماعة من المثقفين ، على أن يكون كل واحد منهم قد عاش مع الحركات الوطنية فى قطره ، وتتبع سيرها عن كثب ، ودون صفحاتها تدويناً صحيحاً مجرداً عن الهوى .

وبالرغم من ذلك فالكتاب يؤرخ مرحلة من مراحل القومية العربية التى يعتبرها عقيدة قوامها ، من حيث الفكرة المثالية ، أمران :

الأول : الشعور والإيمان بأن الشعوب العربية فى جميع أقطارها أمة عربية واحدة ، وبأن أوطان تلك الشعوب أجزاء من وطن كبير واحد هو وطن الأمة العربية .

والثانى : إرادة السعى لتحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لهذه الأمة

ويرى أن القومية العربية لا ترتكز على عامل العنصرية وإن يكن معظم

سكان البلاد العربية يمتون إلى سلالة بشرية واحدة هى السلالة العربية القديمة المسماة بالسلالة السامية . . ولا ترتكز على الدين وإن يكن معظم هؤلاء السكان مسلمين. ففى القومية العربية : « العربى من تكلم العربية وأراد أن يكون عربيًّا ، مهما كان دينه ، ومهما تكن السلالة البشرية التى ينتمى إليها ، وفى القومية العربية المسلمون والمسيحيون سواسية ، على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ، هى تجلّ العقيدة الدينية القويمة ، والتحلى بالأخلاق الدينية الفاضلة » .

ثم ينتهى إلى القول بأن القومية العربية ليست فلسفة قومية ضيقة ، ولا مذهباً اجتماعيًّا محدوداً قوامه الأثرة أو التعصب أو البغضاء ، بل هى فلسفة اجتماعية مثالية بناءة تقدمية تدعو كل عربى إلى محبة أمته العربية ووطنه العربى ، وإلى الاعتزاز بماضى هذه الأمة ، وإلى العمل التقدمى لحاضرها ومستقبلها ، كما تدعو إلى محبة الإنسانية ، وإلى خير البشرية ، وإلى حق كل شعب على الأرض بتقرير مصيره .

* * *

ومع هذه الآفاق التى طرقها ظلّ مرتبطاً بالناحية التى شغلت قلبه وفكره — أريد الاصطلاحات الجديدة التى تتناول الشئون الزراعية ، فلا يكاد يصطاد كلمة حتى يصهرها فى مصطلح جديد يضمها إلى معجمه . . ويمضى أيامه بين المجمعين : مجمع دمشق ومجمع القاهرة ومع الكتب والمراجع لإغناء اللغة بالمصطلحات . . .

ويمتاز أسلوبه بالدقة والوضوح والبعد عن المعاظلة — لغة أكثر العلماء الذين لا يملكون ناصية اللغة . ولا تخلو مجلة المجمع فى كل عدد من أعدادها —من مقال له فى شتى النواحى الفكرية ذات الاتصال الوثيق بالعربية وبتطورها اللغوى المتجاوب مع ثقافة العصر ومنهجه العلمى .

شفيق جبرى

١٨٩٨

من أعلام الأدب فى سورية . صاحب طريقة فى الترسل ، شاعر ، ناثر ، باحث .

ولد ليلة الأربعاء فى ١٤ شعبان سنة ١٣١٤ هـ « ١٨٩٨ » م .

أرسله والده ، وهو من كبار تجار دمشق ، إلى كتاتيب الحارة ، ليتعلم القرآن وحسن الخط وقليلا من الحساب الهندى .

وفى السادسة من عمره أشار على والده صديق مسيحى صاحب مصرف مشهور أن يرسله إلى مدرسة « العازاريين الإفرنسيين » فأدخل وهو صغير ، ومكث فيها تسع سنوات حصل على شهادتها الثانوية فكان الأول فى صفه ، وقد أتقن الكتابة الإفرنسية حتى قال له أستاذ الفلسفة فى آخر سنة إنك تستطيع بإنشائك أن تدخل السوربون من دون امتحان .

أما العربية فلم يتقن منها آنذاك ، إلا بعض القواعد النحوية وذلك لفساد ذوق الخوارنة الموارنة الذين أخذ عنهم ، هذا ما حدثنى به الأستاذ نفسه ، ولولا صديق له من الروم نصحه أن يدرس ابن المقفع والمتنبى واليازجى والصابى لما وجد إلى الكتابة سبيلاً .

وحين خرج من المدرسة سنة ١٩١٣ سافر إلى يافا مع أهله لأشغال لهم فيها فكان يرسل إلى جريدة « المهذب » فى زحلة بعض مقالات فى الفلسفة والتاريخ الطبيعى .

وفى غضون الحرب عكف على ابن المقفع وابن عبد ربه وابن خلدون والصابى وعلى شعراء الجاهليين والمتنبى فقوى بيانه بعض القوة ، وحين عاد إلى دمشق شرع فى نشر قصائد ومقالات فى صحفها . وكان ذلك فى سنة ١٩١٨ فلفت إليه الأنظار ، كان له بيان قوى على قلة المدة التى استعد فيها لهذا البيان ، حتى إن الرصافى لما سمع شعره فى تلك الفترة لم يصدق أنه حديث العهد بالشعر .

وقد رجع بعد ذلك إلى الأدب الإفرنسى ، وتعلق بأناتول فرانس فأفادته كتبه كثيراً . وتعلم من هذا الكاتب العبقرى وضوح العبارة ووضوح الفكر ، والبعد عن الحشو والغموض .

انتسب من سنة ١٩١٨ إلى الوظائف ، وكانت الدولة آنذاك تبحث عن الذى يعرف الكتابة الجيدة بالسراج والفتيلة ، كما يقول المثل العامى ، وبقى مدة طويلة رئيساً لديوان المعارف ، واستمرّ وهو فى الوظيفة ينشر المقالات والقصائد فنشأت له قدرة على الشعر والنثر قلما تنشأ لغيره .

ولما أنشأت وزارة المعارف كلية الآداب الأولى سنة ١٩٢٨ عين أستاذاً ومديراً وألقى خلال سنتين عدة محاضرات عن الجاحظ والمتنبى كان لها أثرها فى نفوس الطلاب ، وقد جمعت هذه المحاضرات فى كتابين متداولين أحدهما عن الجاحظ والآخر عن المتنبى ، فاستقبلهما الأدباء فى مصر والشام والعراق أحسن استقبال .

بقى مدة فى الوظائف ثم انقطع عنها خمس عشرة سنة . . ثم عاد إليها عميداً لكلية الآداب ولا يزال ، وقد قام إلى عبء العمادة بالتدريس .

وهو شاعر مقل . . أكثر شعره فى المناسبات الوطنية والنزعات القومية ، وله فى الوصف ومناجاة الطبيعة مقطوعات كثيرة .

انتخب لعضوية المجمع العلمى العربى ، وهو من أعضائه البارزين .

من صفاته قلة الضحك وقلة الكلام ، أما قلة الضحك فناشئة عن كآبة دخلت على قلبه منذ صغره . والمرح الذى يراه فيه أصدقاؤه أحياناً ما هو إلا لون من التكلف ، وأما قلة الكلام فناشئة عن كثرة تفكيره . . وكثيراً ما سرّ بعض الأساتذة من قلة ضحكه ، وضجر بعض الطلاب من قلة كلامه .

يؤثر العزلة على مخالطة الناس ، ومن أبيات له تصور نفسه وعزلته عن العالم قوله :

تجافت عن الدهماء لم تحتفل بهم	ترى عبسهم بشراً وبشرهم عبسا
فما ألفت بالليل بارقة الدجى	ولا هى ناغت فى رفيف الضحى الشمسا
وما لى وما للناس أبغى وصـــالهم	فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بؤسا

نعم ، فقد اشتهر فى محيطه بالجفاء والوحشة ، وأعتقد أن الذين وصفوه هذا الوصف ظلموه لأنهم لم يخالطوه ولم يعرفوا نفسيته حق المعرفة ، فظاهره لا يدل على باطنه ، فى ظاهره وحشة من العالم ولكن الذى يتصل بهذا الظاهر يجد أنساً بدلا من الوحشة . . إنه لا ينبسط إلاّ إلى الذين يثق بهم و يطمئن إليهم فإذا اجتمع إلى مثل هذه الطبقة انكشف باطنه فظهرت عليه آثار الأنس والمرح .

لقد ابتعد فى أيامه هذه عن كل شىء ما خلا عمله والطبيعة . . خمسة أشهر فى الحرم الجامعى وسبعة أشهر فى ظلال الطبيعة ، وقد اختار قرية « بلودان » مصيفاً ، و بنى فيها داراً صغيرة تطلّ على الروابى المخضوضرة وقد أحيطت بحديقة صغيرة امتلأت بأشجار التفاح ، حتّى كادت بلودان تعرف به لألفته إياها .

* * *

لقد كان فى الحرب الكبرى الأولى قابعاً فى داره فى أكثر الأيام يقلب النظر فى طائفة من كتب الأدب ويقتبس عنها ما يهديه إليه الذوق حتّى ألف أساليب المتقدمين من بلغاء الكتاب والشعراء . . فلما انقضت الحرب دخل فى غمار الحياة العامة وكانت البلاد فى ثورة فكرية شديدة — ثورة على الحلفاء الذين نقضوا عهودهم ومواثيقهم فاندفع فى قول الشعر .

فكانت قصائده ترجمان هذه الثورة ، ولقد أفصح فى شعره عن عواطف البلاد الوطنية ونزعاتها القومية ، واستمر فى هذا النحو من الشعر إلى أن جلا الأجانب عن البلاد ، فإذا رجعت إلى تاريخ سورية كان شعره جزءاً من هذا التاريخ ، ومع كونه لم ينتسب إلى حزب من الأحزاب ولا مارس السياسة بالفعل فإنه كان صوت كل حزب وطنى على بعده عن الناس وإيثاره العزلة فى أغلب حياته العامة .

لم يعش فى محيط معين وإنما عاش فى محيط نفسه فقد خلق لهذه النفس أفقاً مناسباً لمزاجها وتفكيرها وشعورها ، وعاش فيه كل حياته ولا يزال إلى يومنا هذا يعيش فى أفقه الخاص بعيداً عن كل الناس ، قريباً منهم .

* * *

هذه صورة عن مراحل حياة الدراسة والوظائف التى تقلدها والآفاق التى

عاش فى ظلالها ، وهو اليوم فى طليعة أدباء سورية وكبار شعرائها . . يمتاز شعره بالقوة والجزالة والفيض ، فإذا نظم رأيت العاطفة المتقدة واللفظ المختار والأسلوب الجزل ، وقد كان للمتنبي كما كان للبحترى أثرهما البليغ فى شعره . . أخذ عن الأول الروح العالية وأخذ عن الثانى سلاسة التعبير ؛ فجاء شعره مطبوعاً بهاتين الصفتين . وأكثر شعره فى المناسبات القومية ، وله شعر تظهر عليه آثار خيال مصقول مثل قصيدته فى « النبى محمد » ومثل قصيدته « نوح العندليب » ، ولنثره هذا اللون الخاص الذى يميزه عن غيره من الأدباء ، فهو صاحب أسلوب مشرق تبدو « الذاتية » قوية فى كل سطر من سطور مقالاته . . وهو لا يكتب لمجرد الكتابة ، بل لا بد له من عوامل تثيره للكتابة . . وأكثر هذه العوامل « النزعات الأدبية » بمفهومها الواسع ، « الشعور القومى » ، « الطبيعة » ، ولمباهج الطبيعة أثرها فى أدبه ، فإذا عبّ من مناظرها امتلأت نفسه بالفيض والخير والجمال ، وأنت حين تقرأ مقالة من مقالاته أو بحثاً من بحوثه تلمس جمال العاطفة وجمال الفكرة معاً فى أسلوب مشرق هو « السهل الممتنع » بعينه .

تأثر بابن المقفع و بأناتول فرانس ، كما قلت ، فكان لأدبهما أكبر الأثر فى أدبه ، فتح عينيه على ابن المقفع فاقتبس عنه وضع اللفظ فى موضعه وسهولة التعبير حتى أصبح له أسلوب خاص يعرف به ، وانصرف إلى أناتول فرانس فأخذ عنه وضوح التعبير ودقة الفكر .

ولأسلوبه هذا الجرس الجميل الذى ينزل من النفس منزلة سهلة ، فهو لا يتقعر بألفاظه ولا تتنافر كلماته ولا تتعاظل جمله بل ترى التماسك قوياً بين جميع جمله ، منذ بداية البحث حتى نهايته .

ومع مشاركته الكتاب فى كل ما يتصل بالشعور القومى ووصفه الكثير من مباهج الطبيعة و بعض مظاهر الحياة والكون ، فقد تناول الكثير من شئون الأدب بالدرس والبحث . . وحين اندمجت حياته الأدبية بالمحيط الجامعى و بالمجمع العلمى أصبح لأدبه هذا الطابع المتزن الذى يقوم على الدرس والبحث . ظهر ذلك فى مؤلفاته الثلاثة : المتنبي والجاحظ ودراسة الأغانى ، عدا مقالاته ومباحثه فى مجلة « المجمع العلمى العربى » ومجلتى « الحديث » و « الثقافة » ،

وقد يكون بين الأكاديميين الوحيد الذى خرج أدبه من قيود التزمت إلى الأفق المنطلق . فالبحث مهما كان وعراً وذا صلة باللغة ومشاكلها فهو يفيض عليه من روحه المنطلقة وأدبه الضاحك ما يسهل وعورته ويجتذب قارئه ليقرأ بحثه وهو مرتاح النفس .

هذا وقد ظهر له أخيراً دراسة عن « محمد كرد على » وهى سلسلة محاضرات ألقاها فى معهد الدراسات العربية العليا وكتاب « أنا والشعر » روى فيه حياته الشعرية فى مختلف مراحلها ، وهو أول كتاب يظهر لشاعر معاصر يروى تجربته فى النظم وأسرار معالجته للشعر وخصائص هذه المعالجة ، كما كتب كتاباً آخر عنونه « أنا والنثر » نحا فيه نفس المنحى فى كتابه « أنا والشعر » وهما كتابان فريدان يؤرخان ظاهرة حية من أدبه وشعره كتبهما بكثير من الصدق .

ومن كتبه « بين البحر والصحراء » و « العوامل النفسية فى سياسة العرب » و « أبو الفرج الأصبهانى » و « أرض السحر » وقد سجّل فيه انطباعاته الذاتية عن رحلتيه إلى أمريكا : الأولى سنة ١٩٥٣ والثانية سنة ١٩٥٦ ، والكتاب من أمتع كتب الرحلات ، امتلأ بالصور الأدبية التى تصف مشاهد الطبيعة ومحيط الجامعات ، وخصائص الأمريكان فى آفاق تفكيرهم وعلمهم بأسلوب غاية فى القوة والجزالة والإشراق. والكتب التى لم تطبع « ديوان العندليب » « أحمد فارس الشدياق » ، « أفكارى » ويضم الكتاب الأخير مقالاته المنشورة وهى على جانب كبير من القيمة الأدبية .

ومن نثره :

وطننا الروحانى

لم يعد الوطن ، على ما قرره أحد علماء الاجتماع ، عبارة عن أرض الآباء والأجداد الذين يتمم نسلهم حياتهم الأولى، ولكن الوطن إنما هو جملة تقاليد وأفكار وعواطف مشتركة ، تجعل أهل البلد الواحد يشعرون بأنهم إخوة ، وإذا أردنا أن نؤمن بقوة هذا التعريف فلننقل رجالا من وطنهم إلى

وطن رجال آخرين ، حتى يدركوا أعماق المهاوى الروحية التى تفصل بين شعوب تختلف حالاتهم الذهنية ، ونستطيع أن نشهد هذا الأمر فى مؤتمر يجتمع فيه رجال من أوطان شتى ، فلا تلبث أن تنشأ الاختلافات بينهم ، ولا تنشأ اختلافات المصالح وحدها ، ولكنا نرى اختلافات العواطف والأفكار التى تمنعهم عن أن يفهم بعضهم روح بعض . وقد تؤلف بينهم المعتقدات السياسية ساعة من الزمن ، ولكن ماضيهم البعيد لا يلبث أن يفصل بعضهم عن بعض ، وهذا أمر لا يطول زمن شعورهم به .

إن هذه الحرب التى ستغير كثيراً من مناحى تفكير البشر ، ستغير فهمنا لمعنى الوطن ، فستنقلنا فى هذا الفهم من ناحية مادية إلى ناحية روحية ، فكما سئم البشر النزعة المادية التى ولّدت الحرب ، وأخذ رجال الفكر يوجهون الخلق نحو نزعة روحية تجد الأمم فيها راحة وسلاماً ، فكذلك سئمنا فهمنا المادى لمعنى الوطن ، وأخذنا نفتش عن فهم روحى له . وما نشوء « جامعة الدول العربية » إلا مظهر من مظاهر هذا الفهم الروحى . لا شك فى أن هذه الجامعة قد بحثت فى بعض الجلسات عن بعض الحدود المادية فى جزء من بلاد العرب ، ولكنها لم تقتصر على هذا النحو من البحث ، فإن لجانها بحثت عن وحدة الثقافة فى بلاد العرب وعن وحدة الاقتصاد ، وربما بحثت فى الآتى عن أمور من هذا الشكل . ومعنى هذا كله أننا معاشر العرب قد خرجنا من حدود فهمنا المادى لمعنى الوطن ، ودخلنا فى حدود فهمنا الروحى له ، فلم تعد الحدود بيننا و بين مصر مثلا هذه الصحراوات المديدة ، فإن هذه الصحراوات على اتساعها قد عجزت عن أن تفصل بيننا و بين مصر . أجل . إن الحدود المادية لم يبق لها سلطان بين البلاد العربية ، وأى قيمة لهذه الحدود بعد الاختراعات التى اهتدى إليها العلم فى تهديم المدن والقضاء على البشر ، فنى بضع دقائق تذهب مدينة من المدن بين سمع الأرض و بصرها فتصبح أثراً بعد عين ، لم يبق لنا بعد اختراعات التخريب والتدمير إلا الاستعانة بالسلطان الروحى فى فهم معانى الوطن . وفى توثيق الأواصر بين أوطاننا المختلفة .

فرغت من أيام من مطالعة كتاب يصف الأواصر بين الشام ومصر فى

الغابر والحاضر فلم تستطع الجبال والأودية والبحار والصحارى أن تفصل مصر عن الشام أو الشام عن مصر ، من قديم التاريخ . ففى أكثر العصور فتحت مصر أبوابها لأهل الشام وفتحت الشام أبوابها لأهل مصر ، وفى بعض العصور كان والى مصر والشام واحداً ، فنشأ عن هذا كله اشتباك الأواصر السياسية بينهما ، وتبعه اشتباك الأواصر العلمية والأدبية ، وأكبر مظهر من مظاهر هذا كله شعر الشعراء . فإذا أصابت الشام مصيبة سكب شعراء مصر دموعهم فيها ، وإذا أصاب مصر مثل هذه المصيبة بكى شعراء الشام ، وقصائد شوقى وحافظ لا تزال راسخة فى الأذهان .

فالذى يستنتج من ذلك أن أكثر بلاد العرب مشتبكة الأواصر فى التقاليد والأفكار والعواطف ، وأن بلاداً بلغت من تقارب الأواصر هذا المبلغ جديرة بأن نسميها وطناً واحداً على مصطلح هذا العصر ، فليس الوطن على نحو ما قالوا عبارة عن جبال وأودية وسهول وأنهار و بحار ، و إنما الوطن عبارة عن أواصر مشتبكة مثل الأواصر بين مصر والشام ، أو عن عواطف متقاربة مثل عواطفهما فإذا لم نفهم معنى الوطن بعد اليوم على هذا النوع من الفهم فلا وطن لنا ولا أرض ولا سماء .

ولقد فهموا معنى الوطن فى القديم فهماً قريباً من هذا النمط ، وعبر الجاحظ عن هذا الفهم لما ذكر كلام جماعة من الخواص الخلص قالوا : العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة والأخلاق والشيم واحدة ، و بينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق فى الأخلاق وفى الأعراق من جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة ، ثم المناسبة التى بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء ، فهم فى ذلك شيء واحد فى الطبيعة مثلا واللغة والهمة والشمائل والمراعى والراية والصناعة والشهوة .

ولكنى أظن أنه لا يصح إطلاق كلام هؤلاء الخواص الخلص على علاته ، فإذا صح هذا القول أو بعضه فى عرب الجزيرة فلا يصح فى الشعوب العربية كلها . ففى هذه الشعوب اختلافات من حيث الشيم التى أشار إليها الجاحظ ، ومن حيث الهمة والطبيعة والأخلاق ونحو ذلك . ولكن هذه الاختلافات لا تمنع

الشعوب المذكورة عن أن تعتبر بلادها وطناً واحداً ، فإن هذه البلاد اشتركت فى الماضى فى تقاليد وأفكار وعواطف متقاربة ، وهى فى الحاضر أشد شعوراً بضرورة الاشتراك .

هذا هو الوطن الروحانى الذى نؤمن به بعد اليوم ، فلا جبال ولا سهول ولا صحارى تحجز بين بلاد العرب ، فإذا كنا لا ندرك معنى الوطن من هذه الناحية الروحية فلا قيمة لحدوده المادية بعد هذه القنابل الذرية .

ومن شعره :

صيحة النبى

سرَتْ فى بطاح البيد صيحة صائح ... فماجت بمسراها بطون الأباطح
ترامتْ فدوّت فاستطال بها المدى ... وقد طرحتْها البيد أقصى المطارح
فمرّت على الركب الحيارى فأمسكوا ... بحمر المطايا بين غاد ورائح
وألقــوا بآذان إليها طليحة ... وقد صعقوا فوق الركاب الطلائح
تراهم سكارى فى الفيافى وما مشت ... حميا كؤوس فى خلال الجوانح
مضوا يسألون الريح عن صيحة الفلا ... فما الصوت فى عصف الرياح ببارح
ينادى مناديهم هل الأرض زلزلت ... فأجفلت الآرام مــلء المسارح
أم الملأ الأعلى تدلت نجومه ... فكل سبيل فى الدجى غير واضح
أصيحة إنس فى الجبال دويّها ... أم الجن صاحت فى رحاب الصحاصح
فلا الصوت صوت الإنس فى كل هضبة ... ولا الحس حس الجن فوق الصفائح

* * *

ولما ألحّ اليأس فى الركب أدلجوا ... يطيحون فى الظلماء كل المطايح
ومال بهم غمض الليالى من الونى ... وما النوم فى جنح الليالى بجانح
فناجى خليل فى الشجون خليله ... مضى الليل فى نجوى الشجون الفوادح
فبينا رجال الركب فى غمرة السرى ... وأجفانهم تهفو إلى أى سانح

إذ الفجر فى البيداء قد زحزح الدجى | وهب نسيم الفجر دون اللوافح
ولاح خيال يقطر الأنس طيفه | فدبّ دبيب الروح فى كل طائح
ملامح نور فى العراء رفيفها | ومطلع وحى من رفيف الملامح
تصيح بهم أنى النبى محمد | بُعثت ولم أبعث إليكم بفادح

* * *

حملتُ الهدى أجلو بضوء سراجه | عن العرب ما أعيا ضياء المصابح
أضمد من جرحى السيوف جروحهم | وأمسح ما ناءت به كف ماسح
تعالوا ، تعالوا أجمع الشمل بينكم | فلا كاشح يعدو على حوض كاشح
تسيح دماء العرب من كل نخوة | لقد ملئت منها صفاح المسايح
أروح على جهد من الهمّ جاهد | وأغدو على برح من الحزن بارح
أما ضجت الأخلاق من ظلم أهلها | أما زحزحت فى الظلم بين الروازح
فما نفرة تلوى بأعناق رهطكم | وما وحشة تخنى على كل زائح
فأين قلوب كالغصون التفافها | إذا سامحت غالت بروح التسامح
تعالوْا ، تعالوْا أملأ الأرض بالهدى | وأزحفْ بقرآنى إلى كل نازح
فهذا بيانى كالضحى غير زائف | وهذا شعورى كالصبا غير جارح

* * *

تمهل هذا الركب فى الوحى برهة | وأمعن فى وجه من الظن طالح
أتنبت فى هذى الفيافى نبوة | وأفق الفيافى كالح أى كالح
فلا الرمل ريان يسح به الندى | ولا الترب خفاق بظل الدوائح
فما تدرك الأبصار فى البيد بهجة | ولا تسمع الآذان صدح الصوادح
فما فى سواد الليل أنس لمقلة | ولا الأنس باد فى بياض الصبائح
فكيف يجيش الوحى فى ظل قفرة | فما ظلها للوحى يوماً بصالح

* * *

لسرعان ما جلّى اليقين ارتيابهم | فهشوا إلى طيب من الوحى فائح
مشى الوحى فيهم مشية البرء فى الضنى | فأى فتى من سحره غير طافح

فطاروا إلى الدنيا بدين محمد ... وقد فتحوا الدنيا كلمحة لامح
كأن الرياح الذاريات مطيهم ... يلفون وجه الأرض لفّ الوشائح
فما عاقت الصحراء عن طي رملها ... ولا ردت الأمواج خوض الجحاجح
تجوز بهم رمضاء كل تنوفة ... سوابح خيل تهتدى بسوابح
ففى كل برّ منهم زحف زاحف ... وفى كل يمّ منهم سبح سابح
كأن دوى النحل مثل دويهم ... إذا ارتفعت أصواتهم بالفواتح
يجــول بهم إسلامهم كل جولة ... ويلقى بهم إيمانهم فى الطوائح
فما الموت فى الإيمان مرّ مذاقــه ... ولا الحتف فى الإسلام صعب الجوائح
فقادوا على أرماحهم كل مصعب ... وراضوا على أسيافهم كل جامح
فلا قيصر يزهو على الشام تاجــه ... ولا تاج كسرى كالنجوم اللوامح
تناثرت التيجــان تحت خيولهم ... وأهوى إلى أقدامهم كل طامح
رواشح بالموت الزعاف سيوفهم ... مضى ما بنوه بالسيوف الرواشح

* * *

فأين رسول الله يشهد أمة ... تئن أنين الطير من كل ذابح
تعالت فطاحت فاستكانت فأصبحت ... لإذلالهــا يلهو بها كل مازح
فلا ملكها فى الأرض مشتبك العرى ... ولا عيشها فى الخلق عيش الصحائح
على مثلها من ذلــة بعد عزة ... تفيض جفون بالدموع السوافح
فهذى فلسطين تنوح من الأذى ... فما نضحت عنها عيون النوائح
فهل صيحة فى العرب تبعث ملكهم ... ألا ربما هبوا بصيحة صائح !

قبر المسيح
بين سيف الدولة وصلاح الدين

هذا ابن حمدان والآثار ناطقة فما يعفى على آثاره القدم
حمى الديار ديار العرب فانطلقت له الأناشيد والأوتار والنغم
سيوفه من دماء الروم قد رويت وكاد يشرق منها السيف والقلم
ملّ « البطاريق » من غاراته وبدا على « البطاريق » من أهوالها السأم
اضرب بعينك فى آيات شاعره تظل تنطق فى آياته الكلم
تكاد تسمع صوت الروم إن صرخوا وتلمس الخوف إن خافوا وإن وجموا
إما قتيل توارى الأرض أضلعه أو سالم من سيوف العرب منهزم
لو كان يعبد دون الله من صنم ما كان لى غير سيف الدولة الصنم
لولا جهاد بنى حمدان فى حلب ما كان للعرب تاريخ ولا علم
تلك البطولات كالأهرام راسخة فأين ما طمسوا منها وما هدموا
انهض ورتل صلاح الدين آيتها الأذن مصغية والعين تلتهم
جاءوا إليك بجيش يعصمون به قبر المسيح فما صانوا ولا عصموا
لو كان همهم قبر المسيح لما تهوّدت فيهم ذرية ظلموا
أيمنحون بنى صهيون تربته ويزعمون التقى ، هيهات ما زعموا
الحقد يأكل أكلا من جوانحهم والحقد نار على الأكباد تضطرم
عيسى بن مريم فى الإسلام حرمته فى كل قلب له من أهله حرم
ما فى شريعته إلا السلام فهل صموا عن الشرع إنكاراً له وعموا
أين السلام وقد هدّوا قواعده وإنما السلم فى أفيائنا عدم
محوتهم وبطون الأرض تكتمهم فى كل رابية عظم لهم ودم
حطّين قد غذيت منهم منابتها فاخضوضر الشيح والقيصوم والسلم
أين الحصون وأين النازلون بها لم يغنهم عن جماح العرب معتصم
ودّ العباب الذى خاضوا غواربه لو كان يبلعهم من بعد أن هزموا

ليغسل العار عن شنعاء هزمتهم　　وكيف يغسل هذا العار بعدهم

* * *

يا أمة من تراث الدهر خالدة　　مضت ولم تستبح آثارك الأمم
ظنوا اجتياحك مأموناً عواقبه　　وما دروا أنهم فى ظنهم وهموا
كم غارة لهم فى الشام عاصفة　　فلم يصبك على غاراتهم هرم
فى كل غور من الأغوار معترك　　وكل نجد من الأنجاد مصطدم
مضوا وخلوا هشيماً من شبابهم　　نما به العود والغيطان والأكم
حلوا بأرضك حيناً ثم ما لبثوا　　أن غادروا الأرض لم تثبت لهم قدم
لما رأوك وقد أعيت جحافلهم　　ولوا وقد أورثوا الغيظ الذى كظموا
كأن أنسالهم من بعدهم حلفوا　　أن يبعثوا الحقد نيراناً وينتقموا
فأقحموا فى ديار الغرب شرذمة　　من آل صهيون لا عهد ولا ذمم
هذى حضارتهم والشر يملؤها　　ماتت على صرحها الأخلاق والشيم
يشردون شيوخاً من ديارهم　　كأنهم فى صحارى تيههم بهم
قوم يموتون من بؤس يشتتهم　　وآخرون على أطلالهم نعم
خير من العلم جهل تستقر به　　حرية الخلق والأنفاس والنسم
هل يبعث الله نوحاً فى سفينته　　حتى يعم الورى الطوفان والديم
كأنما الروض من آثامهم يبست　　فما ينضرها ورد ولا عنم

من قصيدة عنوانها « بطولات العرب » ألقيت فى مهرجان الشعر الأول سنة ١٩٥٩ .

بدر الدين الحامد

١٨٩٩ — ١٩٦١

من شعراء حماة المبرزين ، نشأ فى بيئة دينية ، فأبوه الشيخ محمود الحامد أحد شيوخ الصوفية ، وجده لأمه الشيخ مصطفى الجابى عالم دينى وشاعر . وقد درس عن أبيه القرآن والعربية ، ثم دخل المدرسة الإعدادية فلما أتمّ دراسته الثانوية انتقل إلى دار المعلمين ، ولكنه لم يتمّ الدراسة فيها لاضطراره ، بعد وفاة أبيه ، إلى العمل ليقوم بأود العائلة . .

وقد أشار إلى العناء الذى لاقاه فى بدء حياته بقوله :

« . . . قُذف بى إلى هذه الدنيا فى ١٠ شعبان سنة ١٣١٩ هـ فلم أكد أبلغ أربع عشرة سنة من العمر حتى منيت بفقد الأب وضياع الأمل ، فلما بلغت ست عشرة دُهيت بفقد الأم فحرمت نظرات العطف والحنان ، وكان لى ولأخوىّ الصغيرين بقية من إرث نتعيش بها فاجتاحها الدهر ، فإذا نحن أفقر من الفقر ، وتقطّعت بى الأسباب ، فكنت أنّى سرت أجد سبيل الحياة سدّا ، وفيما بين ذلك ينصبّ علىّ العذاب من السماء ، ويأخذنى ظلم البشر من الأرض . فكان الألم فى هذا الدور منبعث الشعر ، وكانت نظراتى إلى الحياة نظرات نقيمة ، فما يطيب لى إلا الانفراد ، وجميع ما فى هذه الدنيا من نضارة وجمال كان يهيج عندى الألم . . . وكم آسف كلما فكرت أن معظم ما نظمته فى هذا الدور ضاع من يدى »[١] .

* * *

لقد نظم الشعر وهو فى طراوة العمر ، وإذ كان يحسن العربية فقد عيّن فى العهد الفيصلى « ١٩٢٠ » — معلماً ، وأتيح له ، خلال ثلاث سنوات من تعيينه ، أن يتم دراسته فى دار المعلمين ، وأن ينال سنة ١٩٣٢ أهلية التعليم ..

---

(١) الديوان ص ١٧ .

وانصرف فى هذه الفترة إلى كتب الأدب يقرأها ويتزود منها لإنماء ثقافته ، ومن دواوين الشعر يحفظ روائعها ، وحين امتلأت نفسه أخذت قريحته تفيض بألوان من الشعر الوطنى ومن الشعر العاطفى ، وأخذت الصحف تنشر له بعض القصائد والمقطوعات ، وقد أشار إلى مَنْ تأثر بهم من الشعراء بقوله :

« . . . أما الشعراء الذين تأثرت بهم فهم : المتنبي والبحترى فى الدرجة الأولى ، وبشار وأبو نواس والعباس بن الأحنف وابن المعتز وأبو فراس وشوقى — أمير شعراء هذا العصر — وشعراء البادية المغرمون فى صدر الإسلام أمثال جميل وقيس وعروة ، وشعراء الأندلس الذين يصفون الطبيعة عامة » (١) .

وقد كان شعره خلال هذه الفترات تعبيراً عن هواجسه وأحلامه ، وكانت الهواجس الوطنية أبرز ، ولا سيما بعد أن تقوض الحكم العربى فى عهد فيصل ودخل الإفرنسيون سورية ، فثارت العواطف وهاجت النفوس ، وكان الشعر بعض الهواجس المعبرة ، وكان بدر الدين الحامد فى طليعة شباب حماه وشعرائها تعبيراً عن هذه الهواجس التى أثارت عليه نقمة الإفرنسيين الذين كانوا يريدونه ، وهو معلم فى المدارس الحكومية ، أن يسبح بحمدهم لا أن يثير الجماهير عليهم ، وحين شبت ثورة حماة سنة ١٩٢٥ ألقى القبض عليه وزج فى السجن ، وقد أشار إلى هذا بقوله :

« . . وفى أواسط السادسة والعشرين من العمر حدثت ثورة حماة ، فكمّت الأفواه ، وزجّ بى فى السجن ، فقضيت مرّ العذاب ، فلما أفرج عنى بكيت كثيراً على ما صارت إليه البلاد ، وكأن هذه الحوادث أيقظت فىّ الشعور بالألم مرة ثانية ، فانصرفت إلى نظم الشعر الباكى الذى يمثل الطبيعة باكية متألمة ، وزريت على القضاء الذى شاء لنا الشقاء » (٢) .

ومن شعره الذى كان يردده فى تلك المحنة قوله :

كلما نادى المنادى أين بدر الدين ؟
قلت لا شك ينادينى إلى « زبل » و « طين »

---

(١) نفس المصدر ص ١٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨ .

إشارة إلى الأعمال الزرية التي كان يلقاها وهي أهون ضروب المهانة والعذاب .

وظلّ ، بعد خروجه من السجن ، وفيـًا لمبادئه الوطنية ، وكانت « الكتلة الوطنية » — قائدة النضال — تعتمد في الحفلات والمناسبات القومية التي تقيمها — كانت تعتمد على الشعراء ، فكان البزم ومردم وجبري وبدوي الجبل وأبو ريشة هم المعبرين عن وجدان الأمة وعن نزعاتها وفوران ثورتها ، وكان بدر الدين بين هؤلاء الشعراء ، فلم تخل حفلة من قصيدة له ، وكثيراً ما جرّت عليه هذه القصائد ألوان النقمة والغضب فما كان هذا يثنيه . . .

وحين تمّ الجلاء وأعلن استقلال سورية استفزته الفرحة وأطلقت قريحته عن قصيدته الرائعة :

بلغت ثأرك لا بغي ولا ذام يا دار ثغرك منذ اليوم بسام[1]

وكانت نكبة فلسطين بعد الجلاء مثار ألم شديد للشاعر ، فلم تخل قصيدة من شعره إلا ذكرها :

يا فلسطين لك الذكرى ولي مدمع ، بعد النوى ، منسجم
رب رحماك ظلام دامس أينما سرنا ، ورأى مبهم

* * *

ثمة ظاهرة ثانية في حياة الشاعر جديرة بالتنويه ، فإن حياة الضنك التي عاشها وهو في فجر عمره قد زايلته ، فانصرف يعب من مباهج الحياة شتى ألوانها — من أفق ديني متزمت إلى أفق منطلق وألوان من العبث واللهو البريء .

وقد وصف هذه الفترة التي لازمته من شبابه إلى كهولته ولم تفارقه حتى في شيخوخته في قوله :

« . . . ولما شاء الله أن يسهّل الأسباب بدأت أنظر إلى الحياة من وجهها الضاحك على ما فيّ من ألم ، واسترسلت في اغتنام اللذات فما أحجمت عن واحدة منها . وجمال الطبيعة يزيدني طرباً ويهيج بي الذكرى الماضية فأنصرف إلى سماع الغناء والاستمتاع بمجالس اللهو ، وقد تملكني الغرام فكان الشعر ضاحك اللفظ ،

---

(١) أشير إلى هذه القصيدة في مقدمة الكتاب .

باكى المغنى ، وقد ذهب بعض هذا الشعر ولكن فيما بقى منه غنية عما ذهب »[1].

هذا كلام قاله وهو فى فجر الشباب ، على أن هذه الظاهرة ظاهرة الاستمتاع بالمباهج واللذات قد لازمته فى جميع مراحل حياته .

يقول صديقه وزميله الأستاذ عمر يحيى :

« . . . كان بدر الدين ذا نفس حساسة شاعرة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، لم يبخل على نفسه بلذة من لذائذ الحياة ، لزم مجالس الشراب والغناء فكان بهجة المجالس وزينتها ، يغلب عليه أحياناً الروح الدينى الذى نشأه عليه أبواه فيتوب ، ولا يلبث أن يعود مردداً . . .

اليوم أشرب كأسى وفى غد سأتوب !

وهكذا دواليك . . إلا أن غلبة الروح الدينية عليه ، فى أواخر أيامه ، كانت ظاهرة كل الظهور »[2] .

* * *

وكان ذا ميل للموسيقى ، ولعلّ لهذا الميل علاقة بشاعريته . فقد كان يعشق النغم ، ويدرك طبقات الأصوات ، ويحفظ فروق الأنغام الفرعية منها معرفة يقصر عنها أهل الاختصاص . فالغناء كان رفيق حياته . والمغنون كانوا رفاقه وأبناءه ، ولم ينشأ مغن فى حماة إلا وكان لبدر الدين فضل عليه فى الشعر والموسيقى والغناء .. ولسنا ننسى أقواله التى تغنى بها المغنون فى حماة :

أترع الكأس وطيبها بعرف من لماك
واسقنيها إن عينى لا ترى شيئاً سواك
وليقولوا ما أرادوا أنا صب فى هواك
جنتى كأس الحميا ونعيمى فى رضاك

وكانت هذه الأبيات تقيم الدنيا عليه وتقعدها ، فهو ، كما قلنا فى مستهل

(١) نفس المصدر ص ١٧ .
(٢) من رسالة خاصة .

البحث ، من عائلة دينية يكتنفها الوقار والطابع الديني الذى لا يحتمل التساهل فى مثل هذه الأمور ، ولا يحتمل أن يذكر أحد من أفراد هذه العائلة مثل هذه الكلمات « أترع الكأس » أو « اسقنيها » أو « كأس الحميا » — إنها ألفاظ تخالف الشرع ، وإن على الشاعر أن ينصاع لهذا الشرع الشريف فيتقيد بأوامره وينصرف عن نواهيه ، وكم أثار عليه الناس قوله :

يا حبيبي أذّن المغرب فانهض للمدام
ودع العود يغنينا تراتيل الغرام

لقد ثار الناس لهذا التوقيت الذى جمع بين « المدام » و « أذان المغرب » . وكأن الناس كانوا يتطلبون من بدر الدين أن يقول :

« يا حبيبي أذّن المغرب فانهض للصلاة »[١]

* * *

كان بدر الدين طويل النفس ، لا تقل قصيدة من قصائده عن الثمانين بيتاً . وكان حسن الإلقاء ، بحترى الأسلوب ، ومن المؤسف أن تظل قصائده — وتؤلف أكثر من ديوان — مبعثرة فى بطون الصحف ، وهى سجل واضح للكثير من الأحداث الوطنية الكبرى التى واجهتها سورية خلال الانتداب الإفرنسى . .

لم يصدر له غير ديوان فى سنة ١٩٢٨ وهو يضم بواكير شعره ، إلى « تمثيلية شعرية » — على ما يدعوها هو — نشرها سنة ١٩٤٦ تبتدئ حوادثها بإعلان الملكية فى سورية وتتويج الملك فيصل سنة ١٩٢٠ وتنتهى بخروجه من دمشق ٢٨ تموز سنة ١٩٢٠ . . . .

منها : بعد انكشاف الستار عن جماعة من الناس فى الطريق وهم يصخبون :

أحمد : الصبر أصبح لا يطاق فإلى متى هذا النفاق
باعوا البلاد رخيصة والأمر تمّ على اتفاق
راشد : تبًّا لهم خانوا إذن واسترخصوا حق الوطن

---

(١) شعراء سورية لأحمد الجندى ص ١٠٦ .

أثـــروا وألقـــونا على مـــرّ الليالى فى المحن

أصوات : خطيب . . خطيب . . .

الخطيب على مكان مرتفع :

أيها الناس أصبح الأمر جدّا فضعوا اليوم للخيانة حدّا
لهف نفسى على بلاد بنوها لا يصونونها ويأتون إدّا
أسلموها إلى العدو وقالوا لا نطيق الدفاع أخذاً وردّا
كل يوم عدونا يتحدّى هو يحيا ، ونحن بالذل نردى

وبدا ألمه واضحاً من خداع الأمانى ومهزلة الزعامات . وقد بحّ صوته وهو ينادى إلى أخذ الأمور بالجد لا بالهزل ، وبالألفة لا بالتنابذ ، حتّى إذا يئس أنشد نفسه هذه المقطوعة :

أصبحت لا آسى على فائت ولا أمنى النفس بالمقبل
حسبي وحسب الناس أنى امرؤ فى كل ما يجنون لا ذنب لى
أخلصت حتّى لم أدع لى مخلصاً يسبقنى فى الموكب الأول
ظنًّا بأن الحق للمجتلى فى أفقه لا بدّ أن ينجلى
يا ويح قلبي فى خداع المنى ضلّ فما يدرى السبيل الجلى
لاشيء فى دنياك ، يامخلصاً إخلاصه يرمى به من عل
وفيت لا بل زدت حتّى لقد صرت محط القول فى المهزل
فهل رعى حقك أربابه أنت شج والقلب منهم خلى
بالله يا كأسى أنيرى دجى أقطعها فى دهرى الممحل
ويا ندامای أعيدوا الهوى غضًّا فغصنى بعد لم يذبل
خذوا علىّ العهد أنى لكم وأننى حددت مستقبلى
لا شأن لى فيما أرى فليسد « أبو زياد » قومه أو « على »

وهكذا انتهى صراع الشاعر إلى يأس مرير .

من شعره :

فى نكبة فلسطين

رانتْ على أجواء يعرب غمة ترمى صفاء سمائهم بدخان
يتفرقون ويلتقون كأنهم خيل الحران تشدّ بالأشطان
يا ويلنا شاد اليهود حصونهم فى دارنا ، والعرب فى هذيان
هم يبتنون ونحن نهدم ملكنا أنا من ذرا « قيس » وأنت « يمانى »
هذا ابن عمك فى الحفيظة سهمه يدمى مطاك فكيف تلتقيان
ونقول : إنا وحدة عربية قول جميل الوقع فى الآذان

الجمال

لا تسلنى عن الجمال فإنى بفؤادى ضللت فى أسراره
ورد نيسان برعم فتحته نسمات الصباح من أياره
كان فى ذمة الربيع جنيناً كوّنته النطاف فى آذاره
فدعونى وما أهيم فقلبى شاعر ينطوى على مزماره

عبء الهوى

حمّلونا عبء الهوى ونسونا ما عليهم لو أنهم ذكرونا
نحن منهم على خيال مقيم يبعث الوجد والصبابة فينا
خلفونا على الهوى ثم بانوا ليتهم قبل بينهم ودعونا

الهناء ثوانٍ

قد خبرنا أفعال هذا الزمان وبلونا من أمره كل شان
فعلمنا أن الخطوب توالى وعرفنا أن الهناء ثوانى

أيها الأغنياء :
كاد فقر الإنسان يصبح كفراً

اسأل الليل عن شجون المعنى بات نضواً وبت أنت مهنا
ياحليف السهاد تلك حظوظ أى نفس تنال ما تتمنى
علم الله أن ليلك داج فى تضاعيفه الشقاء ارجحنا
أنت بالفقر موجع تتحنى وأخو اليسر بالهنا يتغنى
قدر الله لا اعتراض ولكن أى ذنب هذا الفقير تجنى

* * *

مثلت لى الأيام طيف خيال هو يعتادنى إذا الليل جنا
كلما لاح أشعل القلب ناراً فتنزى بين الضلوع وأنا
صورة فى الدموع غرقى أراها فى ثنايا الخيال تذبل حزنا
أخذ الفقر رونق الروح منها فهى لفظ يمر فى غير معنى
تقتضينى نزف الدموع جهاراً أرأيتم دمعاً إذا سال أغنى
لى فى البؤس سابقات ليال كنت منها فى ريق العمر مضنى
كل شىء يفنى ولكن ذكرى قسوة الدهر لن تبيد وتفنى
كاد فقر الإنسان يصبح كفراً صرف الله عادى الفقر عنا

* * *

ما تقولون فى فقير لديه صبية كالنجوم نوراً وحسنا
هم يبيتون فى الليالى جياعاً والطعام المرىء نحن طعمنا
وعلينا مجاسد من حرير وعليهم حط الزمان وأخنى
حسبنا الله كلنا من تراب أى فرق فى الخلق روحاً ومبنى
نتساوى غداً إذا نحن متنا منهم الدود آكلات ومنا
قد يكونون عند ذى العرش أعلى فى مقاماتهم وأثقل وزنا
إنما العمر لمحة من خيال فإذا مر قيل كانوا وكنا

* * *

يا غراساً فى دارة الفقر تحيا سأغنيك من لحونى لحنا
نحن فى الظل من حماك نبتنا وعلى الصدق والعفاف نشأنا
وعلقنا من الحيـــاة بسفر فيه سر محجب فقرأنا
رب نفس بالفن عزت وسادت هى لولا الشقاء لم تأت فنا
وافتقار قد كان درب افتخار كم فقير بالعبقرية جنا
حكمة الله والحياة شؤون رب فقر يكون للنفس أهنا
ما على ذى الثراء لو كان غوثاً للهيف ينــتابه ومجنـــا

* * *

أيها الناس نحن فى زمن شبت به الحرب والشقاء أرنا
كرة الأرض ألهبت بشواظ رب رفقاً فأنت أدرى وأحنى
لجج البحر أججت بسعير والسموات أزجت النار مزنا
ملئ البحر والسماء حميما وسبيل الحياة أصبح دجنا
كم بلاد دكت وكم من ألوف طحنتهم رحى المنية طحنا
نحمد الله أننـــا فى أمان رب فاحفظ لنا الأمان وزدنـــا
غير أن الفقير لا يجد القو ت ومنا الغنى بالمال يعنى
أيها الأغنيـــاء كونوا كراماً وملاذاً عند الخطوب وركنا
إن تكونوا بنعمة فاشكروها من عليكم باليسر والفضل منا

* * *

يا رجالا تجمعوا ليقولوا للفقير الضعيف كن مطمئنا
أنت منا ونحن منك وها نحن على الضنك فى الحياة اجتمعنا
كل هنيئاً ونم قريراً فإنا بسخاء نجود بالمال إنا
نعمة الله وشى ثوب جميل وببذل المعروف تزداد حسنا
كيف يهدا أو يستقر فؤاد ونداء الفقير فى السمع رنا
ليس من بات طاوياً بدموع مثل من بات باللذاذة يهنا
كل يوم نلتى غراثاً حيارى ما علينا لو بالقليل أغثنا

وذكرنا أن الثراء معار من ترقى فإنه يتدنى
قد بلونا الزمان عسراً ويسراً وخبرنا الحياة خوفاً وأمنا
فرأينا الإحسان أجمل فعل فهو شمس الخصال بل هو أسنى
أحسنوا ما استطعتم عن سخاء طاب فعل الإحسان غرساً ومجنى
ليس عيباً أن لا تكون غنيًّا إنما العيب يا فتى أن تضنا

نظير زيتون
١٩٠١ – ١٩٦٧

من أئمة الترسل . عاش الشطر الأكبر من شبابه وكهولته فى المهجر ، يحرر الصحف ويكتب المقال الأدبى . ينقد ويترجم ، ويشارك فى المهرجانات الأدبية والمؤتمرات القومية . وقد دلف إلى الشيخوخة ، يغمر الصحف والمجلات بمقالاته وبحوثه ، ولا ينسى الأصدقاء من رسائله الإخوانية المضمخة بعبير الأدب .

ولد فى حمص فى شباط (فبراير) ١٩٠١ ، وتلقى علومه الابتدائية وشيئاً من الثانوية فى مدارسها الأرثوذكسية ، ودرس القواعد على الأستاذ يوسف شاهين الذى تثقف عليه كبار أدباء المهجر الحمصيين ، ثم انتقل إلى المدرسة الإنجيلية الوطنية التى كان يديرها الأستاذ حنا خباز حيث درس الإنكليزية وشيئاً من الفرنسية والتركية .

وفى سنة ١٩١٤ ، أى فى أواخر سنته الرابعة عشرة ، نزح من حمص إلى البرازيل ، مع لفيف من الرفاق الذين كانوا ينشدون « المستقبل الذهبى » فى العالم الجديد . . .

وهناك ، عكف فى أول الأمر ، على التجارة الصغيرة مقتفياً خطوات من سبقوه من المغتربين السوريين واللبنانيين ، فما لقيت فيه رجلها ، ولا جنت نفسه من ثمارها ما يحقق أملها ، وما عتم أن طلقها ، وعمل « كاتباً تجارياً » فى «سان باولو» .

وإذ ذاق حلاوة المعرفة وهو صغير ، انصرف إلى الدرس والتبحر فى آداب اللغة الفرنسية إلى جانب مطالعاته فى اللغتين البرتغالية – لغة البرازيل – والإسبانية ، وكان ينشر فى هذه الأثناء بعض المقالات الوطنية والاجتماعية فى الصحف المهجرية فإذا هى تشق طريقه إلى الصحافة .

فى سنة ١٩٢٦ دعاه العالم اللغوى رشيد عطية[١] وأسند إليه رياسة تحرير جريدته اليومية «فتى لبنان» ، وكانت تقود الدعوة الاستقلالية والتوجيه القومى فاتخذها الأدباء العرب الأحرار وشعراء القومية ، وفى طليعتهم الشاعر القروى ، منبراً لهم ، وظلّ على رياسة تحريرها حتىعام ١٩٤٢ حيث احتجبت بأمر من رياسة جمهورية البرازيل التى حظرت نشر الصحف باللغات الأجنبية طوال الحرب العالمية الثانية .

فى سنة ١٩٣٢ شارك فى تأسيس «العصبة الأندلسية » وفى تحرير مجلتها «العصبة» فنشر على صفحاتها الكثير من المقالات والدراسات .

وكان إلى عمله فى الحقل الصحفى ، يكتب ويؤلف ويترجم ، ترجم رواية « النبى الأبيض » للروائى الإنكليزى هول كابن ، وهى رواية تدور حوادثها حول نضال المصريين فى العهود الخديوية فى سبيل استقلالهم واسترداد حريتهم وكانت الرقابة البريطانية قد منعت نشر هذه الرواية ونشرها فى مصر ، ومنها «مركيزة سنطوس» للمؤرخ الروائى البرازيلى الدكتور باولو سيتوبال . ومنها « أرلندة المناضلة » وهى رواية تشرح الحركات الثورية التى قامت بها المنظمات الأرلندية فى سبيل استقلالها عن التاج البريطانى ، ومنها « فلسطين العربية » وهى مجموعة دراسات وآراء حرة لكتاب بريطانيين ، وهناك ترجمات أخرى أهمها : « اعتراف ابن الشعب » لمكسيم غوركى .

ونلاحظ أن الروايات التى اختار ترجمتها تتناول الحركات الثورية ونزعات الشعوب فى سبيل حريتها وسيادتها .

ومن تآليفه : ١ — « ذنوب الآباء » رواية اجتماعية ، ٢ — رسالة فى « استقلال البرازيل والإمبراطورية الأولى »— أطروحة تاريخية ، ٣— « سقوط الإمبراطورية الروسية » ، وقد تضمن الكتاب دراسة الأسباب التى أدت إلى انهيار العرش القيصرى فى روسية ، ٤ — « الشعلة » مجموعة خطب ألقاها فى البرازيل مصدرة بمقدمة تاريخية أدبية عنوانها « المنبرالعربى فى البرازيل »،

(١) مؤلف « الأعراب فى قواعد الإعراب » فى ستة أجزاء ، ومحقق مقدمة ابن خلدون وشارح ديوان البحترى ومؤلف معجم عطية المطبوع فى سان باولو .

٥ – « هيرودس الكبير » – دراسة لعصر المسيح ، ٦ – « يسوع المصلوب » وتدور حول الصراع بين اليهودية الجامدة والمسيحية المنطلقة ، ٧ – « روسية فى موكب التاريخ » وهذا الكتاب يقع فى جزأين فى نحو ٨٠٠ صفحة ، ويكاد يكون المؤلف العربى الوحيد الذى يتضمن تاريخ روسية منذ أقدم العصور حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية ووفاة ستالين ، وله أيضاً كرّاس عنوانه « رشيد عطية : حرف عربى من لبنان فى المهجر » وآخر عنوانه « الشهيدان : الزهراوى وسلوم » وكتيب عنوانه « فى ذروة الوطنية والإنسانية » وآخر بعنوان : « انهيار إمبراطورية وولادة أمة » وقد أوحى به العدوان الثلاثى على مصر .

* * *

بعد هذه السنوات الطويلة التى قضاها فى المهجر من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٥٠ عاد إلى الوطن بوازع من الشوق والحنين فلم يلق من حفاوة الدولة ورفدها ما لقيه بعض زملائه من أعضاء « العصبة الأندلسية » فتأثر وأوى إلى منزله يعيش فى عالم الأدب الواسع الرحاب ، حسبه التكريم الذى لقيه من رجال الفكر الذين قدروا أدبه ولا سيما بعد أن عيّن عضواً فى مجمع اللغة العربية بدمشق وعضواً مراسلا فى مجمع القاهرة فكان هذا التقدير أجمل عزاء له وسلوى . ومن مدينته الوادعة أخذ يتابع الحركة الأدبية بشتى تياراتها ، الصاخبة منها والهادئة ، فيبدى آراءه بجرأة واعتزاز ، ويزين الصحف والمجلات بأدبه الذى غلب عليه السجع والذى أضفى عليه من الرونق ما جعله فى الكثير من جمله أقرب إلى الشعر المنثور منه إلى أدب المقال ؛ فاستساغه البعض وأنكره آخرون .

ولا غضاضة على أديب يلزم نفسه بالسجع إذا استطاع أن يعبّر عن فكره بانطلاق فى عصر طابع الأدب فيه ، بل طابع كل ظاهرة من ظواهر الحياة – الانطلاق . . ولكن مهما حاول الكاتب أن يعبّر عن آرائه فقد تلزمه السجعة أن يطمس جوهر الفكرة التى تختلج فى ذاته ، ولا أقول إن الأستاذ نظير عاجز عن إبراز أفكاره وهواجسه ، وهو ذو باع طويل فى فن الترسل . ويمتلك الكثير الكثير من مفردات اللغة ، ولكنه ، لو انطلق ولم يلزم نفسه

بأدب المقامات – بأدب الهمذانى والحريرى – لكان أثره فى الأدب أبرز وأعمق . إذ مهما حاول أن يعبر عن أفكاره فستظلّ مخنوقة فى نطاق المترادفات قد لا تتيح لها أن تتنفّس وأن تأخذ مجالها الرحب فى التعبير .

وقديماً ميّز النقاد بين النثر والشعر فكان ميدان النثر أرحب .

وكم اضطر الشعراء مراعاة للقافية والروى أن يطمسوا الكثير من الفكر وأن يلجئوا إلى الغموض فاعتبر الإلماع رمزاً ؛ وهو بعض خصائص الجمال فى شعرهم !

وأعود إلى القول بأن الأستاذ نظير لو تخلى عن السجع وانطلق دون قيوده لكان أثره فى الأدب أبرز ولا سيما وهو ، بثقافته العميقة ، وبجودة أسلوبه وقوة لغته يمثّل صورة واضحة من الأدب المهجرى الذى لا ينحدر إلى الهلهلة والميوعة ، كما هو عند البعض ، بل يتميز بالقوة ويزخر بالعاطفة والخيال المجنح الذى تترقرق بين أسطره واحات من الشعر الذى يهزّ النفس هزاً . . .

والغريب أنه لم يلزم نفسه بالسجع إلا بعد عودته من المهجر ، وفى مواقف وموضوعات معينة .

وقد أوضح لى رأيه فى رسالة خاصة فقال : « السجع لون عربى أصيل عريق ، عرفه العرب فى الجاهلية والإسلام وعصوره المتأخرة ، يكفى أن نذكر القرآن الكريم لتتجلى لنا روعة السجع ووقعه الأخاذ ، والسجع ، كما أفهمه وأزاوله – منزلة بين النثر والشعر والنثر العادى الدارج ، أو إذا شئت سمّه النثر الصحفى ، سهل المنال ، خفيف الأحمال ، واسع المجال ، ميسور الوصال ، يجرى هيناً على كل قلم . والسجع الذى ألتزمه أحياناً يختلف كل الاختلاف عن سجع المقامات ، حيث لا تتعدى السجعة الواحدة فقرتين أو ثلاثاً بمعنى واحد تقريباً ، أما أسلوبى فى السجع فيقفز فى السجعة الواحدة إلى عشر فقرات أو أكثر ، ولكل فقرة انطلاقة . ولكل فقرة إشراقة ، ولهذه حلاوة ، ولأخرى طلاوة ، فى تناغم وإيقاع ، ولا أعرف كاتباً مارس هذا الأسلوب فى سجعاته ، ولعله طراز فنى جديد فى أدبنا الحديث ، وإن كان كثيرون يمقتون السجع ويعدّونه من مخلفات العهد البائد ، لما فيه من حشو

وتكلف يبعدانه عن الإبداع ، فالسجع ، كما قلت منزلة بين النثر والشعر . وأنا لا أستطيع أن أرتفع إلى الشعر — لا النظم — لأعبّر عن أفكارى وأحاسيس نفسى ، ولا أرضى لأدبى أن أهبط به إلى النثر العادى الدارج الذى يعالجه كل قلم بسهولة ، فكانت لى تجربتى فى السجع المديد المتناغم الذى تؤلف فيه السجعة الواحدة مقطعاً كبيراً وكأنه مقطع قصيدة واحدة » .

ومن نفثات قلمه :

من وحى السد العالى

لله تلك الكلمةُ العذراء . .

تخلّفت عن رفيقاتها فى سُبات عذب الأصداء .

وسادُها الجوزاء ، وفراشها الثريّا العصماء ، ولحافها القبة الزرقاء .

وأفاقت باسمةً متهللة ، وفى وجهها سناءٌ ورُواء .

فإذا هى وحيدةٌ على كثبان البادية الغبراء .

ورمت أبصارها فى الأقاصى تنشد الركب فى البيداء .

واستصرخت هلعاً بقلب لهيف الأداء :

أين أنتنّ يا شقيقات الحوباء ، أين أنتّن يا شقيقات النور الأزلى المعطاء . .

أفراقٌ ولا وداع ، ولا أملٌ باللقاء . .

ونادت ، ونادت ويا رعدةً فى النداء ، يردّدها رجع الصدى حشرجةً فى الفضاء .

وتهافت قلبها فارتمت على البطحاء ، وأجهشت بالبكاء . .

وساورها اليأس وكاد يسفحُ ما فى كأسها من صهباء . ويستلّ ما فى عينيها من ضياء ، ويصوّح ما تنضّر فى جوانحها من براعم الرغد والنعماء .

ورفعت يديها تشكو إلى الله غربةً عاتية فى وحشة طاغية ، مزّقت أمنيتها الزهراء . .

* * *

وكان صباحٌ وكان مساء .

وسلستْ لها الأحلام بعد العناء .

جمع الله شملها بالشقيقات ، فكان العناقُ ، وكان العزاء .

فقلنَ أخيةُ لا تجزعى ، سيأتيك يوم الصفاء .

إذا كنت كثبانَ رمل ، وجلاميدَ صخر ، ونجوى شقاء .

فلله سرٌّ حكيمٌ مصونٌ تحجب عن أعين البصراء .

وإن كان يوملكِ مدلهمَّ الغيوم ، فلا بدَّ أن تشرق الليلة القمراء . .

وردّت وقالت : تعستُ . . وأنى لرملى وصخرى ازدراع الرخاء . ومن أين لى أن أفيص ينابيع خير تروى الظماء . .

وولت ، وفى ناظريها بريقٌ من العزم والمضاء . .

* * *

جئت لتصلى وتشكو إلى الله ما انطوى عليه قلبها الخصيب من المنى الهدباء .

إلهى ، إلهَ الجمال ، إله المحبة ، إله العطاء .

أنا منك ومضة غوثٍ . أنا منك نفحة خير، أنا منك نسمة برّ ، أنا منك مُزن السماء .

فجُد يا إلهى علىّ بماء . وظلّ ظليل لهذا العراء ، وثدى كريمٍ حنون سخىّ الولاء ، فإن عبس الدهر يوماً وكشر للأصدقاء ، تسلقتْ بسمتى وجهة الرجاء .

أنا لستُ مثل شقيقاتى . قمة شماء أو روضة غناء ، أو بحيرة زرقاء ، أو بقعة خضراء ، أو مدينة فيحاء . .

أنا لستُ نهراً ، لست شلالا ، لستُ وادياً أنيس الأفياء . .

ولستُ سحابةَ غيث وآلاء ، وإنما أنا ، ويا بؤسَ ما أنا ، أرضٌ مواتٌ جدباء .

وإنما أنا فى موكب الحياة عقبةٌ كأداء . إنما أنا يا ألله ، يا مبدعى ، كلمةٌ عقراء . .

وابتهلتْ إلى ربها وفى ناظريها انتفاضةٌ بكماء ، ودمعةٌ خرساء .

إلهىَ غفرانَك فليس طموحى صدى الكبرياء ، ولكن طموحى جمالٌ أغاريده فرحةٌ فى العلاء .

ومن أين للرمل . ومن أين للصخر ، أهاميس قلب رخيم الغناء . وأساجيع حبٍّ تهزّ السماء ، وأغاريد وجد حنون ، صلاة إلى الله فى فم الورقاء . .

* * *

لله تلك الكلمة العذراء .

سمعت هاتفاً قصيًّا يناديها فأصغت أيّما إصغاء .

وتهلل وجهها بشراً وبهاء .

ستكونين أعظمَ مما تحلمين يا عذراء الصحراء .

ستكونين ينبوعَ رحمة وسلام وثراء .

ستكونين غوثاً ونعمة وبركة تملأ الأرجاء .

ستكونين الأغرودة الكبرى فى موكب الكرامة والإباء .

ستكونين الزمرّدة الخضراء فى قلادة أفريقية السوداء .

ستكونين آية الكفاح الجبار فى معركة السلم البيضاء .

ستكونين كعبة الإلهام والجمال فى قوافى الشعراء ، ورؤى الأنبياء .

ستكونين وثبة التاريخ فى تاريخ العباقرة الأصفياء . . .

وماذا . . . ؟

ستكونين رمزاً حيًّا للصداقات بين الشعوب وعنواناً للولاء .

تبارك ثدىٌ يدرّ العلى والرخاء ، وتبارك ما تلد للإنسانية والهدى تلك الأحشاء . إنه الثورة ، إنه النضال ، إنه الإنشاء والبناء .

فاخشع يا خوفو ، وطأطئْ أيها الهرم ، ولملم كنوزك يا توت عنخ آمون ، وغضّوا يا آل فرعون . إذا ولدت ثرواتكم الجامدة الجامحة الأهواء بهارج الخيلاء . فعذراء الصحراء تلد الحياة رغادةً وعلياء ، ومناجعَ خيرٍ غضراء ، ومنازل طمأنينة قوراء .

فقرّى عيناً ، وطيبى نفساً أيتها الكلمة العذراء .

ستكونين للحب والسلام والجمال ، ستكونين كما لكِ الله شاء . شمساً متهادية اللألاء . . .

إنك هدية الله إلى الإنسان

وإنك صلاة الإنسان إلى الرحمن

وما شاء الله وقدّر كان

فأعظم بهدية سيد الأكوان

وأكرِمْ بمعجزات يد العمران ، فى أسوان ، صلاةُ شكر وإيمان .

* * *

فى السدّ العالى . . .

قرأنا أبجدية البطولات العوالى. والانطلاقات الغوالى، والانتفاضات الحوالى، ووثبات الأساطير الحوالى . .

وقرأنا فيه حُلم ألوف وألوف من السنين . حُلماً عملاقاً تراقصت أشباحه على النيل الميمون . حلماً قدسيًّا تلألأ فى سراب الرمل والصخر الدفين . حلماً زكيًّا علق بأهداب المصلحين المؤمنين ، حلماً رائعاً ساحراً فكّ طلاسمه « عبد الناصر » الأمين . .

فيا لعصر السدّ العالى من عصر ، لياليه هزيعٌ من ليلة القدر ، تبلج فيه للعروبة الفجر ، فانطلق النسر ، وتحقق النصر ، ولله الحمد والشكر .

جميل صليبا

١٩٠٢

مفكر أديب ، وباحث واسع الاطلاع على مجرى الفكر العربي والأوربي معنى بالدراسات الفلسفية وبدارسة الفلسفة العربية بصورة خاصة .

ولد في السابع من شهر شباط سنة ١٩٠٢ بالقرعون ، وهي قرية من قرى البقاع ، ولما بلغ الثامنة من سنه انتقل مع والده حبيب الخوري داود صليبا إلى دمشق فأدخله المكتب السلطاني سنة ١٩١٠ ، فلما انقلب المكتب السلطاني . بعد الحرب العالمية الأولى إلى مدرسة تجهيزية عربية كان أول من تابع دراسته فيها حتى حصل على شهادتها عام ١٩٢١ فأوفدته وزارة المعارف السورية مع تسعة طلاب إلى فرنسة لدراسة العلوم والفنون والآداب وكان الأستاذ محمد كرد علي وزيراً للمعارف وقتئذ فرأى أن يرأس هذه البعثة العلمية وأدخل صاحب هذه الترجمة في فرع الفلسفة من كلية الآداب بجامعة السوربون، فحصل على شهادة التربية العالية من معهد علم النفس سنة ١٩٢٣ ، وعلى شهادة الليسانس في الفلسفة من كلية الآداب سنة ١٩٢٤ وعلى شهادة الليسانس من كلية الحقوق سنة ١٩٢٦ وعلى شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٢٧ .

ولما أنهى دراسته عاد إلى سورية فسمي أستاذاً للفلسفة في مدرسة التجهيز بدمشق سنة ١٩٢٧ .

وكان برنامج الفلسفة في المدارس التجهيزية إلى ذلك العهد ، غير وافٍ بالقصد فأصلحه ورتب مواده ووضح مفرداته واصطلاحاته . .

وظلّ سنوات يمارس مهنة التدريس على أحدث المناهج التي أخذها عن الغرب حتى سنة ١٩٣٥ حيث انتدبته وزارة المعارف مفتشاً للتعليم الثانوي ، ثم سمته ، بعد ذلك ، رئيساً للتعليم الثانوي عام ١٩٣٩ فعمل على إصلاح المدارس الثانوية ورفع مستوى التعليم فيها .

وكان خلال هذه الفترات يكتب ويترجم ويحاضر ، وقد اشترك مع

الأساتذة خليل مردم بك وكامل عياد وكاظم الداغستانى فى إنشاء مجلة « الثقافة » التى لم يكتب لها البقاء طويلا ، كما اشترك فى تحرير مجلة « المعلمين والمعلمات » ومجلة « التربية والتعليم » وقد زودها بمقالات توجيهية وآراء حصيفة فى مجرى الفكر العالمى ، وكانت مادته الأساسية الفلسفة العربية : أصولها وخصائصها ، ما أخذته من الإغريق وما أعطته إلى الغرب ، وقد ألقى فى كلية الآداب ست محاضرات جمعت فى كتاب عنوانه « من أفلاطون إلى ابن سينا » (١) وهو الموضوع الذى شغله وهو يجتاز مرحلة الليسانس إلى الدكتوراه . وقد كانت أطروحته التى قدمها للحصول على شهادة الدكتوراه هى «دراسته عن فلسفة ابن سينا » (٢) .

وإلى جهوده ، فى وزارة التعليم ، فقد انصرف إلى التأليف وإلقاء المحاضرات فى شتى المعاهد العلمية والثقافية فأصدر كتاب « علم النفس» فى نيف وثمانمائة صفحة وقد طبع مرتين ، كما أصدر كتاب « المنطق » فى ٤٠٠ صفحة؛ والكتابان على جانب كبير من التركيز الفكرى وبسط أعضل النظريات الفلسفية بأسلوب سهل واضح . .

وكان قد أصدر خلال هذه الفترات ، بالاشتراك مع الدكتور كامل عياد « المنقذ من الضلال » و « حى بن يقظان لابن طفيل » ومنتخبات من من ابن خلدون ، كما نشر « نصوصاً منتخبة فى المنطق والنفس والأخلاق والتصوّف لابن سينا » مع مقدمة عن حياة الشيخ الرئيس وأثره فى تاريخ الفلسفة .

واختصّ المجلات العربية بمقالات ودراسات مختلفة فى شتى ألوان الثقافة؛ فكتب فى الهلال والحديث والرسالة والثقافة والأديب والسياسة الأسبوعية . . أى أن نشاطه لم يقف منذ بدأ حياته الفكرية مما حفز المجمع العلمى العربى أن يضمه إلى أفراد أسرته فانتخبه عضواً عاملا سنة ١٩٤٢ وأخذ منذ انتسابه إلى هذا الصرح العلمى يكتب فى مجلته ويحاضر من على منبره ، وكانت أولى

---

(١) طبع فى دمشق عام ١٩٣٥ .

(٢) طبعت فى باريس بالإفرنسية سنة ١٩٢٦ .

محاضراته: ١ — الطريقة الرمزية فى الفلسفة العربية ٢ — الغزالى و زعماء الفلاسفة ٣ — أبو الهذيل العلاف. وغير ذلك من المحاضرات الفكرية. ومنذ انتسابه لعضوية المجمع إلى اليوم وهو يساهم مساهمة فعالة فى تحرير المجلة، فلا يصدر عدد إلا و له فيه دراسة قيمة، وقد نشر سنة ١٩٤٩ بإشراف المجمع « الرسالة الجامعة ». كما نشر فى دائرة المعارف الإسلامية تعليقا على فلسفة ابن رشد وترجم مقالة « الطريق » لديكارت، عدا الرسائل والكتب التى نشرت مستقلة لكتاب « من الخيال إلى الحقيقة » و كتاب « الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام وأثرها فى الأدب الحديث » وهو محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية فى معهد الدراسات العربية العالية بمصر، إلى مجموعة من المقالات والمحاضرات التى تؤلف عدة كتب والتى لما تطبع بعد.

* * *

هذه خطوط مميزة لنشأة الدكتور صليبا، ولحياته الدراسية، مع إلماع إلى إنتاجه الفكرى. وهو رجل فكر واسع الاطلاع، يغلب على أدبه الطابع الفلسفى والنزعات التأملية الخيرة التى جاءته من دراساته الواسعة لفلاسفة الغرب والشرق. وللفلسفة اليونانية والإسلامية بصورة خاصة، وقد استطاع، بعد أن وعى مذاهبها ونهل من مواردها، أن يصب الآراء التى يعرض إليها فى أسلوب عربى مشرق يرجع إليه طلاب الفلسفة و رواد المعرفة فلا يجدون أية مشقة فى فهم غوامضها و إدراك ملتوياتها. وقد ردّ الكثير من المصطلحات الفلسفية الحديثة إلى أصولها العربية القديمة. و رأيه فى تعريب المصطلحات العلمية الحديثة يلخّص فى القواعد التالية:

١ — البحث فى الكتب العربية القديمة عن اصطلاح مستعمل للدلالة على المعنى المراد ترجمته. و يشترط فى إقرار هذه القاعدة أن يكون اللفظ الذى استعمله القدماء مطابقاً للمعنى الجديد.

٢ — البحث عن لفظ قديم يقرب معناه من المعنى الأوربى الحديث، فيبدل معناه قليلا و يطلق عليه المعنى الجديد

٣ — البحث عن لفظ جديد لمعنى جديد مع مراعاة الاشتقاق العربى.

٤ — اقتباس اللفظ الأجنبي بحروفه على أن يصاغ صياغة عربية كقولنا الديموقراطية .

وقد سار على هذا النهج الذى اختطه لنفسه فى ترجمة الكثير من الألفاظ والمصطلحات ، وهو فى هذا المجال مجدّد يريد أن تخرج اللغة من قفص المعاجم لتساير نزعات التطور .

ويعمد ، حين يعرض لموضوع فلسفى أو لغوى ، إلى التبسيط مهما كان الموضوع صعباً ، فيختار الألفاظ السهلة التى لا تنأى عن ذوق القارئ المثقف . وهو من الأدباء المفكرين المؤمنين بنزعات التطور التى يريدها أن تأتى عن طريق المدرسة ، ونزعاته ليست ثورية بل نزعات حرة هادئة تستمد قوتها من أصدق نظريات العلم والمنطق ، ومع أنه عاش حياته فى جوّ مدرسى فلم يحتجزه هذا المحيط فى نطاق من التزمت ، بل كان ، ولا يزال ، وثيق الصلة بمجرى الحياة الفكرية المتطورة فى العالم . فإذا أضفنا إلى هذا انطواء نفسه على الدراسات الفلسفية التى هضم أكثر مذاهبها ، كما أشرنا إلى ذلك ، والتى طعمتْ أدبه بأسلوب المناطقة قدرنا قيمة ما تخطه يراعته فى شتى ميادين الفكر .

وخلاصة القول فالدكتور جميل صليبا من عيون مفكرى دمشق الأدباء الذين فتحوا فى مجرى التفكير العربى ناحية ربطت بين المذاهب الحديثة وما تركه الفلاسفة العرب من مذاهب فى الكثير من التيارات العقلية التى ما تزال تبسط فيض إشعاعها على مرّ العصور .

ولقد زاملته فى اللجان الثقافية لجامعة الدول العربية ، وفى مؤتمر اليونسكو الثالث ، وفى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فلمست منه الروح العلمية الأصلية والتفكير الهادئ المتزن والأدب الجم الذى يزينه التواضع — السجية التى يتميز بها العلماء — فكان فى مناقشاته المتئدة يفرض احترامه على الجميع . .

وهو معنى بوضع قاموس للاصطلاحات الفلسفية التى جمعها من كتب الفلاسفة وكتب الحدود والتعريفات ومعاجم اللغة وقواميس الفلسفة ، وينشر هذه

الاصطلاحات فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق فى سلسلة من المقالات يبين فيها اختلاف معانيها باختلاف الفلاسفة الذين تداولوها . وقد ذكر إلى جانب كل لفظة ما يقابله من الألفاظ اللاتينية والفرنسية والإنكليزية . وقد قصد من نشر هذه الاصطلاحات فى سلسلة مقالات متتابعة قبل أن يضمها كتاب أن يفسح المجال أمام العلماء للإدلاء بآرائهم وملحوظاتهم . فالألفاظ ، فى نظره ، حصون المعانى ، والاصطلاحات نصف العلم ، وكل علم ليس فيه اصطلاح ثابت محدد إنما هو علم ناقص مبدّد .

عمر يحيي
١٩٠٢

شاعر حماة وأديبها ، امتهن تدريس اللغة العربية فكان من أبرع الأساتذة الذين غرسوا فى نفوس الناشئة حب الأدب . .

فى طبيعته الانطواء والعزلة والانكماش عن الناس ، وبالرغم من بعده عن التيارات السياسية فقد عاش مع الأحداث التى عاشتها سورية فى نضالها مع الإفرنسيين . . فما من حادث مسّ شعور العرب إلا سجل ملابساته بشعر يجمع بين القوة والجزالة .

فأحزانه صورة من أحزان قومه . .

نشر فى عام ١٩٣٦ ديوان « البراعم » . . وفيه أكثر قصائده الوطنية والوجدية . . ولشعره الذاتى هذه الجزالة التى تقرأها فى الشعر الأندلسى .

وربما تأثر بشعرهم أكثر من تأثره ببقية شعراء العرب ، فأناشيده الحزينة تصور لوناً من الأناشيد الباكية التى أطلقها شعراء الأندلس بعد أن أضاع العرب فردوسهم المفقود . .

والديوان ملىء بتجارب الشاعر — التجارب التى عاشها فى وطنه وفى رحلته إلى « البحرين » حيث علم فى مدارسها لفترة لم تطل ، نفاه بعدها الإنكليز إلى الهند . .

فقد تخوّفوا من جذوة شعره الوطنى أن تلهب النفوس ، وكان شعره تنبيهاً للغافلين وثورة على الغاصبين :

أرض تفيأها الوفاء فحسبها ... فخراً لو انّ «شيوخها » حكامها
أين العروبة والإباء يظلها ... يوم الكريهة رتعاً آرامها
لم يبق منها غير رسم دارس ... رفت على أرجائه آلامها

وبعد أن يثير الشباب للعمل ، وبعد أن يقص قصة نفيه من وطن عربى يقول :

قالوا : إلى الهند المسير فأنتم ... غرباء فى البحرين لا أرحامها
مرحى : وأما الإنجليز فإنهم ... أهل البلاد وأهلها أيتامها !
الواغلون الشاربون دماءها ... الغاصبون لها وهم هدّامها
والأرض إن نام الحماة يكون من ... حظ الذئاب العاسلات سوامها (١)
ضاق المغير بأن نهيب بشعبها ... ويودّ أن لو لم يفق نوامها
ورأى بنا ظمأ إلى إيقاظها ... من نومهـــا فأمضّه إقدامها

وفكرة الأدب الهادف أو الموجه أو الملتزم الذى يدعو إليها الشباب المنفعلون مع تيار القومية العربية فى هذه المرحلة من حياتنا الأدبية والذين يحسبون أنفسهم من دعاتها وبناتها ؛ إن هذه الفكرة قد عاشها أدباؤنا وشعراؤنا منذ أكثر من ربع قرن وبعضهم قبل نصف قرن ، وقد ظهرت جلية فى الصراع السياسى الذى وقفه الشرق العربى مع الاستعمار الغربى ، ووقفته سورية مع الإفرنسيين . .

وعمر يحيى سار على نفس النهج الذى سار عليه البزم ، والزركلى ، وجبرى وخليل مردم بك . .

* * *

وحين عاد عمر يحيى من منفاه عاود التدريس فى مدارس سورية فأفاد تلاميذه منه كل الفائدة ، ذلك لأن ثقافته العربية جدّ قوية ، إلى إلمامه باللغة التركية والفارسية والإفرنسية ، وقد عرب عن هذه اللغات بعض مقطوعات نثراً وشعراً . .

وهو من المدمنين على مطالعة كتبنا الأدبية القديمة ، وربما أعاد قراءة بعضها أكثر من مرة ؛ « فلا تراه إلا وفى يمينه كتاب يطالع فيه أينما حطّ به المسير حتى ليعرف شخصه من هذه الحلة . . وغاظ هذا النهم زوجه ، وودت لو أمكنها حرق جميع ما تحويه خزائنه من كتب ، وشكته لبعضهن ، وبلغه ذلك فقال من قصيدة عنوانها « المرأة والكتاب » (٢) :

---

(١) العاسلات : الذئاب . السوام : للقطيع .

(٢) مقدمة الديوان ص ٢٨ .

رأتها توقّد من غيظها ... وتشكو الزمان وتشكو المصاب
تسيل الدموع ولا تنثني ... تهرُّ وتبدو بظفر وناب
فقالت لها : ما الذي قد دهاك ... فأصبحت منه وفيك ارتياب
أخاف عليك وقوع الجنون ... وأحذر من أن تشقى الثياب
أجابت دعيني إن المصاب ... أتانيَ من حمله للكتاب
فعند الصباح ولوع به ... وعند المساء إليه المثاب
إذا ما تغنى بليلاه قيس ... فزوجي بحب الكتاب أهاب

* * *

أناديه حيناً فـــلا ينثني ... كأني أنادي الصخور الصلاب
وليس يبالي بما أشتكي ... وليس يردّ عليّ الجواب
إذا ما شكوت وثارت شجوني ... أشاح وقال : نويت المتاب
ولـــكنها توبة من فتى ... يرى حين يخطئُ أن قد أصاب

* * *

فلولا حذاري على عقله ... أتيت عليها بنار الثقاب

« وشعره منسجم اللفظ يسهل كثيراً ويغرب قليلاً ، ولو أراد لجعله غريباً كله ، ولو أراد لجعله سهلاً كله . . ويفطن للدقيق من هواجس النفس . ويجمع الواضح المتين جمعاً أقرب للإيجاز منه إلى الإسهاب . وقد يصوّر صوراً مادية وقد يصور معنوية ، ويقصّ إذا أراد القصص ، ويرقّ في الغرام ، وتظهر فيه العاطفة وقد تتوارى . أما الحزن العميق ، فيحوط شعره بسياج ، وربما أطلّ من جميع قصائد الديوان » (١) .

ومن كتبه غير المطبوعة :

١ — سراب عمري ، وهو الجزء الثاني من ديوانه .

٢ — مجموعة تراجم ومقالات كانت نشرت في مجلة « الحديث » . و « الكشاف » و « الزهراء » ؛ كزرياب وأبي فراس ، وابن المعتز . وخالد

---

(١) قدري العمر في مقدمة الديوان ص ١٥ .

الكاتب ، والببغاء ، والصابى ، وغيرهم .

٣ — كتاب « اللحى » : تسجيل لتاريخ اللحية وما قيل فيها قديماً وحديثاً فى ٢٠٠ صفحة .

٤ — مجموعة محاضرات ورحلات .

٥ — تبسيط العروض .

٦ — النحو .

٧ — الإملاء .

٨ — مجموعة من القصائد المترجمة لأشهر الشعراء كألفريد دوفنى وألفريد ده موسى وغيرهما .

ومن شعره :

يا طير

من قصيدة « يا طير » . . يذكر فيها فلسطين قبل النكبة .

لا يأنف القلب الشجىّ المتاب ... ولا يجيد الشكو إلا المصاب

إلى أن يقول :

يا طير ما غرّدت رأد الضحى ... إلا لداء موجع قد أذاب
تبكى على إلفك ضيعته ... أم أنت تبكى ذلك المجد غاب

ومنهـــا :

يا طير فى القدس لنا إخوة ... أضحى حماهم نهبة للذئاب
والمسجد الأقصى له رنة الـ ... ثكلى تنادى للعذاب المذاب
كم طفلة فى ظله غضة ... أشلاؤها أنحت عليها الكلاب
ووالد يبكى على ولده ... وذى أسى لا يستطيع الجواب
وكم بناء شامخ هدمت ... معاول الظلم ذراه الرحاب

* * *

ما هكذا التمدين ؟

في رثاء طالب حلبي أردي قتيلا لاشتراكه في مظاهرة ضد الاستعمار الإفرنسي .

لا تأملي يا عين أن تهجعي ... هذي شظايا القلب في أدمعي
إن فاتكِ الدمع فلن تجمدي ... لي كبد حرّى ستبكي معي
في ذمة التاريخ جاري دم ... أبي على الذل فلم يصدع
وفي سبيل الله يا مَنْ هوى ... وما نأى بعد عن المطلع
زمله الظلم بأثوابـــه ... شلت يمين الظلم من أشنع
رماه غدراً وانثنى هارباً ... لو تسعف الأقدار لم يرجع
فقل لمن ينحي على أعزل ... بالنـــار والبارود والمدفع
ويزعم التمدين من شأنه ... ما هكذا التمدين يا مدع
أغاية التمدين أن تسملوا ... أعين أبناء لنا رتّع
أم شرعة الإنسان أن تقطعوا ... أرجل أسراكم مع الأذرع
وتهدموا الدور على أمة ... من أزغب الريش ومن مرضع
وتفتنوا الأحياء من ذادة ... ليسوا على الإذلال بالهجّع
إن كان فيما جئت إصلاحنا ... فنحن أدرى منك بالأنفع
أو كنت ترجو الدرّمن ضرعنا ... فلم تدع في الضرع من مرضع
خمساً وعشرين شهدنا بها ... صحائف الفتك ولم تخضع

* * *

على نهر العاصي

يصف نواعير حماه

حبذا موقف الشجيّ على العـــا ... صي ووقت الأصيل في ريعانه
وأنين الدولاب يبعث معنى ... لا كشدو الصيداح في أغصانه

ليس يألو تقلباً يضحك الربـ ع فيبدى عن دره وجمـانه
يعرف الربع فضله فـتراه رافع الشكر من شذا أقحوانه

* * *

إلى أن يقول :

دائر حول نفسه كمضيـع قلبه بين عينه وحسانه
أو كخل مفارق يسأل الربـ ع قواءً عن أهله وجنانه

* * *

ماعلمنا الجماد يشكو فيحكى نغمات المحروب فى أوطانه

* * *

متقاعد

آخر ما نظم بعد أن أحيل على المعاش

ألفيته فى ركنه جالساً يذكر من أيامه ما مضى
يرنو إلى زورق أحـلامه وقد طوى الزورق يم القضا
فلا أغانى الركب فى سمعه ولا ترانيم الهوى والرضى
كل أمانيه وآمـاله من دهره لو كان يدنو الغضا .. (١)

* * *

وراح يروى : أمس كنا على ما يشتهى القلب وما يطلب
نبكر للذات : قم هاتهـا فالصبح وافى وانجلى الغيهب
سوابق اللهو تهادى بنا ومن ثغور الورد ما نشرب
يعانقُ الصفصافُ أوهامنا ومن ربى العاصى لنا ملعب

* * *

ثم انثنى يبكى على فائت تروى الليالى طيب أنغامه
أصحابه ! لم يبق من صحبه غير الرؤى يا طيب أيامه

---

(١) ولكن الغضا ليس دانياً .

ذرّتهم فى كل أفق وما أبقت يمين الدهر فى جامه
أضحى غريباً وامّحى كل ما جناه من أطياف أوهامه

* * *

لاحت له فى منظر ساخر آماله البيضاء عبر السنين
ترتد عنه رهبة الطائر من قبضَة الفخّ وعادى المنون
ماذا جنى من عيشه الغابر ماذا جنى من مغريات الظنون
جراحه فى قلبه أصبحت رفافة ما بين تلك الغضون

محمد سليمان الأحمد

(بدوىّ الجبل)(١)

١٩٠٣

من أبرز شعراء سورية ومن صفوة أدبائها الذين عرفوا بإشراق الأسلوب ، لا يقل نثره فى جمال موسيقاه عن شعره .

ولد عام١٩٠٣ فى قرية « ريفة » التابعة لقضاء الحفة. وقد تلقى علومه الابتدائية والثانوية فى مدارس اللاذقية ، وشب ونفسه ميالة إلى الأدب . قرأ أكثر دواوين العرب ورسائل أئمة البلاغة ويكاد يكون القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى يديم القراءة فيه ، ويتمثل بالكثير من آياته البينات .

بدت فيه ملامح الشاعرية وهو فى العقد الثانى من عمره ، فحين جمع قصائده ، فى الديوان الذى أصدره سنة ١٩٢٥ استقبله الكتاب والناقدون بكثير من الإطراء . فقد كتب عنه الأستاذ سليم الجندى أحد أعضاء المجمع العلمى يقول :

« ضرب فى الإجادة فى الشعر بسهم وافر ، وانقاد إليه من المعانى الأدبية والقوافى الصعبة ، وهو فى ضحوة عمره ، ما يقصر عن إدراكه فيه كثير ممن بلغ الأصيل من حياته . وإن الواقف على ديوانه هذا ليرى فى تضاعيف شعره الشاب من جزالة اللفظ ومتانة التأليف والمعانى الغضّة ما ينم عن موهبة

---

(١) عرف الشاعر بلقب « بدوى الجبل » أكثر مما عرف باسمه ، وأصل التسمية أنه أرسل فى بدء حياته الأدبية قصيدة إلى جريدة « ألف باء » مطلعها :

أتجدى وما أجدى الحسام وما أغنى   قواف من الأشعار تبقى ولا تفنى

أعجبت صاحب الجريدة الأستاذ يوسف العيسى ، وخشية من أن لا يلتفت إليها القراء نشر القصيدة غفلا من اسمه ونسبها لبدوى الجبل ، وحين ظهرت جاء الشاعر يسأل الأستاذ العيسى عن هذا الإغفال فأجابه بقوله :

لقد ابتدعت لك هذا اللقب لأن القصيدة فائقة الجمال وخشيت أن لا تقرأ من كثرة الأدباء فاستعرت هذا اللقب لأجلب نظر القراء فيعرفوا الأديب من قراءة قصيدته ، ثم يقول : « والقصيدة جزلة كشعر البادية ، فناظمها بدوى ، ولكن ما هذا البدوى ؟ إنه من الجبل » ، وبسرعة البرق جرى هذا التفكير فى مخيلتى وظهر هذا اللقب .

واسعة وقريحة مطواعة وحذق فى صناعة الشعر ، وإذا صح أن يبنى حكم المستقبل على الحاضر ساغ لنا أن نقول إن بدوى الجبل سيكون شاعر الشيوخ غداً كما كان شاعر الشباب اليوم » [١] .

ربع القامة – إلى القصر أقرب – ، أسمر اللون ، فى عينيه بريق وإشعاع ينمّ عن عبقرية وشاعرية ، تعلو البشاشة وجهه . نحيف فى طفولته وشبابه ، ممتلئ الإهاب فى كهولته ، يفيض بالحس الدقيق والشعور المرهف ، سريع الحركة ، جمّ النشاط ، يتأثر لكل شيء ، ويتألم من كل شيء ، ويبكى على كل شيء :

أنا أبكى لليل أوحشه البد ر ، وللقلب هدّه الحرمان
أنا أبكى للهمّ يأوى إلى القل ب فيقسو على الغريب المكان
أنا أبكى لكل قيد فأبكى لقريض تغله الأوزان

يرفّه عن نفسه بالمأكل والمشرب والملبس ، ويغتسل بالماء البارد صيفاً شتاء ، خريفاً ربيعاً ، فهو مترف أنيق :

وأنا المترف الأنيق ولكن ترفى صـاغه الرحمن

دمث الأخلاق ، سمح ، طاهر ، نقى السريرة ، همومه كبرى . حلو النادرة ، بارع النكتة ، متواضع لصديقه ، لطيف المعشر ، حلو الحديث ، ذرب اللسان ، حاضر البديهة ، معتزّ بمواهبه وعروبته . من كلماته :

« . . . لم أته على الدنيا لأنى خلقت عبقريـًّا ،
ولكنى تهت على الدنيا لأنى خلقت عربيـًّا » [٢]

* * *

خاض المعامع السياسية فى عهد الانتداب الإفرنسى فكان فى طليعة شباب الكتلة الوطنية المكافحين عن حرية الوطن وسيادته ، وكان من الشعراء الذين ارتفع صوتهم فى تلك الفترات .

---

(١) « مجلة المجمع العلمى العربى » مجلد ٥ ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢) « بدوى الجبل : حياته وشعره » لمحمد الخطيب ص ١٥ .

عمل فى الحقل الوطنى منذ فجر شبابه فاشترك فى المؤتمر السورى الذى عقد فى دمشق عام ١٩٢٠ ، وكان لاتصاله بالأمير فيصل وتزويده بالتوجيهات إلى الشيخ صالح العلى الذى قام بثورته فى جبل العلويين — كان لاتصاله بقائد الثورة أثره فى نفوس الفرنسيين فما كادوا يحتلون سورية حتى كان بدوى الجبل بين الكثيرين من الزعماء والشباب الوطنيين الذين زجّوا فى السجون ، وقد حكم عليه بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة ونقل إلى جزيرة إرواد ، وبعد أن قضى عشرين شهراً أفرج عنه . .

وهنا تمرّ فجوة من حياة الشاعر فيصانع الإفرنسيين مضطرًّا ، ويشترك فى المجلس التمثيلى فى اللاذقية ويعترف بالدولة العلوية على مضض ، ثم لا يلبث أن يعود إلى سجيته الأولى ليتابع جهاده الوطنى مع رجال الكتلة الوطنية الذين ناصبوا الإفرنسيين العداء ، وما زالوا حتى ظفروا بالمراحل الأولى للاستقلال .

هذا ، وقد انتخب عن اللاذقية نائباً فى المجلس النيابى فى ثلاث دورات ونيطت به الوزارة أكثر من مرة .

ما من حدث قومى إلا وله فى وصفه قصيدة كبرى لا تكاد تذاع حتى تتناقلها الصحف ، وتصبح على لسان الكثيرين من الشيوخ والشباب ، وترى الصحافة السورية أنه الشاعر الذى غنت البلاد على قيثارته فى أفراحها ، ومسحت بشعره الدموع فى أحزانها . . فقد مرّت بسورية أدوار طويلة كان فيها الشاعر والخطيب والكاتب هم القادة الحقيقيون ، يثيرون شعور الشعب ويدغدغون أحلامه ، ويغذون آماله ، ولطالما أثار بدوى الجبل كوامن النفس على الاستعمار والمستعمرين ، ولطالما كانت نفثات روحه لظى مستعراً فى وجوههم ، وحمماً لاهبة على رؤوسهم .

صدر له ديوان قبل ثلاثين عاماً وهو مفقود اليوم ، ويجمع قصائده المتفرقة ليصدرها فى ديوان كبير .

انتخبه المجمع العلمى العربى عضواً عاملا بين أعضائه لمكانته السامقة فى عالم

الشعر العربى ، ويعتبر بدوى الجبل ، بعد شوقى ، من أعلامه [١] . ذلك لأن شعره نبرات هزت ضمير الأمة العربية هزة النشوة والتوثب ، وربما كان شعره اليوم أصدق مرآة لتاريخ العرب فى شتى نوازعهم ، فى نضالهم الدامى ، فى نكباتهم ومآسيهم ، فى أفراحهم ومباهجهم ، فى الذكريات القومية ، فى كل ما يثيرهم ويدفع بهم إلى طريق المجد والمكرمات .

وهو فى مقطوعاته الذاتية كما هو فى قصائده الموضوعية خصب الخيال ، واسع الأفق ، قوى السبك ، جمع دقة المعنى ورقته وصفاء ديباجته ، إلى قوة اللفظ وجزالته وعمق أخيلته ، ويعتبر ، بالنسبة لتطور مذاهب الشعر العربى المعاصر فى هذه الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية — يعتبر « الحجة الوحيدة الباقية فى يد المدرسة الكلاسيكية ، نسيج البحترى الموشى لم يكن له من مكان فى هذا العصر لولاه ، وهو يجر وراءه ربع قرن من أمجاد القافية ، كل بيت عنده كالزهرة الأنيقة ، كالكأس المترعة ، فيها اللون والتويج النضيد ، وفيها العطر والنشوة الأخيرة .

أعجب ما فيه لغة مطواع تمنحه ما يشاء من اللفظ الأنيق ، حيث يشاء »[٢]

« . . إن قصائده تدخل فى منهاج المدرسة القديمة الكلاسيكية فلا تخرج على الأوزان المعتادة ، ولا تتحرر من القافية الواحدة إلا ما كان من اندفاعات طارئة أيام الصبا فى ديوانه . أما قصائده بعد الديوان فهى القصائد العربية ذات القافية الواحدة والوزن الواحد والموضوعات المتعددة ، ففيها الوصف والنسيب والمدح والعتاب والسياسة والهجاء ، وكأنها قصيدة جاهلية أغناها الشاعر بتجاربه وبما وقع له من صور حسية ومادية ، وإن خرج عن منهج القصيدة الجاهلية فترك النسيب ووصف الراحلة فلأنه تأثر بعصور أخرى وثقافات غير الجاهلية ، ولكنه بقى ذلك الشاعر الذى يمثل الجاهلية بتسجيل

---

(١) فى رواية للأستاذ صالح على أن بدوى الجبل ذكر أمام شوقى . وكان ، قد قرأ قصائده ، فقال : « ده شاعر أفهمه » . وحين توفى اشترك فى حفلة التأبين وألقى قصيدة طويلة مطلعها :

لا الأمس يسلبك الخلود ولا الغد   هيهـات أنت على الزمان مخلـد

(٢) مصطفى شاكر « مجلة الآداب » ج ١ سنة ٣ ص ٨٣ .

الحوادث والتاريخ والمناسبات ، وبقى ديوانه مجموعة هائلة لتجاربه ولتخليد المناسبات — بقى مرجعاً هامًّا يعاد إليه لدراسة العصر من وجهة نظر شاعر معين ، وبقيت موضوعاته هى الموضوعات التقليدية بصورة غالبة لولا بعض نوادر أكسبته إياها حياته فى القرن العشرين »[1] .

* * *

وفى موضوع تحرير الشعر العربى من الوزن والقافية يقول :

إن الشعر العربى ، فى قوالب الوزن والقافية ، يتسع لكل ما يتفق مع رسالته من حاجات الحياة المعاصرة. والعربية خصبة ، فالفقر ليس فيها ، والوزن والقافية نغم وجمال وعذوبة ، لا قيود ولاحدود .

ويقول :

أما الشعراء ونقاد الشعر الذين يرون تحرير الشعر العربى من قوالب الوزن والقافية ، ففى وسعهم أن يفعلوا ذلك. وسنقرأ حينئذ فنًّا رفيعاً وسيماً قد يكون حكمة وقد يكون فلسفة ، وقد يكون كل شىء . . ولكنه — وهذا غير مهم — لن يكون شعراً عربيًّا على كل حال !

ومن شعره :

أبو العلاء المعرى

مقاطع من قصيدته الكبرى التى
نظمها بمناسبة ذكرى مولده الألفى

الدهر ملك العبقرية وحدها ... لا ملك جبار ولا سفاح
والكون فى أسراره وكنوزه ... للفكر لا لوغى ولا لسلاح
ذرت السنون الفاتحين كأنهم ... رمل تناوله مهب رياح
لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها ... إلا بفكر كالضياء صراح

* * *

خير العقائد فى هواى عقيدة ... شماء ذات توثب وجماح
تبنى الحياة على هدى إيمانها ... والعقل مثبت غيرها والماحى

---

(١) بدوى الجبل حياته وشعره لمحمد الخطيب ص ٦١ .

لا تشك من قصر الحياة فربما | أغنت إشارتها عن الإيضاح
سفر الحياة إذا اكتفيت بمتنه | أغناك موجزه عن الشراح
واختر لنفسك ميتة مرموقة | بين النجوم على الأديم الصاحى

* * *

ومنها :

أعمى تلفتت العصور فما رأت | عند الشموس كنوره اللماح
نفذت بصيرته لأسرار الدجى | فتخرجت منها بألف صباح
من راح يحمل فى جوانحه الضحى | هانت عليه أشعة المصباح
أمصور الدنيا جحيما فائراً | يرمى العصور بجمره اللفاح
البغى عند الأقوياء سجية | والمكر فى الزهاد والصلاح
هون عليك ففى النفوس بقية | من رحمة ومروءة وسماح
خلف الهجير وعنفه ولهيبه | ما شئت من ظل وطيب نفاح

* * *

إيه رهين المحبسين ألم يئن | إطلاق مأسور وفك سراح
ظفرت برحمتك الحياة وصنتها | عن كل ناعسة الجفون رداح
أتضيق بالأنثى وحبك لم يضق | بالوحش بين سباسب وبطاح
يا ظالم التفاح فى وجناتهـا | لو ذقت بعض شمائل التفاح
عطر أحب من المنى وغلالة | بدع فمن وهج ومن أفراح
هى صورة لله جل جلاله | عزت نظائرها على الألواح
منحت بقدرته النعيم ولونت | أنواعه ، جلت يد المناح

* * *

إيه حكيم الدهر أى مليحة | ضنت عليك بعطرها الفواح
أسكنتها القلب الرحيم فرابها | ما فيه من شكوى ورجع نواح
جرحت إباءك والحياة فأقفلا | باب المنى ورميت بالمفتاح
لو أنصفت لسقتك خمرة ريقها | سكر العقول وفتنة الأرواح
ولأسعفتك — على الهوى — بمعطر | بالحسن لا بشقائق وأقاح
لا تخف حبك بالضغينة والأذى | الحب جوهر حقدك الملحاح
وأطل هجاءك ما أردت فخلفه | غرر منضدة من الأمداح

إنى لأشمت بالجبار

لقى الشاعر من عنت الإفرنسيين ما لقى ، وكان يرقب الأحداث والكوارث التى انصبّت على الشعب السورى خلال عهد الانتداب بحسرة وألم ، فلما انهارت فرنسا فى بداية الحرب العالمية الثانية واحتلها النازيون الذين أذلوا عزتها وأهانوا كرامتها وكبرياءها نفّس الشاعر عن آلامه وآلام أمته بهذه القصيدة التى نظمها وهو منفى فى بغداد ، وبالرغم من منع نشرها فى سورية تسرّبت إلى الأيدى والأفهام فحفظها المئات وتداولتها أيدى الآلاف ، وهى تروى سطوراً دامية من قصة الانتداب :

يا سامر الحىّ هل تعنيك شكوانا ... رقّ الحديد وما رقّوا لبلوانا
خلّ العتاب دموعاً لا غناء بها ... وعاتب القوم أشلاء ونيرانا
آمنت بالحقد يذكى من عزائمنا ... وأبعد الله إشفاقاً وتحنانا
ويل الشعوب التى لم تسق من دمها ... ثاراتها الحمر أحقاداً وأضغانا
ترنّح السوط فى يمنى معذّبها ... ريان من دمها المسفوح سكرانا
تغضى على الذل غفراناً لظالمها ... تأنق الذل حتى صار غفرانا
ثارات يعرب ظمأى فى مراقدها ... تجاوزتها سقاة الحى نسيانا
إلا دم يتنزّى فى سلافتهـــا ... أستغفر الثأر بل جفّت حميانا
لا « خالد» الفتح يغزو الروم منتصراً ... ولا « المثنى » ولا رايات « شيبانا»

* * *

ومنها :

قل للألى استعبدوا الدنيا بسيفهم ... مَنْ قسّم الناس أحرارًا وعبدانا
إنى لأشمت بالجبار يصرعه ... طاغ ويرهقه ظلماً وطغيانا
لعله تبعث الأحزان رحمته ... فيصبح الوحش فى برديه إنساناً
والحزن فى النفس نبع لا يمر به ... صاد من النفس إلاّ عاد ريانا
والخير فى الكون لو عرّيت جوهره ... رأيته أدمعاً حرّى وأحزانا

* * *

سمعت باريس تشكو زهو فاتحها ... هلا تذكرت يا باريس شكوانا
والخيل فى المسجد المحزون جائلة ... على المصلين أشياخاً وفتيانا
والآمنون أفاقوا والقصور لظى ... تهوى بها النار بنياناً فبنيانا
رمى بها الظالم الطاغى مجلجلة ... كالعارض الجون تهداراً وتهتانا
أفدى المخدّرة الحسناء روّعها ... من الكرى قدرٌ يشتدّ عجلانا
تدور فى القصر عدواً وهى باكية ... وتحسب الطيب أذيالا وأردانا
تجيل والنوم ظلّ فى محاجرها ... طرفاً تهدهده الأحلام وسنانا
فما ترى غير أنقاض مبعثرة ... حوين فنًّا وتاريخاً وأزمانا
تلك الفضائح قد سميتها ظفراً ... هلا تكافأ يوم الروع سيفانا
نجا به الظلم سكران الظبي أشراً ... ولا سلاح لنا إلا سجايانا
إذا انفجرت من العدوان باكية ... فطالما سمتنا بغياً وعدوانا
عشرين عاماً شربنا الكأس مترعة ... من الأذى فتملّى صرفها الآنا
ما للطواغيت فى باريس قد مسخوا ... على الأرائك خداماً وعبدانا
الله أكبر هذا الكون أجمعه ... لله ، لا لك تدبيراً وسلطانا
ضغينة تتنزّى فى جوانحنا ... ما كان أغناكم عنها وأغنانا

سألونى عن الغزاة

حركت نكسة ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ — عقب العدوان الإسرائيلى على الأقطار العربية — آلام الشاعر وهو فى المستشفى يعانى المرض ، فأوحت إليه بقصيدة تتجاوز المائة والعشرين بيتاً ، وهى « أحدث قصائده » اخترنا منها الأبيات الآتية :

هل درت عدن أن مسجدها الْـ ... أقصى مكان من أهله مهجور
أين مسرى « البراق » والقدس و« الـ ... مهد » وبيت مقدس معمور ؟
لم يرتل قرآن أحمد فيه ... ويزار « المبكى » ويتلى الزبور
طوى المصحف الكريم وراحت ... تتشا كى آياته والسطور
تستبي المدن والقرى هاتفات ... أين أين الرشيد والمنصور

كحلت بالثرى الغريب جفون وهفت للثرى الحبيب ثغور
يا لذل الإسلام . إرث أبي حفص بديد مضيع مغمور
يا لذل الإسلام . لا الجمعة الز هراء نعمى ولا الأذان جهير
كل دنيـــا للمســـلمين منا حات وويل لأهلها وثبور
النصارى والمسلمون أسارى وحبيب إلى الأسير الأســـير
ومع الأسر . نحن نستشرف الـ أفلاك والدائرات كيف تدور
لبست مكة السواد فأبكت مشهد المرتضى ودك الطــــور
هل درى جعفر فرف جنا حاه إلى المسجد الحزين يطير
ناجت المسجد الطهور وحنت سدرة المنتهى وظل طهــور
أين آى القرآن تتلى على الجمـ ع وأين التهليـــل والتكبير
أين آى الإنجيل ، فاح من الـ إنجيل عطر وضوأ الكون نور
أين روما — وجل حبر بروما — مهد عيسى يشكو ويشكو البخور
صلب «الروح» مرتين من الغازى وجدت بعد الأمور أمـــور
يا لذل الأباة — والقدس نهب — هتكت حرمة فأين الغيور
قد تطول الأعمار لا مجد فيها ويضم الأمجاد يوم قصـــير

* * *

من عذولى على الدموع وفى الـ مروة والركن والصفا لى عذير
وجراحى ينطفن حقـــداً وثأراً أدمعى ثورة وشعرى شعور
يرشف النور من بيانى فإن غنيت فهو المدله المخمـــور
وطباعى على ازدحام الرزايا لم ينلهـــا التبديل والتغيير
ومع الشيب والكهولة قلبي — كعهود الصبا — برىء غرير
وحـــرام على أن ينـــزل البشـ ر بقلبى وأن يلم السرور
لا تشق البرود فى محنة القد س ولكنها تشق الصـــدور
حبست أدمع الأباة من الـ ذل ويبكى الشذا وتبكى الطيور

* * *

أنا حزن .. شخص يروح ويغدو ومسائى مع الأسى والبكور

أنا حزن يمر فى كل باب ... سائل مثقل الخطى منهور
طردتني الأكواخ – والبؤس قربى – ... وتعالت على شقائى القصـــور
يحتوينى الهجير حيناً ، ولا ... يرحم أسمال فقرى الزمهرير
وعلى الجوع والغنى والبـــلايا ... فى دروبى أسير ثم أسير
نقلتنى الصحراء حيناً وحيناً ... حملتنى إلى الشعوب البحور
حاملا محنتى أجرر أقدا ... مى ويومى سمح الغمـــام مطير
محنتى الكنز ، محنتى عبرة التاري ... خ والدهر ، محنتى الإكسير
محنتى العطر إن أرادوا وإلا ... فهـــدير البركان والتــدمير
حاملا محنة الخيـــام فتزور ... وجوه عنى وتغلق دور
الخيـــام الممزقات . وأم ... فى الزوايا وكسرة وحصـــير
وفتاة أذلها العرى والجـــو ... ع ويلهو بالرمل طفـــل صغير
كلما أنّ فى الخيام شريد ... خجل القصر والفراش الوثير
خجل الحاكمون شرقًا وغرباً ... ورئيس مسيطر ووزير
هيئـــة للشعوب تمعن فى الذن ... ب ولا توبة ولا تكفـــير
شارك القوم كلهم فى أذانا ... ومن القوم غيّب وحضـــور
من قوانينها المداراة للظل ... م ومنها التغريب والتهجير
باطل الأقوياء حق صُراح ... وجراح الضعيف مين وزور
والحضارات بعضهن بشير ... يتهـــادى وبعضهن نذير
نعميات الشعوب شتى فنعمى ... حمدت ربها ونعمى كفور
كل طاغ – مهما استبد – ضعيف ... كل شعب – مهما استكان – قدير
كل ظلم له – وإن طالت الأيا ... م – يومـــان : أول وأخيـــر
يغضب القاهر المسلح بالنار ... إذا أنّ أو شكا المقهـــور
فاتقوا ساعة الحساب إذا دقت ... فيوم الحساب يوم عســـير

* * *

سألونى عن الغزاة فجاوبت ... رياح هبت ونحن ثبير
سألونى عن الغزاة فجاوبت ... رمال تسفى ونحن الصخـــور

سألونى عن الغزاة فجاوبت ليال تمضى ونحن الدهور
لن يعيش الغازى وفى الأنفس الحقد عليه وفى القلوب السعير
من طباع الحروب كر وفر والمجلى فيها الشجاع الصبور
ليس يبنى على الفجاءات فتح علمى فى غد هو المنشــور
تنتضى للوغى سيوف معــد ويقوم الموتى وتمشى القبور
ثأرنا ثأرنا وتدرى الليـالى فى غد أينا هو المدحــور
عربى . فلا حمـاى مضاع عند حقدى ولا دمى مهدور

خليل الهنداوى

١٩٠٦

لبنانى المولد . عاش الشطر الأكبر من حياته فى سورية ، وفى مدينة حلب بالذات يدرّس الأدب العربى فى الثانويات فلم يصرفه التدريس وتقويم ألسنة تلامذته وطبعهم على حب الأدب قديمه وحديثه — لم تصرفه هذه المهنة الشائقة والشائكة معاً عن كتابة المقال الأدبى والمسرحية والقصة القصيرة وحتّى نظم الشعر فعرف فى البيئات الأدبية أكثر مما عرف فى عالم التدريس . وقد أغرق الصحف والمجلات والإذاعات خلال ثلاثين عاماً ولا يزال يفيض من مقالاته وأحاديثه التى تناولت شتّى شئون الفكر والحياة . .

دؤوب على العمل ، جمّ النشاط ، ما رأيته مرة فى ناد أوفى مقهى إلا والكتاب أمامه والقلم بيده ، وبزّ الناركيلة فى فمه — يقرأ ويكتب ، يدخن ويدوّن ، فما يكاد ينتهى « النَّفَس » حتى يكون قد أتم المقال أو فرغ من كتابة القصة أو المسرحية لتأخذ طريقها إلى النشر . .

قصّ علىّ ملامح من سيرته أوجزها فيما يلى :

قال : « ولدت سنة ١٩٠٦ فى مدينة صيداء — بلبنان — وفى مدارسها الابتدائية والإعدادية تلقيت علومى ومعارفى الأولى .

كنت منذ الصغر مولعاً بقراءة الشعر ومطالعة القصص والكتب الأدبية.

فى أيام الحرب الأولى ، ذقنا شظف العيش لالتحاق والدى بالجندية ، وقد ألجأنا الضيق إلى دمشق حيث قضينا فيها أيام الحرب ، بجانب والدى ...

وبعد الحرب ، عدنا إلى صيدا ، حيث تابعت الدراسة فى معهد المقاصد الخيرية .

خرجت من الدراسة . وانتدبت للتدريس صغيراً فى المعهد . وبعد سنة انتدبت للتدريس فى قرية من قرى لبنان . وفى هذه القرية كان زواجى الأول المبكر . .

وفى عام ١٩٢٧ تقدمت لإحدى الوظائف الرسمية فى لبنان ، ونجحت فى المسابقة ، ولكن القدر أراد أن يعاكسنى ، ويقلب مجرى حياتى كلها بعوامل

سياسية وطنية .

لقد كنت مؤمناً بالعروبة، والوطن العربى الشامل ، وطالما ترنمت بهذا على المنابر !

فى يوم من أيام ١٩٢٧ هبط الزعيم الفقيد رياض الصلح لبنان ، بعد النفى ، وبعد انتهاء الثورة السورية . فأقامت له مدينة – صيداء – الحفلة الأولى التى حضرها وفود مختلفة من رجال الوطنية فى سورية ولبنان ، ودعيت لإلقاء قصيدة . . كانت السبب لإخراجى من لبنان إلى سورية .

فى دمشق أقمت . أدرس وأكتب فى جريدة « الشعب »: «مفكرات » و « مقالات » .

ثم دخلت عالم التدريس مرة ثانية . . فى ثانوية دير الزور . . وفى هذا البلد الطيب استفدت من فراغى للمطالعة والكتابة ، حيث أخرجت الكثير من مقالاتى ودراساتى الأدبية ، ومسرحياتى ، طوال عشرة أعوام ، كانت ملأى بالجلد والعمل والكتابة .

وفى مطلع الحرب العالمية الثانية انتقلت إلى حلب لتدريس الأدب العربى فى ثانوياتها – حتى انتهت مدة خدمتى سنة ١٩٦٥ » .

هذه الفترات الطويلة التى قضاها فى التدريس وقراءة كتب الأقدمين واختيار الجيد من كلام فحول أئمة الترسل وعمالقة الشعر – كل ذلك أضفى على أسلوبه القوة والنصاعة والوضوح .

واستطاع ، إلى عمله فى التدريس ، أن يؤلف عدة رسائل وكتب ، منها مطبوع ، ومنها لا يزال قيد الطبع .

فالمطبوع منها :

١ – صفحة من حياة باريس .

٢ – هاروت وماروت – مسرحية .

٣ – إرم ذات العماد – قصة خيالية .

٤ – سارق النار – مجموعة مسرحيات فنية قصيرة .

٥ – فرانز ليست – دراسة فنية من منشورات « اقرأ »

٦ — فلسفة نيتشه — دراسة فلسفية .
٧ —شوبان — دراسة فنية .
٨ — دمعة صلاح الدين — مجموعة قصص قصيرة .
٩ — الحب الأول .
١٠ — نصوص مدروسة فى الأدب العربى .
١١ — تيسير الإنشاء — كتاب مدرسى .
١٢ — زهرة البركان — مجموعة مسرحيات قصيرة .
١٣ — منّافنّا — مسرحية مترجمة .
١٤ — تجديد رسالة الغفران .
١٥ — الإمام على من خلال نهج البلاغة .

وآثاره غير المطبوعة :

مراحل النقد فى الأدب الإفرنسى ، بين الشك والإيمان — دراسة فلسفية — فى مدينة الجياع — مسرحية — مسرحيات اجتماعية وفنية وقومية قصيرة : «سرّ أبى الهول» — مترجمة — نشرت فى مجلة « الرواية » القاهرة ، « السمفونية الريفية » ، مسرحية مترجمة . نشرت فى مجلة « الحديث » حلب « رأس المال » مسرحية مترجمة بثلاثة فصول « سميراميس » مسرحية مترجمة لبول فاليرى . نشرت فى « المقتطف » « أمفيون » مسرحية مترجمة لبول فاليرى . نشرت فى « المقتطف» ، أغانى ببليتس ، صرخة ضائعة — مجموعة شعرية — ألحان الجماجم ، موجز فلسفة الفن للناقد الإفرنسى « تين » ، رباعيات الغزالى مترجمة ، للشاعر جان لاهور ، تطور الحركة الأدبية الحديثة فى فرنسا ، مجموعة قصصية قصيرة .

وما يزال . وقد دلج إلى الشيخوخة ، يتمتع بنشاط الشباب ، يكتب ويؤلف دون ضجر أو ملل ، بل تكاد تكون الكتابة هوايته المفضلة .

لقد تأثر بالأدب القديم ، بحكم تدريسه له ، وحياته معه ، وعنى بمطالعة الآداب الفرنسية بلغتها أو مترجمة ، وهذا الذى جعله يتناول مختلف الفنون الأدبية ولا سيما المسرحية الحوارية. يقول : « إن فقدان المسرح جعلنى أبتعد عن المسرحية الواقعية التمثيلية ، وألجأ إلى المسرحية الذهنية ، وكثيراً ما عدت

إلى الأساطير اليونانية أو العربية ، أستمدّ مغزاها الإنساني ، وأعيد كتابتها ، لا باعتبار أبطالها من الأساطير بل باعتبارهم إنسانيين وإن كانوا في مصاف الآلهة ». . . ويقول : « إننا لا نزال ، في الفنون الأدبية الحديثة ، عالة على الغربيين ، بحكم سبقهم إلى هذه الفنون ونضجهم ، وتطور بيئتهم ، وعندما يتيسر للأديب العربي ما يتيسر للأديب الغربي من ثقافة شاملة ، وإبداع خلاق ، وحرية مطلقة لا يقيدها شيء من التقاليد ، يستطيع أن يعطي نفسه كما هي ويكشف عن الحقيقة التي يراها ، ويحس بالحياة ومشاكلها على الصعيد الإنساني ، فكل أدب بدون حظ إنساني لا يخلد ».

هذا ، وكما بدأ حياته في لبنان ، قرر بعد أن أحيل على المعاش ، أن يعود إلى لبنان — مسقط رأسه — حيث مجال العمل أوسع ، ويعمل الآن في إحدى دور النشر لانتقاء الشوامخ الأدبية ونشرها ، وقد أنهى كتاب الأغاني والبخلاء ورحلة ابن جبير وإحياء علوم الدين ؛ ولا أعلم ، وهذه الكتب محققة ومنشورة ، ما جدوى هذا العمل . وحبذا لو ظلّ في ميدان التأليف والترجمة ، إذ العمل تحت إشراف دور النشر لتحقيق الكتب ، سيصرفه عن الإنتاج والإبداع ، وإن كان من القائلين إن الأدب لم يستطع بعد أن يكفل لصاحبه الحياة الكريمة ، الكافية ، ولهذا ، لابدّ له من مهنة تؤمن له لقمة العيش . وهذه المهنة التي تشغله عن موهبته لا تزال إحدى العوائق في تقدمنا الأدبي .

فإنتاجه الذي يدرّ عليه بعض المال يكفيه ، على ما أعتقد ، ويوفر له العيش الهنيء والحياة الكريمة ، ولا سيما وقد مضى الزمن الذي كان يكتب فيه الكاتب حبًّا بالنشر وبدون جزاء ولا شكور !

ومن شعره الإنساني :

أنت وأنا

أنت إنسان ، وإنسان أنا   فلماذا نحن خصمان هنا ؟
ولنا في هذه الأرض صدًى   أتراها غصت الأرض بنا ؟

تنبت الأرض لنا أزهارها ثم لا ننبتها إلا قنا ؟
أرضنا – إن شئت – تغدو مسكنا وإذا شئت استحالت مدفنـا
ماجنت أرض علينا إنما قلبنا المسعور بالحقد جنى
قد فقدنا الحب فى مهجرنا ونصبنا البغض فينا وثنـا
نحن فى دنيا الأماني شيع همها أن تستثير الفتنا
تزدهينا دمن فاسدة ثم نروى بدمانا الدمنا
يا أخي ! قصرك قصر شامخ ! أكثيرٌ أن ترى الكوخ لنا ؟ !
يا أخي ! من أنت لولا ساعدى؟ وهوى – بالرغم منا – ضمنا
أيها السائل عنى من أنا أنا ذوب الحب طيباً وجنى
أنا من أرسلت قلبي عاشقـاً يرحم القبح ويهوى الحسنـا
سأناديك ولو ضاع الصدى وأدقّ الباب حتى تأذنا
كن كما شئت، وخالف مذهبي لن ترانى حاقداً مضطغنـا
مذهبي الحب وإيمانى الهوى لا غنى كالحب فى دنيا الفنا
لو رعيت الحب للحب لما كنت فى شرعيَ إلا مؤمنـا
موطنى الإنسان لا لونَ له فاجعل الإنسان مثلى موطنا
وأخى الإنسان لا جنس له لا حدود ، لا قيود بيننـا
فى دروب الحب سل عنا الشذا هل غرسنا الدرب إلا سوسنا
كم بذلنا للهوى من قلبنا ! ! ما أردنا لهوانا ثمنا
قد كفانا غربة أن الردى وحده يجمع يوماً شملنا
يا أخي ما لوننا ؟ ما جنسنا ؟ نحن للأرض رمادٌ كلنا
نحن أرصدها الدهر لنـا فإذا نحن نعين المحنا
بُوركَ الدهرُ ، فما أرحمه ! إننا أصل الرزايا ... إننـا
لا تحاول وخز قلبي ناقماً أنت فى قلبي مسيئاً ، محسنا
إن زرعنا البغض يأكلنـا معاً إن غرسنا الحب يُزهِرْ حولنا
ادنُ منى ! ! ستراني دانيـاً فإذا أنت ، مع الحب ، أنا
وإذا نحن على هام الدنا نتحدى . . نتحدى الزمنـا

قسطنطين زريق

١٩٠٩

من رجال الفكر المرموقين فى العالم العربى . ولد فى دمشق فى ١٨ نيسان (أبريل) سنة ١٩٠٩ فما كاد يترعرع ويتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية فى مدرسة التجهيز الأرثوذكسية حتى انتقل إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت فانتسب إلى كلية الآداب والعلوم وظل أربعة أعوام يدرس فى ذلك الجو الجامعى من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٨ ، وحين ظفر بشهادة البكالوريوس فى الآداب سافر إلى شيكاغو فانتسب إلى جامعتها ونال فى سنة ١٩٢٩ درجة أستاذ فى الآداب . ومنها إلى جامعة برنستون فمنح سنة ١٩٣٠ درجة دكتوراه فى الفلسفة .

ولم يكد يرجع إلى وطنه بعد أن استوفى دراسته الجامعية حتى دعى للتعليم فى الجامعة الأمريكية فى بيروت حيث نيط به تدريس مادة التاريخ .

وظل يدرس هذه المادة من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٤٥ فعاش خلال هذه الفترة حياة الجامعيين يستهويهم البحث المجرد عن الهوى والذى يطمئن النزعة العلمية الخالصة .

مادة التاريخ التى نيط به تدريسها جعلته ، إلى دراسة تاريخ الأمم ، يدرس تاريخ الأمة العربية : عوامل نهوضها ، بواعث انهيارها ، وثباتها المحيرة للعقول ، ثم ركودها وجمود تفكيرها ، ما أبدعته من تراث حى للإنسانية ، وما تركه الطغاة فى ربوعها وممالكها من أشلاء ودماء ، ومن تدمير وخراب ..

وقد خرج من دراساته بآراء حصيفة تترقرق واضحة فى مختلف مقالاته ومحاضراته . . وهى مقالات ومحاضرات جمعت سنة ١٩٣٩ فى كتاب بعنوان « الوعى القومى » وقد عرض فيه الوسائل التى تعزز نهضتنا القومية فرأى أنها لا تستكمل شروطها وتؤتى ثمارها إلا إذا نهجت ثلاثة مناهج :

الأول : بناء الأساس الفكرى الذى تقوم عليه نهضتنا القومية ، أى بدرس

غاياتها ووسائلها ، وتحديد معنى الأمة والقومية ، وإثبات خصائص الأمة العربية ومميزاتها ، وإظهار مقامها الفريد بين الأمم ، والنصيب الذى كان لها فى الماضى والذى يرجى لها فى المستقبل فى تقدم التمدن والحضارة البشرية ، أو بكلمة أخرى : إنشاء « فلسفة قومية » شاملة واضحة منتظمة .

الثانى : أن تعصر هذه الفلسفة فى فكرة مقطرة ، نقية ، صافية ، يبشر بها أبناء الأمة ، وتتحد بعاطفتهم المتوثبة وشعورهم الفياض، فيحصل من هذا المزيج المبارك «عقيدة قومية » ، وأخيراً يتحد العاملون فى الحقل القومى .

الخطوة الثالثة : المجاهدة لتنظيم الأمة العربية وضبط نوازعها وإخضاع شهواتها للإرادة الوحيدة المنبثقة من « العقيدة الواحدة » .

على هذه الأركان الثلاثة ؛ الفلسفة القومية ، والعقيدة القومية ، والتنظيم القومى — تقوم كل نهضة صحيحة ، وإليها يجب أن يوجه العرب جهودهم فى هذا الدور التأسيسى من حياتهم الجديدة .

* * *

فى نطاق هذه المناهج وإطاراتها الواسعة المدى كتب كثيراً عن الأمة العربية — عن ماضيها وحاضرها المحفوف بالمكاره ، موجهاً الجيل الجديد توجيهاً قومياً يرتكز على أسس علمية وفلسفة واقعية لبناء مستقبل مشرق .

وإلى أعماله الدراسية كان وما يزال وافر النشاط فى اعتلاء منابر النوادى والجمعيات يحاضر فى القضايا التى تواجه العرب فى مشاكلهم . وهو شديد الحرص على تأريخ مظاهر الوعى القومى . أريد مراحل تطور الأمة العربية منذ بداية القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا ، ولا سيما فى هذه الفترات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية .

ولآرائه صداها القوى فى الأوساط الثقافية لأنها صادرة عن إنسان حر الفكر ، يريد لأمته أن لا تكون مغمضة العينين فى مواجهة الواقع ، وأن تسير على أسس صحيحة وقواعد سليمة لئلا تتعثر وتقع فى المزالق .

* * *

ومن الوسط العلمى إلى المحيط الدبلوماسى : فحين جلا الإفرنسيون عن

سورية وتألفت حكومة وطنية اختير الدكتور زريق مستشاراً أول للمفوضية السورية فى واشنطن ، فترك عمله الجامعى للقيام بمهمة وطنية ، وقد أعطى الأمريكيين وغير الأمريكيين أجمل صورة عن مواهب السوريين حين يمارسون تبعات الاستقلال ولا سيما حين مثّل سورية فى هيئة الأمم المتحدة وفى مجلس الأمن مندوباً مناوباً خلال سنتى ١٩٤٦ — ١٩٤٧ .

لا شك أن هذه الفترة التى قضاها فى ذلك الجو السياسى المحموم تارة ، والهادئ هدوءاً مشوباً بالانفجار تارة أخرى ، قد أفادته كمفكر مادته الأساسية تدريس التاريخ . .

وكانت هيئة الأمم وما تزال مسرحاً لشتى التيارات والمذاهب المصطرعة حول مصير الأمم — ولا سيما الصغيرة منها الخاضعة لسيطرة الأمم المستقرة . . نعم ، لقد أفادته هذه التيارات المصطرعة التى توقظ ضمير أى مؤرخ وهو يقرأ صفحات الماضى فتجعله كثير الحذر والحيطة ، فلا ينساق مع الأهواء ، ويجعل للواقع وللحقيقة نصيبهما الأوفى من الدرس والبحث .

من البيئة العلمية يبحث فى دياميس القرون الغابرة عن حقائق التاريخ المسربلة بالحكايات والقصص والأساطير إلى أروقة هيئة الأمم وملتويات السياسة التى قد تبطن غير ما تظهر . . وقد تظهر غير ما تبطن !

ولم تطل إقامته فى السلك الدبلوماسى فقد عاد إلى جوه الجامعى حيث عين نائباً لرئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت ، إلى احتفاظه بأستاذية التاريخ . وكان منصب رياسة الجامعة الأمريكية لا يشغله غير الأمريكيين فدل اختياره لهذا المنصب الرفيع ، على الثقة التى يتمتع بها ، وقد برهن خلال هذه الفترة ، على كفاءة ممتازة جعلت الأمريكيين يقدرونها كل التقدير .

وحين فكرت الجمهورية السورية فى تنظيم جامعتها على أسس ومناهج صحيحة استدعته وعينته رئيساً لها فتسلم مقدراتها سنة ١٩٤٩ وظل يدير شؤونها حتى سنة ١٩٥٢ واستطاع خلال هذه الفترة القصيرة أن يغير الكثير من المناهج ، وأن يسير بها خطوات سليمة . . ثم عاد إلى « الجامعة الأمريكية » ليتولى رياستها بالوكالة فشغلته الشؤون الإدارية عن البحث العلمى . وما كاد يطل

عام ١٩٥٧ حتى عاد إلى الناحية التي اجتذبته وتخصص فيها وهى دراسة التاريخ : يقرأ ويكتب ويحاضر وينشر أبحاثه ودراساته فى المجلات العربية والأجنبية فأصدر — خلال هذه الفترات — بعد كتابه « الوعى القومى » — كتاب « معنى النكبة » حلل فيه تحليلا بسيكلوجيًّا عوامل نكبة فلسطين فراج رواجاً كبيراً وطبع أكثر من مرة . ونقل إلى اللغة الإنكليزية بقلم الأستاذ بيلى رانيدر . كما أصدر كتاب « أى غد » . وهو مجموعة أبحاث تدور حول تبعات المفكر العربى والمجتمع التقدمى وموقف العرب من الثقافة الحديثة، إلى خطوط واضحة نحو ثقافة عربية أفضل ، تنبثق من صميم الشعب وتتجاوب مع حاجات المجتمع وتقوم على احترام الحقيقة — ثقافة متأصلة فى ماضيها الإيجابى ، مشاركة فى الحضارة والإنسانية — بهذا النوع من الثقافة الحية الفعالة — يقول الدكتور زريق — يتكون المجتمع العربى الفعال ، المجتمع العربى القادر على البقاء ، الباقى فعلا فى الإرث الإنسانى المشترك — المجتمع العربى الأفضل . . .

ولم يهدأ نشاطه العلمى فلا يمر عام أو عامان إلا ويتجمع لديه الكثير من مقالاته ومحاضراته ودروسه فينتظمها كتاب لا تنأى بحوثه عن الواقع العربى على ضوء التطورات العالمية ومدى الأبعاد التى تفصلنا عن هذه التطورات ، فيغمز ويلمز ، ويوضح ويصرح ، ويضع النقاط على الحروف ، وتتضح آراؤه أكثر فأكثر فى كتبه الثلاثة : « نحن والتاريخ » و « فى هذا العصر المتفجر » و « فى معركة الحضارة » فهو يتابع التطورات بنزعة المؤرخ وحدس المفكر المؤمن الذى يريد لأمته أن تستكمل جميع عناصر حياتها لتجارى الأمم المتطورة فى سيرها . .

ففى كتاب « أى غد ؟ » يضع القضية العربية على أساس مصيرى .

وفى كتاب « نحن والتاريخ » يحلل موقف الأمة العربية من ماضيها وتاريخها وأثر هذا الموقف فى حاضرها ومستقبلها . فهو يهدف إلى أن تكون علاقتنا بالتاريخ علاقة تفاعل إيجابى مستمر ، وأن تكون تحدياته لنا حافزاً مستثيراً ، وردنا عليه رفيعاً مبدعاً . وأن يتمكن العرب فى هذا الظرف الرهيب من حياتهم

أن يردوا على تحديه الضخم الخطير بأصفى ما نمتلك من فكر ، وأنفذ ما نقدر عليه من عمل ، وأروع ما نحن أهل له من خلق وإبداع .

وفى كتاب « فى معركة الحضارة » يتكلم عن ماهية الحضارة وشروطها وصورها ومظاهرها ومقوماتها ، وعن مقاييس التحضر وصور التقدم ، والوضع الحضارى المعاصر من جهة سماته البارزة ومنجزاته وإمكاناته ومفارقاته ونقائصه ، ويخرج من كل هذه الأبحاث ليحدد موقف الأمة العربية من الركب الحضارى موقفاً يجعلها وثيقة الارتباط شخصياً وقومياً وإنسانياً بمركب الحضارة . .

إنه يريد من الأمة العربية أن تثور ثورة عقلية تجتث كل ما يعوق سيرها « ثورة تختلف كل الاختلاف عن أية ثورة أخرى بصفات وميزات مستمدة من طبيعة العقل ذاته ؛ فهى تبغى الحقيقة أولا وتوقن أن أى كسب منها يفوق كل كسب آخر » وأن أى بناء يقام على غير أساسها لا بد من أن يعتريه الوهن والفساد فيتخلخل وينهار . « الثورة العقلية » فى نظره ، الضمانة الضابطة لأية ثورة أخرى ، وبها تدرك أن مشكلتها الأولى هى التخلف الحضارى ، وبها تقدم على محاسبة ذاتها ، وتحن إلى التحضر ، وتؤمن بالحقيقة والعقل ، وتتطلع إلى المستقبل ، وتتفتح للخير من حيثما أتى ، وتولد قدراتها الإنتاجية ، وتحقق إمكاناتها البشرية ، وتضبط ثورتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

إنها إن سلكت هذا الطريق بلغت ، فى اعتقاده ، سبيل السلامة والنصر فى المعركة الأم : فى معركة الحضارة . .

* * *

وجميع أبحاثه تدور حول معالجة مشاكلنا القومية والخلقية والاجتماعية ، وهو صريح فى معالجة هذه المشاكل ، يدرس الأسباب والعلل ، ويقترح الحلول العملية ليبصّر النشء العربى بالواجبات الملقاة على عاتقهم فى غدهم الملىء بالمخاوف والأخطار .

وقد أهلته روحه الجامعية وتفكيره المتزن ودراساته المتتابعة فى شتى قضايا الفكر — أن يكون عضواً فى عدة مجامع علمية وهيئات فكرية ؛ فانتخب عضواً مراسلا للمجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع العلمى فى بغداد ، والجمعية

التاريخية الدولية ، وعضواً للجنة الدولية لوضع تاريخ تطور العلم والثقافة برعاية الأونسكو . وعضو المجلس التنفيذى لمنظمة الجامعة الدولية ، ورئيس لجنة الخبراء الدولية لدراسة قضية القبول فى الجامعات برعاية الأونسكو ومنظمات الجامعة الدولية .

هذا ، وقد ترجم ونشر عدة كتب : ترجم عن الألمانية بالاشتراك مع بندلى جوزى كتاب « أمراء غسان من آل جفنة » لتيودور نولدك . ونشر كتاب « الزيدية قديماً وحديثاً » لإسماعيل جول بلك . كما نشر المجلدات السابع والثامن والتاسع من تاريخ الدول والملوك لابن الفرات [١] .

* * *

هذه خطوط سريعة من حياة الدكتور قسطنطين زريق وما زال فى اكتمال كهولته ، لم ينقطع عن البحث والدرس ، وهو فى جميع كتاباته واضح الأسلوب ، بعيد عن التقعر ، قد لا تلمس فى كتبه أساليب أئمة البيان ولكنك تلمس أسلوب المؤرخين الذين يلبسون الفكرة والأحداث القوالب التى تلائمها لتكون واضحة العبارة ، سهلة الفهم ، بعيدة عن الغموض ، تنثال الأفكار انثيالا يؤدى إلى الفهم والاقتناع ثم إلى التحفز فالعمل . . وهذا فى اعتقادى من أبلغ الأساليب التى تصل بين الكاتب وقرائه .

---

(١) وقد اشتركت الدكتورة نجلا عز الدين معه بنشر المجلد الثامن والجزء الثانى من المجلد التاسع .

عمر أبو ريشة

١٩١٠

شاعر الشباب السورى أو شاعر الحب والجمال كما كانت تنعته الصحافة السورية[1] ، عرف بوقدة الحس ، ودفق العاطفة ، وجموح الخيال ، ووفرة التلاوين .

ولد سنة ١٩١٠ فى قضاء منبج — مدينة البحترى وأبى فراس الحمدانى ، حيث كان أبوه قائمقاماً .

وقد قضى طفولته فى حلب يدرس فى مدارسها الابتدائية ، ثم انتقل إلى بيروت لإتمام دراسته الثانوية فى الجامعة الأمريكية ، وفى سنة ١٩٣٠ أرسله أبوه إلى مانشستر ليدرس صناعة النسيج . . ولكن الشعر كان أغلب فى نفسه من دراسة صناعة النسيج ، فقد نشأ فى بيت يقول أكثر أفراده الشعر . . كان أبوه شاعراً أشرب قلبه بالشعر الصوفى ، وكذلك كان جده ، وإذا كان للوراثة أثرها فى نشأة الإنسان ، فنى وسعنا أن نقول إن الملكة الشعرية قد انتقلت إليه بالوراثة ، وقد مست جذوة هذه الوراثة أكثر أفراد العائلة ، فأخوه شاعر ، وأخته شاعرة ، وأمه تتذوق الشعر وتحفظ عشرات القصائد لأكابر الشعراء المتصوفين ، فنشأ عمر وهو أبرز أفراد العائلة فى رفع راية الشعر . . وهذا الذى دفعه أن يهجر دراسة صناعة النسيج ليعيش فى جواء الأدب الإنكليزى خلال إقامته فى مانشستر — تلك الأجواء التى فتحت أمامه آفاقاً جديدة فى تفهم الأدب .

نظم عمر أبو ريشة الشعر فى سن مبكرة . . وكان يعتمد حسه الذاتى فى تصوير الكثير من مظاهر الحياة ، وعكف يدرس الأدب على أساتذته المدرسين ويصف لنا هذه الأدوار التى مرت من حياته بقوله :

« هنالك أدوار متباينة النزعات مرّت علىّ وتركت فى حياتى الأدبية أثرها

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٥ .

العميق . أحببت فى أول نشأتى شعر البحترى وأبى تمام وشوقى وأضرابهم لأن أساتذتى – سامحهم الله – كانوا يغرقون فى امتداحهم ولا يشحذون لسانى إلا بشعرهم ، فكم رقصت طرباً عند سماعى :

ريم على القاع بين البان والعلم　　　أحلّ سفك دمى فى الأشهر الحرم

ولما أخذ المعلم يشرح ما بهذه القصيدة و بأمثالها من جناس وطباق واستعارة إلى آخر ما هنالك من « ألاعيب » بيانية خيل إلى أن القصيدة التى لا تضم شيئاً من هذه الألاعيب ليس لها قيمة ، وتحت تأثير هذا الرأى أخذت أنظم ، وإنى أذكر مطلع قصيدة قلتها فى هذا النحو .

« سلاها » ما الذى عنى ثناها　　　وقلبى فى التنائى ما « سلاها »

ولم أكتف بهذا بل تعديته وأخذت أعارض « بائية » أبى تمام و « سينية » البحترى ، وإنى وإن استفدت شيئاً من هؤلاء فإنما استفدت اللغة والتركيب أما الفكرة الشعرية فقد كبا دونها خيالهم الكسيح !

سئمت هذا الشعر وهذه الزمرة من الشعراء فعدت أبحث فى كتب الأدب علّى أجد ما أروى به ظمئى فعثرت على شعر جيد مبعثر هنا وهناك كأبيات لأبى صخر الهذلى وأبيات لعبدة بن الطبيب وابن زريق البغدادى والوليد الأموى والأسدى صاحب القصيدة الرائعة :

نأت دار ليلى وشط المزار　　　فعيناك ما تطعمان الكرى

ثم ساعدنى الحظ فسافرت إلى إنكلترا لإتمام دراستى فشغفت بشعراء كثر : كشكسبير ، شلى ، كيتس ، بودلير ، بو ، موريس ، هود ملتون ، تنسون ، براونينغ ؛ وأحب الشعراء إلىّ اثنان : هما بو و بودلير ؛ اللذان صرفت الساعات الطوال فى مطالعة آثارهما ، فهما أشبه بلولب صور فى حانوت رسام ، كيفما حركته وجدت صوراً جديدة تختلف كل صورة عن أختها ، وفى كل منها رمز ينقلك من أفق إلى أفق فلا تشعر بملل ولا تحس بتعب »(١) .

على أنه بعد أن تنقل من أفق إلى أفق فى آفاق الشعر العربى والغربى قال :

---

(١) مجلة « الحديث » المجلد العاشر ج ١ ص ١٥٦ .

« إننى أخاف أن يأتى ذلك اليوم الذى لم تعد تحب فيه نفسى غير شعر الحياة الصامت » .

* * *

لقد شب عمر ، وسورية فى نضال دام مع الإفرنسيين ، والشرق فى ثورة لاهبة ضد المستعمرين فكان لذلك أثره فى نفسه ، فاتجه بشعره الوطنى إلى تصوير كفاح الأمة وكفاح الشعب السورى بصورة خاصة ، وكان له فى كل مناسبة قومية قصيدة لفتت إليه الأنظار.

ولم يكن الشعر القومى هو الذى ميّزه على الشعراء الشباب بل هذه الجدة التى يتميز بها شعره فى تصوير خلجات النفس ونبضات القلب ، فهو مصور بارع ، يضفى على الفكرة ثوباً جميلا من ألفاظ مختارة ذات أضواء وتلاوين ، وقد برع فى شعره الغزلى حتى كاد يبز صنوه عمر بن أبى ربيعة ، وما نشره من شعره الغزلى قليل قليل ، لا يكاد يتلمس جماله إلا الصفوة المختارة من أصدقائه الذين يحسون إحساسه العميق فى تذوق حلاوة الشعر .

يأخذ عليه بعض النقاد ضعف لغته وحاجتها إلى المتانة والصقل ويقولون إن له لغة خاصة به « ما يفتأ يكررها فى كل قصيدة ، وهو يصب ألفاظه فى قوالب لفظية تغلب على شعره وتطبعه بطابع خاص ، ونستطيع أن نرسم حدود لغته الشعرية ونحصى قوالبه اللفظيه ، ولغته ، وإن رفعها الخيال إلى سماء عالية ، تحتاج إلى متانة وصقل ، ومصدر هذا أن الشاعر لا يديم النظر فى دواوين الشعر وكتب الأدب القديمة ، ولو أنه درس اللغة على أساتذة فحول لاستطاع أن يكون أكثر إجادة فى الشعر الحديث بما أوتى من دقة الشعور وعمق الإحساس وقوة الخيال ، ويظهر أنه يرى نفسه غنياً عن مثل هذه الدراسة التى تقوّى لغته وتصقلها وتجعلها جزلة تؤاتيه بالألفاظ القوية »(١) .

وذهب ناقد مذهباً فيه الكثير من التجنى حين قال :

« إن كل قصيدة من قصائده تذكرنى بروعة الجمال الآسر فى « جاليتا » تمثال « بجماليون» . لقد أدرك بجماليون الفنان أن تمثاله الجميل تنقصه الحركة ،

---

(١) كتاب « الأدب » لنعيم الحموى وصبرى الأشتر ص ١٤٤ .

تنقصه الروح ، تنقصه الحياة ، ومن هنا راح يتوسل إلى الآلهة أن تحيل الرخام الصامت إلى كيان ناطق ، أو الجسد الهامد إلى حياة نابضة ، واستجابت الآلهة لبجماليون المثال ولكنها حتى الآن لم تستجب لأبى ريشة الشاعر . إن شعره يزخر بالجمال والخيال ، ولكنه يفتقر إلى الروح والعاطفة » [١] .

ونوقن أن الناقد حين أطلق هذا الرأى لم يطلع على كل ما كتبه عمر ولا سيما مسرحيته «سميراميس » التى تجلت فى فصولها قوة الشاعر وعمق تخيله ورهافة حسه وقدرته على عرض الماضى بصوره الحية وأسراره الغامضة ، ولا على تمثيليته « محكمة الشعراء » . وقد بلغ الأوج فى تصوير هواجس شعرائنا المعاصرين وما يؤخذ على كل شاعر من هنات ، وما تفيض به قلوبهم ونفوسهم من لمحات ونزوات . . فالواقع ، أن قصائد عمر أبو ريشة مفعمة بدقة الحس ، وقوة الخيال ، وروعة الفن « فقد أوتى صاحبها من قوة الخيال وبراعة التصوير ما جعله يبدل المرئيات ويقلبها إلى صور رمزية يفوح منها شذا الحب والحنين ، فكأنما الطبيعة عنده صور متحركة أو رمز سحرى لرؤى أحلامه العذبة ، فهو لا يرى فى الأشياء إلا نفسه ، ولا يجد فى حياة الأكوان إلا ما يجده فى نفسه من الفرح والحزن والرغبة والأمل والقلق والشك واليأس، لقد عرف نضارة الحياة وذاق حلاوتها ومرارتها ، ولكن بشفتيه لا بشفتى غيره ، وأدرك مصير البشرية وعرف بؤسها وشقاءها ولكن بشعوره وعاطفته لا بعقله ،الطبيعة بأسرها رمز لما يشعر به ، وهى صورة محسوسة للتعبير عما فى نفسه من الآمال والأحلام »[٢] .

من تآليفه مسرحية « ذى قار » ومسرحية « الطوفان » و « محكمة الشعراء » والأخيرتان لم تنشرا ، وقد نشر بعض فصولها فى مجلة « الحديث »[٣] . ونشر عام ١٩٤٨ ديوانه الذى ضم الكثير من قصائده القومية والوجدية بعنوان «شعر » ، ومن تصاميمه نظم ملاحم البطولة فى التاريخ العربى ، وهى ، كما أفضى إلىّ ،

---

(١) أنور المعداوى الناقد الأدبى لمجلة « الرسالة » العدد ٩١٥ السنة ١٩ ص ٨٧ .

(٢) الدكتور جميل صليبا « مجلة المجمع العلمى » المجلد ٢٣ جـ ٢ ص ٢٨٨ .

(٣) « الحديث » السنة ٨ العدد ٤ — ٨ .

فى اثنى عشر ألف بيت ، نظم بعض المواقع ثم توقف . . وإذا استطاع أن يكمل نظمها فسوف تكون أعظم ملحمة فى تاريخ العرب . ومن المسرحيات التى كتبها ولم ينشر منها سوى فصل واحد مسرحية « سميراميس » [١] .

هذا ، وقد قدر المجمع العلمى العربى موهبته الشعرية فانتخبه سنة ١٩٤٨ عضواً مراسلا ، وفى ٢١ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٥٠ عين وزيراً مفوضاً فى البرازيل ، ثم انتقل إلى الأرجنتين فالهند ، وكان قبل انتسابه للسلك السياسى مديراً لدار الكتب الوطنية بحلب ، وينتظره مستقبل لامع فى عالم الأدب بعد رحلاته إلى شتى أقطار الدنيا واطلاعه المستمر على نماذج آداب الأمم شرقيها وغربيها ، ولديه محصول كبير من الشعر الذاتى ما يزال غير مطبوع ، وهو يؤلف ثروة فى الأدب المعاصر .

ومن المسرحيات التى وضعها مسرحية عنوانها «تاج محل » ، وتاج محل ، هو أضخم بناء فى العالم ، بناه جيهان تخليداً لذكرى زوجته «ممتاز » فى الهند ، وموضوع المسرحية : الفن هو الذى يخلق الحياة ، فلا حياة بدون فن ! إنها كالجيفة !

والثانية « سميراميس » ملكة آشور وبابل : الأسطورة التى كونت منها جسد امرأة وروح إله ، تشعر كما تشعر كل امرأة دون أن يطمئن حسها العلوى شىء ، لأنها تحمل فى أعماقها الروح الإلهى الذى يحس دائماً هذا الظمأ الشديد إلى الملأ الأعلى ، وقد تزوجها القائد نينوى ، فكانت تمنحه كل شىء إلا روحها ، ففتح الهند ، وقهر الحيثيين ، وملك مصر وجلب لها تاج الفراعنة لإرضائها ، ولكنها ظلت فى شغل عنه وما زالت حتى قتلته لتتخلص منه ، وقد كان لهذا الحادث أثره السيئ فى نفوس الشعب وفى نفوس قادة الجند ؛ فتحمسوا لمليكهم وثار الشعب يريد أن ينتقم لمليكه من سميراميس ، وبالفعل لقد هجم على قصرها ولكنه ما كاد يصل إلى ردهة القصر حتى وقفت أمامه عريانة ! . .

بهت الشعب أمام هذا المنظر فسجد لها ووقف خائر القوى ، فلما رأت سميراميس أن شعبها قد وصل إلى هذه الدرجة الرفيعة من التحسس بالجمال

(١) « الحديث » السنة ١٨ (١٩٤٤) العدد ١٠ .

والإيمان به ، اقتنعت أنها أدّت رسالتها على الأرض . وأية خدمة أسمى من أن تدرّب الشعب الذى تحكمه على عبادة الجمال ، عندئذ انسحبت وارتفعت إلى الملأ الأعلى – إلى عالم الطيوف والأحلام .

على هذه الخطوط من الأسطورة قامت مسرحية «أبو ريشة» التى كتبها سنة ١٩٤٣ وانتهى منها سنة ١٩٥٨ بعد سبع عشرة سنة من العمل الفنى المتواصل. ويعتزّ بهذا الأثر الفنى الذى لم يقذف إلى المطبعة فيقول :

« مسرحية سميراميس مؤلفة من ١٤٠٠ بيت صببت فيها كل جوانحى .. أسلوب جديد فى العرض ، تفكير جديد وأجواء غريبة فى دنيا المسرحيات ، نظمتها ست مرات فى ١٧ سنة ! ومزقتها خمس مرات ، ثم استقرت على السادسة » .

ويقول : « هى شىء جديد فى دنيا الخلق » على كل فحكم النقاد عليها يكون بعد نشرها ، ويأمل الكثيرون ألا يطول سجنها أكثر من هذه السنوات الطويلة . وقد بدأها هكذا . .

سميراميس : عبيرك ياليل ، وهج الحياة ... فلا تتنفّس على مضجعى !
بعثت بآخر ما تمتمت ... شفاه الربيع على مسمعى
أحسّ به رعشة فى دمى ... وحلماً جريحاً على مدمعى
ألا أين بدعة حلمى إذا ... ترنحت بالقدح المترع
وأين الصدى لنداء الحنين ... إذا عربد القلب فى أضلعى
أريد .. ودونى انهيار الفتون ... على كل ذى هيف ممتع
حنانك : هيرام ! . .

هيرام : يا روعة ... الألوهة فى جسد ريّق
فداك الظماء ، لاتبقى السراب ... ولا ترتجى منه أن نستقى
فأنت نثرت الأمانى الحرار ... على مغرب الشمس والمشرق
أصيخى فكم زفرة فى الدجى ... تموت على خدرك المغلق !
خلقت إلى الأرض فامشى على ... أزاهرها مشية المشفق !
سميراميس : إلى الأرض؟ مدّى بساط الرضا ... على كبوات الهوى المطلق

وردّى خيالى كسيح الجناح ... يصفق فى أفق ضيّق
وهزّى إزارى ، فكم نجمة ... ترامت عليه ، ولم تعلق !
كفى لا تثيرى رؤى الشاطئ اللعوب ... على جبهة المفــرق
دعينى إلى وحدتى أنطوى ... على نبعة فىّ لم تدفق

(تفكر قليلا)

بل امضى إلى ندوتى وارجعى ... بعودى وكأسى والزنبق

(تخرج هيرام)

ويا ليل طف بالعبير القوى ... ومرّغ عليه هواى الشقى
فلن يمسح الفجر أجفانه ... وأنفاس خدّى على مرفقى !

(تعود هيرام)

أراكِ رجعت؟

هيرام : فراخ الندى ... عطاش إلى وردك الخير
فضضت نداء فى سمعها ... كأنى فضضت لها عبقر !!
فماجت على اسمك فى غمرة ... من الشوق والعبق المسكر
تسائلنى واختلاج الشفاه ... يردّ السؤال إلى مضمر !
فما حسبت أن تعيدى المنى ... دوافق فى عودها الأخضر

(يدخل الندمان)

إلخ . . إلخ

ومن شعره :

طَلل

مر بصرح رومانى قديم ، لا يستطيع غير الظن أن يتحدث عن ماضيه ، واسترعى انتباهه خلوه من الشوك وتألق ترابه النظيف . فقال فى نفسه : إن الموت يقف أمام ضحيته ، مجروح الكبرياء، لأنه لا يستطيع أن يفتك بها أكثر مما فتك :

قفى قدمى إن هذا المكان ... يغيب به المــرء عن حسه
رمال وأنقاض صرح هوت ... أعاليه تبحث عن أسه

أقلب طرفى به ذاهــلا وأسأل يومى عن أمســه
أكانت تسيل عليه الحياة وتغفو الجفــون على أنسه
وتشدو البلابل فى سعده وتجرى المقادير فى نحسه
حوافر خيل الزمان المشتّ تــكاد تحدث عن بؤسه
فما يرضع الشوك من صدره ولا ينعب البوم فى رأسه
وتلك العناكب مذعــورة تريد التفلت من حبسه
لقد تعبت منه كف الدمار وباتت تخاف أذى لمسه
هنا ينفض الوهم أشبــاحه وينتحــر الموت فى يأسه

سراب

رأى الشاعر فى الصحراء ماء يتموج من بعيد فقيل له إنه السراب ، فتأمله طويلا ، وأحس بالرمل الملتهب ظمأ تحت أشعة الشمس ينام ليحلم بالماء ، وما هذا الذى يسمونه سراباً إلا أطياف حلمه اللذيذ ، وكان الشاعر على حال عاطفية قلقة فوجد فى إحساسه هذا منفذاً له :

كم جئت أحمل من جراحات الهوى نجوى ، يرددها الضمير ترنما
سالت مع الأمل الشهى لترتمى فى مسمعيك : فما غمزت لها فما
فخنقتها فى خاطرى فتساقطت فى أدمعى فشربتها متلعثما
ورجعت أدراجى أصيد من المنى حلماً أنام بأفقه متوهما
أختاه قد أزف النوى فتنعمى بعدى ، فإن الحب لن يتكلما
لا تحسبينى سالياً أن تلمحى فى ناظرى ، هذا الذهول المبهما
إن تهتكى سر السراب وجدته حلم الرمال الهاجعات على الظما

الدكتور جميل سلطان

١٩٠٩

. . . من رجال التعليم فى دمشق ، عاش أنضر أيامه . بين الدرس والتدريس ، وكان ميله إلى الأدب أغلب . . فنظم الشعر وكتب المقال ، وكان لتطور الحياة الفكرية ، ولا سيما فى مصر ، أثرها فى نهجه الأدبى ، كما كان للأيام الدراسية التى قضاها فى باريس أثرها إلى حدٍّ ما ، فى تلوين ثقافته ، فقد ظلّ منجذباً إلى القديم أكثر من تجاوبه مع التيارات الحديثة فى الغرب . وسرّ ذلك أنه نشأ نشأة محافظة فى جوّ دينى حرص كل الحرص على التمسك بالخصائص التى امتاز بها السلف ، وقد أشار هو إلى ذلك بكلمة أرخ هذه النشأة بقوله :

« . . . نشأت فى بيئة عرفت بالجد والعلم والتقوى . فقد كان والدى فى غاية الصلاح . . ولقد تأثرت بهذه البيئة كل التأثر فسلكت فى طلب العلم سبيلا منظماً فى جميع مراحل التعليم . . . »

ويقول :

« . . . على أن الدراسة المنتظمة وحدها فى المدارس الرسمية لم تكن لترضى والدى ، رحمه الله ، فتخيّرلى من علماء دمشق مَنْ درست عليهم البيان والعروض ، ورسائل التوحيد والعقيدة ، وأحسبنى فى هذا حلقة تجمع بين الحديث والقديم »[١]

* * *

هذا الازدواج فى العبّ من الثقافتين جعلته يتابع التيارات الأدبية باهتمام ،

---

(١) فى رسالته الخاصة لى يقول بعد أن قطع مراحل التعليم من الابتدائى إلى الثانوى فالجامعة فى الحقوق ثم فى الآداب ألزم نفسه أن يختصر بعض السنين بتأثير ذلك الحزم فقطع فى سنة واحدة البكالوريا الثانية فى الفلسفة ، والسنة الأولى فى الحقوق ، وجمع فى سنة واحدة السنة الأخيرة من الحقوق مع السنة الأولى فى الآداب ، ثم تمرن فى المحاماة ونال شهادة الأستاذية ، ثم تهيأت له أسباب الدراسة فى باريز فنال شهادة الآداب — غير التى نالها فى دمشق — ثم أعقب ذلك بالدكتوراه من درجة مشرف جداً وأنهى مرحلة طلب العلم سنة ١٩٤٠ وعاد مدرساً للعربية وآدابها فى ثانويات دمشق وفى الكلية الشرعية .

والمدرسية منها بصورة خاصة ، فأنتج غير كتاب واحد عن سير القدماء من الشعراء والأدباء فمن دراسة عن «جرير إلى أخرى عن . صريع الغوانى »... إلى ثالث عن « أبى تمام » فالحطيئة والنابغة الذبيانى وعبد الله بن رواحة ، والموشحات ، إلى دراسة عن « حقوق الطفولة فى تشريع الأمم المتحدة والتشريع الإسلامى » و « لمح من أسرار لغتنا » ودراسة نهج البلاغة بالإفرنسية ، و « فن القصة والمقامة » و « تحقيق عن رسالة الشعر فى الإسلام » ومؤلفات بلاغية وأدبية تدرس فى البكالوريا ...

وقد أنتج هذا الإنتاج وهو فى عمله الرسمى فى وزارة التربية والتعليم– من التدريس فى الثانويات إلى الأعمال الإدارية فى الوزارة –كان آخرها توليه مديرية التعليم الابتدائى والريف سنة ١٩٥٦ وما زال إلى أن قدم استقالته سنة ١٩٦٦ بعد خدمة تجاوزت ثلاثين عاماً لينصرف ، كما يقول ، للعمل الأدبى . .

وكان أول عمل قام به أن أعاد النظر فى رسالته « فن القصة والمقامة » فصدرت الطبعة الثانية بعد أن أثبت بعض ما حذف من قبل ، وأضاف ما كان يجب أن يضاف . فكانت هذه الطبعة المزيدة المنقحة ، وهو فى سبيل إعادة النظر بالكثير مما كتبه وهو فى زحمة العمل الرسمى . . .

ويحرص الدكتورسلطان فى جميع ما يكتبه على نصاعة البيان إلى دقة التحقيق ليأتى العمل كاملا .

وهو أبعد ما يكون فى نهجه الأدبى عن الأدب الذى لا يكون ملتزماً وفى مجال الآراء التى تدور حول فكرة « الأدب للأدب أو الفن للفن » يقول :

« لى عند هذه الفكرة وقفة لأنى أعتقد أن الأدب المجرد من كل غاية ، المبرأ من كل التزام ، الذى لا يستهدف غرضاً ، ولا يعمل لخدمة الأمة والمجتمع ، إنما هو أدب تسلية ومتعة لا أدب تقويم وتوجيه » .

وفى مجال لغة القصة والمسرح يقول :

« . إن الأدباء اليوم أمام أفق جديد من الأدب يختلفون فى ” عامية “ لغته أو ” فصيحها “ وهو أفق القصة والمسرح ، وهما نوعان من الأدب يعالجان مشاكل اجتماعية أو نفسية أو وصفية ويتوخيان أهدافاً خاصة ، فإذا تبين هذا وجب أن

ننتبه إلى أن إيصالهما إلى النفوس يجب أن يكون عن طريق الأسلوب الذى لا تمجه الطباع ولا يثقل على القلوب ولا تتعب فى استيعابه الأفكار ، فكونهما أدباً — يستلزم الصحة فى اللغة وعدم الإسفاف إلى العامية . ولا أقول الإغراق والتفاصح فقد يكون هذا مما يتعب أذهان العامة ، وإذن فلا بدّ — فى رأيى — من أن يكون الحوار فصيحاً صحيحاً لا تكلف فيه ولا إغراق ولا تشدّق ولا تفاصح ، وهذا يكفل له أن يكون مقبولا عند الخاصة والعامة فى نطاق شامل . أما الحوار بالعامية المحلية فتمجه أذواق الخاصة . ولا يكفل له الشمول فى أقطار أخرى ، إذ كثيراً ما يلتبس المفهوم العامى فى بلد على سكان بلد أو قطر آخر .. وكذلك الشأن إن كان أسلوب الحوار متفاصماً مترفعاً ، فإن العامة تستثقله والشمول يكون فيه أضيق وتقل الفائدة المتوخاة من الحوار . . وسواء أكان هذا أم ذاك فإن كلتا الفئتين ما تزال محتاجة إلى دأب الأدباء ودراستهم ، وكثرة ممارستهم لأن كل فن أدبى يبدأ ضعيفاً ويقوى بكثرة الممارسة والتفرغ له ، وكذلك الشأن فى القصة السورية ، عالجها شيوخ فى مطالع أمرها ، ولعل قصة « أم القرى » للكواكبى أول محاولة لذلك ثم تفرغ لها طائفة من الشباب وممن اكتهلوا ، فإذا هى اليوم فى تقدم وازدهار . ولعل أكثر ما تنتج المطابع اليوم فى سورية ، من هذا النوع ، وفيه كل رائع جذاب .

وليست القصة السورية اليوم وقفاً على الرجال فإن فى الأديبات من كتبت فأبدعت . على أنى لا أزال أرجو أن تقوى لغة القصة كما قويت أخيلتها وعقدها ومفاجآتها وتحليلاتها . . ومثل هذا يقال فى المسرحيات العربية المبتكرة ..»

* * *

وفى نطاق المعارك القلمية التى قامت بين المجددين والمحافظين حول القديم والحديث يقول الدكتور سلطان :

« . . . أما المعركة بين القديم والحديث فى الشعر فهى قائمة على قدم وساق فى جميع دول المنطقة العربية وهى موجودة منذ القدم ، فمن عهد جرير والفرزدق فئتان فى النظر إلى القديم والجديد ، وعلى تراخى الأيام نجد الجديد قد صار قديماً حين يجىء جديد آخر . وعندى أن القصة قائمة من أساسها على الشكل والمضمون ، أو على المبنى والمعنى ، فالذين يعرفون عذوبة الأسلوب وحلاوة الكلم المصفى ،

وطلاوة العبارة المتينة لا تروقهم هلهلة الألفاظ والمبانى ، وركاكة الأسلوب ولو كان فيه أجمل المعانى. أما الذين يهتمون بالمضمون دون الشكل، وبالمعانى دون الألفاظ فأولئك فى يقينى الذين يعجزون عن رص الكلام ومتانة العبارة فيتسترون وراء المعانى ، ويهدرون جمال العبارات ، وإنما يقوم الأدب على ركنيه العظيمين: الأسلوب اللفظى والمعانى الرائعة ، ومتى انهار جانب من هذين لم يقم للبناء شأن كبير .

والذين يهاجمون الأدب الحديث من أرباب العبارة المتينة تنقصهم الثقافة الواسعة ، والاطلاع على مختلف الآفاق ، والذين يهاجمون الأدب القديم يعجزهم الأسلوب الرصين والعبارة الجيدة ، وفى ضوء هذين العاملين فى الأدب ترانى أكبر كل جديد من الآراء والاتجاهات والأفكار إن كان فى أسلوب جيد ، وترانى أكبر كل قديم من الأساليب والعبارات إن خلا من ترديد المعانى السالفة وجاء بأفكار جديدة ، كل ذلك فيما لا يخالف إرثنا الحضارى فى الخلق والتوجيه الكريم ».

* * *

من شعره :

من غرائب التجارب

عاشرتُ خلقاً كثيراً — وعلمتنى السنون

وشمت فى الناس ما قد — يكون أو لا يكون

فربّ عالٍ تعالى — عليه أحمق دونُ

وخائنٍ قيلَ عنه — هو القوى الأمينُ

ومخلص قاتلوه — لأنه لا يلين

وكم حصيف تولى — شؤونَه مأفون

وحادثات الليالى — يحار فيها الفطين

البعض يحيا حياة — أجلّ منها السكون

فها هنا الشرّ يطغى — وثَم خيرٌ دفين

وكم دهتنى أمور غريبة وشؤون
فلم أجد قط شيئاً فى الكون ليس يهون
كمعشر عقلاء يسوسهم مجنون

الطيف اللعوب

كنتَ طول الرقاد شغلى وأنسى أيها النافر المعذب نفسى
أمس جاذبتنى هدوء وسادى وتفننت فى هناءة حسّى
ثم وليت فى الصباح كأن لم يلك ما بيننا علاقة خلْس
فتنةٌ ما رأيت أعذب منها فى طيوفٍ أضأن ظلمة أمسى

* * *

أنت أسكرتنى بخمر ثنايا ك فأنى نضيع فى النور كأسى
أترانى أهوى الظلام وقلبى أبداً مولعٌ ببدر وشمس
لا تدعنى للطيف أمرح منه بلقاء من غير قرب ومسّ
واجعل الطيف فتنة تتهادى بين زندىّ مثلما شاء حدسى

نجوى

لا همّ أوشك أن أزلّ وأن أضلّ عن الرشاد
فاجعل سبيلى فى رضاك وقُدْ خطاى إلى السداد
لاهمّ حار اللبّ فى شُبَهٍ يطيش بها فؤادى
وأرى نهاية دربى المو صول معتكر السواد
فى كل مرحلة تقوم رغائب تورى زنادى
حتى أظن الدرب مأ مون الحوافى والبوادى
لكنهـا لمعٌ تفـرّ وما على الضلّات هادى
لا همّ إن نهاية الد رب المروّع للفساد
لا همّ إن القلب يفرَق من رغائبه الشداد
وإليك أمرى فاقض ما ترضاه لى يوم المعاد

زكى المحاسنى

١٩١١

أنبتت دمشق ، فى الفترة التى انقضت بين الحربين العالميتين — غير واحد من أدباء الشباب الذين وهبوا ذواتهم للحياة الأدبية بشتى نوازعها وتياراتها ، قديمها وحديثها . وما زالوا إلى أن ملكوا ناصية القول فأخذوا يكتبون المقال . وينظمون الشعر ، ويعالجون القصة ، ويؤلفون الكتب ، وإذا هم يتابعون نفس الخُطى التى سار عليها عمالقة الأدب الذين قادوا حركة البناء والتجديد فى حياتنا العقلية . . .

من هذه العصبة الطيبة زكى المحاسنى . . .

وقد عرفته منذ إصدارى مجلة « الحديث » عام ١٩٢٧ . . . فما هى سنوات حتى أخذ يوافيها بشعره ومقالاته ، وإذا هو صورة حية من الأديب المجدّ الذى جعل « الأدب » أجمل هواياته ، بل جعله شغله الشاغل ، فلا تمرّ دقيقة من وقته دون الإفادة من كتب الأدب ومما يكتبه أعلام الفكر ، يتابع الحركة الأدبية المتطورة باهتمام ، وقد عاش زهرة شباب وفجر كهولته يدرس ويدرّس ، وما يزال يدرّس ويكتب وينظم ويؤلف ، وأصبحنا لا نفتح مجلة إلاّ ونقرأ له مقالة أو قصيدة هما عصارة الدأب والدرس ، وصورة مشرقة من نفسه المنطوية على صور شتى من حياتنا الفكرية يغرف منها ويرسلها نفحات عبقة .

وقد أشار هو إلى صورة من مراحل حياته الأدبية التى مرّ بها هو وأنداده فى كتابه عن « أحمد أمين » فقال :

« . . . فكنا على الحداثة ومستهلّ الشباب نتصل بأدباء بلادنا وشعرائها الغابرين والمعاصرين ، ثم نتلفت إلى حركات التجديد والتطور التى كانت تتوالى على ضفاف النيل عنيفة صاخبة أو هادئة متزنة ، وكان من دأب صحافتنا العربية السورية أن تنقل للقراء والشباب المثقف والمتعلم صور هذه الحركات

وصدى ما تضمّنت من أفكار وآراء . فكان اسم الدكتور طه حسين يدوّى فى المسامع والمحافل لما أثارت بحوثه الثورية فى الأدب ، وفى الحياة السياسية والقومية ، ولم تمض الأعوام طوالاً حتى طلع اسم أحمد أمين العالم العربى والإسلامى بجديد مرتقب فى دراسة الحياة العقلية خلال العصور الأولى ، فشاقنى تتبّعى لهذين العلمين الخفاقين أن أقف على نتاج كل منهما ، وأنا فى بلدى وجامعتى أتدارس مع أترابى مقالات كانت تنشر لطه حسين وأحمد أمين فنتبين فيها ملامحهما وشخصية كل منهما بمقدار ما أوتينا من وعى وثقافة » (١) .

إنه يذكر هذه الفترة من أيام الحداثة والشباب وما تركته مصر وما تركه عمالقة أدبائها من أثر فى نفسه وفى نفس أنداده . . .

ونرجع قليلاً إلى الوراء . . .

فقد مرّت طفولته كما مرّ بها الكثيرون من أدباء دمشق :

ولد عام ١٩١١ فما كاد يتم دراسته الابتدائية والثانوية حتى انتسب إلى الجامعة السورية لدراسة الحقوق والآداب معًا . وحين ظفر بالليسانس أخذ يمارس التدريس فى تجهيز دمشق ويحاضر فى كلية الآداب ، وكان مشدوداً بكل جوارحه إلى الحياة الأدبية يتطلّع إلى ما هو أسمى فجعل الفوز بشهادة الدكتوراه بعض أمنياته ، فاغتنم فرصة وجوده فى القاهرة مراقبًا للبعثات فى السفارة السورية ، يرعى شئون الطلاب ، ويحلّ مشاكلهم و يوجههم التوجيه الذى ينمّى ثقافتهم ويعدّهم للمستقبل — اغتنم هذه الفرصة . فانتسب إلى جامعة القاهرة وأخذ يعدّ دراسة للحصول على الماجستير ، وكان موضوع الرسالة : « أبو العلاء : ناقد المجتمع » وبعد سنتين ، أى فى سنة ١٩٤٧ ، قدّم رسالة الدكتوراه عن « شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة الحمدانى » فظفر بالشهادتين .

وفى تقديم المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام لرسالة شعر الحرب أشار إلى نزعته فى التحقيق ، فقال : « وقد عكف فيها عكوف الباحث المخلص المتثبت ، الذى لا يقنع بما دون الغاية . ولا يسكن إلى الدعة ، ولا ينوء به النصب والدأب » .

---

(١) محاضرات عن أحمد أمين للدكتور زكى المحاسنى ص ٧ .

وأشار الأستاذ محمد عبد الغنى حسن إلى هذه النزعة بقوله : « وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف ، يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الأحكام ، فلا يجور أو يبتسر الأحكام ، أو يتابع فى الآراء على غير تحقيق ، ولكنه يقرأ ، ويحقق ، ويوازن ، ويزن ، ويحكم بعد اقتناع واعتقاد » .

* * *

وظلّ الأدب وكتابة المقال ونظم الشعر وتأليف الكتب ومتابعته الحركات الفكرية المتطورة شغله الشاغل كما قلت . . .

وقد أنتج خلال هذه الفترة من حياته الأدبية عدة كتب ، وهى ليست كل تآليفه ، بل تضم خزانته أكثر من كتاب واحد ، عدا شعره الذى لم ينتظم فى ديوان ، وعدا مقالاته ومحاضراته .

فمن المؤلفات المطبوعة :

١ ـ النواسى : شاعر من عبقر . دمشق ١٩٣٩ .

٢ ـ أبو العلاء : ناقد المجتمع . القاهرة ١٩٤٥ .

٣ ـ شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة .

٤ ـ المتنبى : القاهرة ١٩٥٦ والطبعة الثانية ١٩٦٢ .

٥ ـ دراسات تاريخية فى النهضة العربية المعاصرة مع الأستاذ شفيق غربال والدكتورين أحمد عزت عبد الكريم ومحمد بديع الشريف ، القاهرة ١٩٥٨ .

٦ ـ دراسة لحياة الشريف العقيلى وشعره ، ونشر مخطوط ديوانه وتحقيقه . القاهرة ١٩٥٨ .

٧ ـ ٩ ثلاثة كتب لصف الشهادة الثانوية بتكليف من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨ .

الأول : الأدب العربى الحديث .

الثانى : النقد والتراجم والبلاغة .

الثالث : القراءة للنصوص الأدبية الحديثة مع الدراسة والتحليل .

١٠ — أحمد أمين — محاضرات فى معهد الدراسات العليا سنة ١٩٦٣ .
١١ — نظرات فى أدبنا المعاصر. نشرته وزارة الثقافة فى القاهرة عام ١٩٦٢ .

* * *

ويجمع الدكتور المحاسنى بين فنى المنظوم والمنثور، ومجاله فى النثر، وفى الدراسات الأدبية أوسع وأرحب، وينفحنا من حين لآخر، بمقطوعات وقصائد من الشعر الوصفى والذاتى، يغلب على بعضها الصنعة أكثر من الطبع، ولا سيما حين يتصدّى لنظم أسطورة من أساطير الإغريق، أو حادث تاريخى موغل فى القدم، وقد شغل نفسه أخيراً بنظم صور من البطولات الإسلامية ذات أناشيد متتابعة يتجاوز كل نشيد الستين أو الثمانين بيتاً أطلق عليها « الملحمة العربية » وإذا أتيح له أن يصوغ هذه الملحة، ونرجو ذلك، يكون قد نفح العربية بعمل أدبى فذّ طالما ارتقبناه، ووقف الشعراء المعاصرون، وأستثنى الشاعرين أحمد محرم وبولس سلامة — وقفوا دون الولوج إلى بابه متهيبين !

وللأستاذ المحاسنى رأى فى الملحمة يلخص فيما يلى :

يقول : « عندى أن كل شعر طال أو قصر، وقد وصف فيه المعارك، وسردت فيه أخبار البطولة ورويت فيه ملاحمات الجلاد، هو من شعر الملاحم » .

ويقول : « إنى أعدّ الشعر الجاهلى الذى قاله أصحابه فى أيام العرب "ملحمة كبرى"، ولكنها مقطعة الأوصال قد اشترك فى وصفها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء، وكفى بحرب "داحس والغبراء" أن تكون ملحمة كبرى، إذ دامت أربعين عاماً بين عبس وذبيان » .

وضرب مثلاً من الشعر الأندلسى فقال :

« . . . لقد حاول الأندلسيون صنع الملحمة على طريقة الشاعر الإغريقى هوميروس صاحب الإلياذة محاولة موفقة . وكانت تجاربهم هذه الأولى فى شعر الملحمة تحتوى تاريخ العرب فى الأندلس وحوادث ملوكهم ومنازعهم مع الإسبان، وقد سجلوا فيها فتوحهم للبلدان الإسبانية، والغريب أن بعض هذه القصائد المطولة كان يبدأ بالكلام على خلق العالم . ثم يتدرج فى الخليقة حتى يصل إلى العصر

الأندلسى الذى فيه الملك المبجل . إذ تنتهى القصيدة إلى عصر الشاعر الذى نظمها ، ولم يسمها أحد منهم « ملحمة » وإنما كانت عندهم أراجيز مطولة . وبذلك ركبوا الأرجوزة فخلصتهم من القصيدة ذات الروى الواحد ، إذ كانت أراجيزهم الملحمية كل بيت بقافية تخالف الثانية » .

واعتبر الأرجوزة الكبرى التى نظمها ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » فى عبد الرحمن الناصر والتى وصف فيها مواقف بطولته وحروبه والتى جاءت فى قرابة خمسمائة وخمسين بيتاً — اعتبرها ملحمة . كما اعتبر منظومة أبى طالب عبد الجار أحد شعراء الأندلس الذى عرض إلى التنازع بين ملوك الطوائف (١) هذا التنازع الذى سبب اندحار الأمة العربية — اعتبرها من الملاحم (٢) .

وهو تخريج قد لا يقره عليه نقاد الأدب ، وهو يعلم أن الملحمة عمل قصصى له قواعد وأصول يشاد فيه بذكر الأبطال والملوك وآلهة الوثنيين . ويتألف من أناشيد عديدة نظمت فى وصف حرب من الحروب ، ووصف جيوشها وأبطالها والأمكنة التى دارت فيها ، تشترك الآلهة فى وقائعها وتقوم على الخوارق والأساطير . وقد تكون شعراً كالإلياذة عند الإغريق والشاهنامه عند الفرس . وقد تكون نثراً كسيرة عنترة .

وما أظن أرجوزة من بضع مئات من الأبيات ، مهما كان لونها ، تعد من الملاحم !

من شعره :

دنيانا

سعدت لأنى جئت فى هذه الدنى   كأنى عرفت العمر من قبل أن أحيا
ألم أك فى طى التراب غذاءه   فأصلى فى نسل تقادم فى الهلكى

---

(١) « الأدب والقومية » محاضرة للدكتور المحاسنى نشرت فى الجزء الخامس من محاضرات الموسم الثقافى التى تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد بدمشق ص ١٤٥ — ١٤٧ .

(٢) وقد اختارها هو من شعره .

سلكت سبيلى فى الهواء مرقرقًا ... وفى عاصف منه تعسّف واستعلى
وفى الماء فى أوج الغيوم وربما ... بمستنقع أوردْتُ كدْرَتَه الحرى
فما انعكس الخيام فى بَرْحِ خاطرى ... يوسوس فى فكرى بحيرته السكرى
ولا كان لى عند المعرّى وسيلة ... لألبس فيها الزهد لُبْسَتَه الكبرى
تنسمت فى الدنيا نسيم معيشتى ... كنبت نما يبغى الحياة ولو يشقى
أرى أمنا الأرضَ التى جاد بطنها ... بمولودها عادت لتشملَه أحنى
ألم يكفنا أنا ندور بجوها ... مدى العام كالأطيار فى الأفق الأعلى
تطل علينا فى الليالى نجومها ... غوامزَ بالألحاظ فى دلّها الأحلى
أكانت رعابيبًا فصارت كواكبًا ... قناديلَ فى الأفلاك تلمع فى المَمْسى
وفى الشمس سِر الكون ضاعت على الحجى ... مفاتيحه لا تلتمسْ عنده جدْوى
إذا رحت تبغى كنهه متوغلاً ... بمعناه لم تَرْشُدْ وأحرقك المغنى
وردتُ الدّنى كالضيف ملءُ تحيتى ... سلامٌ لأهاليها الأحبّةِ فى اللقيا
إذا قيل أعدائى فأينَ عداوتى ... تنازلتُ عنها لا أريد لها بقيا
ألَمْلِمُ أكنافَ الصّداقات إنها ... بلاسمُ للجرح الذى أبداً يَدْوى
إذا فرّ غيرى من أليم وجدتنى ... ألازمه حتى أجنّبهُ السلْوى
فمن حقنا فى العيش بؤسٌ ونعمة ... ومن دأبنا أن نستطيب وأن نأسى
وما قيمة اللذات إنْ لم يكن لها ... كؤوسٌ من الأحزان نملؤها نجْوى
وفى الحبّ غصّاتٌ على غمراتها ... رغائبُ يوليها الفؤادُ لمن يهوى

* * *

تقبّلْتُ دنيا لا بجبْر ولا رضى ... أعيش بها لا أبتغى عندها شكْوى

فؤاد الشايب

١٩١١

قروى النشأة ، صقلته دمشق فكان من أبرز شبابها المفكرين .

ولد فى معلولا إحدى قرى القلمون ، ولم يكد يحسّ بنبض الحياة و يأخذ حظه من مبادئ التعليم حتّى انتقل إلى دمشق يتابع دراسته الثانوية . . .

وفى الجوّ المدرسى بدأت مواهبه تشعّ . فلم يشأ أن يظلّ محدود الأفق فانتسب إلى كلية الحقوق فى دمشق .

وكان الأدب العربى أحد مقومات ثقافته فحفظ الكثير من الشعر القديم ومن شعر كبار الشعراء المعاصرين : شوقى وحافظ والمطران والرصافى والزهاوى .

وعكف على تلاوة ما كتبه أئمة البلاغة وأساطين البيان . . .

و إذ أخذ زملاؤه طريقهم إلى الغرب لمتابعة دراساتهم الجامعية ، سافر هو أيضًا إلى باريس يعب من معاهدها الثقافية و يتزوّد من اللغة الإفرنسية فمكث مدة سنتين « ١٩٣٢ — ١٩٣٤ » رجع بعدها وقد اعتنق الكثير من المبادئ الحرة والنظريات الاشتراكية . . .

وحين رجع إلى دمشق كان الصراع على أشدّه بين التيارات القومية ممثلة بالكتلة الوطنية و بين الانتداب الإفرنسى .

وكان لا بدّ له أن يسير مع الشباب فى نزعاتهم الوطنية .

و إذ كان محصوله الثقافى قد أخذ يتبلور فى التعبير عن آرائه بدأ يكتب فى الصحف والمجلات — كتب المقال الأدبى والمقال السياسى .

كما كتب القصة حتّى اعتبر من أوائل الشباب الذين عالجوها بمضمونها القومى والاجتماعى . وسرعان ما اجتذبته الصحافة إلى رحابها فبدأ يترجم عن الصحف الإفرنسية ، و يعلّق على الأحداث السياسية ولا سيما ذات الاتصال الوثيق بالقضية الوطنية وظلّ يحرر فى جريدتى « فتى العرب » ، و « الاستقلال » من سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٣٩ ، كما كتب فى جريدة « النداء » البيروتية التى

كان يصدرها كاظم الصلح — وهى جريدة كبرى كانت تعبر عن الأهداف العربية وعن القومية العربية بصدق وإخلاص .

وقد ارتاح للعمل فى جريدة « فتى العرب » لصاحبها المرحوم معروف الأرناؤوط الذى كان يضفى على مقالاته السياسية ظلال الأدب بأسلوب رومانطيقى ويشترط على محررى جريدته أن يعنوا بالأسلوب .

وإذ كان فؤاد الشايب لم يتأثر بأسلوب مؤلف « سيد قريش » إلا أن اهتمامه بالشئون الأدبية وحرصه على رونق الأسلوب جعلت الشايب يعنى بأسلوبه ، فكانت مقالاته ، المترجم منها والموضوعة ، لا تنأى عن صفاء الأسلوب وجمال الديباجة . . .

هذا . وقد زودته الصحافة السياسية بالكثير من الخصائص فخلقت فى « ذاته » المناعة ليواجه الأحداث بروح رياضية ، إلى قلب لا يعرف الحقد حتى لمناوئيه !

* * *

وحين صدرت مجلة « الطليعة » التى أسسها ميشيل عفلق وكامل عياد وسليم خياطه لتكون لسان حال المثقفين الاشتراكيين كان الشايب معهم بين المؤسسين ، وقد كتب فيها كثيراً . ثم وقع خلاف بين المؤسسين أنفسهم ، فقد أرادها بعضهم أن تكون صحيفة حرة للثقافة العامة . وأرادها البعض أن تكون « صوت الشيوعيين » فى عاصمة الأمويين . فانفصل ميشيل عفلق والشايب عنهم ، وبقيت لسان حال الشيوعيين .

وما كاد يطلّ عام ١٩٣٩ على أحداث الحرب العالمية الثانية وتتأزم الأمور فى سورية حيث لم يعد أى مجال للعمل الصحفى — حتى سافر إلى العراق للتدريس فمكث هناك قرابة سنتين يدرّس الأدب العربى فى ثانويات العراق . وتولى إلى جانب التدريس رياسة تحرير جريدة «البلاد» بعد أن فرّ صاحبها رفائيل بطى إثر ثورة رشيد عالى الكيلانى سنة ١٩٤١ .

وحين عاد إلى سورية سنة ١٩٤٢ التحق بوظائف الدولة فشغل رياسة قلم المطبوعات وظلّ يشغل هذا المنصب من سنة ١٩٤٣ حتى عام سنة ١٩٥٨ ،

وكان يتنقل من المطبوعات إلى مديرية الأنباء ، إلى الإذاعة . وكثيراً ما واجهته الأعباء المرهقة والأزمات العصيبة فكان يتحمّلها بصبر وجلد و برجولة باسمة — رجولة الأديب العفّ اللسان ، الواثق من نفسه ، المؤمن بقداسة العمل .

وفى عهد الوحدة بين مصر وسورية انتدب للقاهرة بوظيفة مدير عام فى ملاك رياسة الجمهورية وظلّ فى هذا المنصب حتى عهد الانفصال فى ٢٨ أيلول سنة ١٩٦١ .

وعاد بعد الوحدة إلى دمشق فشغل وظيفة مدير الإرشاد القومى وقد نيط به رياسة تحرير مجلة « المعرفة » التى تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومى باعتباره أحد موظفيها . . .

وقد كان إنتاجه الأدبى خلال هذه الفترات ، محدوداً غير متكافئ مع ما ينبض به فؤاده من أحاسيس وما يرتسم فى ذهنه من آراء وأفكار ، وسبب ذلك طغيان عمله الرسمى على نزعاته الأدبية ، ولو انصرف انصرافاً كليًّا إلى عالم الأدب لكان إنتاجه أغزر وأكثر قيمة . . . ومع ذلك فقد استطاع أن يجارى التيارات الأدبية فى شتى المجالات ، ولا سيما مشاركته فى المؤتمرات — ومؤتمرات أدباء العرب بصورة خاصة . . .

وكلماته ومحاضراته . فى هذه المؤتمرات ، ذات أهداف قومية لا تنأى عن الإنسانية التى هى بعض عناصر الحضارة العربية .

وليس بين أيدينا من إنتاجه الأدبى سوى :

١ — « تاريخ جرح » وهى مجموعة قصصية صدرت عن دار المكشوف فى بيروت سنة ١٩٤٤ تضمّ عشر قصص ومسرحية حوارية واحدة ، وهى مولوده الوحيد فى عالم القصة ، وهو يحب هذا المولود و يعتزّ بذكره و يقول : « وكم يحب الآباء ولدهم الوحيد ولو كان مشوهاً » والقصص مستمدة من واقع المجتمع والحياة ولا سيما فى الفترات التى عاش فى ظلالها وقد أشار إلى هذا بقوله : « هذه صور ما كنت أرجو لها الظهور مجتمعة فى كتاب ، فهى وليدة ظروف زمنية وأحوال نفسية لا تجمعها جامعة ولا تربطها قرابة ، إن أكثرها جرى فى روعى ، وحياتى ، وتحت قلمى بين أعوام ١٩٣٠ و ١٩٤٠ وليس إلاّ " العانس "

و "ربيع يتضور" و "المعركة" من نتاج الأعوام الثلاثة الأخيرة (١٩٤٠ — ١٩٤٣) » ، ومن هذه القصص كلها ، قديماً وحديثا ، ما كتب مرتين ، حقبتين متباعدتين . كأن تمرّ الحادثة أو الفكرة فى باريس مثلاً سنة ١٩٣٣ فتضرب حامية على الفور ثم تضرب مرة ثانية سنة ١٩٣٧ . . . وهكذا . . . ويقول : « إنى لم أجترح أية محاولة فى "اصطناع فن" فيها وإنما هى من عمل الساعات التى يشعر فيها المرء بالحاجة القصوى إلى إرضاء نفسه فحسب . . . وما أشقّ سخرة إرضاء النفس ! . . . » .

وقد لخص الأستاذ شاكر مصطفى قصصه فى كتابه « محاضرات عن القصة فى سورية حتى الحرب العالمية الثانية » . ثم علّق عليها بقوله :

« ويعدّ الشائب بين الكتّاب الواقعيين ، فصوره وأحداثه . وثيقة الصلة بالواقع الحى وبردود الفعل الإنسانية المحتملة ولكن يظل بين " واقعيته " وبين " التعبير عن الجوّ المحلى" مسافة بعيدة ، إنه يكتب تحت عنوان "قبل المدفع" إنها "قصة دمشقية" ولكن لا نحسّ — برغم واقعيتها — بنكهة دمشق فيها ، ويمكن أن يكون حميدان صاحبها بغداديًّا أو قاهريًّا دون أن يجد نفسه غريباً هنا أو هناك . و " جموح القطيع " برغم الاسم العربى للزعيم قد تجرى فى الأوراغواى أو طهران على السواء ، وبطلة " ملاك الموت " تتصرف كأى امرأة فى الناس ، يمزقها خوف الموت على زوجها وابنها فى وقت معًا . و " العانس" هى عانس كل زمان ومكان . . . إن فكر الشائب مغترب ولهذا ظلّ بينه وبين التحسس المباشر بوسطه المحلى ، سواء فى القرية أم فى دمشق — بعض الحجاب . والواقعية التى تنعكس فى قصصه هى الواقعية الفكرية . لا واقع الأرض والأهل ، هى واقع العقل لا الواقع الحى المعاش »[١] .

ويقول الأستاذ شاكر مصطفى :

« إن اسم فؤاد الشائب ، ما يزال إلى اليوم [٢] يذكر فى مقدمة الأدباء وأصحاب القصة ، برغم صمته منذ أربع عشرة سنة على الأقل ، وبرغم أنه

---

(١) الصفحة ٣٤١ من الكتاب .

(٢) أى إلى سنة ١٩٥٨ .

لم ينتج من القصص حين أنتج ، إلاّ العدد القليل ، ولو قسمنا قصصه على سنوات إنتاجه لما أصاب كل سنة قصة وحدة . ومع ذلك فيرى أنه كان من أبرز من وضع القصة فى سورية على الصراط الفنى الصحيح . ومن أعطاها شكلها الذى يجب أن تأخذه . كنوع أدبى راق . كان قد تمثل بعمق روح التجربة القصصية . فاستطاع بتمكنه من عناصر الخلق الفنى ، أن يفرغ تلك التجربة فى القالب الفني . فجاءت القصة لديه متحررة من كل ماضيها القديم فى سورية — نوعاً أدبيًّا جديداً . . .

وكانت قصصه خطوة كبرى فى تطور المفهوم القصصى فى سورية »[١] .

هذا . وقد حاول أن يكتب الرواية الطويلة . وكانت « سيرة نفس » مادة لهذه الرواية التى نشر بعض فصولها فى « الحديث » سنة ١٩٤١ . ولكن المحاولة فشلت بسبب أعماله الرسمية المرهقة . ولعلّ هذه الرواية هى التى حملها فيما بعد اسم « أوراق موظف » وهى « انتقام من واقعه ، وثورة على الجدب الذى اجتاحه فى سنوات الصمت الأربع عشرة ، هى قصة عبودية "الكرسى" ورتابته القاتلة . . . يريد أن يفرغ فيها الشايب أكثر تجاربه مرارة ، لم تخدعه كتابة الخطب الرسمية والمحاضرات المفروضة والأحاديث الإذاعية العاجلة — عن واقعه . . . فهو يحاول أن ينتزع صورة هذا الواقع الجديب ليصفع به جدبه وينتصر عليه . . . ولكنه لا يزال إلى الآن مكسوراً . . . مغلوباً على أمره . . . وعلى وقته وقلمه »[٢] .

* * *

هذا . وقد نشر النادى العربى فى دمشق محاضراته القومية والثقافية فى كتيب . كما نشرت فى القاهرة مجموعة من محاضراته وأحاديثه القومية .

ومن كتبه غير المطبوعة :

١ — كتاب عن « تاريخ الحريات » نشر بعض فصوله فى المجلات الفكرية وأكثرها فى مجلة « الحديث » .

---

(١) نفس المصدر ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٥ .

٢ – « التحولات الجديدة فى النطاق الرأسمالى والاشتراكى » . وهو دراسات نشرت تباعًا فى مجلة « المعرفة » الدمشقية . وستصدر فى كتاب .

٣ – ثمة عدة مقالات ودراسات وقصص نشرت فى مجلات ثقافية مختلفة، وهى محصول فترة الشباب وبداية الكهولة – لو انتظمت فى كتاب لأعطتنا صورة واضحة عن أدبه الذى كتبه فى زحمة الأعمال الحكومية .

ولو انصرف ، كما قلت ، إلى العمل الأدبى ، ولم تتقاذفه التيارات التى تفرضها قيود الوظيفة وعنت السياسات المتقلبة – لأعطى الفكر العربى الكثير من النفحات والكثير من الدراسات التى تتسم بروح منطلقة وفكر مبدع خلاّق .

عبد الله يوركى حلاق

١٩١١

أديب سلس الأسلوب ، وشاعر تثيره المناسبات الاجتماعية والقومية والإخوانية فيصورها بشعر دافق وعاطفة جياشة ، وله قطع غنائية غاية فى العذوبة ، ولا سيما حين يصف مفاتن الطبيعة وجمال الحسان .

وللغة الضاد فى نفس صاحب « الضاد »[1] الأثر الأكبر فى تكوين ذوقه الأدبى :

سأبذل فى سبيل الضاد جهدى لتسمو الضاد بالأدب الرفيع
فحب الضاد ينمو فى فؤادى نمو الزهر فى فصل الربيع

* * *

أنا صبّ تيّمتنى لغــةٌ صانها القرآن أسنى الكتب

* * *

ولى لغة أعلى الكتاب مقامها فسارت مسير النور شرقاً ومغربا
بها نزل القرآن هدياً ورحمة فردّ غليظ الأصغرين مهذبا
وإن كلام الله آيات حكمه فرحى لأمى وعاه ليكتبا

وقد زاول الأستاذ حلاق تعليم العربية مدة طويلة فى المدارس الأجنبية ، وبالرغم من مشاغله والأعباء التى تثقل كاهله فهو يتابع إصدار مجلته التى تعنى بالحياة الاجتماعية عنايتها بشئون الأدب ، وبالأدب المهجرى بصورة خاصة . . .

* * *

صدر له ديوان « خيوط الغمام » سنة ١٩٤٢ ، وأتبعه سنة ١٩٦٦ بديوان ثان أطلق عليه اسم « حصاد الذكريات » جمع فيه قصائده التى نظمها فى عدة

---

(١) صدرت مجلة « الضاد » منذ نيف وثلاثين سنة وما تزال ، أصدرها فى حلب سنة ١٩٢٩ الأستاذ يوسف شلحت ، ثم تخلى عنها للأستاذ حلاق .

مناسبات ، وفى أغراض مختلفة .. فمن أماديح لأصدقاء إلى رثاء لأعزاء إلى إشادة بأمجاد وبطولات . إلى وصف للطبيعة ، إلى التغنى بجمال الحسناوات .

وقد خصّ مدينة حلب وما امتازت به طبيعتها وخيراتها ومجتمعاتها بالكثير من شعره .

وكتب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن مقدمة مسهبة للديوان أشار فيها إلى نبرات شعره وما امتاز به من رقة وجزالة ، وحين أشار إلى لوثة الشعر الجيد ومدرسة الديباجة والصياغة قال :

. . ومتى كانت الديباجة المشرقة ، والصياغة الأنيقة المونقة عيباً فى الشعر ، أو نقصاً فى الشاعر ، إلا فى زمان احتفل الناس فيه بالركاكة ، وانشغلوا بالتفاهة ، وهبطوا إلى درك العجز عن التعبير . .

« إننا نقرأ فى الشعر الذى يسمونه جديداً أو " مجدداً " كلاماً مرصوصاً على غير طريقة ، مخطوطاً على غير خطة ، لا تجد له النفس طعماً سائغاً ، ولا معنى واضحاً ، ولا بيتاً يؤثر ، ولا شطرة تحفظ ، ولا مثلا يسير ، كأنه ولد ليكون ميتاً ، أو قذف به من بطن قائله ليكون موءوداً . ولو أنك تساءلت : بأى ذنب قتل هذا الموءود ، لجاءك الجواب حاضراً بأنه قتل بيد صاحبه !

« فلا مرحباً بشعر لا ندرى إذا كان نظماً أو نثراً ، ولا يُعرف — على سبيل اليقين — إذا كان غناء نفس ، أم هذيان حس .

ومرحباً — وألف مرحب — بشعر تقرأه فتجده سوىّ الطبع ، مستقيم البناء ، شريف المعنى ، وضىء العبارة ، دفاق الشعور » .

ثم أشار إلى المدرسة التى تجمعه بالشاعر فقال :

« .. هى المدرسة التى لا أرضى فى الشعر عنها بديلا وهى المدرسة التى وصلت ما بين ماضى الشعر العربى وحاضره ، لأنها تأخذ أروع ما فى القديم ، وأصح ما فى الحديث وأعقله وأرصنه ، وتخرج من ذلك شعراً لا هو بالقديم المقلد ، ولا هو بالجديد المتهور ، ولكنه مزاج معتدل ، فيه الفكر الجديد بطرافته ، وفيه الطبع القديم بعراقته » .

وبهذه الكلمة عبّر أصدق تعبير عن نهج الأستاذ حلاق فى منظوماته ومقطوعاته .

وفيما يلى نماذج من شعره :

أسعد الله صباحك

أسعد الله صباحك أيها الطير الجميل
هاتِ أسمعنى صداحك سئمت نفسى العويل

* * *

غنِّ فى الوادى الأغنّ غنّ فالشعر غناء
واجلُ غيمَ الغيم عنى ثم حلّق فى السماء
واحمل الأشواق منى لـــرفاقى الشعراء
إن فى قيثار فنى كل أنغام الوفاء

* * *

واركب الحظ رياحك فاسلك الدرب الطويل
واجعل الأنداء راحك والشذا والسلسبيل

* * *

وتنقل فى الأعــالى واسترح بين الغصون
لا تسلنى كيف حالى لا تسلنى مَنْ أكون
لم أعد غير خيالٍ يتهــادى فى الظنون
ضعت فى درب الجمالَ وكثير ضـــائعون

* * *

غسل الزهر جناحك بندى الفجر البليل
وشفى العطفُ جراحك وجراحـــاتى تسيل

* * *

ليت لى هذا المكان ليت لى هذا الجناح
لأغنى فى الجنـــان وعلى متن الرياح

من زمان من زمانٍ كل آمالى جراح
فاسقنى ذوب الحنانً واشف قلبى بالصداح

* * *

آه ما أحلى مراحلكْ فوق أشجار النخيل
نسجَ الحسنُ وشاحك من سنى شمس الأصيل

* * *

ليتنى مثل الطيور هائم بين الشجر
تتصبَّانى الزهور ويناجينى القمر
غنِّ لا تخشى النسور فهى ليست كالبشر
غنِّ فالعمر سطور سوف يمحوها القدر

* * *

أسعد الله صباحك أيها الطير الجميل
إن فى الشدو ارتياحك فاشدُ لا عاش البخيل

أخ عربى

أسرجى مُهرى وهاتى علمى إنه يزهو بخضر الأنجم
بثلاث قطفت من أوجها وثوت فى شملنا الملتئم
كل قُطر عربى وطنى رغم ما يفصلنا من تُخم
كل حر وحدوى مُخلص هو من روحى وإن لم يعلم
لا تسل عن أرضه فهو أخٌ عربى دمه مثل دمى

فجر الخلاص

ذوِّبى السحر واسكبيه نشيداً أذن الخلد تشتهى التجديدا
واغزلى النور والزهور خيوطاً وانسجيها للمصلحين برودا

* * *

صاح هذى مواكبُ العرب عادت   من جديد تشيد عهداً جديدا
وتعيد التاريخ تاريخ قومى   وثبة حرة وعزًّا وطيدا
جمعتنا الأحداث فى زحمة الخطب   أباةً يكسّرون القيودا
ويسيرون للأمام قلاعاً   من حديد يحطمون السدودا
َعربٌ نحن ما خفضنا جناحاً   لقوى ولا نكثنا عهودا
قم نعانق آمالنا الغرّ إنا   قد خفقنا على الزمان بنودا
وطلعنا على البطولات فجراً   ذهبي الرؤى ونصراً مجيدا
وانبجسنا من المروءات نبعاً   من خلال يفيض عدلا وجودا
وعقدنا على الإخاء الأيادى   وضممنا إلى الطريف التليدا
واضطجعنا على زنود الثريا   ونسجنا من النجوم برودا
وخلقنا أعزة وأباة   لم نصادق ولم نحالف عبيدا
وحملنا على الأكف قلوباً   لم تخف فى الوغى لظًى وحديدا

* * *

يا أخا العرب قمْ معى. قم نحرّر   من تعضّ القيودُ منه الزنودا
أنت حر وفى الشكاية ذلّ   قم نناضل فقد سئمنا القعودا
فى عمان وفى الجنوب أباةٌ   ناهضوا الظلم والظلوم العنيدا
وتحدّوا كل العداة وألقوا   فى قلوب الطغاة ذعراً شديدا
لا تسلنى وسل إذا شئت بحراً   صار للبغى والبغاة لحودا
فى غدٍ نلتقى فيافجرُ أشرق   إن فجر الخلاص ليس بعيدا
لن يظلَّ المستعمرون بأرض   تنجبُ العربَ أنمراً وأسودا
كل من سار فى ركاب الضحايا   ُعدّ فى موكب الخلودِ شهيدا

ثغر

ثغــرٌ بحجم الفستقه   سبحــانَ ربّ نســقه
هو برعم متفتــقٌ   أو وردة مغرورقه

ضحكاتُه ألحان طير في الشفاه مزقزقه
قبّلتهُ فإذا الشفاه على الشفاه معلقه
ورشفت خمرة ريقه مسكية ومعتقـــه
فنأيت عن أفق الجمود وعن حدود ضيقه
وقضيت في ملكوته لحظات حب شيقه

* * *

وقد اشرأبّ معربدا ن إلى العيون المحدقه
في رأس كل منهما كرةٌ بقدّ البندقه

سامى الدهان

١٩١٢

أنبتته مدينة حلب فدرس فى مدارسها وشغف منذ حداثته بالأدب فحفظ الكثير من الشعر العربى ، قديمه وحديثه . وما كاد يعى « ذاته » حتى أخذ ينقل عن الأدب الإفرنسى مقطوعات من هوغو ولامارتين وبورجيه ، وأصدر ، وهو يدرّس ، كتابين فى « قواعد الإملاء » و « أصول التدريس الحديث » . وكان منذ عهد تلمذته ، شعلة ذكاء ونشاط ، إلى طموح وانطلاق . . .

وإذ رأى زملاءه يتجهون إلى الغرب لمتابعة دراساتهم الجامعية لحق بهم ؛ وكان قد علق بأبى فراس الحمدانى ، فجعل « شعره وحياته » مادة أطروحته ، وأخذ ، بعد أن وصل باريس وبعد أن اتصل ببعض المستشرقين من أساتذة السربون ، أخذ ينتقل من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى آخر ، يبحث عن مخطوطات للديوان الذى كانت طبعاته المتداولة مشوّهة ، ومصحّفة ، ومليئة بالأغاليط والأخطاء ، وقد ظفر ، خلال سفراته وبحثه ، بنيف وأربعين نسخة مخطوطة أخذ يقابلها وينخل الزيف منها ويعيد اضطرابها وتصحيفها وأغلاطها إلى أصلها الصحيح . . . حتى إذا فرغ من عمله المضنى — وكان ذلك أولى تجاربه فى نشر المخطوطات — تقدّم إلى أساتذته فمنحوه شهادة الدكتوراه فى الأدب تقديراً لجهوده وبحثه . وما كاد يظفر بهذا اللقب العلمى ، وهو فى طراوة العمر ، حتى عاد إلى بلدته معتزًّا فخوراً . . . ولكنه لم يلبث فيها طويلاً . . . إذ سرعان ما ضاق بحلب ، عقيدة منه أن « بنت الدار عوراء » كما يقول المثل ، وأن نجمه ، وهو ذو موهبة وطموح ، لن يسطع إذا ظلّ فى بيئته ومحيطه . فانتقل إلى دمشق حيث مجال العمل أوسع ، وحيث « المعهد الإفرنسى » الذى وثق صلته به وأخذ يعمل تحت إشراف رجالاته الذين غمروه بعطفهم وعنايتهم . وحققوا له . بعد أن نشروا أطروحته ، الكثير من طموحه ورغباته . . .

وقد كان نشر الديوان — بالرغم من اعترافه بعدم خلوه من العيوب والسقطات —

كان بداية شهرته في الأوساط الأدبية التي قابلت عمله بالترحيب[١]، وقد أثار هذا التقدير في نفسه لذة البحث عن كنوزنا المدفونة فانجذب إليها بشوق ولا سيما ما له صلة بتراث حلب القديم . . .

* * *

وبعد أبي فراس اهتم بابن العديم فنشر ثلاثة أجزاء من تاريخه « زبدة الحلب من تاريخ حلب » . وهو عمل أخذ من وقته وجهده الكثير الكثير ، ولا سيما وتاريخ ابن العديم لا يقتصر على مدينة حلب بل على تاريخ سورية أو بلاد الشام في الكثير من أجزائها وملحقاتها ، وهو مرجع ثبت للكثير من الأحداث ، « أدرك الغربيون خطره ؛ فأخذ منه المستشرقون فصولاً معينة حين أرادوا أن يظهروا تاريخ الشام في عهد الأمويين والعباسيين والحمدانيين ، وترجموا منه فصولاً في المرداسيين والصليبيين ، حين رأوا أنه على اختصاره وإيجازه ، أوسع مصدر في تاريخ الشام ، وأجمع تاريخ لحوادث الدول التي تعاقبت فيه »[٢] .

وقد خدم الأستاذ الدهان الدراسات التاريخية المتعلقة بتاريخ الشام أجلّ خدمة . ولكي يبرهن على ارتباطه بمدينته التي هجرها أهدى الكتاب إلى « أرواح العباقرة من حلب الشهباء : تحية البنوّة وتحية الوفاء » . وأكّد هذا ، في نهاية المقدمة الممتعة التي بلغت ثمانين صفحة وتناولت حياة ابن العديم وأسرته وعلمه وأدبه وآثاره ومؤلفاته وتاريخه ، والتي ختمها بقوله :

« وما نريد من وراء هذا العمل إلا خدمة الوطن واللغة والتاريخ فنؤدي زكاة

---

(١) يقول في التوطئة : « . . لا أدعي أني أقدم الديوان كاملا مضبوطاً خالصاً من كل شين أو نقيصة فقد كنت أعود أحياناً من مقابلة المخطوطات بوجه صحيح تقر به نفسي وتفرح ، وأعود أحياناً وملء قلبي حسرة وأسف . لهذا فأنا أول المؤمنين بسقطاته وعيوبه وأخطائه ، فالنسخ كلها على كثرتها مشوهة مصحفة متأخرة ، ليس من السهل استخراج صورة صحيحة كاملة منها . ولعل أخطاءها تظهر للقارئ في هذه الحلة الجديدة ، بعد الضبط والطبع ، فإذا وقع هذا ، فأكبر سعادتي أن أعرف وجه الصحة فأفرح لها كما كنت أفرح لاكتشاف مخطوطة جديدة أو رواية جديدة ، فالناقد الصادق خير صديق للمؤلف الناشر » .

(٢) مقدمة الناشر ص ١١

العلم ، ونردّ إلى حلب فضل ما أهدت حلب إلينا . ونقوم لها بما وجب علينا»[١] .

* * *

واستمرّ فى هذه الطريق الحلوة الشائكة يبحث عن المخطوطات النفيسة ، فى الشرق وفى الغرب . فنشر أكثر من كتاب ورسالة مما يتصل بتاريخنا وثقافتنا وميراثنا الروحى كلها محققة أوفى تحقيق . ومفهرسة أدق فهرسة . مع مقدمات وافية تتسم بروح البحث . إلى طباعة غاية فى جمال الشكل . فنشر بعد ديوان أبى فراس و « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » لابن العديم ، ونشر « الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة » لابن شدّاد . وهو مخطوط نفيس « يضمّ بين دفتيه جغرافية البلاد ، ووصف دروبها ومسالكها . ورسم المدن والقرى والكور والجبال ، إلى تاريخ الأحداث التى تقلبت على هذه الربوع ، وما أصابها من انتصار وانكسار . فهو تاريخ وجغرافيا . وهو أدب وفن . يصور أرضنا العزيزة خلال سبعة قرون . يجمع فيه دور العلم والعبادة . والنسك والزهد ، إلى أبواب المدن وأسوارها . ومنابع الأنهار وفروعها ، فى تأليف طريف ، لا تفوته الدقة والإحكام . ولا ينقصه الوضوح والترتيب . كأنه دليل لهذه البلاد ، تقلّب صفحاته . فتعجب للماضى كيف يتقلّب . وللتاريخ كيف يلعب ، وللأمم كيف تتطوّر . فهو من أجمل تراثنا ، وأطيب كتبنا . وأمتع أسفارنا .

ألفه ابن شدّاد[٢] . وهو كاتب منشئ بليغ . وسفير وزير سياسى ، شارك فى الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية . فتقدم إلى مليكه . وإلى الشعب العربى بوصف وطنه وربوعه المحبوبة . فكان أوسع ما كتب العرب فى الموضوع وأجمع ما تركوا فى هذا الباب »[٣] .

* * *

(١) نفس المصدر ص ٧٩ .

(٢) وابن شداد عز الدين هذا غير ابن شداد بهاء الدين الذى عاش فى كنف صلاح الدين الأيوبى وألف فيه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » . وكلاهما مؤرخان حلبيان ، عاش عز الدين بعد خمسين سنة من بهاء الدين . وفى كنف الظاهر بيبرس وقد ولد بحلب سنة ٦١٣ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٦٨٤ هـ أما بهاء الدين ابن شداد فقد ولد بحلب سنة ٥٣٩ هـ وتوفى بها سنة ٦٣٢ هـ .

(٣) مقدمة الناشر ص ١٠ .

ولم يقف عمل الأستاذ الدهان فى حدود المخطوطات بل كتب وألف عدة رسائل وكتب : منها ماله صلة بالسِّيَر والتراجم ، ومنها ماله صلة بفنون الأدب .

فمن الكتب التى نشرها :

١ — ديوان أبي فراس الحمدانى ، ثلاثة أجزاء .

٢ — زبدة الحَلَب من تاريخ حلب لابن العديم فى ثلاثة أجزاء .

٣ — الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد ، جزءان . أحدهما فى تاريخ مدينة دمشق ، وثانيهما تاريخ لبنان والأردن وفلسطين .

٤ — ديوان الوأواء الدمشقى .

٥ — شرح ديوان صريع الغوانى .

٦ — التحف والهدايا للخالديين .

٧ — الذيل على طبقات الحنابلة لابن أحمد بن رجب البغدادى بالاشتراك مع المستشرق الإفرنسى هنرى لاوست مدير المعهد الإفرنسى بدمشق .

٨ — رسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ ، لأحمد بن فضلان بن راشد بن حمَّاد .

٩ — فى السياسة لأبي القاسم الحسين بن على المغربى .

اثنان من أدباء سورية هويا العمل فى المخطوطات وهما فى فجر الشباب : صلاح المنجد الذى انجذب إلى كل ماله صلة بتاريخ دمشق ، وسامى الدهان الذى انجذب إلى كل ماله صلة بتاريخ حلب .

ولعلّ هذه الهواية التى حفزتهما إلى نشر بعض مخطوطاتنا نشراً علمياً هى التى حفزت محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى إلى ضمهما إلى أسرة المجمع ، فكانا أصغر أديبين سوريين ظفرا بهذه العضوية . . .

ويمتاز سامى الدهان ، كزميله اللدود ! — إن صحّ هذا التعبير — بالدأب على العمل المضنى الشاق ، إلى حيوية مفرطة كادت تهدّ من صحته .

* * *

ومن تأليفه :

١ — الشعر الحديث فى الإقليم السورى : سلسلة محاضرات ألقيت فى معهد الدراسات العربية العالية بمصر .

٢ — الأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره : سلسلة محاضرات ألقيت فى معهد الدراسات العربية العالية بمصر .

٣ — محمد كرد على .

٤ — عبد الرحمن الكواكبى فى سلسلة « اقرأ » . حياته وآثاره .

٥ — شاعر الشعب .

٦ — كتب مدرسية فى الفن الغنائى « تناولت : الغزل ، الوصف ، المديح ، الهجاء . حافظ إبراهيم فى سلسلة « اقرأ » .

٧ — قدماء ومعاصرون . . .

وكان خلال هذه الفترات يتابع الدراسات الأدبية ويتجاوب مع الحركات الفكرية ، يكتب ويدرّس ، يحضر المؤتمرات ويلقى المحاضرات . يعيش فترات مع القديم بين طلاسم الخطوط واضطراب النصوص ، وأخرى مع أعلام المعاصرين يقرأ لهم ويفيد من أدبهم ومناهجهم . وما يزال يجمع بين الارتباط بتراثنا القديم والتجاوب مع الفكر الحديث دون إفراط أو تفريط . ودون أن يفقد توازنه فى المزاوجة بين النزعتين .

وأسلوبه جزل يفيض بالحركة التى تميزت بها حياته . ولغته قوية السبك يزينها الوضوح والإشراق . . .

وإلى نهجه الدراسى كمحاضر فى كلية آداب دمشق انجذب إلى الصحافة فترة من الزمن ، جرّت عليه الكثير من المتاعب ثم عاد إلى جوّه الدراسى فسافر إلى المغرب حيث حاضر فى كلية آداب الرباط . ولم يلبث طويلا . كما انتدب للتدريس فى كلية آداب عمان . ويعيش الآن فى جوّ الكتب ، يقرأ ويدوّن فى عزلة عن المجتمع .

وفى خزانته أكثر من كتاب مخطوط محقق . إلى عدة تآليف لما تنشر بعد ، وقد تأخذ طريقها إلى المطبعة قريبًا .

أنور العطار

١٩١٣

شاعر رومانطيقي ، جزل الأسلوب ، أحب جمال الطبيعة فاندمج بروائعها ، وغناها أعذب الشعر . وهو طويل النَّفَس ، يعنى بالكلمة عنايته بالفكرة . . . وقد تطغى عنايته بسحر الكلمة على جمال الفكرة ، لذلك جاء شعره موسيقي الإيقاع .

وللمدن أثرها فى نفسه ، فدمشق — موطن الشاعر — هى ائتلاق الربيع ، وإشراقة الفجر ، وكتاب البقاء ، ومطاف الجلال ، فى تربها مسك الخلود ، وفى جوها عطر الشمم :

دمشق أنت مأوى للحسـن والفنون
عشت الدهور نجوى للشـاعر المفتون

وغوطة دمشق :

عالَمٌ من نضارة واخضرار فاتن الوشى عبقرى الإطار
ضم دنيا من البشاشة والبشـ ـر وما تشتهى من الأوطار
وحقـول بالزهر مؤتلقات من أقاح ونرجس وبهـار
وثمار كأنهـا عبق الخلد عذاب أحبب بها من ثمار
وصبـايا من الغراس ندايا قد نمتها عجائز الأشجـار
معبـد للجمال أبدعه السحـ ـر ووشَّته قدرة الأقـدار

وكما وصف غوطة دمشق وبرداها ، خريفها وربيعها . بساتينها وحقولها ، أزهارها وأثمارها ، جداولها وينابيعها ، ماضيها وحاضرها . وصف جبال لبنان ووهاده ، أرزه وصنوبره ، قممه وأوديته ، سماءه وبحره ، فتياته وحسناواته :

غاب لبنان فى رقيق من الغيم كما غاب فى مدى اليمّ زورق
ضفر الثلج والسحائب تاجاً واختفى فى الضباب ثم تعلّق
والروابى توسـدت راحة السحـ ـب ونامت على وشاح مرقق

والقرى غلغلت بأخبيـــة الغيـ ـب وضاعت بين الغمام المنمق
إيه لبنان يا نشيـــد الأناشيـ ـد ويا صورة النعيم المحقق

وفى طريقه إلى بغداد حيث انتدب للتعليم فى مدارسها وصف الصحراء وصفاً يريك الكثير من صور وحشتها المربدة القاتمة :

دارة للعواصف الهوج تلهو فى حماها الخطوب والأهوال
تتلظى الرمضاء فى ساحتيها ولها فى دم الشموس اغتسال
تتدجى الدنيـــا وتصطخب الأر ض وترعى فيها الشجون الثقال
وهى غلفاء ما يعاودها الرعـ ـب وليست تروعها الأوحال
لا تنال النكباء من عزمها الثبـ ـت وليست تروعها الأوحال
جثمت فى فضاء ربِّىَ شما ء وتاهت كأنهـــا الرئبـــال

ولبغداد ، وليلها الرهيب المهيب . . . ولدجلة . . . ونهرها العظيم . . . وللبصرة – بندقية العرب – لقد كان لهذه الأماكن والبلدان التى عاش فترات من حياته فى ظلالها الأثر العميق فى نفسه . . . وهكذا . فلا يكاد ينزل الشاعر مدينة من المدن حتى يندمج بحياتها – بماضيها وحاضرها ، وإذا بالشعر يفيض فى قلبه فيكتب تأملاته . . . وهى أنغام وتسابيح . آلام وآمال ، هجسات ونبضات ، نغمات وحسرات . . . وحين تقرأ هذه الأنغام والتسابيح تقرأ ألواناً من الأدب الرومانطيقى الذى تقوم مادته على الحس والنغم ، وربما كان للشعراء الحسيين من عرب وإفرنج ، من العباس بن الأحنف إلى لامارتين . . . ومن الصنوبرى إلى دى موسيه أثرهم فى شعره .

كما أن للأسلوب المشرق ذى الإيقاع الموسيقى ، واللفظ الأنيق المنغم، أثرهما فى أدبه .

وقد أحب أنور العطار اثنين من الأدباء المعاصرين رأى فى نثرهما صوراً حية من الشاعرية فاحتذاهما ونهج نهجهما – أريد بهما معروف الأرناءوط صاحب « سيد قريش » وأحمد حسن الزيات مترجم آلام فرتر وصاحب « الرسالة » . . .

فى شعره نفحات من أسلوب هذين الأديبين العظيمين .

وصف معروف الأرناءوط شعره بقوله : أنور العطار ، هو ، كما يقول ألفريد دى موسيه ، شاعر الحياة التى نعرفها فى الآلام والمسرات ، فى الحظوظ اللامعة والحظوظ الكابية ، بل هو ، كما يقول لورد بيرون ، قيثارة بعض أوتارها للغناء ، وبعضها للبكاء .

ويقول عن شعره : « هذه القطع الفريدة من الشعر قبس أنور العطار ألوانها وأصبغتها من إحساس رقيق يجيش فى روحه ، فإذا هى تطلع على الناس بالألوان والشذا كما يطلع الربيع بألوانه وعطوره » .

وهو اليوم فى كهولته الناضجة . وقد قضى شطراً طويلا من حياة الشباب فى التدريس .

فحين أتم دراسته الثانوية فى مدارس دمشق مارس التعليم . ويحدثنا الأستاذ على الطنطاوى وهو زميله فى الدراسة — عن نشأته بقوله :

« . . . وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى عند ما أبصرت أنور العطار أول مرة أبصرت تلميذاً رقيق العود ، دقيق الملامح ، أنيق المظهر من غير أن يبدو عليه أثر الغنى ، شارد النظرات ، يمرّ فى ظلال الجدران ، خفيف الوطء ، حالم الخطى كأنه طيف يمر على خيال نائم ، يعتزل التلاميذ ، يثب وثبهم ، ولا يلعب لعبهم ، فسألت عنه من يعرفه فقال : "هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار" » .

وحين أنهى دراسته الثانوية عيّن مديراً لمدرسة « منين » الابتدائية ثم انتقل إلى التعليم فى مدارس دمشق . . . ثم فى مدارس بغداد . . . وكانت أيام بغداد أجدى الأيام على أنور ، ففيها اختزن فى نفسه أجمل الصور ، وفيها نظم أروع القصائد ، وفيها ابتدأ فى حياة الشاعر عهد جديد هو عهد الشعر القومى ، شعر الحماسة الوطنية ، فازدادت بذلك هذه القيثارة السحرية وتراً جديداً خرجت منه أطيب النغمات (١) . . .

وحين عاد من بغداد زاول التدريس فى مدارس دمشق وما يزال .

وظل الأدب هوايته المفضلة .

---

(١) مقدمة ديوانه « ظلال الأيام » لعلى الطنطاوى .

والشعر أثيره الذى استبد بكل جارحة من جوارحه ، وأكثر شعره ، إلى هذه النفحات التى تعبر عن خوالجه النفسية ، تصوير لجمال الطبيعة ، وللبطولة العربية فى أسمى معانيها .

وهو « بحترى » الأسلوب فى الكثير من شعره الذى يضفى عليه نفحات تنبع من أعماق نفسه . صدر له عام ١٩٤٨ ديوان « ظلال الأيام » ضم قصائد فى الوصف والتأمل والمناجاة والبطولات .

وله عدة دواوين لم تطبع وهى :

« البواكير » ، « أشواق » ، « منعطف النهر » ، « الليل المسحور » ، « وادى الأحلام » .

وله كتاب « الوصف والتزويق عند البحترى » ، « أسرة الغزل فى العصر الأموى » ، إلى بعض كتب مدرسية .

وله أيضاً دراسة كاملة لنثر أحمد شوقى ولكتابه « أسواق الذهب » مذيلة بمجموعة من نثره لما تطبع بعد . . . إلى دراسة شاملة عن خير الدين الزركلى .

وقد وصف أحمد حسن الزيات أدبه بقوله :

« وأدب العطار مثل صادق للأدب السورى الحديث ، وأكثر الصفات البلاغية انطباقاً عليه الجزالة والسلاسة والوضوح ، فلم يخف خفة الأدب فى مصر ولم يمع ميعة الأدب فى لبنان ، وإنما ظل محافظاً كأهله يسفر ولا يغيم ، ويجدد ولا يشتط ، ويستقيم ولا ينحرف » . . .

ومن شعره :

بنيتى

بنيتى عصفورة شاديه ... تلعب فى عش الصبا لاهيه
بنيتى لحن رقيق سرت ... فى مهجتى أفراحه صافيه

* * *

يهفو إليها القلب من وجده ... فتنتشى أحلامه الماضيه
بنيتى شعر تغنت به ... روحى فى عزلتها الساجيه

بنيّتى وحى تلقيتـــه   من نفحة عطــرية ساريه
من عبق الزهر سقاه الندى   خمــرته العــلوية الشــافيه
ومن نشيد النبع فى حقله   ومن صلاة الغــابة الخاشيه
ومن صفاء الجدول المنتشى   ومن رؤى الأمسية الحاليــه
من عودة القطعــان مسحورة   تصغى إلى شبابة الراعيــه
والدرب فى ســكرته حــالم   يسبح فى الأنشــودة الشاكيه
والقــرية السجواء فى ضمنها   مطلــة من شــوقها رانيــه

* * *

بنيّتى أمنيّتى فى الدنــا   ومأملى والبغيــة الغــاليه
سريرها يهتز فى أضلعى   تنــام فى أعطافه هانيــه
أيامهــا مشــرقة بالمنى   ضــاحكة بالبشــر والعــافيه

* * *

بنيّتى طيــف تعلقتــه   من صغرى والفينــة النائيــه
صورة أمى سربت فى دمى   وانبثقت من طفلتى باديه
بغامهــا رشــوش فى مسمعى   وطاف فى مهجتى الصابيــه
إذا تطلعت إلى وجههــا   رأيت أمى مــرة ثانيــه

الربيع

يا حبيبى أفق فقد ضحك الرو   ض وأبدى جماله المحجوبا
واستعاد الوادى الأنيس سناه   وبنى الطير عشــه المخروبا
طرب القلب فانتشى وتغنى   ومن الحب أن أعيش طروبا
وأنا الشاعر الذى يغمر الأر   واح ضحكًا وما يريم كئيبا
فى فؤادى اللهيف داء قد استع   صى وجرح يمضى تعــذيبا

* * *

ومنها :

يا حبيبي أفق فها ذاك طير الـ حب قد أسكر الربا تطريبا
تتراءى له السموات ألحـــا ظاً وتبدو الأرض الفضاء قلوبا
يا حبيبي طاب الهوى فاغتنمه لست عن جرحه الندى غريبا
لك من هذه الدغال أليف يتصباك مؤنســاً ورقيبــا
غنّ فى مسمعى نشيداً رقيقاً واسر فى مهجتى شعاعاً رطيبا
ودع الحب يأتلق فى خيالى أفقاً ساحراً وكوناً رحيبــا
اطعن القلب ينفجر بالأغاريـ ـد ويملأ هذا الفضاء طيــوبا
لا تضمده يذك شوقاً وشجواً واترك نـــاره تشب شـــبوبا
أوقد الحب بالمدامع تنهـــل وبالوجـــد صـــارخاً ومهيبا
لا تخف أن يضج بالحب مأوى واخش إما أحسست منه نضوبا
صاغه الله للعذاب وللحب م وأحياه بالدمـــاء خضيبا

* * *

ورياض فيها العشاش تغنى فيذوب الغناء خمراً صبيبا
إن هذا الجمال يا قلب نهب فابتدر نخطف السنا المنهوبا
انحَ للنور . للمسرة . للشد و . وخلّ الأسى وخلّ النحيبا

وداد سكاكيني
١٩١٥

لبنانية المولد[١] .

فنى لبنان نشأت وتعلّمت . ثم مارست التعليم فاجتذبتها كتب الأدب وأخذت تطالعها بنهم وشوق . وسرعان ما أخذت تعبر عن خوالجها بمقالات ترسلها إلى الصحف والمجلات — تلك المقالات التى جُمعت فى كتابها «الخطرات» وهو باكورة إنتاجها الأدبى .

وكانت المرأة فى لبنان قد سبقت أختها فى سورية . فمارست التعليم وأصدرت المجلات الأدبية ، وشاركت فى المؤتمرات النسائية — وكان لذلك أثره فى اتجاه « وداد » وتكوينها الثقافى .

وظلّ الأدب هوايتها المفضلة . ولعلّ هذه الهواية هى التى جمعت بينها وبين الأستاذ زكى المحاسنى فى زواج قام على الألفة والمحبة — ومحبة الأدب بصورة خاصة . . .

ومن بيروت انتقلت إلى دمشق . . .

وسار الزوجان فى طريق متقاربة . . . هو فى التدريس والدراسة . وهى فى البيت والكتابة . . . وإلى عنايتها ببيتها وبتربية أولادها وإعدادهم للحياة كانت مطالعة كتب الأدب ومتابعة الحركة الأدبية المتطورة هى التى احتلّت المكان الأوفى من نفسها . . .

وازداد هذا الهوى بعد أن انتقلت مع زوجها إلى مصر حيث مكثا أحد عشر عامًا أتيح لها أن تتصل بأدبائها وأعلام مفكريها . وأن تحضر الندوات والمؤتمرات وأن تكتب القصص والروايات فنال المجتمع العربى بشتى صوره ومختلف ألوانه الكثير من اهتمامها فوصفته ووصفت مفارقاته ومظاهر حياته بنزعة الأديب وروح القاصّ .

(١) لم تفصح لى فى رسالتها عن العام الذى ولدت فيه ، وهذا ما تتحاشاه أكثر النساء ، على أنها ذكرت أنها ولدت فى ملحمة الحرب العالمية الأولى — ١٩١٤

نلمس هذا واضحًا فى الكتب والقصص التى أصدرتها . وبالرغم من استجابتها لنزعات التطور فى الأدب الحديث ظلَّتْ مشدودة إلى الأدب القديم تعبّ من روائعه وتستلهم صوره . وهذا الذى أضفى على ديباجتها النصاعة وعلى أسلوبها القوة والإشراق .

وتكاد تكون الأديبة الدمشقية الأولى التى تقف إلى جانب أديبات مصر الجامعيات . ولو واتتها الظروف للدراسة الجامعية لما قلَّت عن المبرزات منهن — عن الدكتورة سهير القلماوى والدكتورة بنت الشاطئ « عائشة عبد الرحمن » — وعن غيرهن ممن أخذن يزيّن الحياة الأدبية بالكتب القيمة والدراسات المنهجية .

ولم تقصّر فى مضمار التأليف وإن كان أكثره نتاج مقالات وقصص . . . فقد صدر لها حتى عام ١٩٦٧ الكتب الآتية :

١ — مرايا الناس .
٢ — أمهات المؤمنين .
٣ — بين النيل والنخيل .
٤ — أروى بنت الخطوب .
٥ — الحب المحرم .
٦ — إنصاف المرأة .
٧ — سواد فى بياض .
٨ — الستار المرفوع .
٩ — العاشقة المتصوفة .
١٠ — نفوس تتكلم .
١١ — شهيرات من الشرق والغرب . . . بالاشتراك مع السيدة تماضر توفيق .
١٢ — نقاط على الحروف .
١٣ — قاسم أمين .
١٤ — مىّ — فى حياتها وآثارها ، تحت الطبع .

ففى « مرايا الناس » وهو أول مجموعة قصصية لها استوحت صور أبطالها

من ملامح المجتمع الدمشقى وعاداته وتقاليده . ضمّ عدة قصص غاية فى الروعة والتحليل النفسى كقصة « هاجر العانس » و « أبو تراب » و « الضرّتين » و « الشيخ حمدى » وهى القصة الّتى فازت بمسابقة مجلة « المكشوف » البيروتية عام ١٩٣٨ .

وكتاب « أمهات المؤمنين » يروى سيرة أربع عشرة واحدة فى طليعتهن : أم الزهراء ، وأم الحسين ، وأم المؤمنين وغيرهن من المبرزات فى الفضائل والمكرمات .

وهى فى رسم هذه الصور تقدم للفتاة العربية نماذج حية من بطولات جداتهن اللواتى كن رمز الحب والوفاء والكرامة ، ورمز البطولة والتضحية والاستشهاد .

وكتاب « بين النيل والنخيل » يروى صورة من أيامها فى مصر . وقد ألمعت فى المقدمة إلى العوامل الّتى دفعتها لتأليف هذا الكتاب فقالت :

« . . . لقد عرفت مصر بتاريخها الضخم المحجّل . عليها مطارف المجد من أزمانها الّتى عزّت بالآثار ، ونحتت خلودها فى الأحجار . وتشوّفْتُ بالخيال إلى مباسمها الباقية على الأيام : بنيلها ونخيلها . بأهرامها ومعالمها . حتّى جئت الكنانة فى عزة بالعروبة وشرف الزعامة . فقرّت عيناى بمباهجها ومغانيها ، وانطبع فى الفؤاد وجهها الأغر . رحين طال مقامى بها وإلمامى بأهلها . تمرست بخصائصها ومعايشها . وعرفت ريفها وصعيدها ففتنتنى طبيعتها وخلبتنى معاهدها » .

إلى أن قالت :

« وكان الأدب صدى النفس وصورة الحس . فاهتز القلم ولا طاقة لى بكبت مرامه ، وماج الشعور فما استطعت أن أصرفه عن السطور لأتخفّف مما زحم نظرى كل يوم ووقع عليه إحساسى ، فإذا مصر دواتى ، واليراعة أداتى ، ومن فاته الرسم بالألوان . كفاه التصوير بالبيان . وقديمًا قيل الحياة قصة ، فصولها لا تنفد ، وقد توافر فيها المواليد وتعاور عليها التقليد والتجديد ، فلا علىّ

إذا قصصت عن مصر فى حياتها التى تحياها كل يوم . وجلوت صوراً منها قد انطبعت فى خيالى وتمثّلت لعينى وذهنى .. . وما أحب إلى النظارة أن يشهدوا الرواية الراهنة فإنهم يرون فى ملاعبهم شخوصهم ويكادون يسمعون رجع أقوالها وتمثيلها فى قرارة نفوسهم »[١] .

ثم مضت . بهذا الأسلوب الذى يستمدّ قوته من الواقع تصف حياة مصر فى شتى صورها : ترف الأغنياء وبؤس الفقراء . ومن الزار إلى القمار ، إلى بركة « السيدة » إلى « مصابيح رمضان » إلى « شم النسيم » إلى « فيلسوف بولاق » إلى الكثير من الصور التى تريك مصر فى ماضيها وحاضرها ، فى جدها وهزلها ، فى بؤسها ونعيمها. وفى شتى أنماط حياتها .

ومن كتبها التى دافعت فيها دفاعاً حارًّا عن بنات جنسها كتاب « إنصاف المرأة » وقد أرادت أن تنصفها من تهجّم بعض الأدباء الذين قسوا عليها بدون رحمة . ونالوها بالهزء والسخرية وبالظلم والتجريح . . .

والكتاب مجموعة مقالات كتبت فى أوقات متفاوتة عن « أدب النسوة » و « سحر المرأة » و « أعداء المرأة » و « فتش عن الرجل » وقد أخذت على العقاد والمازنى ومحمد كرد على وتوفيق الحكيم وزكى مبارك زرايتهم بمواهب المرأة ، وهزأت أكثر بالدكتور زكى مبارك حين كتب مرة يقول : « كان أبوه يجرّب متانة حذائه الجديد برأس زوجته . وأن المرأة لا يليق بها إلاّ العنف والازدراء »! . كما أخذت على كرد على قوله : « إن المرأة لم تنبغ ولم تبدع فى علم أو أدب ، ولا تحسن أمراً ولو كان من خصائصها الطبيعية كالزينة والطهى والخياطة ! » .

وتتابعت كتبها فصدر لها كتاب « سواد فى بياض » و « الستار المرفوع » و « العاشقة المتصوفة » . . . وهو دراسة عن رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى التى اعتبرتها النجم الذى طلع فى سماء البصرة آخر القرن الأول للهجرة ، فتسلّل نوره إلى المجالس والبيوت ، وسطع فيها كالثريات ، وبقى مرموق الضياء حتى هوى فى أعقاب العصر الثانى للهجرة ، متحولاً إلى أحدوثة لا تنسى ، خلدتها العصور ،

---

(١) من مقدمة الكتاب ص ٣ — ٤ .

ولهجت بها الألسنة ، وتداولتها بالذكر والتأليف طائفة من الباحثين فى القديم والحديث . . .

وما تزال فى صميم الحياة الأدبية تكتب قصصًا ومقالات . ويتّسم بعضها بالنقد الذاتى ، وهى إلى الإنصاف أقرب منها إلى التجريح مهما ثارت عاطفتها . وقصصها ذات ألوان وطوابع سورية تارة ، ومصرية تارة أخرى . وذلك نتاج الحياة التى عاشتها فى لبنان وسورية ومصر ، وقد صدقت السيدة أمينة السعيد حين وصفت وداد بقولها :

« حين يرد ذكر وداد يعتبرها كل شعب عربى واحدة منه . فاللبنانيون يعتزون بمنبتها . والسوريون يتمسكون بتوطنها وجنسيتها . والمصريون يرون فى إنتاجها أصدق صورة للعقلية الأدبية المصرية . والحقيقة أنهم جميعاً مصيبون ، فى وداد نفحة من لبنان ، وعمق من سورية ، وحساسية من مصر . . . وهى إذ تكتب تحملك على أجنحة الأدب إلى آفاق هذه المجموعة من الصفات الثمينة التى أكسبتها توسعًا فنيًّا ملموسًا . وطعّمت إنتاجها الفكرى بشتى عناصر الأدب العربى » .

هذا ، ولا يزال إنتاجها خصبًا يتميّز بالروح العربية والنزعة الإنسانية والنقد الذاتى .

عدنان مردم بك

١٩١٧

من شعراء دمشق ، ورث عن أبيه الأستاذ خليل مردم بك الكثير من خصائصه فنشأ وفى نفسه حب الأدب منذ الصغر . . .

تعلّق بالشعر وما زال يلوكه حتّى أصبح من شعراء الشباب المرموقين .

انتسب إلى القضاء بعد أن أتمّ دراسته . وظلّ نظم الشعر أجمل هواياته المحببة .

يرقب ظواهر الحياة وأحداث المجتمع بمزاج شاعرى ، حتّى إذا أثارته أخذ ينظم تجاربها بواقعية ممزوجة بخيال منمّق ، وما يزال حتّى يعطينا قصيدة مسبوكة أحسن سبك ، فيها ظلال ، وفيها تأملات ، وفيها جهد أى جهد . . .

ونهجه فى شعره الجمع بين النزعتين اللتين تتصارعان فى هذه الفترة من حياتنا الأدبية — بين القدماء والمحدثين — قديم فى أسلوبه ، حديث فى معانيه ... يحرص أن لا ينأى عن شعراء دمشق الذين حملوا لواء نهضتها — البزم وجبرى ومردم بك ومَنْ إليهم ممن صانوا اللغة العربية من التبذل والميوعة وحافظوا فى شعرهم الرصين على جمال رونقها . وهو ، إلى اصطفائه أسلوبهم ، ينزع فى تصوير هواجسه نزعة أدباء الشباب الذين أوغلوا فى وصف كل ظاهرة من ظواهر الحياة . وقد سار معهم سيره المتئد الذى يخشى أن ينأى عن نهج أبيه وصحبه الكرام .

عبّ من رحيق الحياة أصفى مواردها . واختلجت نفسه بالهواجس . وحين حاول أن يصف هذه الاختلاجات بصور عريانة كما يصفها شعراء جيله حالت دونه التقاليد التى عاش فى كنفها . فالجواء التى غمرت شعر من نهج نهجهم اضطرته أن يكون حذراً كل الحذر فى البوح عما فى نفسه . إنه شاعر حاول الانطلاق فلم يستطع وأصبحت « القصيدة العربية » جزءاً من نفسه ، ومهما حاول التخلّص من قيودها المحكمة فإن جرسها العذب يشدّه إلى إطارها ، وهذا

الذى جعله أن يكون كأبيه فى السير على نفس النهج الذى سلكه مئات الشعراء القدامى فى التعبير عن أحاسيسهم وهواجسهم . وهو إلى هذه الملابسات التى غمرت شعره فقد عبر عن ذاته ، وعن طبيعة أرضه بأسلوب شاعرى جزل .

صدر له ديوان بعنوان « نجوى » جمع فيه القصائد التى نظمها حتى عام ١٩٥٦ ويضم قصائد فى الوصف والوجد والقوميات والإنسانيات ، وأصدر سنة ١٩٦١ ديوانه « صفحة ذكرى » وقد حاول الشعر المسرحى فكانت باكورة مسرحياته « المعتصم بالله » . وأتبعها بمسرحية « عبد الرحمن الداخل » ، ثم بمسرحية « مصرع الحسين » . وكان قد نظم سنة ١٩٣٦ مسرحية « جميل بثينة » وآخر ما نظمه مسرحية « آفاميا » وقد علل الأسباب التى حفزته لوضعها فى قوله : « أخذت مدينة " آفاميا " مسرحاً لأبطالها ، لأن آفاميا قطعة من البلاد الشامية ، التى لى شرف الانتساب إليها ، يضاف إلى ذلك . أن فيها تصويراً لمشاهد طالما شاهدتها أيام طفولتى فى دمشق ، وعشت معها حقبة طويلة ، حين كان الشعب السورى . . . بمجموع طبقاته حرباً على المستعمر ، فحاولت تسجيل هذه الحقبة التى عشتها تمجيداً لها وبعثاً لماضيها المشرق الذى جمع أسمى المعانى الخيرة . إن نضال الشعب السورى يختلف عن كل نضال سبقه فى البلدان الأخرى . لأنه نضال شعب بكامله ، وشتى طبقاته وأفراده ، وكل قام على الوجه الأكمل .

« إن مسرحيتى " غادة آفاميا " وأخواتها وسيلة لدراسة جدية ، وتمعن عميق للمسرحية الأوربية والمسرحية العربية . وإن دراستى هذه جعلتنى أختار الأبحر الشعرية القصيرة ليسهل الحوار بها ، وكنت أنحو فى مسرحياتى الشعرية منحى التحليل النفسى . وأحل الفكرة محل الصدارة . . . » .

وفيما يلى نبذة عن تاريخ حياته كتبها بقلمه :

« ولدت عام ١٩١٧ وكانت طفولتى مفعمة بالترف يتعهدها والد شاعر وأم تقية ، وقد عهد برعايتى وأنا ابن سنتين إلى مربية فرنسية تركت فى نفسى ذكريات طيبة ، ولما قاربت الخامسة أرسلنى والدى إلى المدرسة العازارية بدمشق . وبعد مدة من الزمن التحقت بمدرسة ملك الظاهر الابتدائية التى تخرجت منها

ونلت شهادة السرتفيكا ، ثم دخلت الكلية العلمية ونلت شهادة بكالوريس آداب ، ومن ثم التحقت بقسم الفلسفة ونلت البكالوريا القسم الثانى .

أتممت تحصيلى العالى فى كلية الحقوق بدمشق ، ونلت منها شهادة الليسانس عام ١٩٤٠ حيث كانت الحرب العالمية مندلعة نيرانها ، وتعاطيت مهنة المحاماة مدة من الزمن ، ثم انتسبت إلى القضاء .

الوسط الذى أثر فى نشأتى الأدبية :

إن الأثر البارز فى نشأتى الشعرية يعود إلى عوامل إرثية مباشرة جعلت طفولتى تتفتح براعمها على ميل فطرى لقول الشعر حتى إنى حينما بدأت فى نشر قصائدى بجريدة "البرق" البيروتية ، لصاحبها الأستاذ بشاره الخورى لم تكن سنى تتجاوز الخامسة عشرة .

وللوسط الأدبى الذى عشت به تأثيره الكبير ، فقد فتحت جفنى على والد من كبار الشعراء ، وكان جميع من يتردد عليه لا يخرج عن كونه واحداً من ثلاثة "كاتباً أو عالماً أو شاعراً" . وكانت دارنا ندوة أدبية يؤمها رجال الأدب . وكنت على صغر سنى أجلس معهم وأستمع لأحاديثهم ، يضاف إلى ذلك حب عميق فى نفسى للطبيعة وتقديس للجمال بمعناه الواسع فى شتى مظاهره . سواء أكان ذلك فى مظهر الطفولة أم فى الأثر الفنى أم فى الآثار القديمة .

ولا أشك أن دراستى للعربية على والدى مدة أربع سنوات فتحت أمامى آفاقاً جديدة . أما الطابع الحزين الذى يشوب شعرى مؤخراً فمرجعه إلى وفاة شقيقى المرحوم هيثم ، حيث تركت وفاته فى قلبى جرحاً لا يندمل » .

ومن شعره :

ولدى

أرعاك بالقلب الذى لك عنده ما يؤثر

وأراك بالعين التى بك تستنير وتبصر

وأقيك عادية الأذى مما تخاف وتحذر

ولدى وأنت على الزمان لى السراج النير

لك من حنـــانى ما يضيق الوصف عنـــه ويقصـــر
أخفى هواك محاولا كتمـــان ما أنا أســـتر
فينم دمعى بالـــذى كتم اللســـان ويخبـــر
أيعيبنى ما رحت أبدى مـــن هـــواك وأظهـــر
وبك المنى صـــافحتها وبلغـــت مـــا أتصور

* * *

لما هششت مصفقـــاً وعطفت نحـــوى تنظـــر
أيقظت ملء أضـــالعى فتن المنى تتســـعر
وهززت منى خافقـــاً من رحمـــة يتفطر
وأسلت من عينى الحنان مـــدامعـــاً تتحـــدر
أجد الحيـــاة على القذى بك تســـتطاب وتؤثر
ومعـــاتب متطفـــل فيما يشـــير ويأمـــر
تخـــذ النصيحة للأذى سبباً فراح يشـــهر
فعـــذرته مـــن رحمـــة إن الأبـــوة تعـــذر

* * *

ولدى وهل شىء أعـــز عـــلى منـــك وأكبر ؟
والكون أنت وما سواك زيادة لا تذكر
يصـــفو الزمان إذا ابتسمت بنـــاظرى ويثمـــر
وإذا شكوت فكل مـــا حـــولى جديب مقفـــر

* * *

تحـــلو السمـــاء ببدرها للنـــاظرين وتسحـــر
ولأنت من بدر الدجى أبهى وعنـــدى أنـــور

* * *

عبد السلام العجيلى

١٩١٧

من كتاب القصة فى سورية ، تأثر بمحمود تيمور ، فنهج نهجه ، وسار على طريقته .

ولد فى بلدة الرقة سنة ١٩١٧ .

وأتمّ دراسته فى بلدته ، والثانوية فى تجهيز حلب ، وتخرج طبيباً من الجامعة السورية عام ١٩٤٥ .

وهو ، إلى مزاولته الطب ، مهتمّ بالأدب .

نظم الشعر وكتب القصة ، وقد طغت النزعة القصصية عنده على هواية نظم الشعر . . .

وقد جمع أقاصيصه فى أكثر من مجموعة واحدة . وعناصرها مستمدة من الحياة بشتى ظواهرها . ومن المجتمع بمختلف ألوانه ، ويحاول أن يبتعد ، ما أمكنه عن التهويل ، يمتزج خياله الشاعرى بالواقع الملموس فيحمل قارئه إلى دنييات من واقع الحياة .

ولا يحدّ إطار قصصه أفق ، فبينا تراه يقصّ قصة راع فى صحراء الجزيرة أو بادية الشام ، إذ به ينقلك ، فى قصة أخرى ، إلى كهف فى مونمارتر ، وقد يصعد بك إلى أعالى جبال الألب فى سويسرة ، ثم تلفى نفسك معه فى منعطفات شوارع إشبيلية وفى نواديها الليلية تعيش فى جوّ أندلسى ساحر .

إن نزعتين قويتين تظهران بارزتين فى أقاصيصه :

النزعة القومية والنزعة الإنسانية ، إلى الوصف الدقيق للنماذج البشرية .

والنزعة القومية فى قصصه أغلب ، وسرّ ذلك أنه من أدبائنا الذين تفاعل أدبهم مع مجتمعهم الثائر الذى ينشد الحرية ويصارع العبودية .

ويعمد فى قصصه إلى السرد الشائق والتصوير الدقيق للكثير من العادات والتقاليد وخصائص البيئة السورية .

وإذ اطمأن إلى قيمة هذه الأقاصيص أخذ يجمعها فى كتب متلاحقة . فأصدر سنة ١٩٤٨ أولى هذه المجموعات بعنوان « بنت الساحرة » ، ثم أتبعها سنة ١٩٥١ بمجموعة بعنوان « ساعة الملازم » ، ثم فى عام ١٩٥٤ بـ « قناديل إشبيلية » . وهذه أقوى مجموعاته القصصية . ثم توالت قصصه على مرّ السنين ، فلا ينصرم عام إلاّ ويقذف إلى المطبعة مجموعة جديدة مما نشره فى الصحف والمجلات ، وهو حريص على نشر إنتاجه سنة فسنة ، وقد حاول أن يكتب القصة الطويلة فأخفق فى روايته « باسمة بين الدموع » التى صدرت سنة ١٩٥٨ ، ولم تكن رواية « رصيف العذراء السوداء » التى نشرها سنة ١٩٦٠ بأوفر نجاحاً من أختها باسمة . . . ومن أقاصيصه التى جمعت فى كتب : « الخائن » و « الحيل والنساء » التى صدرت سنة ١٩٦٥ . . .

وإذ حاول الشعر فى بداية حياته الأدبية فقد أصدر ديواناً صغيراً سنة ١٩٥١ بعنوان « الليالى والنجوم » ، كما أصدر سنة ١٩٥٤ كتاب « حكايات من الرحلات » صوّر انطباعاته الذاتية فى أكثر مدن الغرب وفى أمريكا الجنوبية ... وآخر كتبه أحاديث العشيات . . . وهو مجموع أحاديث ومحاضرات ألقيت فى نوادى حلب ودمشق واللاذقية . ضمّها هذا الكتاب الذى يؤرخ فترة من اتجاهه الأدبى فى الكثير من مظاهر الحياة وأحداث المجتمع .

صلاح الدين المنجد
١٩٢٠

بدأ حياته بكتابة المقال الأدبى وبكتابة المسرحية القصيرة المستمدة حوادثها من الأدب العربى القديم ، وقد حاول النقد ، وهو فى طراوة العمر ، فنقد مَن تقدمه من أدباء الشيوخ ، يغمز ويلمز دون أن يسفر عن اسمه ، وكأنى به أراد أن يتخطَّى الزمن وأن يأخذ مكانه إلى جانب الذين كانت لهم الصدارة فى الحياة الأدبية ، فدفعه طموحه ، ولا أقول غروره ، إلى النقد وتحطيم الأصنام الخاوية .

يقول : «كان عندنا فى دمشق ، قبيل الحرب الثانية وإبانها . فئتان تصدرتا للأدب : شيوخ المجمع العلمى . ومعظمهم قد توفى اليوم ، وكان بعضهم يسوؤهم أن ينطلق شاب فى الميدان الذى يجولون فيه ، وشباب لم يؤتوا ثقافة أدبية عميقة ، ولا عرفوا الأدب فى مصادره وينابيعه ، ولا صاحبوا أعلامه فى آثارهم . بل درسوا العربية فى بلد أجنبى ، دراسة غير عميقة ، ليكونوا أساتذة للأدب ، فكانوا لا يرضون إلاّ بمن كان على شاكلتهم . . . » .

ويقول : « ... أحسست أن الذين يحتكرون الأدب لم يعترفوا بأنى موجود ، وفى ثورة نفسية عارمة رأيت أن أنقدهم جميعًا ، وهكذا يكون النقد والهجوم عند المبتدئين وسيلة لإثبات الذات ، ولو أن الكبار يغمرون الشادين المبتدئين بالحب والعطف والتشجيع والتوجيه ، لما أضاع هؤلاء جهوداً فكرية سدى .

ونشرت عشر مقالات ، بتوقيع مستعار بعنوان : « أعضاء مجمع لكنهم مفلسون » .

وكانت مقالاتى عنيفة ، ثائرة .

لقد كتبتها بعد عواصف ثارت فى رأسى ، وأقنعت نفسى بعدها أنى على حق . وأنه لا ينبغى أن نخاف نقد الكبار لأن الأدب والفن والعلم لا يعرف كباراً وصغاراً ، بل ينبغى النظر إلى ما ينتجه هؤلاء وهؤلاء ، فإذا أخرجوا آثارهم

فقد أصبحت ملكًا للناس ، لأنهم أخرجوها للناس »[١] .

وظلّ في جدّ وكدّ ، يدرس ويكتب في الصحف والمجلات ، يختار اللفظ الموشى ليلبسه الفكرة التي يهجس بها ضميره ، وما زال في هذه الطريق إلى أن أخذ مكانه في المجمع العلمي العربي بدمشق إلى جانب مَن كان يتهجم عليهم وينقدهم بالأمس !

ولم يقف به طموحه عند عضوية المجمع بل سار في طريق شائك من الدراسة والبحث ، يقرأ ويبحث ويكتب ويؤلف ويحقق وينشر ، إلى أن استطاع في فترة قصيرة ، أن يحقق وينشر الكثير من المخطوطات بنفس المنهج الذي سار عليه المستشرقون ، فكان بحق من أنبه شباب دمشق الذين اضطلعوا بهذه المهمة الشاقة !

فقد حقق قرابة الخمسين مخطوطة بين رسالة صغيرة في صفحات ، وكتاب ضخم كبير ، عدا تآليفه التي بلغت الثلاثين رسالة وكتاباً . وهذا ، بدون ريب ، جهد عظيم .

على أن الظاهرة الملموسة في الكتب التي حققها ونشرها هذه « الإقليمية » التي دفعته لنشر كل ماله صلة بتاريخ الشام وبتاريخ دمشق بصورة خاصة ، و « الإقليمية » محمودة حين نميط التراب عن الفضائل المخبوءة[٢] .

---

(١) « لمحات عن تجاربي الفكرية » : صلاح الدين المنجد ، الندوة اللبنانية ص ١٥ .

(٢) فقد نشر ١ – « دور القرآن بدمشق » لعبد القادر بن محمد النعيمي (٩٢٧ هـ) ٢ – « حمامات دمشق » نصوص من تاريخ دمشق لابن عساكر » – ٥٧١ هـ . . مع « رسالة عدة الملمات في تعداد الحمامات » ليوسف بن عبد الهادي (٩٠٩ هـ) ٣ – « تاريخ مسجد دمشق » لمؤلف لعله البرزالي – ذكر ما استقر عليه الجامع الأموي عام ٧٣٠ هـ – ٤ – « ولاة دمشق في العهد العثماني » ٥ – « ولاة دمشق في العهد السلجوقي » ٦ – « فضائل الشام ودمشق للربعي » (٤٤٤ هـ) . ٧ – تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر . المجلد الأول (٥٧١ هـ) ٩٦٠ ص قطع كبير . ٨ – أرجوزة في محاسن دمشق لابن خداوردي (– ١١٩٥) . ٩ – « تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر » القسم الأول من المجلد الثاني ٣٥٠ ص ٠٠٠٠ . ١٠ – أمراء دمشق في الإسلام لصلاح الصفدي (– ٧٦٤ هـ) . ١١ – « الزيارات بدمشق » للقاضي محمود العدوي (١٠٣٢ هـ) . ١٢ – « قضاة دمشق » لابن طولون (– ٩٥٣ هـ) . ١٣ – « كناش إسماعيل المحاسني » المؤرخ الدمشقي « ١١٠٢ هـ » . صفحات من تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري . ١٤ – « حلول التعب والآلام بوصول بني الذهب إلى دمشق الشام » لسليمان بن أحمد المحاسني « ١١٨٧ هـ » =

لقد قام بهذا العمل الضخم ولما يتخطّ الخمسين من عمره ، وما زال جمّ النشاط يكتب ويحقق ويؤلف وينشر كل ماله صلة بميراثنا الثقافى وبتاريخنا الحضارى .

ونعتمد فى سرد سيرته على محاضرته فى الندوة التى تضمنت الكثير من الظواهر التى دفعته إلى رحاب الحياة الفكرية :

قال : « ولدت فى عام ١٩٢٠ فى أسرة دمشقية قديمة جمعت فروعها بين التجارة والعلم ، وكنت من الفرع الذى مال إلى العلم ، وبينما كنت أتابع دراستى ، وأنا صبى ، فى المدارس ، كنت أحفظ القرآن ، دون أن أفهم ما فيه ، ولما بلغت البكالوريا ، وبدأت دراسة الأدب العربى ، استهوانى وشغلنى ، فرحت أحفظ الشعر . لقد حفظت منه كثيراً ، وكان لى فى قراءاتى الطويلة ما ييسر لى تكوينى الأدبى ، واليوم أشعر من أعماقى كم كان لما حفظت فى أيام صباى من القرآن والشعر من فضل على تكوينى الأدبى واللغوى ، كنت دائماً فى جوّ عابق بالفصاحة والبلاغة يلفّنى ويسدّد خطاى فى تطلعى إليه .

« وكان علىّ أن أختار وجهة أتجه إليها فى تعليمى العالى ، فاخترت أن أدخل دار المعلمين العليا . ولعلّ مجالس العلم التى طبعت صورها فى أعماقى ، هى التى وجهتنى ، وأحسست فى هذه الفترة ، بميل إلى النظم والكتابة ، فنظمت غزلاً وهجاء ، وبدأت أكتب » .

وبعد أن أشار إلى تجربته الذاتية فى الكتابة . وأثر عمالقة أدباء مصر المجددين فى نفسه وعلى رأسهم طه حسين والعقاد وأحمد أمين وهيكل والزيات والحكيم ، قال :

« ومع ولعى بالنقد مات بعد إنهائى دار المعلمين إلى دراسة الحقوق ففُتحت لى آفاق جديدة من الثقافة ، ومضيت أنشر المقالات فى صحف بيروت والقاهرة

= ١٥ – « رسائل للعماد الأصبهانى (٥٧٦هـ) والقاضى الفاضل فى مدح دمشق ، ١٦ – « قرة العيون فى أخبار باب جيرون بدمشق » لابن طولون الصالحى (٩٥٣ هـ) ، ١٧ – « الوهرانى ورقعته عن مساجد دمشق » ، ١٩ – دمشق القديمة : أسوارها ، أبراجها ، أبوابها ، ٢٠ – بمارستان نور الدين بدمشق ٢١ – قصر أسعد باشا العظم بدمشق ، ٢٢ – خطط دمشق : أبحاث مختلفة عن آثار دمشق وخططها .

ودمشق ، وكان همى فيما أنتج ، بتأثير قراءاتى فى كتب الأدب العربى — كان همى صحة اللغة وحلاوة الأسلوب وحسن الصوغ ، بل مررت بفترة كنت لا أرى فى الأدب إلا اللفظ ، فالمعانى وحدها لا تكسب الأثر الأدبى الحلاوة والرونق والبهاء . وتجعله يدخل إلى قلب السامع ، وإنما الألفاظ .

« على أن مطالعاتى فى الأدب الفرنسى ، وخاصة الكلاسيكى ، دفعتنى إلى أن أنهج نهج شعرائهم وكتّابهم فى الرجوع إلى الأدب القديم وإحيائه بشكل جديد فقمت بمحاولتين فى هذا الشأن ، أصدرت فى عام ١٩٤٣ ثلاث مسرحيات صغيرة بعنوان : "إبليس يغنى" وأبنت عن هدفى من المحاولة فى مقدمتى بقولى : هذه صفحات من أدبنا القديم حوت أطاريف تعجب وترقص وتلذ، غير أنها كتبت فى عصر يباين عصرنا . فأصبح يعوزها أن تعرض برشاقة ، وتهذّب بذوق ، وتصقل بفن . فمثلها كمثل الدرّ النوادر علاها غبار القرون ، فغابت وضاءتها ، وخبا بريقها ، فلا بد لها من صقل لترفّ فتخطف الأبصار وتفتن العقول .

« ولقد حاولت . بعد "إبليس يغنى" أن أطبق هذا المفهوم فى تجربة جديدة فنشرت قطعاً أدبية سماها بعضهم شعراً منثوراً ، أو نثراً شعريّاً ، أو شعراً مرسلاً ، أو شيئاً جديداً لكنه حلو ، وقد فتح الزيات المحافظ الرسالة لبعضها » .

* * *

ثم تحدث عن اتجاهه الجديد منذ عام ١٩٤٤ ، وكيف ترك الأدب إلى حين ، وانصرف إلى التاريخ حين عيّن رئيساً لديوان مديرية الآثار ، فلم يمض شهر على عمله حتى استهوته الأعمدة والأحجار والنقوش والكتابات القديمة فاستطاع خلال سنتين أن يكوّن لنفسه ثقافة عميقة فى الفن الإسلامى وتاريخ العرب . وقد اضطره عمله الجديد إلى الرجوع إلى المخطوطات القديمة التى غاص فى محيطاتها يبحث وينقب ، وكانت أول تجربة له فى هذا الميدان « تاريخ دمشق » لابن عساكر حين عهد إليه المجمع العلمى العربى فى إخراج المجلد الأول منه .

يقول : « لقد قطعت سنة أو تزيد فى تحقيق النص وتصحيحه والتعليق عليه . وأذكر أنى وضعت بطاقات لآلاف من الأسماء وردت فى المجلدة من رجال الأسانيد . كان عملى هذا أكبر تجربة فكرية مررت بها ، علمتنى الصبر الطويل والأناة والتريث والبعد عن السرعة والانفعال ، وما زلت أذكر كيف كنت أقضى اليوم كله ، والأسبوع كله ، فى البحث عن كلمة أو جملة حرّفها الناسخ أو صحفها أو مسخها . . .

كان اتصالى بالمخطوطات خطراً علىّ . . . المخطوطات القديمة كالمخدرات إذا اعتادها الإنسان هيهات أن ينجو منها — القول هذا لطه حسين — لذلك لم أدع فرصة منذ ذلك الحين إلاّ اغتنمتها للاطلاع على المخطوطات . ولعل الظروف نفسها هى التى ساعدت على ذلك ، كان همى عندما ذهبت إلى باريس إثر إصدارى تاريخ ابن عساكر ، أن أقرأ الآلاف الخمسة من المخطوطات العربية المحفوظة فى الناسيونال ، برغم تحضيرى الدكتوراه فى الآداب والحقوق ، وما كدت أعود حتى أرسلتنى الحكومة فى عام ١٩٥٤ إلى إسبانيا لأكشف مخطوطات الأسكوريال والأديرة الأخرى ، فقضيت فيها شهوراً ، وطفت فى تلك البلاد التى نقلت يوماً ثقافة العرب إلى أوربا ، فما كدت أعود حتى رشحتنى الحكومة لأن أكون مديراً لمعهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية »

وبعد أن انقضت مهمته فى معهد المخطوطات الذى عمل فيه بضع سنوات أسس داراً للنشر فى بيروت باسم « دار الكتاب الجديد » ، أى ما يزال فى البيئة الفكرية يؤلف ويحقق وينشر ، وفيما يلى نشير إلى ما حققه من مخطوطات وما ألفه من كتب .

المخطوطات المنشورة :

١ — كتاب اللغات فى القرآن ، رواية عبد الله بن الحسين بن حسنون (— ٣٨٦ هـ) .

٢ — رسالة الألفاظ المهموزة ، لابن جنى (٣١٢ هـ) .

٣ — كتاب رسل الملوك ومَنْ يصلح للرسالة والسفارة ، لابن الفراء .

القسم الأول : نص ابن الفراء .

القسم الثانى : مباحث فى الرسل والسفراء عند العرب فى الإسلام .

٤ ــ مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس للنعيمى ، اختصره عبد الباسط (العلموى / ٩٨٢ هـ) .

٥ ــ كتاب وقف القاضى عثمان بن المنجا الحنبلى (ــ ٦٤١) .

٦ ــ التمهيد فيما يجب فيه التحديد . لقاضى القضاة تقى الدين السبكى (ــ ٥٧٦) .

٧ ــ أسماء مؤلفات ابن تيمية لابن قيم الجوزية ، نصٌّ ذو شأن لمعرفة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية كتبه تلميذه ابن قيم الجوزية .

٨ ــ سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبى (٧٤٨ هـ) الجزء الأول .

٩ ــ المنتقى من كتاب الرهبان « لابن أبى الدنيا » (٢٨١ هـ) .

١٠ ــ فتوح البلدان للبلاذرى (ــ ٢٧٩) القسم الأول والثانى والثالث .

١١ ــ وفيات المصريين فى العهد الفاطمى ، للحبّال (٤٨٢ هـ) .

١٢ ــ شرح السير الكبير للشيبانى ، إملاء السرخسى ــ الجزء الأول والثانى والثالث .

١٣ ــ الأئمة الاثنا عشر ، لابن طولون الصالحى (ــ ٩٥٣ هـ) .

١٤ ــ نزهة الجلساء فى أشعار النساء ، للحافظ السيوطى (ــ ٩١١ هـ) .

١٥ ــ تراجم الأعيان من أبناء الزمان للحسن البورينى (١٠٤٣ هـ) الجزء الأول والثانى .

١٦ ــ مناقب ابن عربى ، لابن القارى البغدادى .

١٧ ــ العِبَر فى خبر من عَبَر ، للحافظ الذهبى (٧٤٨ هـ) الجزء الأول والرابع .

١٨ ــ حِذْفٌ من نسب قُريش لمؤرّج بن عمرو السدوسى (١٩٥ هـ) .

١٩ ــ الدرّة المضيّة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، لابن أيبك الدوادارى (بعد ٧٣٦ هـ) .

٢٠ ــ مولد رسول الله ، للحافظ ابن كثير الدمشقى (٧٧٤ هـ) .

٢١ ــ مختصر من الكلام فى الفرق بين من اسم أبيه سلام وسلاّم لمحمد بن

أسعد الشريف الجوّانى (٥٨٨ هـ) .

٢٢ – شرح خطبة عائشة أم المؤمنين من أبيها لمحمد بن القاسم الأنبارى (٣٢٨ هـ) .

٢٣ – كيف دخل الفرنسيون الجزائر لأحمد الجزائرى « القرن الثالث عشر » .

٢٤ – أمراء مصر فى الإسلام لابن طولون الصالحى (١٥٣٠ هـ) .

٢٥ – المستظرف من أخبار الجوارى للسيوطى (٩١١ هـ) .

٢٦ – كتاب تنزيل القرآن لابن شهاب الزهرى (١٢٤ هـ) .

٢٧ – معارضة ابن الأبار (٦٥٨ هـ) لكتاب ملقى السبيل للمعرى ، المسماة « مظاهرة المسعى الجميل » .

٢٨ – مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس بترجمة مهران بن منصور بن مهران .

المؤلفات :

١ – إبليس يغنّى .

٢ – فى قصور الخلفاء – قصص تاريخية عربية .

٣ – نساء عاشقات : تحليل لروائع الحب فى الأدب الغربى .

٤ – الظرفاء والشحاذون فى بغداد وباريس – دراسات فى الطبقات الاجتماعية فى العصر العباسى .

٥ – تدمر عروس الصحراء ، بالاشتراك مع جان ستاركى عضو المعهد الإفرنسى للآثار ببيروت .

٦ – تاريخ الأنساب عند العرب – دراسة فى شأن النسب عند العرب ، ومفهوم كلمة الشرف وتطورها وأشهر الكتب التى ألفت فى الأنساب .

٧ – قواعد تحقيق النصوص القديمة .

٨ – المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة – من القرن الثالث الهجرى إلى نهاية القرن العاشر .

٩ ـ الخلفاء والخلعاء فى العصر العباسى .

١٠ ـ جمال المرأة عند العرب ـ دراسة لتطور معنى الجمال عند العرب مع ديوان لأجمل ما قالته العرب فى جمال المرأة .

١١ ـ الحياة الجنسية عند العرب .

١٢ ـ أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ـ الجزء الأول والثانى والثالث .

١٣ ـ عروس العرائس ـ أروع القصص الشعبى القديم . مأخوذة من « أسمار » الجهشيارى ، وهى أقدم من « ألف ليلة وليلة » .

١٤ ـ فهرس المخطوطات العربية فى مكتبة الأمبروزيانا فى ميلانو .

١٥ ـ الكتاب العربى المخطوط : الجزء الأول ـ النماذج ـ نماذج من مختلف مكتبات العالم تظهر الخط العربى فى تطوره من القرن الثانى إلى القرن العاشر الهجرى ، مع الخصائص التى اختص بها الكتاب العربى القديم . ١١٢ لوحة .

١٦ ـ معجم المخطوطات العربية بين سنتى ١٩٥٤ ـ ١٩٦٠ .

١٧ ـ سورية ومصر بين الوحدة والانفصال ـ وثائق ونصوص رسمية ـ .

١٨ ـ اليمن والجمهورية العربية المتحدة بين الاتحاد والانفصال ـ وثائق ونصوص رسمية ـ .

١٩ ـ الحركات التقدمية فى العراق حتى غزو التتار .

٢٠ ـ مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ـ نصوص ـ .

٢١ ـ المشرق فى نظر المغاربة والأندلسيين فى القرون الوسطى .

بديع حقي
١٩٢٠

شاعر قصصي أديب . أنيق اللفظ . جزل الأسلوب .

شقّ طريقه بين أدباء الشباب بالمقطوعات الشعرية التي نشرها وبالقصص التي كتبها والروايات التي ترجمها .

يجمع بين الثقافتين العربية والأجنبية .

وهو دائم المطالعة لا يكاد يفلت كتاب « الأغاني » من يديه ليل نهار .

يقرأ ويدرس ويغوص في أعماق الحياة الأدبية قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، يختار طريف الطريف مما يطالعه فما يكاد يسوغه حتّى يجلوه بأسلوب فيطرف القارئ بصور جميلة من روائع الأدب الحيّ .

ولد في دمشق في السادس والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١٩٢٠ ، وقد فقد والده وعمره أربع سنوات فسهرت أمه على تربيته ورعاية طفولته ولم يتح له دخول المدرسة الابتدائية إلا وهو في العاشرة من عمره لحوادث وظروف نأت به عن الدراسة المبكرة . . . وبعد أن نال الشهادة الابتدائية من مدرسة البحصة دخل مدرسة التجهيز حيث تتلمذ على أساتذة في الأدب كان لهم فضل كبير في تشجيعه والأخذ بيده إلى مناهل الأدب الشهية ، منهم الشيخ عبد القادر المبارك وهو حجة في اللغة ، والأستاذ سليم الجندي وهو ثقة وإمام في النحو والصرف ، والدكتور زكي المحاسني والدكتور جميل سلطان والشيخ زين العابدين التونسي .

وإلى متابعة دروسه كان كثير الشغف بقراءة القصص والأساطير . وقد كتب إليّ يقول :

« ... وفي هذه السن المبكرة شغفت بالمطالعة وقراءة القصص الأسطورية : قرأت ألف ليلة وليلة ، التي رفدت خيالي بالصور الرائعة الساحرة ، وقرأت سيرة عنترة والملك الظاهر — في مخطوطة بلغت ٣٦٠ جزءاً — . والملك سيف ابن ذي يزن .

« ثم تحولت إلى الروايات العاطفية ، فقرأت كل ما كتبه وترجمه المنفلوطى : ماجدولين ، بول وفرجيني . الشاعر ، العبرات ، الذى أروى ظمئى إلى الدمع .

وقرأت أدب المهجر ، وأحببت جبران والريحانى ونعيمه وفوزى المعلوف .

وهفت نظراتى المتطلعة إلى الأدب الحديث ، فقرأت كل ما كتبه طه حسين والرافعى والبشرى وهيكل والمازنى والعقاد والحكيم وتيمور وغيرهم وغيرهم .

وأحببت أسلوب المازنى ومتحت الكثير من ألفاظه الحلوة المنتقاة ووشيت بها أسلوبى » .

وفى حديثه عن الشعر قال :

« وأغريت بالشعر ، وأنا فى عُفرة العمر وغرب الشباب ، فقرزمت بعض القصائد وكتبت بعض القصص وشغفت بالشعر الإفرنسى الحديث ، وبخاصة شعر فاليرى . وأخذت بمدرجته ، فى الحرص على موسيقية اللفظ وصفائه ونقائه ، مع رمزية شفافة ، تحسر عن بعض المعنى ، وتومئ إليه . وقد حفظت بعض قصائده على صعوبتها والتواء معناها . ولكنى كنت أجتزئ بما كان يتسم فى ألفاظها من نغم موسيقى رقيق » . . .

وحين أنهى دراسته الثانوية ونال شهادة البكالوريا الثانية — الفلسفة — انتسب إلى معهد الحقوق — إذ لم يكن فى سورية آنذاك ، معهد أو كلية للآداب فنال شهادة ليسانس الحقوق عام ١٩٤٤ ، وفى عام ١٩٤٥ انتسب إلى السلك السياسى وتنقل فى مدى عشرين عاماً أو تزيد بين باريس وبرن وموسكو وإستانبول وكابول . وظلَّ ، وهو فى السلك السياسى ، وثيق الاتصال بالحياة الفكرية ، ففى باريس لم ينقطع عن الدراسة ونال شهادة الدكتوراه فى الحقوق الدولية ، وكانت أطروحته عن فلسطين ، وقد هدف بها إلى الدفاع عن حق العرب فى هذه الأرض العربية المنكوبة . . . وفى موسكو تعلم الروسية ونقل منها كتابين إلى اللغة العربية : اللوحة والمعطف لفوغول .

ومن جولاته فى الأدب العربى والإفرنسى والروسى انتقل إلى آداب الهند فقرأ تاغور ، شاعر الهند العظيم الذى أحبه فانطبعت فى نفسه الكثير من صور

أدبه ــ أحبه شاعراً وقاصًّا وإنسانًا ورسول حكمة . يرتل الصلوات وينشد من أعماق ذاته ، أحر النبرات وأصفى الابتهالات والتوسلات .

هذا الحب هو الذى دفعه أن ينقل بعض آثاره إلى العربية ، ولا سيما القصص والأشعار التى كتبها تاغور بعفوية مطلقة والتى تتحدث عن الطفولة البريئة والحب العفّ والإخاء الذى لا تشوبه أوضار المادة ، فنقل « البستانى » و « جيتنجالى » و « جنى الثمار» و « الهلال » و« شيترا » وأخيراً « دورة الربيع » وقد قدم لها بدراسة عنه دلّت على تفهمه العميق لرسالة الشاعر ، وهى ، بمضمونها تصوير بارع لحياته وكتبه، وكأن المقدمة قطعة من أدب تاغور . وقبل هذه الترجمات بدأ بديع حقى حياته الأدبية بالشعر . وكان فى طليعة الشباب الذين هجروا أسلوب القصيدة القديمة وجلبابها الطويل . فالواقع أنه لم يخرج عن الوزن والقافية إلاّ أنه خرج من حيث المضمون عن الكثير من شكل القصيدة القديمة التى عاش فى جوائها جبرى ومردم والبزم و بدوى الجبل ، فشعره مقطوعات تعبّر عن الأشواق والمواجيد، عن الألم والحب ، عن النغم والصدى. وهى تنبع من الذات الشاعرة التى تعيش فى جوّ من النغم المسكر ، ولأسلوبه هذا الجمال الذى يثيرك ويجعلك تعيش جوّ الشاعر ، جوه النفسى والعاطفى ، الحزين منه والمبهج ، وللكلمة عنده قداستها وجمالها ، وقد كتب لديوانه « شجر » مقدمة فى معنى الشعر هى من العمق والدقة بمكان عظيم :

« حين أنظر إلى فن الشعر يخيَّل إلىّ أنه الفن الوحيد الذى تأتّى له أن يصَور النفسَ وأن يسبرَ أغوارَها فيجلو ما يصطرع فيها من نزوات وبدوات ، ويخيَّل إلىّ أن الفنون الأخرى التى ابتدعها الإنسان ، إنما تعدُّ ، فى جوهرها ولبابها ، لـَحقـًا به ، وتـَبـَعـًا له .

« ليست مهمةُ الشاعر أن بريقَ النور على فكرته ، ولكن أن يحياها ، أن يترك هذا الجهدَ للعالم النفسى الذى يستشرف مثله أعماقَ النفس ، متكئـًا على منطقه الواضح البارد ، ليحللَ ويستنتجَ ويفرش فوق طريقه النور .

« الشاعر كالجدول التائه ، وهو يشقّ دروبه اللاحبة المنبسطة ، المظلمة الملتويـّة ، إنه يمنح عِذارَ شاطئه الخصبَ والرواءَ والاخضرار ، ثم يجور عليه

فيرفده بالحصى والتراب . إنه يسير مطمئناً أو ثائراً ويسعى فى ظلمات ومتاهات ، ثم ينقرُ الصخرَ ويتفجّر وينحدر ويوافى منتهاه ، حاملاً ذكرى السهل والصخر والشوك والزهر .

« على الشاعر أن لا يقبسَ من ألق النور فحسبُ ، النور المتلألئ قد يعشى بصَره ، ويلويه ، وهو ظامئ ، عن النبع الذى ينشده ، عليه أن يتسللَ إلى الأعماق ليظفر بخلجات النفس ، الواضح منها والمبهم ، ثم ينفضها واضحة مبهمة ، يتعانق فيها النور والظل ، ويحظى فيها اللفظ والمعنى بلقاء لا تهيئه الصدفة ولكن حظًّا سعيداً خلاقًا هو الذى يهيئه ويُعدّ أسبابه . . .

« ترى أىُّ "سِحْرٍ" غريب يقود الشاعرَ إلى أعماق الحياة ليجلوَ مشاكلَها ويفصح عن أمانيها . يشير إلى الواقع المؤلم ، ويترعُ الغَد بدفعات من الأمل الباسم الرفاف .

« ترى أى "سحر" غريب يقوده إلى أغوار النفس ، إلى تلك الجنَّة المخضّلة بالأخيلة ، الآهلة بأوابد الذكريات ، الفاغمة بطيب الوجد والشوق والحنين . . .

« ترى أى "سحر" غريب يقوده إلى طبيعته الرائعة فيرى إلى صورها وألوانها كيف تتزَوّق لعينيه ، وإلى عطورها كيف تضمّخ مواعيدَه . وإلى أنغامها كيف تمتلخ جناح طائر خفىّ وتنحو إلى أفقه البعيد .

« إن الموسيقا التى تنسقُ فى شعره هى خلاصة ذلك السحر الغريب » .

نشر ديوانه « سحر » فى عام ١٩٥٤ ، ثم انقطع عن نظم الشعر ، وانصرف إلى القصة فنشر عام ١٩٦٠ مجموعة قصص بعنوان « التراب الحزين » استلهم جلها من نكبة فلسطين . وقد نالت هذه المجموعة جائزة الدولة التشجيعية للقصة عام ١٩٦١ .

هذا ، ولم يقف إنتاجه القصصى عند هذا الحد ، فهو ما زال يرصد الأحداث القومية والتيارات الإنسانية ، ولا سيما ذات الطابع المحلى ، فيصورها ، بروح شاعرية ونزعة قصصية ، ولديه مجموعة لما تنشر بعد عنوانها « حين تتمزق الظلال » وهو اسم القصة الأولى . وفيها ينحو أسلوبه القصصى منحى جديداً ، وكتاب

آخر لم ينشر بعد تضمن دراسات عن قمم الأدب العالمى تناول فيه سير بروست وجيمس جويس ومالارميه وجيد وفاليرى وتولستوى ولوركا وكامو . . وما يزال ، فى كهولته الباسمة ، يعيش فى الجوّ الأدبى المشرق ، يقرأ ويكتب ويطرف القارئ بنتاجه الفكرى الخصب ، ويحرص أكثر ما يحرص على توشية الفكرة التى يعرضها والموضوع الذى يتناوله بأناقة اللفظ وجمال الأسلوب .

ومن شعره :

الطهر

أحبكِ فى ميسة الزنبقِ ... وفى غفوةِ الياسمين النقى
تلوحين لونًا رغيدًا سعيدًا ... فأغمض جفنى على شيّقِ
وأفرق إن بحتُ ، عفواً ، بحبى ... فأجرح طهرَ غرامٍ تقى
ويبسمُ ثغرُكِ إما قصصتُ ... عليكِ أحاديث حبى الشقى
يداعبنى منك خبث برىء ... فأهتف : ويحى متى نلتقى
— متى ارتعش الحبُّ فى خافقى ... — تقولين لا بد — لا تشفقى
وأنتِ خيالٌ غنوجٌ سرى ... على مربع الوهم لم يتق
وفرعكِ ليلٌ يغيم سواداً ... ويسفح فجر جبين نقى
وجفنُك جنح حمام يرفُّ ... ويهفو إلى مأملٍ مشرق
يسامرُ فى الحلم سربَ طيور ... ويفتح ملء غدٍ مورق
بلى أنتِ طرفة حلمى الشهى ... تلوح على أفقٍ أزرقِ
فتنهد ، دونك ، قبلةُ ثغر ... ذبيح وتحبو على المفرق

* * *

أحبكِ فى غفوة الياسمين ... وفى ميسة الفل والزنبق

سليمان العيسى
١٩٢٢

شاعر ثائر الإحساس ، ملتهب العاطفة ، جعل من شعره أداة لرسم صور البعث العربى ، وإثارة لقوى الجيل الطالع ، وصيحة مدوية فى وجه المستعمرين .

أنا فى أعماق قومى صرخة تتشظى لا قصيد يقـــرأ
حسب لحن ينتهى فى وترى أنه فى صدر غيرى يبدأ

. . . ولد فى قرية من قرى أنطاكية على نهر العاصى سنة ١٩٢٢ .

. . . تلقّى بواكير الدراسة فى البيت ، فكان أستاذه الأول : القرآن ، والشعر الجاهلى ، والمتنبي وهو لا يزال فى « الكتّاب » .

نظم الشعر فى التاسعة . . . وكانت مجموعته الأولى تحمل صورة طفولته الساذجة فى القرية .

. . . دخل المدرسة الابتدائية فى أنطاكية ، وتفتحت شاعرية الطفولة على ثورة اللواء العربية التى انتهت باغتصاب وطنه الصغير ، وضمه إلى تركيا .

. . . نزح إلى سورية مع عدد كبير من رفاقه ، وكان هؤلاء الطلاب اللوائيون يمثّلون الثورة المتطرفة على الاستعمار وأعوانه فى الوطن العربى كله .

. . . تابع تحصيله الثانوى فى دمشق فى عهد كله ثورة على الاستعمار الإفرنسى ونضال من أجل الحرية والاستقلال .

. . . أتمّ تحصيله العالى فى دار المعلمين العالية ببغداد ، ونال إجازة الآداب منها ، ثم عاد إلى سورية حيث عين مدرسًا للأدب العربى فى ثانوية المأمون بحلب . . .

* * *

أصدر حتى الآن الدواوين الآتية :

١ ـــ مع الفجر .

٢ ــ أعاصير فى السلاسل .

٣ ــ رمال عطشى .

٤ ــ شاعر بين الجدران ــ قصة فى قصيدة نظمت فى السجن .

٥ ــ ثائر من غفار ــ ملحمة صغيرة عن نضال أبى ذر الغفارى .

٦ ــ قصائد عربية .

٧ ــ الدم والنجوم الخضر .

٨ ــ صلاة لأرض الثورة .

٩ ــ أمواج بلا شاطئ .

١٠ ــ أزهار الضياع .

١١ ــ رسائل مؤرقة .

ومن مسرحياته الشعرية :

١٢ ــ أغنيات صغيرة .

١٣ ــ أبو محجن الثقفى الفارس الضائع .

١٤ ــ ابن الأيهم الإزار الجريح .

١٥ ــ عبد القادر الجزائرى ــ الثورة التى لم تهدأ ــ .

١٦ ــ إنسان ــ مسرحية قصيرة ــ .

وأكثر القصائد التى انتظمتها مجموعاته الشعرية فى أحداث الوطن العربى ... فما من حادث قومى إلا وله فيه شعر رائع ينبض من دم القلب . . . وتكاد تكون كل كلمة من قصائده تتجسد شرراً متطايراً . . .

إنه يريد دنيا العرب أن تصبح ثورة على الغاصبين ، فالوطن العربى فى نظره وحدة متماسكة ، وكل لا يتجزأ ، وبدهى ، وهذا هو مذهبه الشعرى ، أن يدور كل شعره حول فلسطين ومصر والجزائر ووطنه الحبيب سورية وكل بقعة من بقاع العرب .

إنه بحق شاعر المناسبات القومية الصارخة . . .

وهو ذو نزعة جديدة فى شعره . . .

« تتبع خطى عمر أبو ريشة فى مسرح معين . . .

ولا أعلم شاعراً يستجيب لعاطفته بحرارة ودفء وثورة كهذا الشاعر . . . وإذا صحّت عبارة الفيلسوف الكندى لأبى تمام: « إن عقله يأكل من جسده ، كما يأكل السيف من غمده » ، فإنها لتصح حتى فى هذا الشاعر الفتى الذى « تأكل عاطفته من روحه ، كما يأكل السيف من غمده » .

ولعل قارئه الذى يحس ، للوهلة الأولى ، أنه شاعر يلون شعره بدم قلبه ، لا يأخذ عليه تآلف صوره . وتهافت بعضها على بعض ، لأن المجال الذى اختاره لنفسه ضيق محدود ، فى نوع واحد ، وأن من تمام المعجزة أن يعطيك الشاعر معجزته فى المجال المحدود ، وإن كانت نفسه تحيا فى اللامحدود »[١] .

ويتميز سليمان العيسى على غيره من شعراء الشباب أنه « ليس من الشعراء المقلدين الذين تستعبدهم القوافى والأوزان وتسيطر على أذواقهم التعابير المتداولة جيلا عن جيل ، كما أنه ليس من الشعراء الذين يسمون أنفسهم أصحاب الطريقة الجديدة فى الشعر كعبد الوهاب البياتى ، وبدر شاكر السياب ، وصلاح الدين عبد الصبور [٢] . . .

فإذا كان الشعراء التقليديون تأسرهم الأوزان المعروفة ، ومعانيهم تكاد تكون متشابهة ، ولا يجمع بين أبيات القصيدة لديهم إلا خيط واضح ضعيف هو القافية ، إذ هى تخلو من وحدة الغرض والتجربة ، وليس لصاحبها أى موقف فكرى ، ويسيطر عليها عنصر الخطابة ، ولا يهم صاحبها أن تصدر عن تجربة بمقدار ما يهمه أن تتفجر فيها الألفاظ وتزدحم الاستعارات . وهذا ما أفضى بالشعر التقليدى إلى الجمود عند الأزياء القديمة والافتقار إلى الجدة والأصالة والطرافة . التى يتميز بها العمل الفنى الناجح — فإن الشاعر سليمان العيسى يتحرر من هذه القيود وينطلق فى أجواء الخيال المبدع يعبر بصدق وإحساس مرهف عن قضية أمته ، عن وحدتها وتحررها وطرد آخر أجنبى عن أرض الوطن العربى الكبير . . .

---

(١) خليل الهنداوى : مجلة « الرسالة » السنة ٣ العدد ٤ ص ٣٧ .

(٢) لقد لجأ أخيراً إلى الشعر المرسل ، فدعا وهو فى لجنة تعديل كتب البكالوريا إلى الاهتمام به ، وبأن يستعاض بالنصوص من شعر العمالقة من شوقى إلى الرصافى إلى غيرهما بشعر هذه الزمرة — وبشعر بدر شاكر السياب بصورة خاصة .

وبتعبير أدق « إنه أديب ملتزم ، له رسالة كبرى فى الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية . . . وإن الصدق والإخلاص للمبدأ الذى رسمه لنفسه يشفع له إذا ما قصر فى الصياغة الفنية والأسلوب الشكلى ، فالبيان والأداء قد لا يبلغان مرتبة الأفكار الكبرى »(١) .

ومن شعره :

نشيد البترول

لو تكلم البترول العربى لقال أكثر من نشيد
متواضع ، لو تكلم لغيّر وجه الإنسانية الأسود

أنا الماردُ الجبارُ ... رجلاى فى الثرى ورأسى دوىٌّ فى النجوم عنيد
تكدست فى الصحراء دنيا عريضة مِنَ التبر ، يطغى بأسها ويزيد
ورحتُ أصوغُ الأرض رغداً ولعنةً وأبدعُ فى لونيهما ... وأجيد
وما زلتُ مذ فجّرت أولَ قطرة ولفظى وأنتمْ : سيدٌ وعبيدُ
أجيعكم . . . أنقضُ فيكم مجازراً تريدون ما أومى به وأريد
وألمح فى الأعماق طيف تمرد فأفرغه ثورة ، ويبيد
وأغرب من زرق الأساطير إصبعى لها ، حيثُ ينهار الخيالُ ، وجود
أبيعكم التيجان حيناً ، وتارةً يُزخرف فى ساح النضال عمود
وتشقونَ ، يشقى الرملُ ، يقتله الظما(٢) ويعبر فيه الكنز وهو سعيدُ
أنا الماردُ الجبار . . . طوع يمينكم إذا ما جرى فيها دم ووريد
إذا ما انتحى سيف لغير نخاسة وأورق فى غير « العمالة » عود
وما ضرّنى أنى أمرّ بجوعكم ؟ ملايين . . بل قلها : مقابر سود
أمر على الصمت الذليل ، وينحنى لسكينه المذبوح ، وهو وئيد
يدى فى الرقاب الصاغرات ، ومخلبى تريدون ما أومى به ، وأريد . .

---

(١) عبد الكريم سعود : « الآداب » السنة ٥ العدد ٥ ص ٥٧ .

(٢) إشارة إلى البيت العربى المشهور :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

نزار القبانى

١٩٢٣

بزغ فى سماء دمشق ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، نجم شاعر فتى هجر الطريقة الكلاسيكية فى الشعر ونحا نحواً جديداً فى التعبير عن عواطفه الهائجة وأمنياته العذاب .

كتب « ذاته » بصدق وحرارة ، وبواقعية لا تتلاءم ومحيطه الذى تكتنفه شتّى التقاليد ، أى لم يشأ أن يكون صوت فكرة من الفكرات أو صدى مذهب من المذاهب بل كان مرآة نفسه وصدى شعوره وحسه . . . كتب تجاربه ، وصور ذاته بشتّى انفعالاتها — « ذات » شاب محب وامق فى رونق العمر — والشباب والحب صنوان متلازمان — وهو فى هذه الفترة الندية من عبق الشباب لم يتحرج أن يصوّر « بوهميته » بواقعية منطلقة غير مقيدة . . . خرج فى تعبيره على أساليب القدماء وعلى جميع الشعراء الكلاسيكيين الذين عاصرهم ، وحتّى على شباب جيله الذين آثروا أو آثر أكثرهم « التقليد » على « التجديد » .

ذلك لأن مذهبه فى تفهم الشعر « كرهٌ عنيد للشعر الذى يراد من نظمه إقامة ملجأ ، أو بناء تكية ، أو حصر قواعد اللغة العربية ، أو تاريخ ميلاد صبى . . . أو تعداد مآثر ميت على رخامة قبره » .

يقول :

« قرأت فى طفولتى تعاريف كثيرة للشعر . . . وأهزل هذه التعاريف : الشعر هو الكلام الموزون المقفى . . .

أليس من المخجل أن يلقّن المعلمون العرب تلاميذهم فى هذا العصر ، عصر فلق الذرة . . . ومراودة القمر . . . مثل هذه الأكذوبة البلهاء ؟

ماذا نقول للشاعر . . . هذا الرجل الذى يحمل بين رئتيه قلب الله . ويضطرب على أصابعه الجحيم ؟

وكيف نعتذر ، لهذا الإنسان الإله الذى تداعب أشواقه النجوم . . . وتفرغ

تنهداته الليل . ويتكئ على مخدته الصباح . . . كيف نعتذر له بعد أن نقول له عن قصيدته التى حبكها من وهج شرايينه ... ونسجها من ريش أهدابه، إنها "كلام" .

ثم يقول :

« لا أجرأ على تحديد جوهر الشعر ... لأنه يهزأ بالحدود . . . ثم ماذا يضير الشعر إذا لم نجد له تعريفًا » . . .

إن الشعر فى عقيدته « كهربة جميلة . . . لا تعمر طويلا . . . تكون النفس خلالها بجميع عناصرها من عاطفة ، وخيال ، وذاكرة ، وغريزة . . . مسربلة بالموسيقى . ومتى اكتست الهنيهة النفسية ريش النغم . . . كان الشعر ... فهو بتعبير موجز "النفس الملحنة" .

والذى أقرره أن الشعر "يصنع نفسه بنفسه" . . . وينسج ثوبه بيديه وراء ستائر النفس ... حتى إذا تمت له أسباب الوجود ، واكتسى رداء النغم، ارتجف أحرفًا على الورق »[1] .

هذا هو منهج نزار القبانى فى قول الشعر .

والذين عاشوا جو القصيدة العربية القديمة . . . وتتلمذوا على الطائيين . أبى تمام والبحترى . . . وعلى المتنبى — يهزون أكتافهم هزؤاً وسخرية حين يسمعون هذا الكلام . . . وحين يقرءون شعر نزار . . .

فشعره فى عقيدتهم : كلام مشوش . . . مضطرب . . . غير موزون . . . وهم يريدونه « كلاماً موزوناً مقفى » وإن خلا من وهج العاطفة ورهافة الحس ... أما الجرس ... أما إحساس الشاعر العميق ... أما تعبيره الصادق بكلمات من وهج قلبه ، وهينمة نفسه . . . فهذا كله ، فى نظرهم ، هراء فى هراء . . . مع العلم أن الطريقة التى ابتدعها فى تجديد أوزان الشعر تحتل اليوم مكانتها فى قلوب الكثيرين من أدباء الشباب . وحتى من النقاد أنفسهم . . . وقد يتفلسف بعضهم ، وقد يغمزون . . . ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا قيمة هذا الشعر

(١) مجموعته الشعرية « طفولة نهد » الطبعة الثانية ص ١٢ — ١٥ .

الذى ينفذ إلى الأعماق فى تعابيره ، وفى مضمونه . . . وفى ملاءمته طبيعة الحياة . . .

* * *

فى سؤال وجهه أديب ناشئ إلى الدكتور طه حسين عن الشعر الحديث الذى لا يعتمد على القافية والوزن أجاب عميد الأدب بقوله :

« أنا شخصياً أفهم أن تتجدد أوزان الشعر مع تغيير الحياة ... وتتجدد الأوضاع من حول الشعراء . . . وليس المهم أن نحافظ على الأوزان ، كما قررها الخليل الفراهيدى . . . أما أن توضع قواعد وأسس لهذا الشعر الجديد، فهذا شيء يأتى بعد حين ، حين ينشأ الشعر بأوزان مختلفة، فيأتى العلماء يلاحظون الشعر الجديد ويضعون له القواعد الخاصة به . . .

ولا بد أن نترك لهؤلاء الشعراء المجددين حريتهم، ولا نطالبهم إلا بأمرين اثنين .

أولاً : أن تكون لغتهم العربية صحيحة .

ثانياً : أن يقولوا فى شعرهم شيئاً » .

ولا يشذ نزار عن هذه القاعدة التى أفتى بها عميد الأدب فى هذا العصر .

* * *

ثم إن هناك من يقول إن نزار القبانى حذا حذو الشاعر اللبنانى سعيد عقل[1] . . . وهو قول فيه جنوح وظلم وتجن على نزار . . . فسعيد عقل

---

(١) يقول مارون عبود فى « نقدات طائر » ص ٦٥ :

« قلد للشاعر سعيد عقل الشاعر العامى ميشيل طراد فى موضوعاته الشعرية ، فناجى ما ناجى من أشعاره وأنت قلدت الاثنين ، بيد أن شخصيتك الفذة ظلت بارزة فلم تنعدم فى هؤلاء وأولئك كما يتمنى البهائى أن ينعدم فى ذات وحدانية الله » .

ويقول عنه أيضاً :

«شاعر فى كلامه حلاوة كلام جرير ،ولكن يفوقه خيالا ،لأنه يصور بكلمة واحدة ما يصوره غيره بكلام ، وفى اعتداده بنفسه هو مثل عمر بن أبى ربيعة . هو المحبوب دائماً والتارك لا المتروك ، وأن تحرق عمر على بعضهن فنزار لا يرى فيهن جميعاً غير لعبة يلهو بها ، فشعره كله فى وصف النزوات الجامحة والقشعريرات المتوثبة » .

نفس المصدر ص ٦٨ .

« رمزى » . . . الفكرة عنده مبهمة جدّ مبهمة . . . لا تعرف أرومتها أهى ذات أصل فينيقى . . . أم إغريقى . . . أم مسيحى . . . فذاته ضائعة بين هذه العوالم اللامحدودة . . . أى أن « رمزيته » أميل إلى الغموض منها إلى الوضوح . . . بينا « رمزية » نزار تشع بالأضواء . . . قد تكون أضواء معتمة . . . ذات غبش . . . ولكنها تشع ببريق متلألئ ينفذ إلى النفس ، لا تختلط أمسياته بأصبوحاته . . . فالصفاء أظهر ألوانها . . . أريد أن أقول إن شعره يحافظ إلى جزالته ، على لونه المتميز الذى يريك أعمق مشاعره . . . ويقص قصص حبه وحكايات وجده بأسلوب رمزى لا ينقصه الوضوح ..

إن نزار قبانى ، كشاعر حسى واسع الأفق ، التقى مع صنوه عمر بن أبى ربيعة ، فى تصوير أحاسيسه نحو المرأة .. على أنه لم يقف فى شعره عند هذه الآفاق الجميلة المشعة ، بل خطا خطوات فى التعبير عن « مجتمعه » . . . عن « قوميته » . . . عن « وطنه العربى » . . . عن « نزعته الإنسانية » . . .

من « الذاتية » انطلق إلى « الموضوعية » فكتب قصائد مجنحة عن « المجتمع » المصفد بالتقاليد ... عن « القومية العربية » الثائرة المتفتحة ... عن « الوطن » فكان فى جميع هذه الألوان التى طرقها هو هو فى صدقه ... وفى موسيقية تعبيره ... المتوثب . . عن « الإنسانية » التى تشكو ختل الأبالسة من ثعالب الاستعمار . . .

وحين تتلاقى « الذاتية » و « الموضوعية » فى رحاب واسع من الشعر الذى ينبعث من الأعماق يكون له قيمته . . . ويكون له صداه وأثره .

وبعد فنكتفى بهذه الخطوط لنقدم صورة حياته خطها لنا بيراعته وفيها الكثير من ظواهر نشأته التى تفسر نهجه وطريقته .

قال :

« ولدت فى دمشق فى ٢١ آذار (مارس) ١٩٢٣ فى بيت وسيع كثير الماء والزهر من منازل دمشق الوسيعة القديمة . والدى توفيق القبانى تاجر وجيه فى حيه ، عمل فى الحركة الوطنية "ووهب حياته وماله لها" تميز أبى بحساسية نادرة وبحبه للشعر ولكل ما هو جميل ، ورث الحس الفنى المرهف بدوره عن عمه أبى خليل القبانى الشاعر والمؤلف والملحن والممثل وباذر أول بذرة فى نهضة المسرح المصرى .

امتازت طفولتى بحب عجيب للاكتشاف وتفكيك الأشياء وردّها إلى أجزائها . . . ومطاردة الأشكال النادرة . . . وتحطيم الجميل من الألعاب بحثاً عن المجهول الأجمل . . .

عنيت أول ما عنيت بالرسم . فمن الخامسة إلى الثانية عشرة من عمرى كنت أعيش فى بحرة أصباغ . أرسم على الأرض . . . وعلى الجدران . . . وعلى الهواء ، وألطخ كل ما تقع عليه يدى بحثاً عن أشكال جديدة . . .

ثم ذهبت عنى حمى الخطوط والدوائر والألوان . . . لتأتينى حمى من نوع آخر : الموسيقى : مشيت فى هذا الدرب لفترة قصيرة ولكن مشاكل الدراسة الثانوية صرفتنى عن هذه الهواية التى كان لها الفضل الأكبر بعد ذلك فى تكوين ملكة انتقاء الحروف الأغنى إرناناً فيما نظمت من شعر . وهكذا كان الرسم والموسيقى عاملين جاريين فى تهيئتى للمرحلة الثالثة التى انتهيت إليها وهى "الشعر".

فى عام ١٩٣٩ – وكنت فى السادسة عشرة – توضح مصيرى كشاعر حين كتبت وأنا مبحر إلى إيطاليا فى رحلة مدرسية أول قصيدة فى الحنين إلى بلادى وأذعتها من راديو روما .

ثم رجعت وقضيت فترة الحرب فى استكمال دراسة الحقوق ، وفى هذه الفترة أصدرت ديوانى الأول "قالت لى السمراء" فى سبتمبر ١٩٤٢ الذى كان لدى صدوره صيحة نزقة حارة عبّرت – ربما بصورة بدائية – عن أهواء ومشاعر جيل فترة الحرب ، وإذا كانت هذه المجموعة قد لاقت من لعنات المتزمتين واستنكارهم الشىء الكثير فلأنها كانت الفأس الأولى فى تابوت هيكلنا الاجتماعى والفنى النخر .

أنهيت دراسة الحقوق عام ١٩٤٥ والتحقت مباشرة بوزارة الخارجية ، وذهبت فى نفس العام بأول بعثة سياسية إلى القاهرة حيث بقيت إلى عام ١٩٤٨ . وقبل أن أترك مصر طبعت ديوانى الثانى "طفولة نهد" ١٩٤٨ وفى هذا الديوان ارتفع التكتيك الشعرى إلى درجة عالية ، وأصبحت رقابتى على الحروف من القسوة بحيث كنت أختار الكلمة بين المائة ، وأستعرض حشود الكلمات قبل أن أمدّ يدى لألتقط واحدة منها . . .

هذه المسئولية الفنية التى ربطت بها نفسى — على قسوتها — كانت بابى إلى الجديد . وهى التى حفظتنى من اجترار التاريخ . . . وارتداء أزياء الآخرين والسطو على أرزاقهم ، والنبش فى أوراقهم .

ثم كان السفر إلى تركيا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ ، وكان الاحتكاك مع دائرة حضارية شديدة الفن والاتساع . وأتاح لى العمل فى السلك السياسى رؤية أوربا كلها تقريبًا : فرنسا وألمانيا وإنكلترا وبلجيكا وأسبانيا والسويد والدانمرك ، واتسع مدى الرؤية الشعرية عندى وامتلأت يداى بالمواد الأولية .

وعلى لهيب هذه الحضارات العريقة أعدت تكوين حروفى وتدويرها ، وأخذ الصلصال الساخن فى اليد الشرقية أشكالاً جديدة ، والقصيدة العربية التى كنا ننظر إليها كشكل أبدى لا يجوز اللعب به أخذ شكلا مرنًا دون أن تتخلى عن ركيزتيها التقليديتين : القافية ، والنغم ، إلا أن النغم لم يعد مدرجًا من ست عشرة نغمة ، وإنما أصبح صالة تعزف فيها ألوان النغمات بأساليب لا تنقصها الإجادة والإطراب » .

* * *

إن نزار القبانى شاعر ولد ولادة جديدة . . . قطع صلته أو كاد بجميع الشعراء الكلاسيكيين . . . من المتنبي إلى شوقى . . . واختط لنفسه طريقة فى التعبير تلائم ذوق العصر .

وفى حديث له عن الشعراء الذين تأثر بهم قال :

«الحقيقة أننى لم أتأثر بشاعر ذى ملامح معينة ، فقد كنت أقرأ وأنسى ما قرأت ، لأننى مؤمن بالشىء الجديد ، وبالكلمات التى لم تمضغها الشفاه قبلى ! »

وصفه منير العجلانى بقوله : « إنه "شىء جديد" فى عالمنا . . . و "مخلوق غريب" . . . فى طبيعته الشاعرة روائح بودلير وفيرلين والبير سامان وغيرهم من أصحاب الشعر الرمزى Symbolisme والشعر النقى Poésie Pure » .

ومع أنه على عتبة الكهولة . فقد أصدر حتى الآن جملة دواوين وهى : « قالت لى السمراء » ، « طفولة نهد » ، « سامبا » ، « أنت لى » ، « قصائد من

نزار قبانى» «حبيبتى» «الشعر قنديل أخضر» طبع بعضها أكثر من طبعة واحدة ..
وصدر له ديوان شعر باللغة الإسبانية تحت عنوان :

Poemas Amarosos Arales

أى «أشعار حب عربية» وهو عبارة عن مختارات شعرية انتقيت من جميع دواوينه بالإضافة إلى القصائد والكلمات النثرية التى ألقاها فى مناسبات أدبية ومؤتمرات ثقافية مختلفة خلال فترة وجوده فى إسبانيا .

وقد قام بترجمة القصائد إلى الإسبانية المستشرق بدرومارتنيث حيث قدم الكتاب بمقدمة شعرية صافية عن شعر نزار وعن الشعر المعاصر ، ونشر الكتاب المعهد الإسبانى العربى للثقافة .

وآخر ما صدر له ديوان «الرسم بالكلمات» فلم يلق من النقاد ما لقيته دواوينه السابقة التى كتب قصائدها وهو شاب تضطرم عواطفه بلهب الحب . وقد قدمه بهذه المقطوعة :

عشرون عاماً فوق درب الهوى ... ولا يزال الدرب مجهولا
فمرة كنت أنا قاتلا ... وأكثر المرّات مقتولا
عشرون عاماً .. يا كتاب الهوى ... ولم أزل فى الصفحة الأولى

ومن شعره :

غرناطة

فى مدخل «الحمراء» كان لقاؤنا ... ما أطيب اللقيا بلا ميعاد
عينان سوداوان فى حجريهما ... تتوالد الأبعاد من أبعاد
هل أنت إسبانية ... ساءلتها ... قالت : وفى غرناطة ميلادى
غرناطة ! وصحت قرونٌ سبعةٌ ... فى تينك العينين ... بعد رقاد
وأميةٌ ... راياتُها مرفوعةٌ ... وجيادها موصولة بجياد ...
ما أغرَب التاريخَ . كيف أعادنى ... لحفيدة سمراء ... من أحفادى
وجهٌ دمشقى ... رأيت خلالهُ ... أحفاد بلقيس ... وجيد سعاد

ورأيت منزلنا القديم . . . وحجرة كانت بها أمى تمدّ وسادى
والياسمينة ، رُصّعت بنجومها والبحرة الذهبية الإنشاد . . .

* * *

ودمشقُ . أين تكون ؟ قلت تريْنها في شعرك المنساب نهرَ سواد . . .
فى وجهك العربى ، فى الثغر الذى ما زال مختزنًا شموس بلادى
فى طيب « جنّات العريف » ومائها فى الفلّ ، فى الريحان ، فى الكباد
سارتْ معى ، والشَّعر يلهثُ خلفها كسنابل تُركت بغير حصاد . . .
يتألق القُرط الطويل بجيدها مثلَ الشموع بليلة الميلاد . . .
ومشيتُ مثل الطفل خلف دليلتى وورائى التاريخُ . . . كومُ رماد . .
الزخرفاتُ أكادُ أسمع نبْضَها والزركشاتُ على السقوف تنادى
قالت : هنا الحمراءُ . . زهرُ جدودنا فاقرأ على جدرانها أمجادى . . .
أمجادُها ! ! ومسحتُ جرحًا نازفًا ومسحتُ جرحًا ثانياً بفؤادى
يا ليت وارثتى الجميلةُ أدركتْ أن الذين عنَتْهُمُ أجدادى

* * *

عانقتُ فيها عند ما ودّعتُها رجلاً يسمّى « طارقَ بنَ زياد » . .

من مذكرات أندلسية

فى أزقة قرطبة الضيقة . . .
مددت يدى إلى جيبى أكثر من مرة . . .
لأخرج مفتاح بيتنا فى دمشق . . .
مقابض الأبواب النحاسية . . .
أحواض الشمشير . . . والاليلاك . . . والقرطاسيا . . .
البحرة الوسطى . . . عين الدار الزرقاء . . .
الياسمين الزاحف على أكتاف المخادع . . .
وعلى أكتافنا . . .
الفوارة . . . طفلة البيت المدللة التى لا تنشف لها حنجرة . . .
والقاعات . . . أوانى الرطوبة ومخبأها . . .

كل هذه الدنيا المطيبة . . . التي حضنت طفولتي في دمشق . . .
وجدتها هنا . . . .
فيا سيدتي المتكئة على خصاص نافذتها الخشبية . . .
لا تراعي . . . .
إذا غسلت يدي في بحرتك الصغيرة . . .
وقطعت واحدة من ياسميناتك . . . .
ثم . . . صعدت الدر ج . . . إلى حجرة صغيرة . . .
حجرة شمالية . . .
تتسلق شبابيكها الشمس . . . ولا تسأل . . .
ويتسلق أستارها الليلك . . . ولا يسأل . . .
حجرة شمالية . . .
كانت أمي تنصب فيها سريري . . .

قرطبة ١٢/٨/٥٥

تريدين . . .

تريدينَ مثلَ جميع النساء . . .
كنوز سليمان . . .
مثل جميع النساء . . .
وأحواض عطرٍ .
وأمشاط عاجٍ
وشربَ إماء .
تريدين مولًى .
يُسبّح باسمك كالببغاء .
يقول : « أحبّكِ » عندَ الصباح .
يقول : « أحبك » عند المساء .
ويغسل بالخمر رجليْك . . .

يا شهرزاد النساء . . .

* * *

تريدينَ مثل جميع النساء .
تريدينَ منى نجوم السماء .
وأطباق مَنٍّ .
وأطباق سلوى . . .
وخفين من زهر الكستناء . . .
تريدين . . .
من شنغهایَ الحرير . . .
ومن أصفهانَ .
جلود الفراء .
ولست نبيًّا من الأنبياء . . .
لألقى عصاى . . .
فينشقّ بحر .
ويولد بين الغمائم قصر .
جميع حجارَته من ضياء . . .

* * *

تريدين مثل جميع النساء . . .
مراوحَ ريش .
وكُحلاً . . .
وعطرًا . . .
تريدين عبداً شديدَ الغباء . . .
ليقرأ عند سريركِ شعراً . . .
تريدين . . .
فى لحظتين اثْـنـتـيـْنِ . . .
بـلاطَ الرشيد . . .

وإيوانَ كِسرى . . .
وقافلة من عبيد وأسرى .
تجرّ ذيولكِ . . .
يا كليوبترا . . .
وامتُ أنا . . .
سندبادَ الفضاء . . .
لأحضر بابل بين يديْكِ .
وأهرامَ مصر . . .
وإيوانَ كِسْرى . . .
وليس لدىّ سراجُ علاء . . .
لآتيكِ بالشمس فوق إناء . . .
كما تتمنّى . . . جميع النساء . . .

* * *

وبعدُ . . .
أيا شهر زاد النساءِ . . .
أنا عاملٌ من دمشقَ . . . فقيرٌ .
رغيفى أغمسه بالدماء . . .
شعورى بسيط . . .
وأجرى بسيط . . .
وأومن بالخبز والأولياء . . .
وأحلم بالحب كالآخرين . . .
وزوجٍ تخيطُ ثقوب ردائى . . .
وطفلٍ ينامُ على ركبتىّ . . .
كعصفور حقل . . .
كزهرةِ مساء . . .
أفكر بالحب كالآخرين . . .

لأن المحبة مثل الهواء . . .
لأن المحبة شمسٌ تضيء . . .
على الحالمين وراء القصور . . .
على الكادحين . . .
على الأشقياء . . .
ومَنْ يملكون سرير حرير . . .
ومَنْ يملكونَ سرير بُكاء . . .

* * *

تريدين مثل جميع النساء . . .
تريدين ثامنة المعجزات . . .
وليس لدى . . .
سوى كبريائى . . .

كلمة ختامية

١

. . . أكاد أشعر ، والطبعة الثانية من هذا الكتاب بين يدى القراء — أن ثمة ثغرات بين صفحاته لم تسدّ ، وفجوات لم تملأ ، ولا سيما فى قسم التراجم .. فكثيرون ممن لهم آثار مطبوعة أو مخطوطة : أدباء وشعراء ومفكرون كان يجب أن أعرضَ لهمْ وأن أعطى القارئ نماذج عن أدبهم . . ولكن لم يتمّ . . .

وهذا نقص لا يد لى فيه . .

فحين حاولت تذليله نقصتنى المصادر ، وبعضهم لم يجب على رسائلى . .

قد يقول قائل إن هذا العذر لا ينجى المؤلف من التقصير أو العتاب — عتاب القراء وعتاب الأدباء الذين ساهم بعضهم فى الحركة الفكرية ، فكتب وأنتج إنتاجاً حسناً ، وبعضهم قدّم للمكتبة العربية نفحات من المنظوم والمنثور ، إلى دراسات منهجية يفيد منها طلاب الأدب ، وتؤرخ بعض مظاهر الحياة الأدبية وهو عتاب مرّ ، يهزّ ، علم الله ، ضميرى كإنسان تصدّى لهذه المحاولة ، وأرجو مخلصاً أن أتبع هذا الكتاب بجزء تال أضمنه لمحات واسعة عن أدبهم . وما أنتجوه من رسائل وكتب ، وما نشروه من ذخائر سواء منهم الأدباء الذين يعيشون فى البيئة الجامعية أو فى غيرها من البيئات .

* * *

وإذا كان لا بدّ من الإلماع إلى الأسماء الذين وددت أن أسلكهم إلى جانب زملائهم ، فلأذكر على سبيل التمثيل لا الحصر الأساتذة الدكاترة : إبراهيم الكيلانى ، أمجد الطرابلسى ، شكرى فيصل ، حكمت هاشم ، شاكر مصطفى ، محمد المبارك ، عبد الله عبد الدايم ، سامى الدروبى ، صالح الأشتر ، عبد الكريم الأشتر ، محمد روحى فيصل ، عبد المعين الملوحى ، عادل العوا . . .

ومن الشعراء : سليم الزركلى ، عمر النص ، رفيق فاخورى ، عمر أبو قوس ، نديم محمد ، وغيرهم وغيرهم ممن أسهموا ، ولا يزالون يسهمون فى الحركة الفكرية المعاصرة ...

وفى هذا الإلماع اعتراف بفضل هؤلاء الذين أضمر لهم كل ودّ وتقدير ، واعترف بوجود ثغرة فى الكتاب لخلوّه من الإشارة إلى ما أنتجوه . . .

٢

لقد عرف القارئ من مقدمة هذا الكتاب أننى عرضت لثلاث مراحل من الحياة الأدبية خلال قرن « ١٨٥٠ – ١٩٥٠ » وهى مراحل ترينا بوضوح تطور الحياة الفكرية بشتّى مظاهرها ، إلى تطور النثر وتطور الشعر فيما كتبه الكتاب ونظمه الشعراء . . .

فالحركة الأدبية ، خلال هذه الفترات ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩١٩– ١٩٤٥)[1] لم يتوقف سيرها وعطاؤها — سيرها المتئد تارة والمنطلق تارة أخرى . فقد رافقت سير الزمن . وقبست من هنا وهناك ، ومن أدب الغرب بصورة خاصة ، إلى تصوير لحياة المجتمع العربى فى نضاله وكفاحه ، وما يعتلج فى ضمير الإنسان العربى من هموم ومشاكل . قومية وإنسانية ، وإلى ما هدف إليه من نزعات مثالية تربط بين ماضيه المشرق ومستقبلٍ يريده أفضل ...

وبدون الإشارة إلى الصراع الذى احتدم بين المحافظين والمجددين ، أو بين الشيوخ والشباب ، وهو صراع أعطى الفكر العربى الكثير من الثمرات ، فقد تميز أدب الفئتين بالروح العربية العارمة التى لم تنأ قط عن سيرها القومى والاجتماعى . وحتى الإنسانى .

فى عالم الشعر .. وفى عالم القصة والرواية اتجاهات ذات مدلول أوضح لتصوير حياتنا بشتّى ملابساتها ومختلف تياراتها . .

* * *

ومن هنا نستطيع أن نقرر ؛ أن الحركة الأدبية المعاصرة فى سورية سارت

(١) الحرب العالمية الأولى « ١٩١٤ –١٩١٨ » وقد دارت بين الدول الحليفة « بريطانيا ، فرنسا ، الولايات المتحدة ، روسيا ، إيطاليا ، اليابان ، البلجيك ، صربيا ، الجبل الأسود ، اليونان ، رومانيا ، البرتغال » ودول الوسط « ألمانيا ، أستريا والمجر والسلطنة العثمانية وبلغاريا » . والحرب العالمية الثانية « ١٩٣٩ – ١٩٤٥ » دارت بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وحلفائها من جهة ، وألمانيا وإيطاليا واليابان من جهة أخرى .

متجاوبة ومنطلقة مع مصر فى نزعاتها التحريرية المنطلقة ، والمعبرة عن خصائص هذه التربة : أرضها وسمائها ، وخصائص الإنسان العربى الذى يعيش فى خضم الأحداث ، إلى متابعة التيارات المتطورة فى الأدب العالمى . .

* * *

قد يقول قائل : أين أنت من هذا الغثاء الذى يقذفه متأدبون ما زالوا فى بداية الطريق ، وقد حسبوا هراءهم الذى ينقصه عمق التجربة وإشراقة الأسلوب والفهم الصحيح لرسالة الأدب — حسبوا أدبهم الغثّ المائع الذى يصوّر هواجسهم الجنسية وأحلامهم الرومانطية هو الأدب الذى يخلد ، وما دونه أدب مومياء — أدب ميّت تنقصه رعشة الحياة ! . . .

ولا بأس هنا من وقفة قصيرة حول أدب الشباب . .

٣

بعض شيوخ الأدب المتزمتين يذهبون مذاهب مختلفة حول أدب الشباب ... وكثيراً ما يصفون أدبهم بالميوعة والترخّص . . .

وليس هذا فقط بل يأخذون عليهم ضعف اللغة وهلهلة الأسلوب وبعدهم عن أصول العربية الصحيحة . . .

وقد يعيبون عليهم ضحالة ثقافتهم الأدبَ القديمَ وأخذهم بالقشور مما تنشره الصحف من آراء فطيرة . . .

ربما كان هذا الذى يقولونه على حق مع الكثرة المطلقة من الشباب الذين دخلوا ميدان الأدب الفسيح وهم خليون من أبسط أدواته ، غير مزودين بما يجب أن يتزوّد به الأديب الذى يفرض عليه أن يعرف لغته تمام المعرفة ، وأن يقرأ الأدب القديم قراءة فهم ووعى ، وأن يقف وقفات طويلة مع الشعراء والأدباء بدءاً من العصر الجاهلى حتّى العصر الحديث . . .

أقول قد تكون نظرة شيوخ الأدب نحو الكثيرين من أدباء الشباب صحيحة ، وعلى حق ، ولكن ليسوا كلهم من هذا النمط . . .

فأنت تقرأ اليوم لشباب مغمورين ليس لهم هذا الدوى فى مملكة الألقاب

الحاوية — تقرأ أدباً تتدفق النضارة والحيوية من كلماته ، يجمع بين رشاقة الأساوب وأناقة الفكر ، إلى تجاوب عميق مع الأحداث التى تواجه الإنسان العربى فى شتى مشاكاه القومية والإنسانية — تقرأ ألواناً من أدب المقالة ، إلى نفحات عطرة من الشعر ، إلى قصص وتمثيليات — وكلها براعم جميلة تتفتح عن أزهار ذات عبق — أدب يمثل ظاهرة حية من ظواهر التطور فى التفكير والتعبير . . .

ومرة ثانية أقول لئن تعثر الكثيرون فى التعبير عن خوالجهم بلغة صحيحة ، وكان أسلوبهم ينأى عن الفصحى ، فليسوا كلهم ذلك . . .

إن أدب أولئك — الأدب المهلهل، الضعيف، المائع — لايكاد يولد حتى يموت ..

أما الذين صقلت الثقافة الأدبية ملكاتهم ، وعبوا من الأدب القديم حتى الثمالة ، وتجاوبوا مع التيارات الفكرية المعاصرة تجاوباً عفوياً ، ومرتكزاً على دعائم من الآداب الحية بحيث استطاعوا أن يعبروا عن أفكارهم بسهولة ويسر ، فلا مبر ر للازدراء لأدبهم لأنهم شباب .

فالقطعة الأدبية حين تستكمل عناصرها من حيث المعنى والمبنى ، كما يقول القدماء ، والشكل والمضمون كما يقول المحدثون — كالقطعة الأثرية النفيسة سواء بسواء ...

وكما تحتل القطعة الفنية ، قديمةً كانت أو حديثة — مكانتها فى المتاحف — تدخل القطعة الأدبية مملكة الأدب وقصورها الرحبة لتأخذ مكانتها بزهو واطمئنان ، ولا فرق أكان كاتبها شيخاً فى الثمانين من عمره أم شاباً فى الثلاثين . .

لهذا أقول إن نظرة الهزؤ والسخرية التى ينظر بها بعض الشيوخ إلى أدباء الشباب، هى نظرة يجانبها الصواب .

فبعضهم وهم غير قليلين ، يملكون كل أدوات الأدب ، يعبّرون عن « ذواتهم » وعن « مجتمعهم » بكثير من الصدق ، ولا عبرة إذا اختلفت آراؤهم عن آراء من عاشوا قبل نصف قرن ، فنمط الحياة فى تغير مستمر . .

المهمّ الصدق فى التعبير . . .

فحين يعبرون عن قلقهم وشكوكهم ، عن حبهم وبغضهم ، عن تفاؤلهم وتشاؤمهم — حين يعبرون عن شتى الظواهر التى تمسّ « ذواتهم » و « مجتمعهم » غة صحيحة وأساوب رشيق وعاطفة زاخرة وشعور متقد صادق فليس لنا أن ننكر

أدبهم وأن نعتبره غثاء . بل علينا أن نرحب به ، لينمو ويزدهر ويعطى أكله وثمراته . . وأن نفسح المجال للمواهب الندية أن تأخذ طريقها لتتألق . . ولتبدع وتخلق . . .

٤

إن أكثر ما استهوى الشباب من فنون الأدب : القصة والشعر . . واجتذبتهم القصة أكثر . . .

منهم من كان ذا موهبة قصصية فأجاد بعض الإجادة ، ومنهم مَنْ جانبهم التوفيق . . .

وقد قرأ أكثرهم الكثير من قصص الغرب . . « المترجم منها بصورة خاصة » ، وما كتبه عمالقة القصة فى مصر . . فاحتذوهم وحاولوا أن ينهجوا نهجهم ، ولا سيما فى القصة القصيرة . . فتعثروا ولم يبلغوا شأوهم . .

وفاتهم أن كتابة القصة ليست بالأمر السهل . . وقد تكون أصعب فنون الأدب ،

وفى محاولة قمنا بها فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب لإجراء مسابقة للقصة الطويلة — الرواية — وأعلنا عنها أكثر من مرة ، ولمدد طويلة ، لم نظفر إلا ببضع روايات لم تصل إلى المستوى الفنى الرفيع . .

وقد يكون من المفيد لتاريخ الأدب أن أشير هنا إلى الملابسات التى مرّت بها هذه المسابقة التى اشترط فيها :

أولا : ترك للمؤلف مطلق الحرية فى اختيار موضوع الرواية على ألا يخلّ بالقيم الخلقية والقومية .

ثانياً : ألا يكون النتاج المقدم مقتبساً أو مترجماً .

ولدى درس الروايات المقدمة ، وكان عددها إحدى عشرة رواية ، استبعدت سبع روايات ، اعتبرتها اللجنة دون المستوى المطلوب ، إلى إخلال بعضها بشروط المسابقة وبالقيم الخلقية بصورة خاصة . . .

ثم نوقشت الروايات ، وبعد جدال طويل حول أساليبها وموضوعاتها وطابعها الفنى منحت الجوائز لمستحقيها . . أو « للمحاولات التى لا تخفى فيها طلائع

الإبداع » وقد أشارت اللجنة فى تقريرها إلى ظاهرة ضعف الإلمام باللغة العربية وإلى العديد من الأخطاء النحوية فى معظم الروايات المقدمة للمسابقة . .

ثم ، وهذه ناحية تمسّ العمل الفنى مباشرة « الطابع الذاتى الضيق » و « اعتماد التجربة الحياتية الفجة » و « ظهور الجنس بمستوى المراهقة » مما « أضعف العمل الفنى وضيق أفقه وحرمه من بعده الإنسانى » .

ومع الاستبشار بهذه المحاولات لاحظت اللجنة : ضعف الثقافة الروائية ، وتأثرها بالترجمات الرائجة فى السوق ، دون التوسع والتعمق من طريق المراجع الأمهات بلغاتها الأجنبية .

وانتهت، بعد هذه الملاحظات إلى بسط وجهة نظرها بالتقرير الذى أثبت نصه لأهميته :

« إن اللجنة إذ تشير إلى المستوى الجيد الذى بلغه فن الرواية ، على يد المتقدمين لجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مما يدعو إلى الاستبشار والتفاؤل ، ترى من واجبها ، من جهة ثانية ، أن تشير بصفة خاصة إلى ناحيتى ضعف فى البناء الفنى الروائى السورى ، لا بدّ من تداركهما ، ومعالجتهما ، والتأكيد عليهما .

الناحية الأولى : فى لغة الرواية

والناحية الثانية : فى ثقافتها العامة

فى الناحية الأولى :

رأى اللجنة أن لغة الإنشاء الر ائى ، لغة ضعيفة ، — على سلاستها — مترددة غير متمكنة من أسباب قوتها وحسن تصرفها ، وأغلب الظن أنها تكوّنت لدى الروائى من مختلف الترجمات الروائية إلى اللغة العربية ، وهى لغة معظمها سقيم ، وحرفى ، وتجارى . صاغها مترجمون غير متمكنين بأنفسهم من لغتهم ، وغير متمكنين ، فى الوقت نفسه ، من أسرار اللغة التى يترجمون عنها ، وهذه الروايات المترجمة تملأ أسواقنا الأدبية التجارية ، وبها وحدها يتأثر روائيونا الجدد . .

وعلى هذا ، فاللغة العربية الروائية « مسوقة » تسويقاً سريعاً من هنا ومن

هناك عن طريق الترجمات ، دون أن يكون للروائى من قبل قاعدة لغوية صالحة للانطلاق تغنيه فعلا عن عملية « التسوق » السريعة غير الواعية .

وترى اللجنة من واجبها أن تؤكد على أهمية إغناء اللغة العربية بالعمل الفنى فلا يقتصر هذا العمل على مجرد إتقان « التقنية » الا وائية المكتسبة بممارسة المطالعة والتأثر بها مباشرة

إن الروايات الكبرى فى أية لغة من لغات العالم ، كما يقول تاريخ الأدب العالمى ، قد أسهمت إسهاماً فعلياً فى تفجير طاقة اللغة من جهة ، وإغنائها وتطويرها من جهة ثانية ، فكان الروائيون الناجحون على قدر كبير من الاهتمام بلغتهم و إتقانها وحبها ، فى سبيلهم إلى إتقان « العمل الفنى » بالذات . أما أن يترك تكوين اللغة العربية الفنية ، لتأثير الترجمات السقيمة ، فليس ذلك إلا إساءة إلى اللغة ، وخنقاً لمحاولات الإبداع الفنية ، التى لا يمكن أن تؤدى إلى « إبداع » إلا عبر لغة قادرة على الإبداع .

وفى الناحية الثانية :

تلاحظ اللجنة أن هذه الروايات المترجمة بالذات ، لا يقتصر تأثيرها على تكوين لغة سقيمة ، لدى من ليس لديهم زاد لغوى قاعدى من المؤلفين ، بل هى تشكل كل زادهم الثقافى والفنى ، بحيث تضرب حولهم نطاقاً ضيقاً من الأفكار والمصطلحات والأساليب وأنماط الحياة وأزياء المجتمع ، فلا يستطيعون تجاوز النطاق المضروب ، إلى مصطلحات وأساليب وأزياء قبسوها من حياتهم ومجتمعهم وتقاليدهم وكل ما فى بيئتهم .

لا تنكر اللجنة أن « الترجمات الروائية » قد حركت مواهب الفنانين الروائيين وأغنت حركتهم الروائية ونوعتها ، ونفخت فى أشرعتها ، ولكن من المؤكد أن مؤلفينا باقتصارهم عليها ، أو بقصر ثقافتهم العامة عليها — والثقافة العامة ليست ثقافة روائية فحسب — قد أخضعوا أنفسهم لقوالبها وأفكارها إخضاعاً ، يبدو أحياناً أنه خانق للمواهب بدلا من أن يكون مطلقها ومحررها ومفجرها ، فإذا علمنا أن معظم الروايات المترجمة ، إنتاج تجارى ينشد الرواج عن طريق الإثارة ، وأن جزءاً كبيراً من الأدب العالمى غير منقول

إلى اللغة العربية من رواية وشعر وثقافة عامة — أدركنا أية خسارة تلحق بأدبنا الناشئ ، وهو يترسّم خطى نوع من « الإنتاج » سائد وحده ، عندما لا يكون هذا الأدب ملمّاً بلغة أجنبية عالمية ، أو عندما لا ينشد الثقافة العامة ، إلا عن طريق (الفن الروائى) وحده .

من هنا نلاحظ أن الاستغراق والغرق فى الجنس ظاهرة سائدة فى أدبنا الروائى ، تحت تأثير المطالعات الروائية المترجمة الرائجة ، أكثر مما هو من تأثير البيئة والحياة والمجتمع حولنا ، ومع التسليم بأن الجنس « الأروتيزم » موجود فى كل أدب ، فمن المسلّم به أيضاً أن التعبير عنه ، يختلف فى وسط ، عنه فى وسط آخر ، وفى أدبنا الجنسى ، الذى طالعنا نماذج منه فى الروايات المتقدمة للمسابقة ، يلاحظ بوضوح أنه خاضع ذهنيّاً لتأثير المطالعات والتلقيح بها ، أكثر مما هو انفعال مفتوح على مشاكل الحياة التى نحياها ، والبيئة التى نخضع لمؤثراتها ، فإذا أضيف إلى هذا « التأثير الذهنى » أن تجربة كاتب الرواية الجنسية — تجربة ضيقة تافهة لا يتجاوز خطها غرفة الطالب ومدرسته ورفاقه من إناث وذكور ، وخمّارة البلد ، أدركنا كيف يأتى الإنتاج الروائى فى حدود مذكرات ومغامرات شخصية غير ذات أفق ، وغير ذات عمق .

واللجنة إذ تتأمل مليّاً فى هذا الإنتاج الجنسى ، لا تلومه على أنه « غير أخلاقى » فحسب بل لأنه أيضاً غير معبّر تعبيراً فنيّاً ملائماً لأحوال الوسط العربى الذى نعيش فيه ، إذ ليس من « الفن » ومن « الأخلاق » فى شىء ، أن يطمح أديبنا أن يكون مؤلف « عشيق اللادى تشاترلى » وعلى الأخص عندما يطمح إلى نيل جائزة مؤسسة رسمية ، فى بلد عربى .

واللجنة بعد كل هذا ، وهى تبدى تحفظاتها إزاء بعض الأعمال الفنية المقدمة للمسابقة ، ترى لزاماً عليها الإشادة بالعملين الروائيين اللذين فازا بالجائزة الأولى[١] ، وبالجائزة الثانية[٢] ، ليس لأنهما قد اختارا موضوعين جليلين من صميم تاريخنا وحياتنا ونضالنا وآلامنا ، فأحسنا كل الإحسان ،

---

(١) الفائز بالجائزة الأولى فارس زرزور على روايته « حسن جبل » .

(٢) والفائز بالجائزة الثانية : سلامة عبيد على روايته « أبو صابر »

وجودا كل التجويد ، بل لأن الجمال الفنى ، جاء متمماً لجلال الموضوع أيضاً .

وكان واضحاً أن العمل الفنى ، قد ألزم المؤلفين الفائزين بجهود كبيرة بذلاها فى التدقيق والتقصى ، والدراسة المساعدة لإبراز واقعية الحدث وصدقه ، وعفوية الحركة وانطلاقها ، بلا تزوير أو تصنّع ، فاستحقا شكر اللجنة وتقديرها .

١٩٦٦/٢/٢١

صدقى إسماعيل ، أنطون مقدسى ، خليل هنداوى ، إلفة أدلبى ، سامى الكيالى ، فؤاد الشايب .

* * *

هذا التقرير ، وقد كتب بكثير من الدقة والتحفظ ، يُعطى أبلغ صورة عن القصص السورى الذى دخل ميدانه الشباب .

وهو يمسّ الكثيرين ممن دخلوا المسابقة أو الذين عزفوا عن دخولها . .

وما زالت دواليب المطابع تقذف القصص المتباينة الأهداف لناشئين أو الذين تمرسوا على كتابة القصة ، ومنهم من سلك الطريق السوى وأخذ يعالج مشاكل المجتمع العربى وقلق الإنسان العربى والتيارات التى تواجهه بلونها العابس المكفهر تارة ، والباسم المشرق أحياناً ، ولم يفت البعض أن يجعل محور قصص الكفاح العربى فى سبيل التحرر والسيادة ، والثورات الجارفة التى قلبت الكثير من المفاهيم ، ونكبة فلسطين ، والإقطاع والرأسمالية وفوارق الطبقات والنزعة الاشتراكية والكثير من الظواهر التى مست حياتنا ومجتمعنا . . إلى غير ذلك من تصوير للهواجس الذاتية والأهواء الوجدانية والكبت الجنسى . . .

هذه الموضوعات وهى ذات اتصال وثيق بحياة مجتمعنا المتطور ، ولا سيما فى العقدين الستين والسبعين من هذا العصر ، أى عقب منتصف القرن العشرين مباشرة ، وهى ألوان واضحة كل الوضوح ومادة خصبة للروائى ، وبالرغم من كل هذا الخصب الثرىّ لم يستطع أحدهم أن يعطينا رواية اتسمت بالإطار الفنى الذى يجعلها تعيش فى أذهان القراء لشهور وأسابيع ، بله سنوات ! .

على أن هذا لا يمنع أن يحظى أدبنا قريباً بمجموعة من القصص والروايات تسجّل كل هذه الظاهرات وتقف إلى جانب روائع القصص العالمية .

وهذا ما نرجوه مخلصين [١] .

* * *

فى رأى لأديب معاصر قوله [٢] : « إن الروايات من أسرع أشكال الفن زوالا ، لأنها ذات صلة قوية بالأحداث الجارية ، وقد حدد عمرها بالشكل الآتى :

١ — روايات تعيش الأشهر الأولى التى يستغرقها نفاد الطبعة الأولى

٢ — روايات تموت فى مدى سنتين

٣ — روايات يصيبها المرض فى سنتين

---

(١) أشير هنا إشارة عابرة إلى ما صدر من قصص وروايات وتمثيليات للأدباء الشباب الذين دخلوا الميدان القصصى بروح منطلقة وشعور جياش ترفد أكثرهم ثقافة ذات اتصال وثيق بثقافة العصر وبما ينتجه أعلام كتاب القصة .. وهو الإنتاج الذى صدر بين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٦٧ فقد أصدر إسكندر لوقا « حب فى كنيسة » و « ليلة قمراء » و « العامل المجهول » و « أنصاف مخلوقات » و « نافذة على الحياة » و « رأس سمكة » و « النفق والأرقام » وأصدر حبيب الكيالى « مكاتيب الغرام » و « أجراس البنفسج » و « مع الناس » و « أخبار من البلد » و « قارعو الأبواب » عدا بعض تمثيليات نشرت مسلسلة فى الصحف اليومية ، وأصدر سعيد حورانية « وفى الناس المسرة » و « شتاء قاس آخر » و « سنتان وتحترق الغابة » وأصدر ياسين رفاعية « الحزن فى كل مكان » و « جراح » و « العالم يغرق » وأصدر فاضل السباعى « الشوق واللقاء » و « ضيف من الشرق » و « مواطن أمام القضاء » و « الليلة الأخيرة » و « نجوم لا تحصى » و « ثريا » و « ثم أزهر الحزن » و « الظمأ والينبوع » وأصدر عادل أبو شنب « عالم ولكنه صغير » و « زهرة استوائية فى القطب » و « الثوار مروا بيننا » وأصدر جان الكسان « نداء الأرض » و « أعواد البنفسج » و « نهر من الشمال » وأصدر نزار مؤيد العظم « سلاسل الماضى » و « ستة عشر عاماً وأكثر » وأصدر مراد السباعى ملهاة فى ثلاثة فصول عنوانها « شيطان فى البيت » إلى مجموعة قصص قصيرة وأصدر وليد إخلاصى « العالم من قبل ومن بعد » — مسرحيتان . و « شتاء البحر اليابس » ومجموعة « قصص » وأصدر عدنان الداعوق « ذات الخال » و « ستشرق الشمس زرقاء » و « السمكة والبحار الزرق » وأصدر وليد مدفعى « غروب فى الفجر » و « مذكرات منحوس أفندى » وأصدر زكريا تامر « صهيل الجواد الأبيض » وأصدر فارس زرزور « حتى القطرة الأخيرة » وأصدر نواف أبو الهجا « والخيمة أيضاً » و « الطريد » وأصدر محمد حيدر « العالم المسحور » وناشدسعيد « مآرب أخرى » ومحمد الراشد « المحمومون » وهانى الراهب « المهزومون » .

وهناك غير واحد من الشباب لم أطلع على إنتاجهم القصصى . وقد تناول الأستاذ عدنان بن ذريل تاريخ نشوء القصة فى سورية وتطورها خلال قرن كامل ، فرصد ألوان هذا التطور على ضوء ما صدر من قصص وروايات فى عقود متتابعة ، وقد نقد وحلل واهتم أكثر ما اهتم به بإنتاج كتاب القصة للشباب بعد منتصف القرن العشرين ، أما قبل ذلك فقد اعتمد على الأستاذ شاكر مصطفى فى كتابه « القصة فى سورية »

(٢) كورنيليوس هيرشبرغ : رائد الثقافة العامة ص ١٥٨ .

٤ – روايات تبقى حية
٥ – روايات تستمر ويقرؤها الناس فى الجيل الذى يتبع موت مؤلفها
٦ – روايات امتدّت بها الحياة إلى أبعد الحدود
٧ – روايات يمتدّ بها البقاء لميزات فيها نفسها .

* * *

لقد استرسلت فى الإلماع إلى ظاهرة الفن الروائى أكثر مما قدرت ، وعلى كل فإن الموضوع على جانب غير قليل من الأهمية ، وهو اليوم عنصر قوى فى حياتنا الأدبية .

وكل ما أرجوه أن يأخذ هذا الفن طريقه إلى النمو ، وأن يتاح للقصة السورية أن تخلد وأن تمتدّ بها الحياة إلى أبعد الحدود .

٥

ثمة ظاهرة فى أدبنا المعاصر من واجب المؤرخ أن يشير إليها ، وهى « الأدب النسائى » – لا أريد الأدب الذى يتناول شئون المرأة ، بل الميدان الذى اقتحمته سيدات أعطين الأدب زهرات عبقة .

إن إضفاء صفة « الأدب النسائى » على ما تدبجه براعة الكاتبات الأديبات هو ، فى اعتقادى ، خطأ فادح ، وما من واحدة إلا وتتناول قضايانا بنفس النزعة التى يعرض لها الكتاب . . .

ودخول المرأة السورية ميدان الأدب ظاهرة جديدة ، فقد ظلّ هذا الميدان خالياً سنوات طويلة من عنصر المرأة .

حتى إذا دخلت المدرسة وأخذت تقرأ وتثقف نفسها وتتجاوب مع المجتمع فى تطوره ، وفى اندفاعه نحو المعرفة . . انجذب بعضهن إلى الحياة الأدبية . وأخذن فى الإنتاج ، وإذا بنا مع غير واحدة يجارين الأدباء فى المنظوم والمنثور . . وكان للقصة أثرها فى نفوسهن ، وقد تكون المرأة أقدر من الرجل فى رواية أحداث المجتمع ، وأحداث مجتمعها النسائى بصورة خاصة .

وفى طليعة اللواتى دخلن الحياة الأدبية بروح منطلقة « مريانا مراش » و « مارى عجمى » و « وداد سكاكينى » ، وقد أشير إليهن وأعطى نماذج من أدبهن فى صلب الكتاب .

ثم جاءت بعدهن فلك طرزى التى لم تكد تشعّ حتى خبا نورها ، ولم يعد يُسمع لها صوت ، ولو تابعت السير لأعطت الأدب نتاجاً حسناً .

ومن أديبات دمشق اللواتى انجذبن إلى عالم القصة السيدة إلفة أدلبى التى صورت فى قصصها البيئة الشامية تصويراً غاية فى الدقة والبراعة و « الواقعية » ، فقد نشرت عدة قصص ولا يزال إنتاجها وفيراً ، فمن مجموعاتها القصصية : « قصص شامية » و « وداعاً يا دمشق » و « المنوليا وقصص أخرى » .

والسيدة سلمى الحفار الكزبرى التى تنوّع لون أدبها من قومى ، إلى تصويرى إلى قصص ، وقد نالت القصة من ذاتها الجانب الأكبر فصدر لها « حرمان » و « زوايا » و « عينان من أشبيلية » .

وكوليت سهيل الخورى التى صدر لها « أيام معه » و « ليلة واحدة » و « أنا والمدى » إلى دواوينها باللغة الإفرنسية : « عشرون عاماً » و « رعشة » .

وغادة السمان التى صدر لها « عيناك قدرى » و « لا بحر فى بيروت »

وأم عصام ، وقصصها منشورة فى الصحف والمجلات ، وهيام نويلاتى ، وقمر كيلانى ، وأميرة الحسنى ، وجورجيت حنوش فى روايتها « ذهب بعيداً » و « عشيقة حبيبى » ، وليلى اليافى فى روايتها « الثلوج تحت الشمس » وغيرهن كثيرات ..

وإن دلّ هذا على شىء فعلى دخول العنصر النسائى ميدان حياتنا الأدبية وتجاوبه مع حياتنا الفكرية فى شتى مظاهرها . .

وكما عرفت حياتنا الأدبية غير واحدة ممن عالجن القصة فقد عرفت غير واحدة ممن عالجن الشعر .

وفى طليعتهن الدكتورة طلعة الرفاعى وعزيزة هارون . .

ولكل واحدة صورها المعبرة عن « الذات » و « المجتمع » . . وقد شاركتا فى شتى المناسبات القومية والاجتماعية ، ولم يخل شعرهن من نبضات حية ونغمات

حلوة فى التعبير عن هواجسهن . ومع أن لدى كل واحدة محصولا يؤلف أكثر من ديوان فما زال شعرهن مبعثراً فى حقول الصحف والمجلات . . .

٦

وبعد ، فأقف فى كلمتى الختامية عند هذا الحد لأقول مرة ثانية إن ثمة ثغرات فى هذا الكتاب لم تسد وفجوات لم تملأ ، وإن المجال ، إذا كتب الله لنا الحياة ومد فى العمر ، أن أستدرك هذا كله فى جولة واسعة مع من لم يرد ذكرهم من الكهول والشيوخ ، وجولات أوسع مع أدباء الشباب الذين يختلف أدبهم كل الاختلاف عمن تقدمهم ، فهم يؤرخون بحق فترة جديدة من حياتنا وحياة مجتمعنا فى تطوره واندفاعه نحو حياة أفضل .

والأدب هو صورة من حياة الأمة فى شتى ظواهر حياتها ، يعبر بصدق عن خوالجها ونوازعها ونبضاتها وثوراتها وتحولها الاجتماعى والفكرى ، والشباب يؤرخون كل هذا فيما يكتبونه وما ينشرون من كتب ودواوين وقصص وتمثيليات .

ومهما قيل فى أدبنا المعاصر فهو صورة صادقة من حياة أمتنا التى كافحت ولا تزال تكافح فى سبيل حياة حرة كريمة — حياة تعطى الإنسان العربى حقوقه وتصون سيادته ، وتفسح له المجال ليبدع ويخلق كلمات طيبة تضاف بمحتواها ومضمونها إلى التراث الإنسانى . وهذا أقصى ما يحلم به الأديب . وأقصى ما تعتز به أمة حية ذات ماض مشرق يؤدى أدباؤها رسالة القومية العربية ورسالة الحضارة الإنسانية بإيمان وإخلاص .

الفهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

الأدب العربى المعاصر فى سورية

لأول مرة يكتب تاريخ الأدب فى سورية خلال قرن كامل من ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠ ؛ فقد عهدت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية إلى الأستاذ سامى الكيالى فى كتابة تاريخ هذه الفترة من الحياة الأدبية فى سورية فقام بالمهمة خير قيام وأرخ للحياة الفكرية والحياة الأدبية معاً ، وترجم لصفوة كبيرة من أعلام الفكر فجاء الكتاب صورة دقيقة لحياة الأدب فى سورية ومرجعاً ثبتاً لمعرفة الكثير من خصائص أدباء سورية ومنازعهم إلى مختارات من شعرهم ونثرهم .

●

مكتبة الدراسات الأدبية

صدر منهـا :

ص
١١٠